تفسير القرآن الكريم

الجزء السادس عشر

تأليف

محمود محمد حمزة
المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان
المراقب بوزارة التربية والتعليم

محمد أحمد برانق
المفتش العام بالتعليم الإعدادى



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ، وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ، وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية ٧٩ إلى الآية ٨٢ من سورة الكهف

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا -١- . وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ، فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا . فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا -٢- . وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي، ذٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا -٣- .

وإحداث ضرر صغير ، لدفع ضرر كبير ، ولم أرد إغراق أهلها كما ظننت ، وإنما أردت ألا يغتصبها هذا الملك الظالم .

٢ — وأما الغلام الذى قتلته ، فكان أبواه مؤمنين ، وقد طبع هذا الغلام على الكفر ، ومجاوزة الحد فى ارتكاب المعاصى ، وكان أبواه يحبانه أشد الحب ، ويغضان الطرف عن آثامه ، ولو عاش لخِفْنا أن يحملهما على الطغيان والكفر ، ويتبعاه فى دينه لشدة محبتهما له ، أو يُعديهما بضلاله وعصيانه ، وقد أعلمنى الله بأمره ، فأردنا أن يرزقهما الله خيراً منه ديناً وصلاحاً ، يكون مبرّأ من العيوب ، طاهراً من الذنوب ، ذا صلاح وتقى ، بارّاً بوالديه ؛ فكان قتل الغلام أهون من المضار التى تنجم عن بقائه حيّاً .

٣ — وأما الجدار الذى أقمته ، فكان لغلامين صغيرين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً ، وكان وصىُّ الغلامين عالماً بموقع الكنز ، واتفق أن غاب الوصى ، وأشرف الجدار فى غيبته على السقوط ، ولو سقط لانكشف الكنز ، ونهب ما فيه من أموال ، فأراد ربك أن يبلغ الغلامان أشدهما ، ويستخرجا من تحت الجدار كنزهما ، رعاية لحق اليتيمين ، ورعاية لحق صلاح أبيهما ، رحمة من ربك ، وعطفاً عليهما — وفى هذا دليل على أن صلاح الأب ينفع أبناءه — وما فعلت ما رأيت عن رأيي واجتهادى ، وإنما فعلته بأمر من الله عز وجل وإلهام منه ، ذلك تفسير ما لم تسطع أى تستطع الصبر عليه .

(٢)

من الآية ٨٣ إلى الآية ٩١ من سورة الكهف

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ ، قُلْ : سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ ، وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا –١– . فَأَتْبَعَ سَبَبًا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ، وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ، قُلْنَا : يَاذَا الْقَرْنَيْنِ ، إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ ، وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا . قَالَ : أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ، ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ ، فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا . وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى ، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا –٢– . ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا –٣– . كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ذى القرنين	هو الإسكندر المقدونى ، الذى تنسب إليه الإسكندرية ، على الراجح .
سأتلو	سأقص .
ذكراً	خبراً .
مكَّنَّا له فى الأرض	مكنّاه أن يتصرف فى الأرض كما يشاء .
سبباً	طريقاً يوصله إلى مُراده .
فأتبع سبباً	فاتبع طريقاً يوصله إلى غرضه .
فى عين حمئة	فى عين دافئة ، أو ذات حمأة ، وهى الطين الأسود .
إما أن تعذب	إما أن تعذب هؤلاء القوم بالقتل .
وإما أن تتخذ فيهم حسناً	وإما أن تتخذ فيهم فعلا ذا حُسْن .
عذاباً نكرا	عذاباً منكراً شديداً .
فله جزاءً الحسنى	فله المثوبة الحسنى جزاء له .
وسنقول له من أمرنا يسراً	وسنأمره بما يُيَسِّر عليه أمره .
تطلُع على قوم	تطلع على قوم من الزنج أو الهنود .
لم نجعل لهم من دونها ستراً	لم نجعل لهم وقاية منها من لباس أو بناء .
أحطنا بما لديه خُبراً .	أحطنا علماً بما لدى الإسكندر ، من الجنود وآلا ت الحرب .

ذو القرنين

يرجح جمهرة المفسرين أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدونى الفاتح الشهير ، والبطل المغوار ، ويرى بعضهم أنه أحد التبابعة الذى حكم فى منتصف القرن الرابع الميلادى بعد الإسكندر بعدة قرون ، لأن الأذواء كانوا من اليمن : كذى نُوَاس وذى رُعَيْن وذى يَزَن؛ وبعضهم يقول : إنه كان نبيًّا ، أو كان رجلا مؤمناً ، ويستدل بقوله تعالى : قال : « ما مكّنّى فيه ربى خير » ، وقوله : « وكان وعد ربى حقًّا » ، وقوله : « ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً » .

والقائلون بأن ذا القرنين ليس هو الإسكندر المقدونى ، يستدلون بأن الإسكندر كان قوى الاعتقاد بآلهة الإغريق ، وأنه كان كثيراً ما يستشير الآلهة فى أموره الهامة قبل الإقدام عليها ، وأنه كان يقدّم القرابين للآلهة ، وأنه درس الفلسفة على أرِسطو وتعمق فيها ، ولكن ذا القرنين المذكور فى القرآن كان ينزع إلى التوحيد ، والإيمان بالله ، ونرى أن الإسكندر إذا كان قد بدا منه ما يدل على إيمانه بآلهة الإغريق ، فلعل نشأته أثرت فيه ، ولعله كان يحترم معبودات الأمم الراقية التى كان يغزوها ، كما فعل مع المصريين فى معبودهم آمون ، وأما عن تعمقه فى دراسة الفلسفة على أرسطو ، فإن الألوسى صاحب تفسير روح المعانى يقول فيما نقله : إنا لا نسلّم أن الإسكندر كان على مذهب أرسطو فى جميع ما ذهب إليه ، والتلمذة على شخص لا توجب الموافقة على جميع ما يراه ، ويقول النيسابورى صاحب تفسير غرائب القرآن : ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلا ، فلعل أرسطو أخذ منهم ما صفا وترك ما كَدَر .

لهذا نرى ما رجحه جمهرة المفسرين ، من أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدونى ، وقد ولد سنة ٣٥٦ قبل الميلاد ، ونشّأه أبوه تنشئة حسنة ، فنال حظًّا

وافراً من الفلسفة والعلوم والمعارف ، وغزا أكثر المعمور من الأرض فى زمنه : شرقاً وغرباً وشمالا ، فاستولى على مصر سنة ٣٣٢ ق . م ، وأخرج الفرس منها ، وبنى بها مدينة نسبها إليه ، وهى مدينة الإسكندرية ، ودانت له العراق وفارس ؛ والتركستان والهند والصين ، وبنى له أسطولا من السفن ، اجتاز به نهر السِّند إلى مصبّه ، وتوفى ببابل سنة ٣٢٣ ق . م ، وسنه ثلاث وثلاثون سنة . وكان يلقب بذى القرنين ، لأنه كان يلبس خوذة على جانبيها خصلتان كبيرتان من الريش الأبيض الطويل .

مجمل المعنى

قدمنا فى الصفحة ٦٢ من تفسير الجزء الخامس عشر ، أن أحبار اليهود طلبوا من وفد قريش إليهم أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طوّاف ، بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وها هو ذا جواب سؤالهم ، أوحى الله به إلى رسوله الكريم :—

١ — ويسألك كفار قريش بإيعاز من أحبار اليهود عن ذى القرنين ، الذى تغلب على أكثر المعمور من الأرض فى عهده ، فقل لهم : سأقص عليكم بعض أخباره : إنا مكّنّا له فى الأرض ، ووطأناها له ، وأقدرناه على التصرف فيها حيثما شاء ، فسار موفّقاً منصوراً ، يَحُفّ به النصر فى جميع غزواته ، ويبطش بكل من سوّلت لهم أنفسهم مقاومته ، وآتيناه كل ما يوصله إلى مراده : من غزارة علم ، وكمال قدرة ، وحسن قيادة ، وتوافر آلة .

٢ — فعندما أراد أن يسلك طريقاً إلى المغرب ، هيأنا له الأسباب ، فبلغ أقصى الأرض المعمورة من جهة الغرب ، فوجد الشمس كانت تغيب فى عين

من الماء حارّة ، يحف بسواحلها طين أسود ، ولعلها كانت بحيرة واسعة ، فإذا وقف الإنسان على ساحلها وقت غروب الشمس ، خُيِّل إليه أن الشمس تغيب فيها ، وكأن الماء قد ابتلعها ، ووجد عند هذه العين قوماً مشركين ، لباسهم جلود الحيوانات ، وطعامهم مما يصيدونه من السمك ، فألهمه الله أن يختار لهم أحد أمرين : إما أن يعذِّبهم بالقتل إن لم يؤمنوا بالله ، وظلموا أنفسهم ببقائهم على شركهم ، وإما أن يمنّ عليهم بالصفح والعفو إن أعلنوا إيمانهم ، فقال لهم : أما من لم يقبل دعوتى إلى الإيمان بالله ، وأصر على الشرك ، فسوف نأمر بتعذيبه فى الدنيا بالقتل ، ثم يرد إلى ربه فى الآخرة ، فيعذبه عذاباً فظيعاً شاقّاً ؛ وأما من آمن بالله ، وعمل عملا صالحاً ، فله المثوبة الحسنى فى الدارين ، ولسنا فيما نطلبه نأمر أحداً بما يصعب أو يشق عليه ، وإنما نكلفه أمراً سهلا ميسَّراً .

٣ — ثم اتّبع ذو القرنين طريقاً ثانياً ، فسار نحو الشرق ، حتى إذا بلغ أقصى مكان تطلع عليه الشمس فى الأرض المعمورة ، وجد الشمس تطلع على قوم سُود عُراة ، ليس لهم هناك وقاية من أشجار أو جبال أو أبنية ، تقيهم حرارة الشمس ، وسقوط أشعتها عليهم ، فإذا طلعت الشمس عليهم ، واشتدت حرارتها ، لجئوا إلى أسراب فى الأرض ، أو نزلوا فى المياه يبتردون بها ، وعند غروب الشمس يشتغلون بتحصيل ما يقوم بأوَدهم ، فهم يعيشون على عكس ما تواضع عليه سائر الخلق فى حياتهم .

٤ — هكذا كان أمر ذى القرنين فى بلوغه مغرب الشمس ومشرقها ، وما وصل إليه من رفعة الشأن ، وبسطة الملك ، ونفاد الأمر فى تعذيب الكافرين ، والإحسان إلى المؤمنين ، فأمره كان نافذاً فى المغرب والمشرق ، وقد أحطنا علماً بما عند ذى القرنين من الجنود وآلات الحرب ، فقد بلغت مبلغاً لا يحيط به إلا اللطيف الخبير .

(٣)

من الآية ٩٢ إلى الآية ٩٨ من سورة الكهف

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا —١— . قَالُوا : يَاذَا الْقَرْنَيْنِ ، إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ؟ —٢— . قَالَ : مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ، فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ، حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ : انْفُخُوا ، حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا ، قَالَ : آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا . فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ، وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً —٣— . قَالَ : هٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ، وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
السَّدين	الجبلين اللذين سدّ ذو القرنين ما بينهما .
من دونهما	من أمامهما ، فى الموضع الذى بين الجبلين .
قالوا	قال بعض القوم الذين يجاورون يأجوج ومأجوج .
يأجوج ومأجوج	قبيلتين من خلق الله .
مفسدون فى الأرض	ينشرون الفساد فى أرضنا ، بالنهب والبغى عند خروجهم إلينا .
خَرْجاً	جُعْلا نخرجه من أرضنا .
ما مكَّنِّى فيه ربى خير	ما مكنى فيه ربى من المال والملك ، خير مما تبذلون لى .
رَدْماً	حاجزاً حصيناً ، وحجاباً متيناً .
زُبَر الحديد	قطع الحديد ، مفرده زُبْرة .
بين الصَّدَفين	بين جانبى الجبلين .
قال : انفخوا	قال للعمال : انفخوا بوساطة الأكْيار ، وهى منافيخ الحدادين .
آتونى أفرغ عليه قطراً	هاتوا لى نُحاساً مذاباً ، أفرغه على الحديد المُحْمَى .
فما اسطاعوا أن يظهروه	فما استطاع يأجوج ومأجوج ، أن يَعْلُوا السد ، لارتفاعه وملاسته .
دكَّاء	مدكوكاً سُوِّىَ بالأرض .

يأجوج ومأجوج

هما قبيلتان من خلق الله ، لا يُعرف بالضبط من هم ولا موطنهم ، قيل إنهم قبائل متوحشة ، كانت تسكن على حدود الصين ، والثابت أن قبائل المغول والتتار كانت تقطن على حدود الصين الشمالية الغربية ، وأنهم كانوا يُغيرون على البلاد الصينية المجاورة لهم ، ويعودون منها بالأسلاب والغنائم فلعلهم هم .

مجمل المعنى

١ — ثم اتّبَع ذو القرنين طريقاً ثالثاً ، غير المشرق والمغرب ، حتى إذا بلغ بين الجبلين اللذين سَدّ ما بينهما ، وجد من أمام الجبلين قوماً لا يعرفون غير لغتهم ، وقد ذكر بعض المفسرين أن هذين الجبلين بين أرمينية وأذْربيجان ، وذكر الطبرى فى تاريخه أن رجلا ذهب إلى السّدّ من جهة بحر الخزَر ، ووصفه بأنه بنيان رفيع ، وراء خندق عميق .

٢ — فقالت أمة من الناس ، يجاورون هاتين القبيلتين المتوحشتين ، لذى القرنين : إن يأجوج ومأجوج عاثوا فى أرضنا فساداً بالقتل والتخريب ، والنهب والسلب والبغى ، وإتلاف الزرع والضّرع ، فهم يخرجون كالجراد المنتشر ، لا يتركون أخضر إلا أكلوه ، ولا يابساً إلا حملوه ، ثم قالوا لذى القرنين فى أدب : فهل نجعل لك جُعلا نخرجه من أموالنا ، على أن تجعل بيننا وبينهم سدًّا يحول دون خروجهم إلينا .

٣ — قال ذو القرنين : ما بسطه الله تعالى لى من المال والملك ، خير من جعلكم الذى تريدون أن تبذلوه لى ، فلا حاجة بى إليه ، وأنا أقوم بعمل السد تبرعاً ، لكن أعينونا بقوة منكم ، تساعدنا على ما أطلبه ، أجعل بينكم وبينهم حاجزاً حصيناً ، وحاجباً متيناً ، هاتوا لى قطع الحديد أحقِّق لكم ما تريدون ، فأتَوْه بالكثير منها ، فجعل يضعها ، ويوقد بينها حطباً وفحماً ، حتى إذا جعل ما بين الجبلين مساوياً فى العلوّ لهما ، قال للعمال : انفخوا على النار بالأكيار — جمع كير وهو زقٌّ ينفخ فيه الحداد على النار — حتى إذا جعل ما ركّبه من الحديد كالنار بإحمائه ، قال : هاتوا لى نُحاساً مذاباً أفرغه على الحديد ، فدخل مصهور النحاس بين الحديد فالتأم ، ولصق بعضه ببعض ، فما استطاعت قبيلتا يأجوج ومأجوج أن يعلوا السد ، ولا الصعود إلى أعلاه ، لارتفاعه وملاسته ، وما استطاعوا أن يخرقوه ، لسمكه وصلابته .

٤ — قال ذو القرنين : هذا الحاجز ، وإقدار الله إياى على إقامته وتسويته ، نعمة من ربى ، تمنع خروج يأجوج ومأجوج للتخريب والإفساد ، فإذا جاء وقت وعد ربى بانهياره ، جعل الحاجز مدكوكاً مبسوطاً مسوًّى بالأرض ، وكان وعد ربى حقًّا كائناً لا محالة ، وواقعاً ألبتة .

(٤)

من الآية ٩٩ من سورة الكهف إلى آخر السورة

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً —١— . وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً . الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ، وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً —٢— . أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ؟ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً —٣— . قُلْ : هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ؟ : الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً . أُولٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ، فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً —٤— . ذٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً —٥— . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ، خَالِدِينَ فِيهَا ، لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً —٦— . قُلْ : لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي ، لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً —٧— . قُلْ : إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، يُوحَى إِلَيَّ

أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا ، وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يومئذ .	يوم يجىء وعد الله بِدَكّ السد ، وخروج يأجوج ومأجوج .
يموج فى بعض	يختلط بعضهم ببعض ، مزدحمين لكثرتهم .
نفخ فى الصور	أذّن مؤذن بالبعث ، والصور : البوق .
وعرضنا جهنم	أظهرناها وأبرزناها .
كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى	وكانت أعينهم فى غطاء عن تدبّر الآيات المؤدية إلى تمجيدى .
وكانوا لا يستطيعون سمعاً	وكانوا كفاقدى حاسة السمع .
أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء	أن يتخذوا عبادى أرباباً لهم دونى .
أعتدنا جهنم	هيأنا وأعددنا جهنم .
نُزُلا	منزلا ومأوى لهم .
ضل سعيهم	ضاع جزاء سعيهم .
فحبِطت أعمالهم	فسقط ثواب أعمالهم .
فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً	فنزدريهم ونحتقرهم ، ولا نجعل لهم أى اعتبار .
ذلك جزاؤهم جهنم	ذلك الذى فصلناه ، جزاؤهم عليه جهنم .

الألفاظ	شرحها
لا يبغون عنها حولا	لا يريدون تحولا عنها .
لنفد البحر	لذهب ماء البحر .
ولو جئنا بمثله مدداً	ولو جئنا بمثل البحر عوناً زائداً عليه .

مجمل المعنى

١ — إذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج من وراء الحاجز بعد انهياره ، تركنا بعضهم يختلط ببعض ، مزدحمين كالموج الزاخر ، يتكالبون على الخروج ، وإذا أذن مؤذن بقيام الساعة ، جمعناهم جمعاً للحساب والجزاء ، بعد ما تفرقت أوصالهم ، وتمزقت أجسامهم ؛ والنفخ فى الصور — البوق — : تصوير لبعث الأموات من قبورهم ، وعرضهم للحساب ، واستجابتهم للدعوة بسرعة ، وقد صاح فيهم بـُوق عظيم ، كما يستجيب الجنود فيهبون من رقادهم ، حين ينفخ أحد الجنود فى بوقه نفخة تسمى نوبة الاستيقاظ .

٢ — وأظهرنا وأبرزنا جهنم للكافرين يوم جمع الخلائق للحساب ، إظهاراً فظيعاً هائلا ، بحيث يرونها ويسمعون زفيرها ، وهم الذين كانوا فى الدنيا يتعامـَوْن على النظر فى ملكوت السموات والأرض ، المؤدى إلى توحيده وذكره وتمجيده ، ولا يتدبرون آيات القرآن ، ولا يهتدون بما فيها من الحكم والمواعظ ، كما كانوا يتصامـُّون عن سماع ما يتلوه الرسول عليه الصلاة والسلام ، بـُغـْضاً له ، وتكذيباً لدعوته ، ولا يطيقون الإصغاء إليها ، وهو تصوير لإعراضهم عن النظر ، والإصغاء إلى ما يرشدهم ويهديهم .

٣ — أظَنَّ الذين كفروا بى ، أن اتخاذ عبادى من الملائكة وعيسى وعُزَير وغيرهم أرباباً لهم دونى ينفعهم ، ولا أعاقبهم عليه ؟ كلا ! إنا أعددنا جهنم للكافرين كالمنزل المعدّ للضيف ، يقدم لهم فيه ما يحتاجون إليه ، وهم يعرفون مبلغ إكرامهم فيه ، وما هيأناه لهم عند قدومهم إليه ، من ماء كالمُهْل ، وطعام من شجرة الزَّقُّوم .

٤ — قل يا محمد لهؤلاء الكفار : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا فى الآخرة ؟ هم الذين ضاع أثر كل عمل حسن لهم فى الحياة الدنيا ، وهم لخفة عقولهم ، يظنون أنهم يأتون بأعمال حسنة يثابون عليها ، هم أولئك الذين كفروا بدلائل توحيد ربهم ، وآياته الدالة على كمال قدرته ، ولقاء جزائه يوم البعث والحساب ، والثواب والعقاب ، فسقط ثواب أعمالهم بكفرهم ، ونزدريهم يوم القيامة ونحتقرهم ، ولا نجعل لهم قدراً ولا اعتباراً ، لأن مناط الاعتبار والتقدير ، الأعمال الصالحة مع الإيمان ، وقد حبطت أعمالهم ، فلا تساوى عند الله جناح بعوضة .

٥ — ذلك الذى بيّناه وفصلناه ، جزاؤهم عليه يوم القيامة جهنم ، بسبب كفرهم ، واتخاذهم آياتى ورسلى هزواً وسخرية ، فلم يكتفوا بمجرد الكفر ، بل استخفُّوا بالآيات ، وسخروا من الرسل .

٦ — إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، كانت لهم أعلى درجات الجنات منزلا ، أعد الله لهم فيه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، يبقَوْن فى هذه الجنات أبداً ، ولا يبغون عنها تحولا ، إذ لا يجدون مكاناً أطيب منها ، حتى تطمح أنظارهم إليه .

٧ — قل يا محمد : إن علم ربى واسع لا يحيط به أحد غيره ، وكلامه لا يحيط به حصر ولا عدّ ، ولو كان ماء البحر حبراً تكتب به كلمات ربى ،

الدالة على حِكَمه ومواعظه وعجائب قدرته، لفرغ وذهب ماء البحر فى كتابتها ، قبل أن تنتهى كلمات ربى ، ولو جئنا بمثل ماء البحر مدداً له ، بل لو مَدَّه من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله .

٨ — قل لهم بعد أن بيَّنت لكم شأن كلمات الله : إن علمى محدود ، وكلامى مُنزَّل بوحى يوحى إلىّ ، فلا أعلم الغيب ، ولا أنطق عن الهوى ، وإنما أنا إنسان مثلكم ، لا أدّعى الإحاطة بجميع كلماته ، ولا أعلم إلا ما يعلِّمنى الله ، فالإجابة عن أسئلتكم لا أستمدها إلا مما يخبرنى الله به ، وإنما أمتاز على الناس بالوحى ، فيوحى إلىّ المولى من تلك الكلمات : أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان منكم يأمل فى حسن العاقبة ، ويطمع فى لقاء ثواب ربه يوم البعث والجزاء ، فليعمل عملا صالحاً يرتضيه ، ولا يشرك فى عبادة ربه أحداً .

سورة مريم

نزلت بمكة إلا الآيتين ٥٨ و ٧١ فمدنيتان ، وآياتها ٩٨ آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية ١٥

كٓهيعٓصٓ . ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ، إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا . قَالَ : رَبِّ ، إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى ، وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ، وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا —١— . وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِنْ وَرَائِى ، وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا ، فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ، يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا —٢— . يَازَكَرِيَّا ، إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ، لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا —٣— . قَالَ : رَبِّ ، أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ ، وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا ، وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ؟ —٤— . قَالَ : كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ ، هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ، وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَمْ تَكُ شَيْئًا —٥— . قَالَ : رَبِّ ، اجْعَلْ لِى آيَةً ،

قَالَ : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا —٦— . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ : أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا —٧— . يَايَحْيَى ، خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا . وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً ، وَكَانَ تَقِيًّا ، وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ ، وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا —٨— . وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ، وَيَوْمَ يَمُوتُ ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا —٩— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
كهيعص	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
ذكر رحمة ربك عبده زكريا	هذا ذكر ، وقصة لرحمة ربك التى شملت عبده زكريا .
إذ نادى ربه نداء خفيًّا	وقت أن دعا ربه دعاء خفيًّا لا يسمعه أحد .
وهن العظم منى	نال منى كبر السن والشيخوخة ، وضعف عظمى الذى هو عمود البدن .
ولم أكن بدعائك رب شقيًّا	عوّدتنى أن تسعدنى بإجابة ما طلبته منك فى سابق حياتى ، فلن تخذلنى فى شيخوختى .

الألفاظ	شرحها
خفت الموالى من ورائى	أخاف فعل الذين يلون أمر الدين والناس بعد موتى من الموالى ، وهم أولاد عمى من أشرار بنى إسرائيل ، فيفسدون فى الأرض .
عاقراً	عقيماً لا تلد .
فهب لى من لدنك	فأعطنى من محض فضلك الواسع ، وقدرتك الباهرة ، بطريق العطف لا بالأسباب العاديَّة ، لأنى هَرِم وامرأتى عاقر .
وليّاً	ابناً من صلبى ، يلى الأمر من بعدى .
رضيّاً	ينال الرضا عندك .
لم نجعل له من قبل سميّاً	لم نسم بهذا الاسم أحداً قبله .
أنّى يكون لى غلام	كيف يكون لى ولد ؟ أننجبه ونحن فى شيخوختنا ، أم تعيد إلينا الشباب ؟
بلغت من الكبر عتيّاً	وصلت من الكبر والشيخوخة إلى الحد الذى يبس فيه جلدى ، وتصلب عظمى ، وبدت علىّ آثار الهَرَم والضعف ؛ يقال : عتا الشيخ عتيّاً : أسَنّ وكبر .
قال : كذلك	قال : أنت كما تقول ، وبك مثل الحال التى تصفها .
هو على هين	إيجاد صبى من شيخين مسنّين أمر سهل علىّ .
وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً	وقد أوجدتك من قبل أن أوجد لك يحيى ، فى تضاعيف خلق آدم ، ولم تك إذ ذاك شيئاً أصلا ، بل كنت عدماً محضاً ، ونفياً صرفاً .

الألفاظ	شرحها
اجعل لى آية	اجعل لى علامة تدلنى على أنك استجبت لدعائى ، وأن الحبَل قد حصل لأعرف وقته .
ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويًّا	ألا تقدر على كلام الناس ، مع أنك سوىّ الخلق سليم الجوارح ، ما بك شائبة بَكَم ولا خرس .
من المحراب	من المصلَّى .
فأوحى إليهم	فأشار وأومأ إليهم .
أن سبحوا بكرة وعشيا	بأن صلوا لله فى الصباح وفى العشىّ .
خذ الكتاب بقوة	اقرأ التوراة بحدة ذكاء ، وسرعة فهم ، وقوة حفظ .
الحُكم	فهم التوراة ، والتفقه فى الدين ، والتأمل فى ملكوت الله .
وحناناً من لدنا	وآتيناه شفقة ورحمة عظيمة من واسع رحمتنا .
وزكاة	وطهارة وصلاحاً .
تقيًّا	مطيعاً متجنباً المعاصى .
وبرًّا بوالديه	بارا بوالديه ، مطيعاً لهما ، لطيفاً بهما ، محسناً إليهما .
ولم يكن جباراً عصيا	ولم يكن قاسياً متكبراً عاقًّا لهما ، عاصياً لربه .
وسلام عليه	تحية من الله طيبة ، وأمان منه يحيطه به فى كل حالات الضعف ، فى حال ولادته ، وحال موته ، وحال وقوفه للحساب بين يديه .

قصة زكريا ويحيى

ذكرنا قصة زكريا وميلاد ابنه يحيى فى سورة آل عمران ، فى الصفحة ٩٦ من الجزء الثالث .

مجمل المعنى

١ — هذه الأحرف الخمسة ، وهى الكاف والهاء والياء والعين والصاد ، من الأحرف الهجائية التى تألفت منها ألفاظ القرآن ، وهى التى يتألف منها ما ينطق به العرب فى حديثهم ، وفى نظمهم ونثرهم ، والمعاندون — وكثير منهم من أولى اللسن وأئمة الفصاحة — قادرون على أن يؤلفوا كلاماً مؤلفاً من حروف الهجاء كما ألفنا ، ولكنهم عاجزون عن صوغه فى أسلوب مثل أسلوب القرآن الذى أنزلناه على محمد ، فلو كان من كلام البشر لما عجزوا ، مع بلاغتهم وشدة عارضتهم ؛ وقد أتينا بهذه الأحرف هنا للتحدى بها ، ولنبين أن منها ومن نظائرها تألفت قصة زكريا ، ولنذكر عطفنا عليه الذى خصصناه به حينما دعانا خفية ، وتضرع إلينا سرًّا ، حتى يكون دعاؤه أوكد فى الإخلاص ، وأبعد عن الرياء ، ومانعاً له من أن يلومه الناس على طلب الولد ، فى أوان الكبر والشيخوخة ، على خلاف ما جرت عليه سنّة الحياة ؛ قال زكريا : يا رب ، لقد كبرت سنى ، ولحقتنى أعراض الهَرَم والشيخوخة باطنة وظاهرة ، فهذا عظمى قد ضعف ووهن ، والعظم هو عمود البدن ، وبه كيانه وقوامه ، وأشد ما فيه وأصلبه ، فإذا أصابه ضعف أو عطب ، تراخت فى البدن قوته ، وذهبت شدته ؛ وهذا رأسى قد اشتعل فيه الشيب ، وانتشر انتشار النار فى الهشيم ، وإنى لشديد الطمع ، عظيم الرجاء فى أن تقبل دعائى ، فقد عودتنى ألا تخيب دعائى إذا دعوتك ، وأن تمسنى رحمتك ، ويشملنى لطفك فى سابق حياتى ، وأن تسعدنى دائماً بإجابة ما أطلب ، وبتحقيق ما أرجو فى شبابى ، فلا يمكن أن تحرمنى فضلك ، أو تمنع عنى رحمتك فى شيخوختى ، يا أرحم الراحمين .

٢ — ولم أتوجه إليك بهذا الدعاء طمعاً فى الدنيا ، أو استظهاراً بقوة الولد ، ولكنى رأيت الموالى وهم أبناء عمى وأقاربى ، أصبحوا أشرار بنى إسرائيل ، فلا أطمئن إلى أن يقيموا دينك ، أو يتولوا أمور الناس بالعدل والإنصاف بعد موتى ؛ وإن ما صرت إليه من الشيخوخة ، وما أصاب امرأتى من العقم ، لا يجعل لدىّ أملا فى أن يولد لى ولد ، لأن سنة الطبيعة تأبى علىّ ذلك ، فهبه أنت لى بقوتك ، وقدرتك التى تقول للشىء : كن فيكون ، وأعطنى ولداً يلى الأمر من بعدى ، فيقيم ميزان العدل بين الناس ، وينصر فيهم دين الله ، فيرث منى العلم والحكمة ، كما يرث من أخواله آل يعقوب السلطان والملك ، واجعله يا رب مقرباً منك ، مرضيّاً عندك فى أخلاقه وأفعاله .

٣ — فاستجاب الله دعاء نبيه زكريا ، وأرسل إليه الملائكة ، يبشرونه بأن الله سبحانه وتعالى سيهب له على شيخوخته ، وعقم زوجته ، غلاماً ذكراً ، وسماه المولى يحيى ، ولم يسم به أحداً قبله تعظيماً له وتكريماً .

٤ — فلما جاءت زكريا هذه البشرى ، قال : يا رب ، كيف يمكن أن يكون لى ولد من صلبى ؟ وهذه زوجتى عقيم لم تلد منذ شبابها ، فكيف بها وقد كبرت سنها ؟ وهأنذا قد هَرِمت وشِخْت ، وبلغت النهاية فى الكِبَر ، حتى تصلب عظمى ، ويبس جلدى ، وذهبت مُنّتى وقوتى ؛ إنه لمن المستحيل عادة على امرأة عاقر ، ورجل طاعن فى السن ، أن يولد لهما ولد ، إنى لا أستبعد ذلك على قدرتك ، ولذلك دعوتك فاستجبت لى ، لكنى سألت عن ذلك لإعلان ما فى نفسى ، وليطمئن قلبى ، ويزداد يقينى ، ولأحس آثار قدرتك ، وآية عظمتك التى آمنت بها إيماناً ، واعتقدتها اعتقاداً ، ظاهرة فى شأنى ، محققة فيما امتنع على العادة أن تحققه ، واستحال على سنة الطبيعة أن توجده .

٥ — قالت الملائكة لزكريا — وهى تحكى عن الله — : إن الأمر كما قلت ، وإن عادة الحياة لم تجر بتحقيق ما طلبت ، ولكنه أمر هين علينا حصوله ، وسهل لدينا إيجاده ، ودليل ذلك ظاهر فى نفسك أنت ، لأنى قد أوجدتك من قبل أن أوجد لك الغلام الذى طلبته ، يوم خلقت آدم ، وجعلتك فى تضاعيف خلقه ، أصلا منحدراً من صلبه ، ولم تك إذ ذاك شيئاً موجوداً ، بل كنت عدماً محضاً ، ونفياً صرفاً ، لأنى قررت أنك ستنحدر من أصلاب لم توجد بعد .

٦ — قال زكريا : يا رب ، اجعل لى علامة أعرف بها أن ما أجبتنى إليه قد حصل ، وأن الحمل قد وقع ، لأتلقى تلك النعمة الجليلة بمضاعفة شكرك ، ومزيد حمدك ، فأوحى الله إليه : علامة ذلك أنك لا تقدر على أن تكلم الناس ، مع أنك ستكون سوىّ الخَلق ، سليم الجوارح ، صحيح الحواس ، ليس بك علة تمنعك من الكلام، أو بَكَم أو خرس يحول بينك وبين النطق ، وتلك مدة ثلاث ليال مع أيامها .

٧ — فلما تحققت قدرة الله ، وحصل الحمل ، أراد زكريا أن يتكلم ، فلم يقدر على الكلام ، وكان من عادته أن يخرج من المصلّى ليفتح باب المعبد للناس ليصلوا ، فلما ظهر عليهم وجدوه متغيراً ، فقالوا له : ماذا بك ؟ فأشار إليهم بأن يصلوا ويسبحوا الله صبحاً ومساء، وبكرة وعشيًّا .

٨ — ولما انتهت مدة الحمل، ولد يحيى لزكريا ، وخصه الله بمواهب عظيمة ، فمنحه حدة الذكاء ، وكمال الفطنة ، وحسن الفهم ، وقوة الحفظ ، فأمره أن يقرأ التوراة ، مستعيناً بما لديه من قوة ذكاء وفطنة وحفظ ، وآتاه فى صغره بصيرة قادرة على التفقه فى الدين ، وتفهم أحكام الشريعة ، وتحصيل العلم ، وآتاه من فيض لطفه ورحمته ، نفساً عطوفاً ، وقلباً

حنوناً ، مليئاً بالشفقة والرحمة ، وطهّره من الرجس والدنس ، وجعله تقيًّا مطيعاً لله ، فلم يرتكب فى حياته خطيئة أو إثماً ، كثير البر والإحسان بوالديه ، لا يعقّهما ولا يعصى أمرهما ، ولا يقول قولا أو يفعل فعلا يغضبهما ، ولم يكن قاسياً متكبراً ، أو عاتياً متجبراً ، بل كان متواضعاً لين الجانب ، عذب النفس ، يألف ويؤلف ، لا يهم بأية معصية لله .

٩ — وله من الله تحية طيبة ، وسلام منه وبركات ، وأمان يحف به وهو فى أشد حالات الضعف ، وأحوج ما يكون إلى العناية واللطف : فى يوم ولادته ، ويوم موته ، ويوم القيامة إذ يبعثه الله حيًّا ليقف أمامه ، ويؤدى بين يديه حسابه .

(٢)

من الآية ١٦ إلى الآية ٣٦ من سورة مريم

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ، إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ، فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ، فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا —١— . قَالَتْ : إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا —٢— . قَالَ : إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ، لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا —٣— . قَالَتْ : أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ، وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ؟ —٤— . قَالَ : كَذٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ، هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ، وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا —٥— . فَحَمَلَتْهُ ، فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا —٦— . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ، قَالَتْ : يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰذَا ، وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ! —٧— . فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا : أَلَّا تَحْزَنِي ، قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ، فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ، فَقُولِي : إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْمًا ، فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ

إِنْسِيًّا –٨– . فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا : يَا مَرْيَمُ ، لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا –٩– . يَا أُخْتَ هَارُونَ ، مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا –١٠– . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا : كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ؟ –١١– قَالَ : إِنِّي عَبْدُ اللهِ ، آتَانِيَ الْكِتَابَ ، وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا –١٢– . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ، وَيَوْمَ أَمُوتُ ، وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا –١٣– . ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ –١٤– . مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ، سُبْحَانَهُ ! إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ –١٥– . وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ –١٦– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
واذكر فى الكتاب مريم	واقرأ عليهم فى هذه السورة الكريمة نبأ مريم وقصتها .
انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً	اعتزلت وانفردت ، وأتت مكاناً شرقىَّ بيت المقدس ، اختلت للعبادة .

الألفاظ	شرحها
فاتخذت من دونهم حجاباً	جعلت بينها وبينهم حجاباً يحجبها عنهم .
روحنا	جبريل عليه السلام .
فتمثل لها بشراً سَوِيًّا	فظهر لها فى صورة رجل سوىّ الخَلق كامل البِنية .
إن كنت تقيًّا	إن كنت تتقى الله ، وتبالى بالاستعاذة به .
قال : إنما أنا رسول ربك	قال جبريل ليؤمنها من خوفها وتحيرها : إنه ليس بشراً حقيقيًّا ، وإنه رسول ربها الذى استعاذت به.
لأهب لك	لأكون سبباً فى أن يهب الله لك .
زكيًّا	طاهراً ، نامياً على الخير والبركة .
أنَّى يكون لى غلام	كيف أحمل ويكون لى ولد ؟
ولم يمسسنى بشر	وأنا عذراء لم يقربنى بشر ، ولم أتزوج رجلا .
ولم أك بغيًّا	وما كنت فاجرة ، تبغى أن يتصل بها الرجال .
كذلك	الأمر كما قلت ، وأنت صادقة فى أنه لم يمسسك بشر ، زواجاً أو سفاحاً .
ولنجعله آية للناس	ولنجعل خَلق الولد دون أن يقربك بشر ، دليلا للناس على كمال قدرتنا .
مقضيًّا	حقيقاً بأن يقضى ويفعل ، لأنه صادر منا .
قصيًّا	بعيداً عن أهلها ، وراء الجبل .
فأجاءها المخاض	فألجأها المخاض ، وهو وجع الولادة ، وتحرك الجنين فى بطنها .
قالت	حدثت نفسها جزعاً مما أصابها .
قبل هذا	قبل هذا اليوم الذى أخشى فيه العار والفضيحة .
نسياً	شيئاً تافهاً شأنه أن ينسى ، ولا يعتدّ به أصلا .

الألفاظ	شرحها
منسيًّا	لا يخطر ببال أحد من الناس .
فناداها من تحتها	فناداها جبريل من مكان أسفل منها تحت الأكَمة .
تحتك	تحت أمرك ، وفى خدمتك ، للشرب والاغتسال .
سريًّا	نهراً صغيراً .
إليك	إلى جهتك .
تساقط عليك رطباً	تسقط النخلة عليك رطباً .
جنيًّا	طيباً طريًّا .
وقَرِّى عيناً	وطيبى نفساً ، وأبعدى عنك الهم والحزن .
فإما ترين من البشر أحداً	فإن تَرَىْ أى آدمى كائناً من كان ، أدغمت إن الشرطية فى ما : الزائدة .
صوماً	صمتاً ، وذلك بأن تخبرهم بالإشارة أنها لزمت الصمت .
فأتت به قومها	فرجعت مع ولدها إلى أهلها ، بعد ما انقضت مدة نفاسها .
لقد جئت شيئاً فريًّا	لقد فعلت أمراً منكراً .
هارون	رجل من أهل زمانها ، كان مشهوراً بالصلاح والورع ، جعلوها أختاً له فى ذلك .
امرأ سَوْء	امرأ سيئ السيرة والسلوك .
بغيًّا	زانية .
فأشارت إليه	فأشارت إلى عيسى أن يجيبهم عما سألوا .
المهد	فراش الصبى .
إنى عبد الله	أول كلمة قالها عيسى ، اعتراف منه بأنه عبد الله.

الألفاظ	شرحها
آتانى الكتاب	وسينزل علىّ الإنجيل .
مباركاً أينما كنت	فعالا للخير ، نفاعاً حيث كنت ، ومعنى المسيح : المبارك .
وأوصانى بالصلاة والزكاة	أمرنى بأن أقيم الصلاة ، وأعطى الزكاة .
وبرًّا بوالدتى	مكرماً لوالدتى ، معظماً لها .
جباراً شقيًّا	متكبراً عاقًّا مسيئاً .
ذلك عيسى	تلك قصته وسيرته .
قول الحق	قال لكم ، ونطق قول الحق .
تمترون	تشكّون وتتنازعون .
سبحانه	تنزه الله عن أن يتخذ ولداً !
وإن الله ربى وربكم	إنى عبد الله ، وأنتم مثلى عبيد له .
هذا صراط مستقيم	ما ذكرته له هو القول الحق ، والطريق المستقيم .

براءة مريم

حملت مريم بالمسيح عيسى عليه السلام ، فتوارت عن الناس ، واعتزلت أهلها فى مكان قصىّ وراء الجبل ، هرباً من لائمتهم ، فلما انقضت شهور الحمل أو كادت ، أخذت الهواجس تنتابها ، واستبد الهمّ والتفكير بها ، وزادت وساوسها وبلابلها حين جاءها المخاض ، وأحست آلا م الوضع ، فأخذت تسائل نفسها : كيف تواجه الناس ، وماذا تقول لهم ؟ وكيف تجعلهم يصدقونها ، وليس لديها الحجة الظاهرة على أنها البريئة المبرأة ، الطاهرة المطهرة ؟ إنهم

— لاشك — سيرمونها بكل جريمة منكرة ، وسينسبونها إلى الخطيئة ، ويقولون عليها كل إفك وبهتان عظيم ؛ عندئذ تمنت لو أنها ماتت قبل أن تضع حملها ، وينكشف أمرها ، وودت لو أنها كانت شيئاً تافهاً لا يأبه الناس له ، ويتركونه نسياً منسيًّا ، لحقارته وتفاهته ، ولم تَرَ مناصاً من أن تلجأ إلى جذع نخلة تستمسك به ، لتقوى على ألم الوضع ، وتستظل تحته من حرارة الشمس ، حتى تمت آية الله ، وولد المسيح ، فحملته بين يديها وخبأته فى مِذْود ؛ وحينئذ ناداها جبريل فى مكان أسفل من مكانها ، ليسكِّن من روعها ، ويخفف من حزنها : يا مريم ، لا تخافى ولا تجزعى ، سيتولاك الله بعنايته ورعايته ، وسيُظهر براءتك بقدرته ، فهذه النخلة ، وهذا النهر ، قد جعلهما الله تحت أمرك ، فهزى النخلة إلى جهتك ، يتساقط رطبها الجنىّ الشهىّ ، فكلى منه ، واهبطى إلى النهر فاشربى من مائه العذب الصافى ، واهدئى بالا ، وقَرى عيناً ، ولا يهولَنَّك أن يعلم الناس أمرك ، فإن كلموك فلا تجيبيهم ، وأشيرى إليهم بأنك نذرت أن تمسكى عن الكلام ، وتلزمى الصمت ، وأشيرى إليهم أن يخاطبوا الصبىّ ، إذا أرادوا أن يتعرفوا حقيقة الأمر .

هدأ بال مريم ، واطمأنت نفسها ، وذهبت إلى قومها تحمل صبيها على يديها ، فلما رأوه ارتاعوا لهذا الحَدَث النازل ، والخطب العظيم ، وزاد فى ارتياعهم ما كانوا يعلمونه فى مريم من حسن المنبت ، وطهارة النشأة ، وأنها لأب وأم تقيين صالحين ، ففعلت ما قال جبريل لها ، وأشارت إلى ابنها : أن كلموه هو ، لأنها ممسكة عن الكلام ، فزاد إنكارهم وغضبهم عليها ، إذ تحيلهم على صبىّ فى المهد ، لم يعهد فى مثله أن يتكلم ، فلم يمهلهم عيسى ، وبادرهم بقوله : إنه عبد الله ، وإنه سيكون من أهل العلم ، وسيؤتيه الله كتاباً يهديهم إلى الخير ، وسيجعله نبيا ، ويبارك فيه أينما يتوجه ، وإن الله أوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته ، وسيكون عبداً متواضعاً ، لا جباراً شقياً .

مجمل المعنى

١ — واذكر يا محمد للناس بعد قصة زكريا فى هذه السورة ، نبأ مريم وقصتها — وبينْ هاتين القصتين تشابه وارتباط ، إذ أن زكريا تربطه بمريم صلة القرابة ، وقد ولد له يحيى من شيخ فان ، وعجوز عاقر ، ومريم قد ولد لها عيسى من غير أب ، فدل ذلك على عظم قدرة الله وحكمته — اذكر للناس نبأها وقت أن تنحت وانفردت عن الناس ، فى مكان شرقىّ بيت المقدس ، لتخلو فيه إلى بعض شأنها ، وجعلت بينهم وبينها حجاباً يحجبها عنهم ، وساتراً يفصلها منهم ، وبَيْنَا هى فى خلوتها وعزلتها ، أرسلنا إليها جبريل ، فظهر لها فى صورة آدمىّ سوىّ الخَلق ، وضىء الوجه ، لتستأنس به ، ولا تنفر منه .

٢ — فلما رأته مريم وهو فى صباحته وحسنه ، حسبته آدمياًّ يريد أن يغتصبها ، فقالت : له إنى مستعيذة بالله من شرّك ، لاجئة إليه أن يصون عفتى وطهارتى ، ويحفظنى من الوقوع فى حبائلك ، إن كنت تخشى الله وتتقيه ، لأن الاستعاذة لا تجدى إلا عند من يتقى الله ويخشاه .

٣ — قال لها جبريل : إنى لست بشراً كما ظننت ، ولكنى ملك أرسله الله الذى تستعيذين به إليك ، والملك طاهر لا يقارف إثماً ، ولا يرتكب معصية ، وإنما أرسلنى الله لأنفخ فى درعك ، فأكون سبباً فى أن يهب لك ولداً صالحاً تقياًّ ، طاهراً نامياً على الخير والبركة .

٤ — تعجبت مريم مما قاله جبريل لها ، وسألته : كيف يكون لى ولد ، وأنا لا زلت عذراء ، لم يمسسنى رجل فى زواج ، ولم يقربنى إنسان فى سفاح ؟

لأنى لست بغيًّا تعطى جسمها لأى رجل يطلبها، ولا يمكن أن يأتى الولد إلا عن هذين الطريقين ؟

٥ — قال لها جبريل : الأمر مقرر ومحقق مثل ما قلت ، فلم يمسسك رجل نكاحاً ولا سفاحاً ، لكن ربك قال : إن هبة الغلامِ منه لك دون أن يمسّك بشر أصلا ، هو علىّ خاصة أمر هين، وإن كان فيما جرت به العادة مستحيلا ، وقد أردنا ذلك ، لنجعل خلق الولد من غير ذكَر ، آية للناس ، وبرهاناً لهم يستدلون به على كمال قدرتنا ، وليكون وجوده فى الحياة الدنيا رحمة للناس منا، يهتدون بهدايته، ويسترشدون بإرشاده، وقد نفذ أمر الله ، وسبق قضاؤه ، فى أن يكون لك ولد من غير أن يمسك بشر ، وصار قضاؤه حكماً نافذاً ، وأمراً مقضيًّا .

٦ — نفخ جبريل عليه السلام فى جيب درع مريم ، ثم انصرف عنها ، فحملت بولدها ، ولما ظهرت عليها أعراض الحمل ، ودنا وقت الوضع ، اعتزلت الناس بمن حملت ، وتنحّت فى مكان بعيد عنهم .

٧ — أحست مريم بألم الوضع ، واشتد بها الوجع ، فألجأها المخاض إلى جذع نخلة ، كانت إلى جانب مذود ، بالقرب من جدول ماء ، فاستمسكت بالنخلة لتساعدها على احتمال الألم، فلما زاد عليها وجع الطَّلْق ، وتذكرت ما سيقول الناس عنها ، وما سيرمونها به من الفضائح ، قالت جزَعاً مما أصابها : يا ليتنى مِتُّ قبل هذا الكرب الذى أعانيه، والفضيحة التى أتوقعها، بولادتى المولود من غير زوج ، وكنت شيئاً تافهاً منسيًّا ، لا يأبه له أحد ، ولا يخطر ببال إنسان ؛ ثم ولدت عيسى عليه السلامِ ووضعته فى المذود وجلست حزينة مكتئبة .

٨ — وسرعان ما أدركها لطف الله ، وأحاطت بها عنايته ، فسمعت صوت

جبريل يناديها بالقرب منها ، من مكان تحت المكان الذى كانت به أسفل الأكمه : يا مريم ، لا تخافى ولا تحزنى ، قد كفل الله رزقك ، ووقاك شر ما تخشين من الناس ، فهذه نخلة ، وذاك جدول ، وهذا صبىّ ، أما النخلة فهزى جذعها نحوك إن احتجت إلى طعام ، يتساقط رطبها جنيًّا ، وهذا الجدول يجرى ماؤه عذباً صافياً ، وهذا الصبى سيدافع عن طهارتك وبراءتك ، فكلى من الرطب الطرىّ الجنىّ ، واشربى واغتسلى من هذا النهر السرىّ ، وقَرّى عيناً ، وطيبى نفساً بهذا الولد الرضىّ . فإن رأيت واحداً من الناس ، فالزمى الصمت ولا تكلميه ، وأشيرى إليه بأنك نذرت لله أن تسكتى ، ولا تكلمى آدميًّا فى اليوم الذى تقابلين الناس فيه .

٩ — فلما سمعت مريم ذلك اطمأنت نفسها ، وسلمت لله أمرها ، وحملت طفلها بين يديها ، وأتت به قومها بعد انقضاء مدة نفاسها ، فلما رأوها ورأوا معها ولدها الذى ولدته من غير بعل ، قالوا لها : يا مريم ، لقد جئت أمراً عجيباً ، وأحدثت حدثاً عظيماً .

١٠— يا مريم ، يا من تشبهين الرجل الصالح هارون ، فى تقواه وصلاحه ، يا من كنا نناديك بأخته ، لأنك كنت تسيرين سيرته فى التقوى والورع ، كيف فعلت هذا وأنت من عنصر طيب ، وبيت معروف بالصلاح أباً وأمًّا ؟ فأبوك عمران كان تقيًّا ولم يرتكب فاحشة ، وأمك حنة لم تكن بغيًّا ولا فاجرة .

١١— التزمت مريم الصمت كما قال لها جبريل ، وأشارت إلى صبيّها : أن كلموه إن أردتم ، فغضبوا وعجبوا ، وقالوا : كيف تطلبين منا أن نكلم صبيًّا فى المهد ، ليس من شأن مثله أن يتكلم ، ولم تجر العادة لمن كان فى سنّه أن يتحدث ؟

١٢— فلما سمع عيسى عليه السلام كلامهم ، قال لهم من مهده : إنى عبد الله ، خلقنى بقدرته — وفى تقريره عن نفسه بأنه عبد الله ، ردٌّ على ما سيدعيه عنه النصارى من أنه ابن الله ، أو أنه هو الله — وإن الله سيؤتيه الكتاب ، وينزل عليه الإنجيل ، وإن الله قد جعله مباركاً ، نفّاعاً فعّالا للخير ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويرشد الضال ، وينصر المظلوم ، ويغيث الملهوف أينما كان ، وإن الله قد أمره حينما يبلغ سن التكليف ، أن يقيم حق الله بالصلاة ، وحق العباد بالزكاة ، ما دام فى هذه الحياة الدنيا ، وأن يكون برًّا بوالدته ، مكرِّماً ومعظماً ومطيعاً لها ، وإن الله سبحانه وتعالى جعله رحمة للناس ، وخيراً وبركة لهم ، ولم يجعله جباراً متعظماً ، ولا سيئاً متكبراً ، ولا عاقًّا عاصياً لربه شقيًّا .

١٣— والتحية الطيبة والسلام عليه من الله ، والأمان والحفظ الذى يحيطه به ، وهو أشد ما يكون احتياجاً للرعاية والحفظ ، يوم أن ولد ، ويوم أن يموت ، ويوم أن يبعث حيًّا ، ليقف بين يدى الله ، فيوفيه الحساب ، ويسأله عما فعل .

١٤— ذلك نبأ عيسى ابن مريم ، قال لكم قول الحق فى حقيقة أمره الذى فيه تمترون ، وتشكّون وتتنازعون وتختلفون ، فهو عبد من عبيد الله ، ونبىٌّ من أنبيائه ، ولا يستنكف أن يكون عبداً لله ، ولا يقبل على نفسه أن يكون شريكاً أو ابناً لله ، فكيف اختلف فيه اليهود فزعموا أنه ساحر كذاب ، والنصارى فزعموا أنه إله ، أو ثالث ثلاثة ، أو ابن الله ، ولقد كذبوا جميعاً ، فإنه عبد الله ورسوله .

١٥— ما ينبغى لله أن يتخذ له ولداً ، وليس من صنعته أن يلد أو يولد ، تنزه الله وتعالى عن ذلك علوًّا كبيراً ، وإن من شأنه جل وعلا أنه إذا تعلقت

إرادته بشىء من الأشياء ، كان ونفذ كما قضى وكما أراد ؛ ومن كان هذا شأنه ، لا يُتَوهم أن يكون له ولد .

١٦ — وإنى أعترف لكم أنى آدمى مثلكم ، آكل مما تأكلون ، وأشرب مما تشربون ، وأن الله ربى ومعبودى وخالقى ، كما هو ربكم ومعبودكم وخالقكم ، وأن عليكم أن تعبدوه وحده ، ولا تعبدوا أحداً سواه ، وأن هذا هو الصراط المستقيم ، الذى إن سلكتموه نجوتم ، وإن تبعتموه اهتديتم ، لأنه دين الله الذى أمر به أنبياءه .

(٣)

من الآية ٣٧ إلى الآية ٤٠ من سورة مريم

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ –١– . أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ! لٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ –٢– . وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ –٣– . إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ، وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الأحزاب	جمع حزب ، وهو كل فرقة أو جماعة تنفرد برأى دون غيرها .
من بينهم	من بين اليهود والنصارى .
فويل	فالعذاب فى جهنم .
من مشهد يوم عظيم	من شهود هول الحساب والجزاء يوم القيامة .

الألفاظ	شرحها
أسمع بهم وأبصر	بعد أن كان فى آذانهم وقر ، وعلى أبصارهم غشاوة فى الدنيا عن الاستماع إلى الحق ورؤيته ، حيث كان ينفعهم ذلك ، جاءوا يوم القيامة يسمعون ويبصرون ، حيث لا ينتفعون ، وهذا أمر يدعو إلى التعجب .
لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين	لكنهم فى الدنيا وقد ظلموا أنفسهم بصدها عن الاستماع ، والنظر إلى الحق ، واعتقادهم ألوهية عيسى ، قد وقعوا فى ضلال بيِّن ظاهر .
وأنذرهم يوم الحسرة .	وخوفهم يا محمد يوم القيامة ، حيث يشعرون بالندم والحسرة على ما فرّطوا فى جنب الله ، وأُعطى كل منهم كتابه بشماله .
إذ قضى الأمر	إذ فُرِغ من الحساب والحكم ، وأُدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار .
نرث الأرض	نتفرد بالملك والبقاء بعد فناء الخلق .

مجمل المعنى

١ — اختلف اليهود والنصارى فى أمر عيسى عليه السلام ، وانشعبوا فرقاً وأحزاباً ، فقالت اليهود عنه إنه ساحر كذاب ، وتنازع فيه النصارى فيما بينهم ، فقالت عنه اليعقوبية : إنه الله ، هبط إلى الأرض ، ثم صعد إلى السماء ، وقالت عنه النسطورية : إنه ابن الله ، وقالت فرقة من

النصارى : إن الله إله ، ومريم إله ، وعيسى إله ، أى هو ثالث ثلاثة ، وقالت الملكانية : إنه عبد من عبيد الله ، ونبىٌّ من أنبيائه ، وما الله إلا إله واحد ، فالعذاب الشديد فى جهنم ، للذين كفروا بوحدانية الله ، وجعلوا له شريكاً أو ولداً ، والويل لهم من شهودهم هول يوم الحساب والجزاء .

٢ — لقد كانوا فى الدنيا صُمّاً وعمياً عن الحق ، فلم يهتدوا إليه ، وقد جعلوا فى آذانهم وقراً ، وعلى أبصارهم غشاوة ، فلم يؤمنوا بوحدانية الله ، ولم يصدقوا أنه منزه عن الشريك والولد ، ولو أنهم سمعوا ونظروا لأتاحوا التفكير لعقولهم ، فتهتدى إلى الحق وتتبعه ، واستفادوا من السمع والبصر ، فإذا جاءوا إلينا يوم القيامة لنوفيهم الحساب على ما كانوا فيه من كفر وضلال ، أرهفوا الأسماع ، وحدّدوا الأبصار ، كما يرهف الجانى سمعه ويحدد بصره ، ليسمع القاضى وهو ينطق بالحكم عليه ، حيث لا يجدى سمع ، ولا يفيد بصر ، لأن وقت العظة والاعتبار يكون قد مضى ، وزمن الإيمان والاعتقاد يكون قد انقضى ، فما أعجب أمرهم ! وما أضل سبيلهم ! لكن الذين ظلموا أنفسهم فى الدنيا ، فعَمُوا وصَمُّوا عن اتباع الحق ، وزعموا أن لله شريكاً أو ولداً ، فى ضلال بيّن ظاهر ، وأى ضلال أبين من أن يعتقد الإنسان فى شخص مثله ، حملته الأرحام وأكل وشرب ، ونام واستيقظ ، أنه إله يعبد ؟

٣ — وخوّف يا محمد هؤلاء الكفار يوم القيامة ، وقد امتلأت قلوبهم ندماً وحسرة ، حين يؤخذون إلى النار خالدين فيها أبداً ، وقد قُضِى فى أمرهم ، وفُرِغ من حسابهم ، وحُكم عليهم بعذاب مقيم ، وقد كانوا وهم فى

ضلالهم فى الدنيا ، فى غفلة عما سيلقون فى الآخرة ، غير مؤمنين بوحدانيّة الله ، وتفرده بالعبادة .

٤ — إننا لن يبقى على وجه الأرض أحد غيرنا ، وسنرثها بعد أن يفنى كل من عليها ، وسنرث أهلها بعد أن يهلكوا ، وسَيُرَدون إلينا يوم القيامة لا إلى غيرنا ، للجزاء والحساب .

(٤)

من الآية ٤١ إلى الآية ٥٠ من سورة مريم

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا —١— . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ : يَا أَبَتِ ، لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ، وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ؟ —٢— . يَا أَبَتِ ، إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ، فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا —٣— . يَا أَبَتِ ، لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا —٤— . يَا أَبَتِ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ ، فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا —٥— . قَالَ : أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ، وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا —٦— . قَالَ : سَلَامٌ عَلَيْكَ ، سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ، إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا —٧— . وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَأَدْعُو رَبِّي ، عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا —٨— . فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا —٩— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
واذكر فى الكتاب إبراهيم	واتل فى السورة قصة إبراهيم ، وبلّغهم إياها .
صِدّيقاً	ملازماً للصدق فى كل ما يأتى وما يذر .
إذ قال لأبيه	اتل عليهم وذكرهم بقصته ، إذ قال لأبيه آزر متلطفاً معه ، مستميلا له .
ما لا يسمع	الذى لا يسمعك وأنت تثنى عليه ، وتتوسل إليه ، عند عبادتك له .
ولا يبصر	ولا يراك وأنت خاضع خاشع بين يديه .
ولا يغنى عنك شيئاً	ولا يقدر على جلب ما ينفعك ، ودفع ما يضرك .
صراطاً سويـًّا	طريقاً مستقيماً ، موصلا إلى الهدى والرشاد ، منجياً من الضلال والهلاك .
لا تعبد الشيطان	لا تعبد الأصنام ، فإن عبادتها عبادة للشيطان ، لأنه هو الذى يسوّلها لك .
أن يمسك عذاب	أن يصيبك عذاب شديد من الرحمن ، لاتباعك الشيطان فى عبادة الأصنام .
فتكون للشيطان وليـًّا	فتكون للشيطان قريناً فى اللعن المخلّد ، واستحقاق الطرد من رحمة الله .
أراغب أنت عن آلهتى	يا للعجب ! أمُعرض وأنت ابنى عن آلهتى ، ومنكر لعبادتها ؟

الألفاظ	شرحها
لئن لم تنته لأرجمنك	والله لئن لم ترجع عما أنت عليه من نهي عن عبادة الأصنام ، لأقذفنك بالحجارة .
واهجرنى مليًّا	فاحذرنى واتركنى زماناً طويلا ، فلا ترانى ولا أراك .
سلام عليك	إنى مودّعك وتاركك ، ولا أنصحك بعد اليوم .
سأستغفر لك ربى	سأدعوه أن يغفر لك ، ويوفقك إلى التوبة ، ويهديك إلى الإيمان .
حفيًّا	بليغاً فى البر والإلطاف ، يجيبنى إذا دعوته .
وأعتزلكم	أتباعد عنك وعن قومك .
عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً	لعلى بعبادة إله واحد يسمع ويرى ، ويضر وينفع ، ألا أكون شقيًّا خائب السعى مثلكم ، فى دعاء آلهتكم .
فلما اعتزلهم	فلما فارقهم ورحل إلى الشام .
وجعلنا لهم لسان صدق	وجعلنا سيرتهم حسنة على ألسنة الناس بين جميع الأمم .

مجمل المعنى

١ — واتل على الناس فى هذه السورة فيما تتلو من الآيات والمواعظ قصة إبراهيم ، وبلّغهم إياها : إنه كان من أهل الصدق فى حديثه وأخباره ومواعيده ، مستقيمَ الأحوال والأفعال ، قد اصطفاه الله لنبوته ، وأوحى إليه برسالته ، فلا ينطق عن هوى ، ولا يقول ما لم ينزل به سلطان ، ولم يكن يعبد غير الله ، كما يفعل المشركون فى عبادة الأصنام .

٢ — إنه كان صديقاً نبيًّا حين قال لأبيه فى أدب وتلطف ، مراعياً حقوق الأبوّة ، راجياً من الله أن يوفقه للإيمان والهدى : يا أبت ، لأى سبب أنت تعبد وثناً لا يسمعك إذا دعوته وتضرعت إليه ، ولا يبصرك إذا ركعت بين يديه ، ولا يستطيع أن يجلُب لك نفعاً ، ولا يدفع عنك ضرًّا ، وعلى فرض أنه كان يسمعك ويبصرك ، فإنه لا يضرك ولا ينفعك ، ولا يستحق أن تعبده ، لأنه مثلك فى الانقياد والخضوع إلى القدرة القاهرة ، فما ظنك بصنم منحوت من حجر ، أو وثن مقطوع من شجر ، جمادٍ أبكم ، لا يحس ولا يتكلم ؛ وقد سلك إبراهيم فى محاورة أبيه الحكمة ، فلم ينسبه إلى الجهل والغفلة والضلال ، واتبع فى محاولته أبدع منهاج ، واحتج عليه أقوم احتجاج ، بأدب حسن ، وخلق جميل ، حتى لا يرتكب شيئاً من المكابرة والعناد ، ويتنكب عن محجة الرشاد ، ويظهر بمظهر العقوق أو العنف فى مجادلة أبيه .

٣ — يا أبت ، إنى حينما أدعوك إلى نبذ عبادة الأصنام ، وترك طريق الضلال والبهتان ، لا أقول لك غير الحق ، ولا أريد بك إلا الخير ، فإن الله قد أوحى إلىّ بالهدى ، وآتانى من العلم ما لم يأتك ، وجعلنى أمة قانتاً لله حنيفاً ، واجتبانى وهدانى ، فأرجوك أن تتبعنى فيما أدعو إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، فإنك إن اتبعتنى هديتك إلى صراط سوِىّ ، وطريق مستقيم ، موصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، منقذ لك من الشقاء والضلال .

٤ — يا أبت لا تخضع للشيطان ، ولا تطعه فيما يزيّن لك من الضلال ، وفيما يسوّل لك من عبادة الأصنام والأوثان ، فإن الانقياد له فيما يُغويك به من عبادته ، وانقياد لأمره ، ضلال مبين ؛ وهذا الشيطان مع أنه عدو مضل مبين ، عاص لله ، مطرود من رحمته ، ولا ريب فى أن من يتبع المضل

فهو ضال مثله ، وأن من يطيع العاصى فهو عاص مثله .

٥ — يا أبت إنى أتوقع — إذا ما بقيت تتبع الشيطان ، وتطيع أمره — أن يصيبك عذاب من الله الرحمن ، فلا تغتر بكرم ربك الكريم ، ولا تنخدع برحمانيته ، فتظل على كفرك ، فيحل بك غضبه ، وتكون قريناً للشيطان فى اللعن والنقمة ، مستحقـاً للطرد من رحمته ، كما طرد الشيطان من جنته .

٦ — فماذا قال آزر لابنه إبراهيم ، بعد ما أفاض فى نصحه وإرشاده ، وكرر الدعاء والنداء ، وأكثر من التوسل والرجاء ؟ قال لابنه البر الرحيم ، منكراً عليه ، مهدداً له ، مصراً على العناد والمكابرة : يا عجبـاً لك كل العجب ! أمنكر علىّ عبادتى؟ أمنصرف أنت عن أصنامى؟ أمعرض عن آلهتى ؟ أقسم لئن لم ترجع عن الزراية بها ، والحط من شأنها ، ولم تكفّ عن طلبك تركى لعبادتها ، لأقذفنك بالحجارة ، وأرجمنك بها رجماً ، هذا فراق بينى وبينك ، فاحذرنى واخرج ، واتركنى زمناً طويلا لا ترانى ولا أراك .

٧ — يئس إبراهيم من هداية أبيه ، بعد أن أكد تمسكه بالضلال والإصرار على الكفر ، فقال له : سلام عليك سلام مفارق لك ، راحل عنك ؛ ووفاءً لأبوتك سأدعو الله أن يغفر لك ، ويتوب عليك ويهديك ، وقد عظم كرمه وفضله فى الاحتفاء بى ، والمبالغة فى إكرامى وإلطافى ، فعسى أن يجيب فيك دعائى ، ويقبل استغفارى .

٨ — وحيث لم يؤثر فيكم نصحى ، ولم تستمعوا إلى ما دعوتكم إليه ، فإنى مفارقك وقومك ، وتارك آلهتك وأصنامك التى تعبدها ، وتدعو إلى عبادتها من دون الله ، وفارٌّ منكم بدينى ، لأعبد الله وحده لا شريك له ، عسى ألا أكون بعبادته خائباً ضائع السعى مثلكم فى عبادة آلهتكم ، فإن

الإنسان مهما ثبت إيمانه ، وصحت عقيدته ، يجب أن يطلب التوفيق والهداية من الله ، فإن ملاك الأمر بيده جل وعلا .

٩ — فلما فارقهم إبراهيم ورحل إلى الشام ، أكرمه الله غاية الإكرام ، وأنعم عليه بذرية صالحة ، تعويضاً له عمن اعتزلهم وفارقهم ، هما إسحاق ويعقوب شجرة الأنبياء ، وجعل كلاًّ منهما نبيًّا صالحاً ، وعم برحمته إبراهيم وذريته ، فأورثهم النبوة ، ورزقهم الأموال والأولاد ، وجعلهم على تعاقب الأجيال لسان صدق ، لهم سيرة حسنة بين الناس فى جميع الأمم ، وأطلق ألسنة الناس فى كل العصور بالثناء عليهم ، فعوّضه الله بالكفرة قوماً صالحين ، وبالشتم والسب الذى لقيه من أبيه وقومه لسان صدق فى الآخرين ، وذكراً حسناً لا يخفى على تباعد الأزمان ، وتبدل الدول ، وتحول الملل .

(٥)

من الآية ٥١ إلى الآية ٦٣ من سورة مريم

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ، إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا ، وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا . وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ، وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا –١– . وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ، إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ، وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا –٢– . وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا . وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا –٣– . أُولٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ، وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ ، وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا –٤– . فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا –٥– . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا : جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّهُ كَانَ

وَعْدُهُ مَأْتِيًّا -٦- . لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا -٧- . تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا -٨- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مخلصاً	أخلصه الله للعبادة والنبوة .
من جانب الطور الأيمن	من ناحيته التى كانت على يمين موسى عليه السلام
الطور	الجبل المشهور بسيناء ، وهو الذى ناجى عنده موسى ربه .
وقرّبناه نجيًّا	اختصصناه بمناجاتنا ، وشرفناه بتكليمنا .
من رحمتنا	من أجل رحمتنا له ، ورأفتنا به .
أخاه	معاضدة أخيه ومؤازرته .
صدّيقاً	ملتزماً للصدق فى جميع أحواله .
ورفعناه	أعلينا مكانته ، ورفعنا منزلته .
وإسرائيل	هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام .
وممن اهتدينا واجتبينا	ومن بعض من هديناهم واصطفيناهم للنبوة .
وبُكيًّا	وباكين .
فخلف من بعدهم خلف	فجاءت من بعدهم ذرية سيئة .
غيًّا	شرًّا .
ولا يظلمون شيئاً	ولا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً .

الألفاظ	شرحها
وعد الرحمن عباده بالغيب	وعدهم الرحمن إياها وهى غائبة عنهم .
مأتيًّا	آتياً لا ريب فيه .
لغواً	اللغو : فضول الكلام ، وما لا طائل تحته .
ولهم رزقهم فيها بُكْرة وعشيًّا	رزقهم دائم ، مكفول فى كل وقت ، صباحاً ومساء.

قصة موسى

وردت قصة موسى بالتفصيل فى الصفحات التى من ٢١ — ٧٥ من تفسير الجزء التاسع ، أما قصة إسماعيل فقد ورد بعضها فى سورة إبراهيم ، فى الجزء الثالث عشر ، الصفحة ١٠٨ وما بعدها ، وسترد بالتفصيل فى سورة الصافّات ، فى الجزء الثالث والعشرين .

مجمل المعنى

موسى

١ — واذكر للناس فى هذه السورة قصة موسى عليه السلام ؛ إن الله تعالى قد أخلصه للعبادة والنبوّة ، وكان رسول الله إلى خلقه ، بلغهم شريعته ، وأمرهم بعبادته ، وقد كشف الله له حجب الغيب ، وأظهر له أسرار الملكوت ، وناداه فسمع نداءه من جانب الطور الذى كان يقع على يمين موسى ، وقد خصه بتشريفه ، واصطفاه لرسالته ، وأكرمه بمناجاته ، وأسبغ عليه رحمته ، وآزره بمعونة أخيه هارون النبى ومعاضدته ، استجابة لدعائه بقوله : « واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى » .

إسماعيل

٢ — واذكر للناس فى هذه السورة قصة إسماعيل الذبيح ، ابن إبراهيم جد العرب ، فمن أخص فضائله صدق الوعد ، والوفاء بالعهد ، حينما قال له أبوه إبراهيم : « يا بنى ، إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى » فامتثل وأطاع ، وقال : « يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » ، وقد اختصه الله بالرسالة والنبوّة وهما أشرف ما اختص الله به عباده المصطفَيْنَ الأخيار ، ومن فضائل إسماعيل أنه كان يبدأ بإصلاح أهله وتهذيبهم ، وإرشادهم إلى الخير ، والبلوغ بهم إلى درجة الكمال ، ليجعلهم قدوة لمن وراءهم ، ولأنهم أولى بالبرّ والخير من سائر الناس ، فكان يأمرهم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والصلاة عمود العبادة ، لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والزكاة حق المحتاجين فى أموال الموسرين ، وبها كمال التعاون ومظهر البر ، والتعاطف بين الناس ؛ وفيما أدب الله به نبيه إسماعيل من عنايته بإصلاح أسرته وأهله ، نمط من الآداب التى تصلح بها الأسرة ، وتقوى الجماعة ، ومتى صلَحت الجماعة ، وسادها التهذيب والخير والتعاون ، صلحت الأمة ، فحبذا لو اعتنى كل فرد بتهذيب أسرته على أساس العبادة والتعاون ، كما كان يُعنَى إسماعيل عليه السلام بأهله ، فيأمرهم بالصلاة والزكاة ؛ ولهذه الخلال النبيلة ، والصفات الفاضلة ، استحق من الله الرضا ، وفاز بالثناء عليه ، والتنويه بذكره .

إدريس

٣ — واذكر للناس فى هذه السورة قصة نبيه إدريس ، وهو جد الأنبياء أجمعين ، وجد أبى نوح عليه السلام ، وكان ملازماً للصدق فى جميع أحواله ، وقد شرفه الله بعلو مكانته ، ورفعة منزلته ، والزلفى عنده ، كما أرسله الله نبيًّا بعد آدم عليه السلام ، وهو أول من نظر فى النجوم والحساب ، وأول من خط بالقلم ، وخاط الثياب ، ولبس المَخِيط ، وكان الناس قبل ذلك يلبسون الجلود ، وأول من اتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة ، فوضع بذلك أساس علم الفلك والقراءة ، والحضارة والتعامل .

٤ — أولئك هم الأنبياء الذين أنعم الله عليهم بشرف النبوة والزلفى عنده من ذرية آدم ، كإدريس عليه السلام ، ومن ذرية من حُمِل مع نوح فى السفينة ، كإبراهيم عليه السلام ، لأنه من ذرية سام بن نوح ، ومن ذرية إبراهيم ، كإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، ومن ذرية إسرائيل وهو يعقوب ، كزكريا ويحيى وموسى وهارون وعيسى عليهم السلام ، ومن الذين هديناهم إلى الإيمان واتباع الحق ، واصطفيناهم للنبوة ، وهداية البشر إلى خيرى الدنيا والآخرة ؛ وهؤلاء مع ما لهم من علو الطبقة فى شرف النسب ، وكمال النفس ، فإنهم فى شدة الخشية من الله ، والإخبات له ، فإذا تليت عليهم آيات الرحمن زادوا إيماناً ، واشتد بهم الخوف والخشية ، فوقعوا ساجدين خضوعاً لعظمته ، باكين خوفاً من سطوته .

٥ — فجاء من نسل هذا الخلف الطيب ، والذرية الصالحة ، خلف سيئ ، وذرية فاسدة ، أضاعوا الصلاة ، فأخروها عن أوقاتها ، وأخلّوا بشروطها

فلم تنههم عن الفحشاء والمنكر ، واتبعوا الشهوات ، وانهمكوا فى فنون المعاصى ، فسوف يلقون يوم الجزاء شرًّا على عصيانهم ،وعقاباً شديداً على آثامهم .

٦ — على أن ربك قريب الصفح ، واسع المغفرة ، فإن من يُقلعون عن المعاصى ، ويرجعون إليه تائبين نادمين ، ويُخلصون فى إيمانهم ، ويعملون عملا صالحاً ، فإن الله يغفر لهم ما فرط من ذنوبهم ، لا يضرهم سابق كفرهم ، ولا ينقصون شيئاً من أجورهم ، فلهم أيضاً جنات عدن يقيمون فيها دائماً ، هى الجنات التى خصصها الله لعباده المتقين ، ووعد بها المؤمنين ، وهى غائبة عنهم ، لم يَرَوا لها نظيراً أو مِثلا فى نعيم الدنيا ومباهجها — إن وعد الرحمن لابد أن يكون حتماً مقضيًّا ، آتياً مأتيًّا ، لا ريب فيه .

٧ — وهذه الجنة التى أعدها الله للنبيين ، وعباده المتقين ، والتائبين من ذنوبهم ، الصادقين فى إيمانهم ، الذين يعملون عملا صالحاً ، سيتمتعون فيها بجميع ألوان النعيم ، ولا يسمعون فيها من اللغو وفضول الكلام ما يعكر صفوهم ، أو ينغّص عليهم حياتهم ، لكنهم يسمعون فيها تحيات طيبات ، ويتبادلون فيها تسليم بعضهم على بعض ، مما يكون بين المتوادّين المتحابين ، الذين يرفرف عليهم الصفاء والهدوء والاطمئنان ، ولا يكابدون فيها سعياً وراء العيش ، وتعباً للحصول على الرزق ، فلهم فيها على الدوام ما يشاءون وما يشتهون ، مما يَطْعَمون ويشربون ، فى البكرة والعشِىّ ، وفى الصباح والمساء .

٨ — تلك الجنة التى جمعت كل ألوان النعيم ، وفيها ما تشتهى النفس وتلذ الأعين ، نبقيها متاعاً طيباً ، ورزقاً حسناً ، وميراثاً مستحَقًّا لا رجوع فيه ، لمن اتصفوا بالتقوى من عبادنا المؤمنين .

(٦)

من الآية ٦٤ إلى الآية ٧٦ من سورة مريم

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ، لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذٰلِكَ —١— . وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا : رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ؟ —٢— . وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ : أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ؟ —٣—. أَوَ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ، وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ؟ —٤— . فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ، ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا —٥— . ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ : أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمٰنِ عِتِيًّا —٦— . ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا —٧— . وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا، كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا —٨— . ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا —٩— . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ، قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ؟ —١٠— . وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا —١١— .

قُلْ : مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمٰنُ مَدًّا ، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ ، فَسَيَعْلَمُونَ : مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا –١٢– . وَيَزِيدُ اللّٰهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا،وَخَيْرٌ مَرَدًّا –١٣– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
نتنزل	ننزل فى مهلة وبطء .
بأمر ربك	بإرادته ومشيئته ، على حسب ما تقتضيه حكمته .
ما بين أيدينا	ما قُدَّامَنا من الأمكنة والجهات .
وما خلفنا	وما وراءنا منها .
وما بين ذلك	وما نحن مستقرون فيه .
نسيًّا	تاركاً لك .
واصطبر لعبادته	اصبر على ما تورده العبادة من شدائد ومشقات .
سميًّا	موافقاً له فى الاسم ، ومماثلا له فى جميل الصفات ، مستحقاً أن يسمى إلهاً .
خلقناه من قبل	أنشأناه واخترعناه من العدم .
لنحشرنهم	لنجمعنهم .
جثيًّا	جاثين قاعدين على الرُّكَب ، لضيق المقام وهول الموقف .
شيعة	جماعة مرتبطة بمذهب من المذاهب .

الألفاظ	شرحها
عِتِيًّا	جراءة وفُجْراً وافتراء .
صِلِيًّا	احتراقاً .
واردها	معروضاً عليها ، وواصلها ، ومارّ بها .
حتما مقضيًّا	أمراً محتوماً لابد من وقوعه ألبتة .
ونذر الظالمين	نترك الكفار والعصاة .
بيّنات	مرتَّلات الألفاظ ، مبينات المعانى .
الفريقين	المؤمنين والكافرين .
مقاماً	مكاناً ومنزلا .
نديًّا	مجلساً ومجتمعاً .
كم	كثير .
قرن	القرن : أهل كل عصر بالنسبة لمن بعدهم ، لأنهم يتقدمونهم ، كما يتقدم قرن الدابة سائر جسمها .
أثاثاً	الأثاث : متاع البيت .
ورئياً	ومنظراً .
الضلالة	الكفر والجهل .
فليمدد له الرحمن	فليُطل له الرحمن فى عمره ، وليعطه المال الكثير .
ما يوعدون	ما ينذرون به .
إما العذاب	إما العذاب فى الدنيا من القتل والأسر .
وإما الساعة	وإما يوم القيامة وما يلقون فيه من خزى ونكال .
وأضعف جنداً	وأقل أنصاراً .

الألفاظ	شرحها
والباقيات الصالحات	الطاعات والأعمال الصالحات ، أو التى يبقى ثوابها عند الله .
مردًّا	مرجعاً وعاقبة .

قصة تأخير نزول الوحى

سأل المشركون واليهود محمداً صلى الله عليه وسلم أن ينبئهم عن قصة أصحاب الكهف ، وذى القرنين ، والروح ، فلم يدر ما يجيب ، ورجا أن يوحَى إليه بحقيقة ما سئل عنه ، فأبطأ الوحى مدة ، فشق ذلك على النبىّ ، وشمت به المشركون واليهود ، وقالوا : إن ربه قد تركه وجفاه ، ولم يعد ينزل الوحى عليه ؛ ثم نزل الوحى ببيان ما سألوا ، وأنزل الله عز وجل هذه الآية ، كما أنزل سورة الضحا ، لبيان أن تأخير الوحى ليس لجفوة من الله لنبيه ، ولكن لحكمة يعلمها هو جل شأنه .

مجمل المعنى

١ — لما أبطأ الوحى على رسول الله ثم أتاه ، قال له الرسول : « وما الذى أبطأك عنى ؟ » ، فقال جبريل : أنا عبد مأمور ، ما نهبط عليك بإرادتنا ومشيئتنا ، لأننا مقيدون بقدرة الله ومشيئته ، فهو المتصرف فينا وفى جميع ملكوته ، ولا نستطيع أن نتحرك من مكان إلى مكان إلا بأمره وإرادته ، له ما قُدامنا وما خلفنا ، وما نحن مستقرون فيه من الجهات والأماكن ،

وهو محيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ، فى الأرض ولا فى السماء ، وليس فى استطاعتنا أن نفعل شيئاً إلا إذا كان صادراً عن إرادته ، ومقتضى حكمته ؛ فإذا كان الوحى قد تأخر عليك بعض الوقت ، فلا تخف ولا تحزن ، ولا تُلْق بالك لما يقوله المشركون واليهود من أن ربك قد جفاك ، لأن الوحى ينزل عليك بمقتضى حكمة الله ومشيئته ، وليس لكائن من خلقه إرادة فى ذلك ، وما كان ربك فى تأخير نزول الوحى غافلا عنك ، أو تاركاً وقالياً لك ، كما زعم المشركون .

٢ — إنه رب السموات والأرض ، ومالك الملك ، ومدبر الأمر بإبداع وحكمة ، فكيف يُتصور أن يحوم حول ساحته نسيان أو غفلة ، أو يجوز عليه أن يجفو ويترك من اصطفاه لرسالته ، واختاره لهداية خلقه ، فعليك وقد عرفته بعظيم صفاته أن تتفرغ لعبادته ، ولا تشغَل نفسك بترّهات المضللين ، واثبت على الصبر على مشقات العبادة ، وما يتصل بأدائها من الشدائد ، وما يوجه إليك من هزء الكافرين ومضايقاتهم ، وسخريتهم بك حين أبطأ الوحى عليك ، فإن الله يرعاك ، ويلطف بك فى الدنيا والآخرة ، بعد ما عرفت من عظيم قدرته ، وتفرده بالوحدانية ، فهل تعلم له شريكاً فى ربوبيته للسموات والأرض وما بينهما ، أو نظيراً فى أن يسمى إلهاً حقاً .

٣ — ويقول بعض الكفرة من بنى الإنسان على سبيل الإنكار والاستبعاد : هل أُبعث بعد موتى وتفتت جسمى وتحلله فى الأرض ؟ وهل يمكن أن أعود إنساناً تدب فيه الحياة والحركة ، كما كان قبل الموت ؟ قال ذلك أُبَىُّ بن خلف ، فإنه أخذ عظاماً بالية ففتتها ، وقال : يزعم محمد أننا نبعث بعد أن نموت ، ونصير إلى هذه الحال .

٤ — كيف ينكر علينا الإنسان الذى ميزناه بالعقل والتفكير والتأمل ، أننا

قادرون على أن نجمع عظامه ونكسوها لحماً ، ونعيد إليه الحياة مرة أخرى؟ أوَلا يذكر هذا الإنسان العاقل المفكر ، أننا من قبلُ قد أنشأناه من العدم ، وخلقناه من غير شيء ؟ فكيف يستحيل علينا ، وكيف يعظم على قدرتنا أن نجمع عظامه ، ومواد جسمه التى تحللت وذهبت فى الأرض ، ونعيد إليه الحياة ، ونسويه إنساناً كما كان ؟ فتبارك الله أحسن الخالقين .

٥ — أقسم بربك الذى خصك بالرسالة ، واصطفاك بالهداية ، لنُحيين الناس جميعاً بعد الموت ، المؤمن منهم والكافر ، ولنبعثنهم جميعاً للحساب ، ثم لنحشرن الكافرين مع قرنائهم الشياطين ، فقد كانوا يكذبون بيوم الدين ، وينكرون البعث والحساب ، ولنجمعنهم حول جهنم ، جاثين على الركب من هول الموقف وشدة الزحام ، كما قال تعالى : « وترى كل أمة جاثية » ، ذلك ليرى السعداء ما نجاهم الله منه ، فيزدادوا غبطة وسروراً ، ويرى الأشقياء ما أعِدّ لهم من العذاب ، فيزدادوا حسرة وغيظاً .

٦ — ثم لنستخرجن من كل جماعة ضالّة رأس الضلالة ، الذى كان يتزعمهم فى الكفر بالله ، وكان أجرأهم على الجحود والفجور ، وأشدهم عتوًّا ، فنطرحه قبل شيعته فى النار أمامهم ، ليعلموا حال من كان يُضلهم ويُغويهم ، ثم نتبعه الأعصى فالأعصى ، والأعتى فالأعتى ، فنطرحه فى النار ليصطلى حرها ، ويقاسى سعيرها .

٧ — ونحن نقيد فى السجل أعمال الناس أجمعين ، ولدينا علم بإنكار المنكرين ، وجحود الجاحدين ، ونحن نعلم من هو أولى أن يصطلى منهم بالنار ، ويذوق أشد العقاب .

٨ – وليس منكم من لا يمر على النار ، أو لا يراها بعينه ، سواء المؤمنون والمشركون ، والعصاة والمطيعون ، هذا أمر محتوم لا مفر منه ، وقضاء لابد من نفاذه .

٩ – ثم بعد أن يعرضوا عليها جميعاً : المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصى ، ننجى الذين اتقوا من عذابها ، فيمرون كطرف العين ، أو البرق الخاطف ، وندخلهم الجنة يتمتعون بطيباتها ونعيمها ، ونلقى الكفار والعصاة فيها ، فيقعون على ركبهم ، ويخرون على وجوههم ، ليصلَوْا جحيمها ، ويقاسوا حرها ؛ ويرى بعضهم أن اجتياز الصراط هو الورود الذى تضمنته هذه الآية .

١٠– أى الفريقين خير مقاماً ؟

كان فقراء الصحابة فى خشونة عيش ، ورثاثة ملبس ، وكان الكفار فى غضارة عيش ، وفاخر ملبس ، يضمِّخون رءوسهم بالطيب ، ويرجلون شعورهم ، ويلبسون الحرير ، فقال كبيرهم وهو النضر بن الحارث : أى الفريقين له المنزل البهيج ، والسكن الأنيق ، والمجلس الحسن ؟ أنحن أم أنتم يا أتباع محمد ؟ إن الله لا شك يحبنا أكثر منكم ، لأنه أكرمنا ، وأنعم علينا بطيبات الحياة الدنيا وزينتها ، وإنما يُحسن الله لأحب الخلق إليه ، وينعم على أهل الحق ، ونحن قد أنعم علينا دونكم ، لأننا أغنياء ، وأنتم فقراء ، ونحن أحسن مجلساً ، وأجمل متاعاً ومنظراً منكم ، فنحن عند الله خير منكم ، فنزلت الآية : « وإذا تتلى عليهم آياتنا . . . » ولما أقام الله الحجة على منكرى البعث ، وأتبعه بما يكون يوم القيامة ، أخبر جل شأنه بمعارضتهم تلك الحجة الدامغة ، بحسن شارتهم فى الدنيا ، وذلك فى رأيهم يدل على كرامتهم على الله ، فإذا جاء المؤمنون يتلون عليهم

آيات الله مرتّلات الألفاظ ، بينات المعانى ، دامغة الحجج ، فى البعث والحساب والعقاب ، عارضوا من طريق آخر ، فقالوا للمؤمنين : نحن خير منكم منزلا ، وأبهى مجتمعاً ومجلساً ، ولو كان الله يحبكم لأنعم عليكم كما أنعم علينا ، وأحسن إليكم كما أحسن إلينا ، فنحن عند الله خير منكم ، لكثرة حظوظنا من الدنيا ، وأنتم أهون على الله لقصور حظكم منها ؛ وما هذا القياس العقيم ، والرأى السقيم ، إلا لأنهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، فرد عليهم سبحانه وتعالى بما يأتى :

١١— إن كثيراً من القرون التى سبقت ، والأمم التى مضت ، كانت أفضل منهم فيما يفتخرون به من حظوظ الدنيا ، وكانوا خيراً منهم متاعاً ، وأحسن منظراً ، كعاد وثمود وأضرابهم من الأمم العاتية ، وقد أهلكناهم بفنون العذاب ، وخسفنا بهم وبدارهم الأرض ، ولو كان ما آتيناهم من متاع الدنيا لكرامتهم علينا ، لما عجلنا لهم العذاب ، ولما فعلنا بهم ما فعلنا ، فلينتظر النضر بن الحارث وأضرابه ممن متعناهم بزينة الحياة الدنيا فعتَوْا وبغَوْا ، فسيرون ما يحل بهم من العذاب .

١٢— قل يا محمد لهؤلاء المفتخرين بما أوتوا من حظوظ الدنيا : إن من كان مستقراً فى الضلالة ، مغموراً فى الغفلة والجهالة ، قد قضت حكمة الله أن يَمُدَّ له فى أجله ، ويمهله بطول العمر ، ويوسع له فى المال ، ويمكنه من التصرفات ، ليقطع عليه المعاذير ، ويقول له : « أو لم نُعمِّرْكم ما يتذكر فيه من تذكر ؟ » وليستدرجه ويُمْلِى له ليزداد إثماً ، فكم رأينا غنيًّا طغى وقويًّا بغى ، وقد أملى له الله فى طغيانه وبغيه ، ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر ؛ فسيحل بهم وعيد الله ، وسيقع عليهم إما العذاب فى الدنيا بتغلب المسلمين الفقراء المخشوشنين عليهم ، وبقتلهم أو أسرهم ، وانتقال أموالهم غنائم فى

أيدى المؤمنين ، وإما عذاب يوم القيامة ، بما أعد الله لهم فيه من الخزى والنكال ، حينئذ سيعلمون من هو عند الله شر مكاناً ، وأضعف جنوداً ، وأقل أنصاراً ، وسيرون عاقبتهم وعاقبة المؤمنين .

١٣— ومع أنه تعالى يملى للظالمين فى طغيانهم ، ويمد لهم فى غَيِّهم ، فإنه يزيد عباده المتقين ، وأولياءه المهتدين ، هدى على هداهم ، وإيماناً على إيمانهم — وإن الأعمال الصالحات ، والطاعات التى تبقى مدخرة للعبد عند ربه ، خير من مال زائل ، ودنيا فانية ، وأحسن عاقبة ومرجعاً .

(٧)

من الآية ٧٧ من سورة مريم إلى آخر السورة

أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا ، وَقَالَ : لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا –١–. أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ؟ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا ؟–٢– . كَلَّا ! سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ، وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا –٣– . وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا –٤– . وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا ! سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ، وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا –٥– . أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ؟ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ، إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا –٦– . يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمٰنِ وَفْدًا ، وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ، لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ ، إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا –٧– . وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا ! لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ، تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا : أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا ! وَمَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا –٨– . إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِى الرَّحْمٰنِ عَبْدًا –٩– . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا –١٠– . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ

الرَّحْمٰنُ وُدًّا –١١–. فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ، لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ، وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا –١٢– . وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ، هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ؟–١٣– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أفرأيت	أفنظرت متعجباً فرأيت ؟
الذى كفر	هو العاص بن وائل .
أطّلع الغيب	هل بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب ، الذى تفرد به الواحد القهار ؟
أم اتخذ عند الرحمن عهداً	أم عاهد الله على أن يدخله الجنة ؟
كلاّ	ردع له عن هذا القول السخيف .
سنكتب ما يقول	سننتقم منه على ما أثبتناه وكتبناه عليه من شنيع القول .
ونمد له من العذاب مدّاً	ونطوّل له فى العذاب ونضاعفه له ، لكفره وافترائه على الله .
ونرثه ما يقول	ونرث عنه فى الدنيا بعد موته ما كان له من مال وولد ، ولن نجعل له فى الآخرة شيئاً منهما .
ويأتينا فرداً	ويأتى إلينا يوم القيامة منفرداً ، لا يصحبه ما كان له فى الدنيا من مال وولد .

الألفاظ	شرحها
ليكونوا لهم عزًّا	ليتعززوا بهم ، ويكونوا لهم صلة وشفعاء عند الله .
سيكفرون بعبادتهم	ستجحدهم الآلهة ، وتتبرأ من عبادتهم .
ويكونون عليهم ضدًّا	وينقلبون عليهم أعداء ، ويكونون عليهم ذلاًّ وهواناً .
أرسلنا الشياطين	سلطناهم عليهم .
تؤزهم أزًّا	تستفزهم وتغريهم على المعاصى ، وتحبب إليهم الشهوات .
فلا تعجل عليهم	فلا تستعجل هلاكهم ، لتستريح أنت والمؤمنون من شرورهم .
إنما نَعُدُّ لهم عدًّا	لم يبق لهم من آجالهم إلا أنفاس معدودة ، وأيام قليلة .
نحشر المتقين إلى الرحمن	نجمعهم عند ربهم .
وفداً	وافدين عليه ، لينعموا برحمته ولطفه .
وِرداً	عطاشاً .
إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً	إلا من قرّبه الرحمن ، فأعطاه إذناً بالشفاعة لصدق إيمانه ، وخالص طاعته .
إدًّا	منكراً عظيماً ، وشيئاً فظيعاً .
يتفطرن منه	يتشققن مرة بعد أخرى .
وتخر الجبال هدًّا	تسقط وتقع مهدمة .
أن دعوا للرحمن ولداً	لأنهم نسبوا وادعوا أن للرحمن ولداً .
وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولد	وما يليق به تعالى اتخاذ الولد، وهو الواحد الأحد .

الألفاظ	شرحها
إن كل من فى السموات والأرض	ما فى السموات والأرض أحد من الملائكة والإنس والجن .
إلا آتى الرحمن عبداً	إلا وهو مملوك له ، يأتى إليه مُقِرًّا بالعبودية .
لقد أحصاهم	لقد حصرهم وأحاط بهم .
وعدَّهم عدًّا	عدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم .
وكلُّهم آتيه يوم القيامة فرداً .	كل واحد منهم آت يوم القيامة منفرداً ، لا أتباع له ولا أنصار .
سيجعل لهم الرحمن وُداً	سيحدث لهم الرحمن فى القلوب مودة وحبًّا ، لتقواهم وإيمانهم .
يسرناه بلسانك	يسرنا القرآن عليك ، فأنزلناه بلسانك العربى المبين .
لُدًّا	معاندين مبالغين فى الخصومة ، ذوى جدل بالباطل ، وعوجٍ عن الحق ، وهى جمع ألد .
ركزاً	صوتاً خفياً .

قصة هذه الآيات

نزلت الآيات الأربع الأولى من قوله تعالى : « أفرأيت الذى كفر بآياتنا » إلى قوله : « ويأتينا فرداً » ، فى العاص بن وائل — فقد كان عليه دَيْن لخبّاب بن الأرتّ ، فاقتضاه خباب إياه ، فقال : لا أؤدى إليك الدين حتى تكفر بنبيك محمد ، فقال خباب : لا ، والله لا أكفر به حيًّا ولا ميتاً ، ولا حين تُبْعث ، قال العاص مستهزئاً : فإذا بعثت فجئنى ، فيكون لى ثمة مال وولد ، فأعطيك دينك ، فنزلت هذه الآيات .

مجمل المعنى

١ – هل نظرتِ يا محمد متعجباً ، ورأيت مستغرباً ، أمر هذا الجاحد المعاند : العاص بن وائل ، ذاك الذى كفر بآياتنا ، وهى واضحة ظاهرة ، بيِّنة باهرة ، تَحمل كل من شاهدها فى تأمل وتعقل وتفكير ، على الإيمان بها ، وأنكر فى استهزاء وسخرية آية البعث ، فقال لرجل مؤمن هو خبّاب ابن الأرتّ ، مؤكداً قوله بيمين فاجرة ، إذا قابلتنى يوم البعث الذى تزعمه ، حيث يكون لى هناك أموال وأولاد ، فسأؤديك الدَّين الذى جئت تطلبه اليوم .

٢ – أبلغ من عظمة الشأن – وهو عند الله فى دَرْك الهوان – أن ارتقى إلى علم الغيب الذى استأثر به العليم الخبير ، حتى يجترئ فيدَّعى أنه يؤتَى فى الآخرة مالا وولداً ؟ أم أخذ على الرحمن عهداً وميثاقاً أنه حين يبعث يكرمه الله ، فيؤتيه المال والولد ؟ ولا يمكن أن يسوِّغ لنفسه هذه الدعوى إلا بأحد الأمرين ، والله لم يختص بغيبه أحداً ، فهو عالم الغيب والشهادة ، ولا يُعقَل أن يعطى العهد والميثاق لأمثال العاص ، من الكفرة المنكرين الجاحدين ، فهو فى مقالته تلك كاذب فاجر .

٣ – ألا فليرتدع هذا وأمثاله عن الكذب والافتراء ، والجحود والإنكار ، إننا قد كتبنا عليه سيئاته ، وأحصينا عليه ادعاءاته وافتراءاته ، وسنعاقبه عليها أشد العقاب ، وسنطوِّل له العذاب ، ونضاعف له العقاب ، الذى يلائم جحوده وإنكاره .

٤ – ولن نؤتيه كما يقول فى الآخرة مالا وولداً ، ولكننا سنهلكه ، ونرث ما عنده فى الدنيا من مال وولد ، وسيأتينا يوم القيامة فرداً ، ليس له من دون الله

ولى ولا نصير ، وليس معه صاحب أو ولد ، ليعرف مقدار ضَعته ومهانته ، وذلته وحقارته .

٥ — ولن يقتصر أمر الكفار على أنهم يعرضون يوم القيامة على ربك فرادى ، مجردين من الأولياء والأنصار ، لكن الآلهة التى عبدوها من دون الله ليتعززوا بها ، وتكون لهم صلة وزلفى إلى الله ، تتبرّأ منهم ، كما قال تعالى حكاية عنهم : « تبرأنا إليك ، ما كانوا إيانا يعبدون » ، وسيكونون عليهم ضدًّا وخصماً ، وذلا وهواناً ، لا عزًّا وصلة إلى الله كما يزعمون ، ألا فليرتدع هؤلاء الكفار عن ضلالهم ، وإلا فإنهم سيسألون عما كانوا يعملون .

٦ — إعلم وتحقق يا محمد أنا سلطنا شياطين هؤلاء القوم وكبراء الكفار عليهم ، ليدفعوهم إلى الكفر دفعاً ، ويحفزوهم إليه حفزاً ، ويغروهم على الضلال والبهتان إغراء ، فلا تستعجل عليهم الهلاك الذى يريحك من شرهم ، ويطهر الأرض من كيدهم ، فإننا نرى هلاكهم قريباً ، ولم يبق لهم فى الدنيا غير أيام معدودة ، وأنفاس محصورة ، ثم يخسف بهم ، ويذهبون كما ذهبت عاد وثمود والذين من قبلهم .

٧ — واذكر يا محمد للناس يوم القيامة ، حين يجمع الرحمن إليه المتقين من كل فج وجنس ، اجتماع إكرام وتنعيم ، ومجلس كريم ، وافدين إلى جنّته ، ودار كرامته واذكر حين يسوق المجرمين كما تساق الدواب زمراً ، بعصا راع حُطَم إلى جهنم ، وهم عطاش يلهثون من الجهد والظمأ ، والكل ذاهلون من هول الموقف ، لا يملك أحد من الكفار أن يطلب الشفاعة والصفح كما يملك المؤمنون ، وهؤلاء المؤمنون لا يستحق منهم الشفاعة ، إلا من خصه الله بفضله ، وقربه إليه بصدق إيمانه ، وخالص طاعته

فأعطاه عهداً بالشفاعة تكريماً له ، فى هذا اليوم ، لا تغنى شفاعة أحد شيئاً ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى .

٨ — لقد بلغ الكفار فى كفرهم حد البشاعة والفظاعة ، فنسبوا لله ولداً ، فقال اليهود : عزير ابن الله ، وقال النصارى : المسيح ابن الله ، كما قال بعض مشركى العرب : الملائكة بنات الله ، وهو قول باطل ، وكذب مفترى ، وكلام مستفظع ، لقد أتوا بهذا القول منكراً فظيعاً ، لأنه يهدم أركان الدين ، ويأتى عليه من قواعده ، لأن الدين قائم على أن الله هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ؛ إنه كلام فى غاية الهول والشناعة ، بحيث لو صورت شناعته وهوله فى صورة محسوسة ، لم تحتمله السموات والأرض ، فتنشق السماء ، ويختل سير الأجرام ، وتسقط الأرض متفتتة مهدمة ، لأنهم نسبوا للرحمن ما هو منزه عنه ، وادّعوا أن له ولداً ، وما يليق بالرحمن وما يتأتى له اتخاذ الولد ، لأن التوالد مستحيل عليه ، والمتبنَّى لا يكون إلا من جنس المتبنِّى ، وليس له تعالى جنس .

٩ — ما كل من فى السموات والأرض من ملائكة وإنس وجن — ومن هؤلاء الذين اتخذهم المشركون آلهة — إلا مقرًّا بوحدانيته ، مذعناً لربوبيته ، ومملوكاً له ، يعترف له بالعبودية والانقياد .

١٠ — لقد أحصى الله جميع خلقه ، وعد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم ، بحيث لا يخرج أحد منهم من قبضة ملكوته وقدرته ، وكل واحد منهم يأتى إليه يوم القيامة وحيداً ذليلا ، منفرداً عن الأتباع والأنصار ، فإذا كان هذا شأنه من الربوبية والألوهية ، وشأنهم من العبودية والانقياد ، فكيف يتوهم أن يكون أحدهم ولداً له ؟

١١- إن الذين صدقوا الإيمان ، وعملوا الأعمال الصالحة ، سيلقى الله حبهم فى قلوب الناس فى الدنيا ، وسيرضى الله عنهم ، ويجعل لهم يوم القيامة مظهراً من الود والمحبة ، بما يخصهم به من النعم والغفران ؛ وفى الحديث : « إذا أحب الله عبداً يقول لجبريل : إنى أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله أحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم تنزل له المحبة فى الأرض » .

١٢- بلغ يا محمد القرآن ، وبشِّر به وأنذر ، فإنما يسرنا عليك ، إذ أنزلناه بلغتك بلسان عربى مبين ، لتبشر به من يهديهم الله إلى التقوى ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وتخوف به قوماً معاندين ، يكثرون فى اللجاجة ، ويمعنون فى الخصومة - بأن الله سيهلكهم .

١٣- ولقد أهلكنا كثيراً من الأمم التى سبقت ، من أمثال هؤلاء المعاندين المكابرين ، واستأصلناهم استئصالا فأصبحوا بحيث لا يشعر أحد بوجودهم ، ولا يسمع لهم صوت ولو كان خفياً .

سورة طه

نزلت بمكة إلا الآيتين ١٣٠ و ١٣١ فمدنيتان ، وآياتها ١٣٥ آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية ١ إلى الآية ٨

طَهَ ، مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى -١- . تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمٰوَاتِ الْعُلَا -٢- . الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ، لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى -٣- . وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى -٤- . اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى -٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
طه	اسم من أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم .
لتشقى	لتتعب نفسك .

الألفاظ	شرحها
إلا تذكرة	لكن أنزلناه تذكيراً وموعظة .
لمن يخشى	لمن يتأثر قلبه بالتذكير ، ويخشى الله ويخافه .
العرش	ملكوت السموات والأرض .
استوى	استولى على الملكوت ، وقام على تدبير أمره .
وما تحت الثرى	الثرى : التراب الندىّ ، والمقصود بما تحت الثرى : ما فى باطن الأرض .
تجهر بالقول	ترفع الصوت بالذكر أو الدعاء .
وأخفى	ويعلم الذى هو أخفى من السر ، وهو ما يخطر بالبال

مجمل المعنى

١ — يا محمد ، لا تتعب نفسك ، ولا تشقّ عليها بالأسف والحزن ، لكفر الكافرين من قريش ، وعدم إيمانهم بك ، فإننا لم نفرض عليك أن يؤمن بك الجاحدون ، أو أن تُسمع الصم الدعاء ، ولم ننزل عليك القرآن لتشقى نفسك بما رأيت من عناد المعاندين ، وإصرارهم على الكفر ، لكننا أنزلنا عليك القرآن لتذكِّر به من لانت قلوبهم ، وشرح الله للإسلام صدورهم ، فهم يخشَوْن الله ويخافون لقاءه ، ويحبُّون مرضاته .

٢ — إن هذا القرآن منزل تنزيلا من صاحب الملك ، من الإله المبدع ، الخالق للأرض وما حوت ، التى منها تعيشون ، وعليها تسكنون ، وخالق السموات العلا ومدبر أمرها ، ومنظم مسابح الأفلاك فيها ، إنه هو الرحمن صاحب الملكوت ، والمتولى تدبير أمره ، مالك السموات وما فيها من كواكب

وأجرام عُلْوية ، تسير فى نظام دقيق ، ووضْع ثابت حكيم ، ومالك الأرض وما عليها من جبال وأنهار ، وحيوان وأشجار ، وله ما بين السموات والأرض ما نرى وما لا نرى ، وما فيه من عوالم وكائنات دقيقة ، وجراثيم لا حصر لها ، وله ما فى بطن الأرض وما تحت الثرى ، من معادن صُلبة وسائلة ، ومن غذاء للنبات ، ومن نار وماء ، إنه صاحب هذا الملك الواسع ، وإنه منشئه ، وعلمه محيط بكل شىء فيه ، لا يغيب عنه مثقال ذرّة فى الأرض ولا فى السماء .

٣ — وإذا كان الله جل شأنه لا يخفى عليه شىء ، فإنه غنىّ عن الجهر بالذكر والدعاء ، لأن الجهر بالدعاء مظهر من مظاهر الرياء ، « واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ، ودون الجهر من القول » ، والله تعالى يعلم ما تسرّه إلى غيرك ، ويعلم ما هو أخفى من السر ، وهو ما يخطر ببالك ، وتخفيه فى نفسك ، فلا يطلع عليه أحد غير الله .

٤ — الله جل شأنه لا معبود سواه ، له الأسماء المتضمنة غاية الحسن من التقديس والتعظيم والربوبية ، ولله الأفعال التى لا يمكن صدورها إلا من خالق رحيم ، عالم قادر مالك .

(٢)

من الآية ٩ إلى الآية ٢٤ من سورة طه

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ : امْكُثُوا ، إِنِّى آنَسْتُ نَارًا ، لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ ، أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ؟ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ : يَا مُوسَى ، إِنِّى أَنَا رَبُّكَ ، فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ، إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى –١– . وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ، فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى : إِنَّنِى أَنَا اللهُ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا ، فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى –٢– . إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ، لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى –٣– . فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى –٤– . وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ؟ قَالَ : هِىَ عَصَاىَ ، أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ، وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى ، وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى –٥– . قَالَ : أَلْقِهَا يَا مُوسَى ، فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَى ، قَالَ : خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ، سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى –٦– . وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ، لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ، اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى –٧– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وهل أتاك	لم يأتك حديث موسى حين عاد إلى مصر من قبل ، وها قد آن أن نقص عليك سيرته .
حديث موسى .	قصة موسى منذ ترك مَدْين وعاد إلى مصر لزيارة أخته .
لأهله	هم مَن كانوا معه : امرأته وولداه والخادم .
آنست ناراً	أبصرتها إبصاراً محقّقاً لا شبهة فيه .
بقبس	بشعلة .
هدى	هادياً يدلنا على الطريق فقد ضللناه .
نودى	سمع تكليم الله إياه .
فاخلع نعليك	اخلعهما لتمس قدماك تربة الوادى المقدس ، فتنال بركته ، ولأن الحفاء فى حضرة المليك من التواضع وحسن الأدب
المقدس	المطهر .
طوى	اسم الوادى الذى هبط فيه موسى .
اخترتك	اصطفيتك للنبوّة والرسالة .
لذكرى	اجعل العبادة والصلاة خالصتين لذكرى ، لا يشغلك عنى شاغل فيهما .
الساعة	يوم القيامة .
أكاد أخفيها	لا أريد أن أظهرها .

الألفاظ	شرحها
لتجزى كل نفس بما تسعى	لتحاسب كل نفس على ما تعمل ، إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشرّ .
فلا يصدّنّك عنها	فلا يمنعنك عن ذكر الساعة ومراقبتها .
واتبع هواه	اتبع ما تهواه نفسه من الملاذ الحسية .
فتردى	فتهلك .
أتوكأ عليها	أعتمد عليها فى المشى وحين التعب ، والوقوف على رأس القطيع .
أهش بها على غنمى	أخبط بها أوراق الشجر لتسقط ، فتأكلها غنمى .
مآرب	حاجات ومنافع أخر .
ألقها	اطرحها على الأرض .
تسعى	تهتز وتتحرك ، وتزحف على الأرض بسرعة .
سيرتها الأولى	فى حالتها التى كانت عليها قبل إلقائها .
جناحك	إلى جيبك ، لأنه إذا أدخل يده فى جيبه ، فقد ضم يده إلى جناحه وهو الجنب .
من غير سوء	من غير أن يلحقها قبح ، والمراد به : البرص .
آية أخرى	معجزة ثانية لك ، غير انقلاب العصا حيّة .
من آياتنا	بعض آياتنا .
اذهب إلى فرعون	توجه إليه ، وأعلنه بأنك رسول من عند الله .
طغى	جاوز الحد فى الكبر والعتوّ ، حتى تجاسر على ادعاء الربوبية .

مجمل المعنى

١ - كانت سورة طه من أوائل السور التى نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم ، تأسية له فى تحمل المشاق التى يلقاها من الكفار ، الذين يعارضون دعوته ، وترفقاً بنفسه ، فلا يشقيها بالأسى والحزن لما واجهه من إصرار قريش على الكفر ، واستمساكهم بالمعاندة والمكابرة ، والانصراف عن اتباع الحق ؛ وقد نزلت قصة موسى ليكون له فيها أسوة حسنة ، وليأتمّ به فى احتمال أعباء الرسالة ، والصبر على مشاق الدعوة إلى عبادة الله ، وقد قص الله عليه نبأ موسى عليه السلام ، حينما استأذن صهره شعيباً عليه السلام أن يخرج من أرض مَدين ، ويتوجه لزيارة والدته وأخته اللتين كان قد تركهما منذ عشر سنين بمصر ، وخرج منها هرباً من فرعون وجنوده ، بعد أن ظن أن هذه المدة الطويلة ربما تكون قد أسبلت ذيل النسيان على فَعلته ، وهى قتله المصرى انتصاراً لمن استنجد به من بنى قومه ، فمضى على غير الطريق المعهود ، مخافة أن يتعرض له ملوك الشام بسوء ! فلما وافى وادى طُوى ، وهو بالجانب الغربى من الطور ، فى ليلة مظلمة شاتية مثلجة ، وُلد له ولد فى تلك الليلة ، ولم يكن معه غير أهله ، وهم : زوجه وطفلاه وخادمه ، فقدح زنده فلم يُورِ ، ولم يخرج منه شرر ، وكان قد ضل الطريق ، وتفرقت ماشيته ، ولم يجد ماء ، فأخذ يتلفت حواليه حيران ، لعله يجد ناراً ، فلاحت له على بعد فى أحشاء الظلام المطبِق نار من جانب الطور ، وقد تحققها وآنسها ، وأبصرها إبصاراً لا يشوبه شك أو شبهة ، فطلب إلى من معه أن يقيموا فى مكانهم لا يبرحوه ، حتى يذهب إلى تلك النار ، راجياً أن يعود إليهم

منها بشعلة يصطلونها ويستضيئون بها ، أو أن يجد من بعض الناس الذين يجلسون حولها للاصطلاء ، هادياً يأتى به ، ليهديهم جادّة الطريق فقد ضلوها ؛ فلما قرب من موضع النار التى أبصرها ، سمع نداء ربّانيـًّا من جميع الجهات ، فتلقاه تلقيًّا رُوحانيـًّا تمثل لجميع بدنه ، وانتقل إلى حسّه من كل أعضاء جسمه ، دون اختصاص بعضو أو جهة ، فقيل له : يا موسى ، إنى أنا ربك ، منشئك وخالقك ، وقد اختصصتك بكلامى ، فاخلع نعليك تأدباً وتواضعاً ، ولكى تمس قدماك تربة طوى ، ذلك الوادى المطهر المقدس ، فتنالك بركته ، وإنى قد اصطفيتك للنبوة ، واخترتك للرسالة ، وذلك يوجب عليك أن تحسن الإصغاء ، وأن تسكن جوارحك ، وتغض بصرك ، ويخشع قلبك ، وتستمع لما يوحى إليك ، وهو أن توحدنى ولا تشرك بى شيئاً ، وتعتقد أنى أنا الله لا إله إلا أنا ، وأن تجعل العبادة وإقامة الصلاة خالصة لذكرى ، وابتغاء وجهى ، لا يشوبهما شىء من شوائب الدنيا .

٣ — وسيأتى اليوم الذى تـُعـْرَض فيه الأعمال ، وتكشف فيه مخبآت القلوب ، وهو يوم القيامة ، فإن الساعة آتية لا ريب فيها ، لكنى أريد ألا أظهرها لكم ، وستفاجئون بها فى وقت معلوم لى وحدى ، وسيجئ يومها بلاشك لتحاسب فيه كل نفس على ما كسبت ، وتجزى بما عملت .

٤ — فكن دائم التذكر لها ، دائم التذكير بها لغيرك ، حتى لا يطمع من يكفر بالساعة ، واتـّبع ما توسوس به نفسه ، ويميل إليه هواه من الضلال والشهوات ، فى أن يحاول صدك عنها ، ومنعك من تذكرها ومراقبتها ، فتسبب لنفسك الرّدى والهلاك .

٥ — وقد سأل الله موسى عن عصاه التى يحملها بيمينه ، ليريه عظم قدرته

بما يخلقه فى الخشبة اليابسة من الحياة والحركة ، ويقلبها حية تسعى وتتحرك بسرعة عظيمة كأنها جانّ ، تبتلع ما حولها من صخر وشجر ، سأله عز وجل : ما الذى يُرى مستقرًّا بيمينك يا موسى ؟ — وهو يعلم ماذا بيده — فيجيب موسى : ما هى إلا عصا ، أستعملها فيما تستعمل فيه العصىّ : أعتمد عليها فى خَطْوِى ، وأتحامل عليها حينما أشعر بالتعب ، وأخبط بها ورق الشجر فيسقط على غنمى فتأكله ، ولى فيها منافع وحاجات أخرى ، أحنى الغصن بمِحجنها ، وأكسره بشُعبتيها ، وإذا سرت ألقيتها على عاتقى ، فعلقت بها أدواتى وزادى وسقائى ، فإذا اشتد الحر ركزتها ، وألقيت عليها كسائى فأستظل بها ، وإذا قصر الرِّشاءُ عن أن يصل بالدَّلو إلى ماء البئر ، طولت بها الرشاء ، وأقاتل بها السباع عن غنمى ، وإذا ظهر لى عدو دافعت بها عن نفسى .

٦ — ولما ذكر موسى منافع العصا المألوفة للناس ، والمآربَ المعروفة لمثلها من نبات الشجر ، أراد الله أن يبين له قدرته الخارقة ، ومعجزته الباهرة ، فى بعث الحياة والحركة فى خشبة جافة ، حتى يريه ما لم يخطر له ببال ، فأمره أن يطرحها على الأرض فطرحها ، فماذا رأى ؟ ويا لَهَوْلِ ما رأى ! رأى العصا انقلبت حية كبيرة مخيفة ، تهتز وتتحرك بسرعة عجيبة ، فاعتراه الذُّعر والخوف ، فرد الله عنه خوفه ، وبعث الطمأنينة إلى قلبه ، وملأ نفسه ثقة بقوّته وقدرته ، فقال له : خذها ولا تخف ، والتقطها ولا بأس عليك منها ، فإن القادر على أن يحيل العصا حية كأنها جانٌّ ، قادر على أن يسخرها فى طاعتك ، وكفّ أذاها عنك ، وإننا بعد أن تأخذها سنعيدها سيرتها الأولى ، وسنردها عصا كما كانت ؛ فتنتفع بها كما كنت تنتفع ، قبل أن تصير حية تسعى .

٧ — وقد أراد الله بعد أن أخذ موسى الحية فانقلبت عصا، أن يريه معجزة أخرى ، حتى إذا أرسله إلى فرعون ذهب إليه مطمئناً إلى قدرة الخالق البارئ المصوِّر ، مستوثقاً بعونه وقوته ، فلا يخيفه بطشه ، ولا يهوله جبروته ، فأمره أن يدخل يده فى جيبه ثم يخرجها ، فلما فعل ظهرت يده بيضاء متلألئة ، لها بياض حسن ، وبهاء جميل ، لا بياض يَشينها ويقبحها كبياض البرص ؛ وقال له : وهذه آية أخرى لك ، لترى يا موسى آيات الله الكبرى ، ومعجزاته الباهرة ؛ وإذا كان الله قد أظهر لك من آياته الكبرى ما رأيت من معجزتَى العصا واليد، فعليك أن تذهب إلى فرعون، لتعلن رسالتك ، وتدعوه إلى الإيمان بربك ، لأنه قد جاوز الحد فى الطغيان ، وغلا فى العتوّ والجبروت ، فطلب إلى الناس أن يعبدوه ، وأمرهم أن يتخذوه إلهاً من دون الله .

(٣)

من الآية ٢٥ إلى الآية ٤١ من سورة طه

قَالَ : رَبِّ ، اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي -١- . وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي : هَارُونَ أَخِي ، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ، وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا -٢-. قَالَ : قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ، وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ، إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى : أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ، فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ، فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ، يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ، وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي -٣- . إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ؟ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ -٤- . وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ، وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ؛ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ، ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ، وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي -٥- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
اشرح لى صدرى	وسعه ، ونوره بالإيمان والنبوّة .
واحلل عقدة من لسانى	العقدة : حُبسة فى اللسان ، وثقل فى النطق .
يفقهوا قولى	يفهموا كلامى .
وزيراً	مساعداً وناصراً وقوة .
اشدد به أزرى	قوّ به ظهرى .
نسبحك	ننزهك عما لا يليق بك .
ونذكرك	ونداوم على ذكرك ، بالدعاء والثناء عليك .
بصيراً	عالماً بأحوالنا .
أوتيت سؤلك	أجبناك إلى ما سألت ، من شرح الصدر وتيسير [illegible] الأمر ، وما إليهما .
مننا عليك	أنعمنا عليك .
مرة أخرى	فى وقت آخر .
أوحينا إلى أمك	ألهمناها وألقينا فى قلبها .
ما يوحى	ما لا يُعلَم إلا بوحى وإلهام من الله .
أن اقذفيه	بقذفه وإلقائه .
فى التابوت	فى الصندوق .
فى اليمّ	فى نهر النيل .
فليلقه اليمّ بالساحل	فليطرحه النهر على الشاطىء .
عدوٌّ لى وعدوٌّ له	فرعون ، لأنه عدو الله فعلا ، وعدو موسى [illegible] مستقبلا .

الألفاظ	شرحها
وألقيت عليك محبة منى	جعلت فيك جاذبية تجبب الناس فيك .
ولتصنع على عينى	ولتُربَّى تحت رعايتى وحفظى .
إذ تمشى أختك	رعيناك وحفظناك من وقت أن كانت أختك تمشى لتتعرف خبرك .
من يكفله	من يضمه إليه ويربيه .
كى تقر عينها	كى يطمئن قلبها ، وتستريح نفسها بلقائك .
وقتلت نفساً	قتلت القبطىّ الذى استغاثه عليه الإسرائيلى .
فنجيناك من الغم	فخلصناك من عذاب الضمير والغم ، خوفاً من عقاب الله على القتل .
وفتنّاك فتوناً	ابتليناك بأنواع من الابتلاء ، وامتحناك بضروب من المحن .
فلبثت سنين فى أهل مَدْين	فقضيت عشر سنين بين أهل مدين ، وفاء للعهد الذى قطعته على نفسك .
ثم جئت على قدر	ثم جئت فى الوقت الذى قدرته لتكليمك .
واصطنعتك لنفسى	واصطفيتك لمحبتى وأداء رسالتى ، وجعلتك موضع الصنيعة والإحسان .

مجمل المعنى

١ — لما أمر الله موسى أن يذهب إلى فرعون ، عرف أنه كُلِّف أمراً عظيماً ، يتطلب قوة الاحتمال ، وثبات الجَنان ، واتساع الصدر ، فسأل ربه أن يشرح صدره ، ليحتمل ما يواجه من الشدائد التى يضيق لها الصدر ،

ويسهل عليه الأمر الذى هو مقدم عليه من إعلان فرعون برسالته ، ودعوته إلى عبادة ربه ، مع علمه بما هو عليه من العُتوّ والجبروت ، وأن يعينه على البيان والإفصاح ،وأن يطلق لسانه من الحُبسة ، ويزيل عنه ما يعتريه من ثقل فى النطق ، وفأفأة فى الكلام ، حتى يفهم الناس ما يقول بسهولة ووضوح .

٢ — وقال : أسألك يا ربى أن تجعل لى فى هذه المهمة الشاقة وزيراً ، وناصراً معيناً من أهلى ، هو هارون أخى ، أسألك يا ربى أن تقوى به ساعدى ، وتشد به ظهرى ، وتحكم به قوتى ، وأن تجعله شريكاً لى فى أمر الرسالة ، حتى نتعاون على أدائها كما ينبغى ، وأداء رسالتك على أكمل وجه ، يجعلنا نسبحك كثيراً ، وننزهك عما لا يليق بجلالك من الصفات والأفعال ، التى من جملتها ما يدعيه فرعون وجنوده من ادعاء الشركة فى الألوهية ، ويجعلنا نذكرك كثيراً بالدعاء والثناء عليك ، ونصفك بما يليق بك من صفات الكمال والجلال ، إنك كنت ولا تزال بصيراً بأمورنا ، عالماً بأحوالنا .

٣ — أجاب الله دعاء موسى ، وأعطاه ما سأله ، وحقق له ما طلبه ، من شرح الصدر ، وتيسير الأمر ، وحل العقدة ، وجعْل أخيه وزيراً ورسولا ، فقال : « قد أوتيت سؤلك يا موسى » ، ثم ذكّره الله تعالى بأنه منذ وُلِد ، وهو محفوف بعناية ربه ، محوط بعنايته ومِننه ، وأنه قد منّ عليه منة أخرى ، وتفضل عليه بنعمة سابقة لهذا النعم ، ليعظم اجتهاده ، وتقوى عزيمته ، فذكَر أن الذى حفظه وهو طفل رضيع ، لاشك يحفظه وقد كلفه أداء الرسالة ، واختاره للنبوة ، وكانت المنة الأولى وقت أن ألهم أمه ، وأوحى إليها ما ينبغى أن تُلهَمَه لنجاة طفلها ، وحفظه من

القتل ، بأن تضعه فى صندوق مُقَيَّر من خشب ، وتلقيه فى النيل ، وقد صدرت إرادة الله أن يلقى النهر الصندوق على الشاطئ أمام قصر فرعون ، وأن يأمر فرعون بالتقاط التابوت ، وأن يستخرج ما فيه ، فإذا هو صبى أصْبَح ، وضئ الوجه ، حسن المحيّا ، سرّت به امرأة فرعون ، فقالت له : استبقه لا تقتله ، ودعه قرة عين لى ولك ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ؛ فرضى فرعون وهو عدو الله فعلا ، وعدو موسى مستقبلا ، أن يستبقيه ، وألقى الله محبة موسى فى قلب كل من رآه ، فأحبه فرعون وآله ، فضلا من الله عليه ، لينشأ محوطاً بالعطف والرعاية ، ويتربى فى جو من الشفقة والحنان ، فيربَّى تحت عناية الله ، ويحاط بلطفه ومراقبته .

٤ — اذكر يا موسى يوم أن فزعت عليك أمك ، فأرسلت أختك فى الطرقات وحول المنازل تتقصى أثرك ، وتتعرف أخبارك ، فإذا بها فى تَطْوافها وبحثها ، تعرف اهتمام خدم القصر بالبحث عن مرضع لابن فرعون ، وعرفت أنه امتنع عن أن يلتقم ثدى أية مرضع عرضوها عليه ، فقالت لهم : أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون ، فقالوا لها : أتعرفين هذا الطفل ؟ قالت : لا ، ولكنى أعلم حرص أهل هذا البيت على التقرب إلى الملكة ، والإخلاص فى خدمتها ، ثم ذهبت فجاءتهم بامرأة ، فعرضت ثديها على الطفل ، فأقبل على الرضاع ، لقد كانت هذه المرأة أمه ، فسُرَّت امرأة فرعون ، وطلبت منها أن تبقى معها فى القصر لترضع الطفل ، فامتنعت متعللة بشئون بيتها ؛ فرضيت أن تعطيها إياه ، ليكون معها فى بيتها ، وأحسنت إليها ، وأكرمتها وأغدقت عليها ، واعتز بنو إسرائيل بهذا الرضاع والتقرب من الملكة ؛ ولما تم رضاعه ، أرسلت آسية : امرأة فرعون ، فى طلبه ، فجىء به إليها ، وهو على خير حال ، فسرت به ، وأدخلته على فرعون ، فأعجبه وأحبه وقربه .

٥ — ثم ذكّر الله موسى برعايته وحفظه ، وتنجيته من القتل ، فقال له : «وقتلت نفساً » ، مشيراً إلى القبطى الذى استغاثه عليه الإسرائيلى فقتله ، فاغتم موسى خوفاً من عقاب الله ، ومن اقتصاص فرعون ، فاستغفر ربه ، فغفر له ، ومكّن له من الهرب إلى مدين ، فنجاه من فرعون ، (وسنذكر هذه القصة مفصلة فى سورة القصص ، فى تفسير الجزء العشرين) ، ثم ذكّره الله بأنه فتنه فتوناً كثيرة ، وامتحنه بمحن متعددة ، إذ ولد فى عام كان فرعون يقتل فيه الأبناء ، ويستحيي البنات ، فلم يقتله ، وألقته أمه فى النيل ، فنجاه الله من الغرق ، وقتل قبطيًّا فلم يُقْتَصّ منه ، وآجر نفسه لشعيب عشر سنين ، وضل الطريق ، وتفرقت غنمه فى ليلة مظلمة ؛ هذه المحن والفتون قد امتحنه الله بها ، وخلصه منها ، ليصلح لرسالته ، ويصبر على ما يلاقيه فى سبيلها من عنت ومشقة ؛ ثم عدد الله نعمه عليه ، بأنه خرج خائفاً إلى أهل مدين ، ولبث فيهم سنين يرعى غنم شعيب ، وتزوج ابنته ، حتى إذا بلغ سن النبوة ، جاء على الوقت والمكان والقدَر الذى قدر الله فيه أن يصطفيه لنفسه ، ويهيئه لرسالته ، ويختاره لأداء مهمته ، ويجعله موضع الإحسان والإكرام والإلطاف ، لم يصبه سوء من كل هذه المحن ، ولم يتأخر أو يتقدم لحظة عما قدره الله له .

(٤)

من الآية ٤٢ إلى الآية ٥٦ من سورة طه

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي، وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي –١–. اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا، لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى –٢–. قَالَا: رَبَّنَا، إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا، أَوْ أَنْ يَطْغَى –٣–. قَالَ: لَا تَخَافَا، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى –٤–. فَأْتِيَاهُ، فَقُولَا: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ، فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ، قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى –٥–. إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى –٦–. قَالَ: فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى –٧–. قَالَ: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى –٨–. قَالَ: فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى؟ قَالَ: عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ، لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى –٩–. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا، وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى، كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى –١٠–.

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ، وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ، وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى –١١– وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا ، فَكَذَّبَ وَأَبَى –١٢– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بآياتى .	بمعجزاتى .
ولا تنيا فى ذكرى	ولا تفترا ولا تقصرا فى تبليغ رسالتى ، وذكرى بما يليق بى من الصفات الجليلة .
فقولا له قولا ليناً	لا تعنفا له فى القول ، وألقياه عليه بصورة العرض ، لا بصورة الأمر .
لعله يتذكر	لعله يتحقق صدقكما بما تبلغانه من ذكرى .
أو يخشى	أو لعله يخاف عاقبة عتوّه وطغيانه .
أن يفرط علينا	أن يعجل علينا بالعقوبة ، ولا يصبر إلى تمام الدعوة .
أو أن يطغى	أو أن يزداد طغياناً ، فيعتدى علينا ، أو يقول فيك ما لا ينبغى جبروتاً واستكباراً .
إننى معكما	إننى سأحفظكما وأنصركما .
أسمع وأرى	أعلم تمام العلم بما يجرى بينكما وبينه ، فأصرف عنكما الشر ، وأجاب لكما الخير .
أرسل معنا بنى إسرائيل	أطلقهم من الأسر والقسر ، واتركهم ليخرجوا معنا .
ولا تعذبهم	وكُفّ عن أذاهم وتعذيبهم ، بالتكاليف الشاقة والاستعباد ، وقتل الأولاد .

الألفاظ	شرحها
قد جئناك بآية من ربك	وسنثبت دعوى رسالتنا بما لدينا من معجزات من عند ربك .
وتولّى	وأعرض عن قبول الحق .
فمن ربكما يا موسى	إذا كنتما رسولَىْ ربكما ، فأخبرانى : من ربكما الذى أرسلكما ؟
خَلْقه	صُورته ، وشكله اللائق بما نيط به من الخواصّ والمنافع .
ثم هدى	ثم عرّفه كيف ينتفع بما أعطاه ، وكيف يحافظ على بقائه بالطبع أو الاختيار .
فما بال القرون الأولى	فما حال الأمم السالفة بعد موتها ؟
علمها عند ربى	أمرها غيب لا يعلمه إلا الله .
فى كتاب	متمكن علمه به ، وثابت عنده فى لوح محفوظ .
لا يضلّ ربى	لا يجوز عليه الخطأ وعدم الاهتداء .
ولا ينسى	ولا يذهب علمه بما حفظه .
مهداً	مذلّلة سهلة كالمهد ، وهو الفِراش .
وسلك لكم فيها سُبُلا	وخلق لكم فيها طرقاً بين الجبال والأودية والبرارى ، تسلكونها لتبلغوا منافعكم .
ماء	مطراً .
أزواجاً	أصنافاً .
شتّى	متفرقات فى الصور والألوان والطعوم والمنافع .
لآيات	لدلائل .
لأولى النهى	لذوى العقول الناهية عن اتباع الباطل .

الألفاظ	شرحها
منها خلقناكم	من مواد الأرض خلقنا مواد أبدانكم .
وفيها نُعيدكم	وسنعيدكم إليها بالموت ، وتحليل أجزاء أجسامكم فيها .
ومنها نخرجكم	ومن الأرض نعيد تأليف أجزائكم المتفتتة الذاهبة فى الأرض ، على صوركم السابقة .
وأبى	امتنع عن الطاعة والتوحيد .

مجمل المعنى

١ — أعد الله موسى لرسالته ، وأجابه إلى ما سأل ، فبعث معه أخاه هارون رسولا ، وأمره أن يذهب هو وأخوه مزوّدين بالحجج والبراهين ، مؤيدين بالآيات والمعجزات ، ليبلغا فرعون رسالته ، ونهاهما عن الفتور والتقصير فى ذكر الله ، وتبليغ رسالته ، والدعوة إليه ، وقد أيدهما بنصره ، وأعانهما بقوته .

٢ — وأمرهما أن يعمدا إلى فرعون ، ويذهبا إليه بالذات ، لأنه هو الذى طغى ، وجاوز الحد فى العتوّ ، وقال للمصريين : أنا ربكم الأعلى ، وأوصاهما أن يتلطفا له فى القول ، ولا يعنُفا فيه ، وأن يلقيا عليه الحديث بصورة العرْض ، لا بصيغة الأمر ، لعل ذلك يكْسِر من سَوْرة عناده وعتوه ، ويلين من عريكة طغيانه وجبروته ، حذرَ أن تحمله الحماقة على أن يبطش بهما ، وطمعاً فى أن يتذكر ما يبلغانه إياه باللين والتلطف ، فيتحقق صدقهما ، أو يصلا إلى قلبه بحسن الكلام فيخشى الله ، وإن

لم يكن هذا ولا ذاك ، فقد بلّغاه الدعوة بالتى هى أحسن ، وألزماه الحجة ، وقطعا عليه سبيل المعذرة ، وهذا أدب ربّانى أدب به الله موسى وهارون ، ليضربا المثل الأعلى فى الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

٣ — قال موسى وهارون : يا ربنا ، إننا نعلم من جبروت فرعون وقسوته ، ما يجعلنا نخاف أننا إذا ذهبنا إليه ، وبلغناه الرسالة من غير فتور ولا تقصير كما أمرت ، وواجهناه بالدعوة إلى عبادتك ، أن يستولى عليه الغضب ، ويحمله التكبر على أن يفرط علينا ، ويعجل بعقابنا ، ويبادر إلى البطش بنا ، قبل تمام الدعوة ، أو أن يزداد طغياناً واجتراء عليك ، فيقول فى شأنك ما لا يليق بقدسيتك .

٤ — فقال لهما الله عند تضرعهما إليه ، وإظهار خوفهما من فرعون وبغيه : لا تخافا من أن يصيبكما ما توهمتماه ، فإنى معكما أحفظكما من بغيه ، وأنصركما عليه ، وإنى أعلم تمام العلم ، وأسمع وأرى ما سيجرى بينكما وبينه من قول وفعل ، فأُحدث فى كل حال ما يصرف عنكما شره ، وينصركما عليه .

٥ — فأْتياه وقابلاه وجهاً لوجه ، فقولا له : إننا رسولان من عند ربك الذى خلقك وسوّاك ، والذى أنت عبد من عباده ، ولست إلهاً كما تدّعى ، وليس لك أن تأسر بنى إسرائيل ، أو تسلُبهم الحرية ، أو تكلفهم المشاق ، أو تذبح أبناءهم وتستحيي نساءهم ، فأطْلِق سَراحهم ، ودعهم أحرارا ينطلقون معنا إذا شاءوا ، ويذهبون إذا أرادوا ، وليس لك أن تعذبهم باستخدامهم فى الأعمال الشاقة : من نحت الأحجار ، وحمل الصخور ، — وفى تكليف الله تعالى موسى وأخاه أن يبدأا بتخليص المعذّبين فى الأرض ، واسترداد الحرية للمستعبدين ، قبل مطالبته بالإيمان ، لفتة

إلهية ، توجب على المصلحين أن يعملوا على تخليص الناس من آلامهم ، ويجاهدوا فى فك أغلالهم ، وإنقاذ كرامتهم ، وهذا جهاد كريم ، وعبادة يرضاها رب العالمين — وإننا إذا أخبرناك بأنا رسولا ربك ، وطلبنا إليك إطلاق بنى إسرائيل ، والكف عن تعذيبهم ، لدينا البيِّنة على أننا مكلفون أن نبلغك ذلك ، وأنت مأمورٌ أن تسمع وتطيع ، والسلام والسعادة فى الدنيا والآخرة ، لمن صدق آيات الله تعالى ، واتبع الحق ، وآمن بالله .

٦ — ولقد أوحى الله إلينا أن من لم يصدق بآيات الله ، وأعرض عن قبول الحق ، وكذب رسله ، قد أعد الله له عذاباً فى الدنيا والآخرة .

٧ — فلما قال موسى وهارون لفرعون ذلك ، بعد أن أتياه وبلّغاه ما أُمرا به ، قال لهما فى صَلَف وتكبر : إذا كنتما رسولَى ربكما ، فأخبرنى : من ربكما يا موسى ؟ أيها المتفاصح المتعرض للكلام .

٨ — فأجابه موسى : ليس الله ربى وربك فحسب ، بل هو رب الجميع ، ربّنا الذى خلق السموات والأرض ، والذى أعطى كل شىء من الأشياء خَلْقه ، وصوّره على صورته وشكله ، وناط به الخواصّ والمنافع اللائقة به ، وجعل بعضهم لبعض سُخْرِيًّا فى الحياة الدنيا ، وأعطى كل المخلوقات جميع ما تحتاج إليه ، ثم هَدَى كُلاًّ إلى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطى ، وعرّفه بطبعه أو باختياره ، كيف يحافظ على بقائه ونوعه .

٩ — لما شاهد فرعون ما سلكه موسى من الاستدلال النيّر ، والبرهان الواضح ، خاف أن يُظهر موسى الناس على طريق الحق الذى اتبعه ، ويُنَبِّهَهُم على الخرافات التى يتبعها هو فيعصوه ويخالفوا أمره ، فأراد أن يحول الحديث إلى أمور لا تتعلق بالرسالة ، وإلى غرض غير الغرض الذى جاء من أجله ، فقال له : ما حال القرون الماضية ، والأمم الخالية ؟ فأجاب عليه

السلام : بأن العلم بأحوالهم ليس من شأن الرسالة التى جئت بها إليك ، فإنما أنا بشر مثلك ، ولكن يوحَى إلى من عند الله ، أما علم أحوال من ماتوا وذهبوا فهو غيب ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، هو ثابت فى اللوح المحفوظ ، لا تمحوه السنون والأيام ، يلقاه الناس أمامهم يوم الحساب ، والله جل شأنه متمكن علمه بكل شىء ، محيط به كل الإحاطة ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، لا يخطئ ولا يضلّ عنه مكانُ أى شىء أو زمانه ، ولا ينسى ولا يذهب عنه علم أى شىء أو زمانه ، لأن الخطأ والنسيان مُحَالان على ذاته جل وعلا .

١٠ — وبعد أن ذكر موسى أدلته على ألوهية الله تعالى وحده ، ذكر سبحانه وتعالى دلائل قدرته ووحدانيّته ، فأخبر عن نفسه بأنه هو الذى خلق الأرض ، وجعلها ممهدة مسهّلة لمنافع الناس ، كما يمهد الفراش للصبي ، وشق لهم فيها طرقاً بين جبالها وسهولها ، وصحاريها ووديانها ، وبحارها وأنهارها ، وجَوّها وبَرّها ، ليبلغوا مآربهم ، ويحصلوا على منافعهم منها ، وليعْمُروها ويصلحوها ، وأنزل المطر من السماء ، فسالت به أنهار وبحار ، وجرت منه عيون وينابيع فى الأرض ، وبقدرته وحده سقيت الأرض بهذا الماء ، وأخرجت من النبات أزواجاً متفرقة ، وصنوفاً مختلفة ، طعماً ولوناً ، ورائحة وشكلا ، وجعل منافعها مختلفة ، غذاء للإنسان ، ومرعى للحيوان ، ودواء للمرض ، وسمادا للأرض ، وكساء وزينة ، وأباح لهم أن يأكلوها ، ويرعَوْا أنعامهم التى يستخدمونها ويأكلونها ؛ إن فى تلك النعم الظاهرة ، والمنن الجليلة الواضحة ، لآيات جليلة ، ودلائل واضحة ، لذوى العقول الناهية عن الباطل ، على ما تفرد به تعالى من صفات وأفعال ، وعلى صحة نبوة موسى وهارون ، عليهما الصلاة والسلام .

١١- إن أصل أبدانكم مكونة من نطف آبائكم ، وإن هذه النطف متولدة من الغذاء الذى تستمدونه من الأرض ، فمن الأرض خلقناكم وصورناكم ، ومنها استخرجتم جوهر معيشتكم وحياتكم ، فإن الأخلاط والعناصر التى تتركب منها أبدانكم ، ما هى إلا أخلاط وعناصر من مركبات الأرض ؛ وبعد الموت نعيدكم إلى الأرض التى خلقتم منها ، وتكونت أبدانكم من عناصرها ، فتتفتت أجسامكم ، وتتفكك أوصالكم ، وتتحلل مواد أبدانكم ، حتى تصير من تراب الأرض ، وتمتزج بها ، وترجع إلى أصلها ؛ فإذا جاء يوم القيامة ، جمعنا هذه الأجزاء الدقيقة المتفتتة الذاهبة فى بطن الأرض ، وأنشأناكم مرة أخرى خلقاً جديداً ، على صوركم التى كنتم عليها فى الحياة الدنيا ، ورددنا أرواحكم إليها ، وجمعناكم للحساب ، ثم أحييناكم الحياة الأخرى ، إما إلى جنة ، وإما إلى نار .

١٢- ولقد أرينا فرعون جميع الآيات المستتبعة للإقناع ، والدلائل الموجبة للإيمان ، من معجزات حسِّيَّة لاتقبل الشكّ ، كإخراج يد موسى بيضاء مشرقة بهيّة ، وانقلاب العصا حيّة تلقَفُ ماصنعوا ، ومن مشاهدات كونيّة ، وإبداع فى خلق الأرض ، حتى كان منها أصل حياة الإنسان ، وأسباب معاشه ، ومن قدرة صانع حكيم فى أن خلَق هذا الإنسان وسوّاه من طين ، كل هذه المعجزات ، وتلك البينات ، أظهرناها لفرعون ، وأريناه إياها رؤيا البصيرة والبصر ، فكذّب بهذه الآيات ، وقال إنها سحر مفترى ، وأبى أن يقبل الحق ، ويؤمن بالله ، علوًّا واستكباراً ، وخوفاً على أرضه وملكه ، إنه كان من الظالمين .

(٥)

من الآية ٥٧ إلى الآية ٧٦ من سورة طه

قَالَ : أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى؟ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ، فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ ، مَكَانًا سُوًى –١–. قَالَ : مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ، وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًا –٢–. فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ ، فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى. قَالَ لَهُمْ مُوسَى : وَيْلَكُمْ ! لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ، وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى –٣– . فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ، وَأَسَرُّوا النَّجْوَى . قَالُوا : إِنْ هٰذَانِ لَسَاحِرَانِ ، يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا ، وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى . فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أْتُوا صَفًّا ، وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى –٤–. قَالُوا : يَا مُوسَى ، إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى . قَالَ : بَلْ أَلْقُوا ، فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى –٥– . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى –٦– . قُلْنَا : لَا تَخَفْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى –٧– . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ، إِنَّ مَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ، وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ

حَيْثُ أَتَى —٨— . فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ، قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ هٰرُونَ وَمُوسَى —٩— . قَالَ : آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ؟ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ، فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ، وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ، وَلَتَعْلَمُنَّ : أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى —١٠— . قَالُوا : لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ، فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي هٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى —١١—. إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ ، لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا —١٢— . وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ ، فَأُولٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا —١٣— . جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى —١٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لتخرجنا من أرضنا	لتستولى على وطننا مصر، وتجعله حِلاً لبنى إسرائيل .
مكاناً سُوًى	مكاناً مستوياً لا توعُّر فيه .
يوم الزينة	يوم عيد عام كان للمصريين كل عام ، ولعله يوم وفاء النيل .
وأن يحشر الناس ضحا	وأن يجتمع الناس يوم الزينة وقت الضحا .
فتولى فرعون	انصرف عن المجلس .
فجمع كيده ثم أتى	فأحضر ما يكيد به موسى من السحرة وأدوات السحر ، ثم أتى الموعد .
ويلكم	دعاء لموسى على فرعون والسحرة بالهلاك .
لا تفتروا على الله كذباً	لا تكذبوا على الله بادعائكم أن المعجزات ضرب من السحر .
فيسحتكم بعذاب	فيستأصلكم ويهلككم بعذاب هائل .
فتنازعوا أمرهم بينهم	فتشاور السحرة فى الأمر الذى أريد منهم ، وهو التغلب على موسى وهارون .
وأسرّوا النجوى	وتشاوروا فى السر حتى لا يعلم موسى أمر كيدهم .
إنْ هذان لساحران	إن هذين : موسى وهرون ، لساحران .
بطريقتكم المثلى	بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب ، ودينكم الذى هو خير الأديان ، وسيادتكم ورياستكم .

الألفاظ	شرحها
فأجمعوا كيدكم	اجعلوا كيدكم مُجْمَعاً عليه ، لا يتخلف منكم أحد ، واجمعوا كل أدوات السحر وفنونه .
ثم أتوا صفًّا	ثم تعالَوْا مصطفّين ، حتى يرهبكم موسى وأخوه .
وقد أفلح اليوم من استعلى	وقد فاز بالأجر والتقريب الذى وَعَد به فرعون ، من غلب .
فأوجس فى نفسه خيفة	أضمر فيها بعض الخوف ، من مفاجأته برؤية العِصِىّ حيات تسعى ، على حسب مقتضى الطبيعة البشرية ، من النفرة من الحيات .
الأعلى	المتغلب .
تَلْقف ما صنعوا	تبتلع وتلتقم بسرعة ما زوّروه وماصنعوه من الحبال والعصى ، التى خيّل إليك سعيها فخِفت .
حيث أتى	حيث كان ، وأين أقبل .
فألقى السحرة سُجَّداً	خر السحرة ساجدين .
قبل أن آذن لكم	من غير أن آذن لكم فى الإيمان برب هارون وموسى .
إنه لكبيركم الذى علمكم السحر	إن موسى لأستاذكم الذى علمكم السحر ، وغلبكم لأنه أحذق منكم فيه .
من خلاف	اليد اليمنى والرجل اليسرى .
فى جذوع النخل	على جذوع النخل .
أيُّنا	أرب موسى الذى آمنتم به ، أم أنا الذى كفرتم بى؟
لن نؤثرك	لن نختارك ونفضلك بالإيمان والاتباع .

الألفاظ	شرحها
من البينات	من المعجزات .
فطرنا	خلقنا .
فاقض ما أنت قاض	فاصنع بنا ما تريد ، ومر بما شئت من العذاب .
إنما تقضى هذه الحياة الدنيا	إنما تصنع ما تهواه ، وتحكم بما تراه ، فى هذه الحياة الدنيا فحسب .
وما أكرهتنا عليه من السحر	وما عملناه من السحر مكرهين لمعارضة موسى ، وبأمرك إيانا بالاجتماع إليه ، على غير إرادة منا .
مجرماً	كافراً .
لا يموت فيها ولا يحيا	لا يموت فيستريح بالموت ، ولا يحيا حياة ينتفع بها ، بل يبقى فى العذاب دائماً .
عدن	إقامة دائمة .
خالدين فيها	ماكثين فيها على الدوام .
تزكى	تطهر من الدنس والكفر والمعاصى ، بالإيمان والأعمال الصالحة .

مجمل المعنى

١ — لما أفحم موسى فرعون بالحجة والبرهان ، خشى أن يصدقه الناس وينحازوا إليه ، فلجأ إلى تخويفهم بأن موسى جاء طامعاً فى ملك مصر ، والاستيلاء عليها لبنى إسرائيل ، وحرمان المصريين إياها ، فقال : أجئت إلينا وأنت أجنبىّ عنا ، لتخرجنا من مصر أرضنا ، وأعز شىء علينا ؟ ولا ريب

أن هذا السؤال ينبئ عن الحَـيْـرَة والتردد ، والخوف والمغالطة ، لأن ما جاء به موسى إذا كان سحراً ، فلا ينبغى أن يخافه فرعون ، لأن السحر باطل لا يقوى على إخراج الناس من بلادهم ؛ وأراد أن يمضى فى الخديعة والمغالطة وتضليل الناس ، فقال بصيغة القسم : أقسم لنأتينك بسحر مثل سحرك ، وسنتحداك ونُظهر على ملأ الناس عجزك ، فاضرب لنا موعداً نجتمع فيه ، لنبطل سحرك ، ونعارضه بسحر مثله ، وإننا لواثقون من قوة سحرنا ، فلن نخلف نحن هذا الموعد ، ولا تخلفه أنت ، لأنك الذى ضربته واخترته ، وأن يكون الموعد لاجتماعنا فى مكان مستو من الأرض ، لا وَعْر فيه ولا جبل ، ولا انحراف ، حتى يتسنى لكل النَّظَّارة أن يشاهدوا سحرنا وسحرك فى تلك الساحة الواسعة الفسيحة ، ويروا بأعينهم كيف نهزمك ونتغلب عليك .

٢ – أجاب موسى على الفور : الموعد بينى وبينكم يوم الزينة ، يوم العيد لكل المصريين ، – قيل : إنه يوم وفاء النيل ، على ما يرى بعض المؤرخين – يلتقى فيه جمعنا وجمعكم وقت الضحا ، حتى يكون ظهور الحق وزهوق الباطل ، فى مجمع حاشد ، على رءوس الأشهاد .

٣ – فانصرف فرعون ، وأخذ يجمع من المدائن المختلفة أولى المهارة فى السحر والحِيَل ، فلما جاء الموعد المتفق عليه ، أتى فرعون وحزبه ، وأتى موسى وأخوه ومن معه من بنى إسرائيل ، فقال لهم موسى : الويل والهلاك لكم ! ما أشقاكم وما أتعسكم ! لا تكذبوا على الله ، فتدّعوا أن سحركم هذا آية من آياته ، أو أن معجزاتى التى أيدنى الله بها ضرب من السحر ، إنكم إن جرؤتم على الافتراء على الله بذلك ، فسيهلككم ويستأصلكم ، بما يسلط عليكم من عذاب ، ولن يفلح المفترى ، ولن يظفر ببغيته من افترى على الله الكذب .

٤ — ولما سمع السحرة من موسى هذه المقالة ، دب الرعب فى قلوبهم ، وسرى الخوف فى نفوسهم ، فخَلَوا إلى أنفسهم ، وتشاوروا فى أمر سحرهم ، وتجاذبوا أطراف الحديث سرًّا فى تلفيق الضلال ، وإحكام البهتان ، ثم خرجوا على الناس ، وقالوا لهم : إن موسى وهرون ساحران لا نبيَّان ، يبغيان أن يستوليا على أرضكم ، ويتسلطا على وطنكم ، ويخرجاكم منه بما لديهما من سحر ، ويحملاكم على اتباع مذهبهما ، واعتناق دينهما ، ويذهبا باستقلالكم ورياستكم ، وطريقتكم التى هى أمثل من طريقتهما ، ودينكم الذى هو خير من دينهما — كم أغرت منافع الدنيا كثيراً من الناس على أن يقلبوا الحقائق ، ويخالفوا ضمائرهم ، ويبيعوا ذممهم ، ويحملوا الناس على الباطل ! — ثم قال بعضهم لبعض : توفروا على سحركم ، وكونوا يداً واحدة ، ورجلا واحداً ، لا يدخر أحدكم جهداً ، ولا يدع أداة من أدوات السحر ، أو فَنًّا من فنونه إلا أتى به ؛ ثم أقبلوا صفًّا واحداً لتظهر قوّتكم ورهبتكم ، فيخافكم موسى ومن معه ؛ وإن الفلاح والنجاح ، والأجر والثواب ، والفوز والتقرب من فرعون — كل ذلك محقق لمن غلب فى هذا اليوم موسى ، واستعلى عليه .

٥ — اجتمع فرعون وجنوده حشداً ، ووقف السحرة صفًّا ، وجاء موسى وهرون ومن معهما من بنى إسرائيل ، فقال السحرة لموسى قول الواثق بنفسه ، المطمئن لسحره : يا موسى ، لك الخيار ، إما أن تُلقى عصاك أوّلا ، وإما أن نلقى حبالنا وعصينا أولا ، فأجابهم موسى — لكى يستنفدوا كل ما لديهم من طرق السحر ، ويُفرغوا كل مجهودهم فيه ، فإذا فعلوا أظهر الله سلطانه ، وقذف بالحق على الباطل فيدمغه — : بل ألقوا ، فألقَوْا ما لديهم من عِصِيّ وحبال ، ففوجئ موسى ، إذ خُيِّل إليه أنها تتحرك وتسعى ، وأن

الحياة قد دبت فيها ؛ والحقيقة أن حيلتهم فيما اتخذوا لها من طلاء ، وما وضعوا فى جوفها من زئبق ، وما أبدعوا فى تكوينها من فن ، جعلها تتحرك حركات صناعية ، وتظهر كأنها أفاع حية حقيقية .

٦ — فلما رأى موسى ما رأى ، تغلبت عليه طبيعته البشرية ، وجبلّته الإنسانية ، وداخله الخوف من منظر الأفاعى والحيات ، وأحسّ بعض الخوف فى نفسه ، وساوره قلق من أن يفتتن الناس بظاهر ما رأوا ، فيصدقوا السَّحرة ، ويتابعوا فرعون فى ضلاله و بهتانه .

٧ — فأدركه الله بلطفه ، وأعاد الطمأنينة إلى قلبه ، وقال له : لا تخف مما توهمت ، فإنه سحر لا حقيقة ، وأنت الغالب لهم ، المستعلى عليهم .

٨ — ولا يهولنك كثْرة حبالهم وعصيهم وجسامتها ، فألق تلك العصا التى بيمينك ، وسترى قدرة الله كامنة فيها . إنك إن تلقها فستبتلع كل ما زوّروا من سِحر ، وما صنعوا من كيد ، وإن الذى افتعلوه و زوّروه كيد ساحر ، وتز وير كاذب . ولا ينجح الساحر حيث احتال ، ولا يظفر ببغيته حيث توجه ، وأنى سلك .

٩ — لما أوحى الله إلى موسى بذلك ، ذهب عنه الخوف ، وألقى العصا التى فى يمينه ، فانقلبت حية عظيمة مخيفة ، فابتلعت حبالهم وعصيّهم ، ثم تناولها موسى فعادت عصا كما كانت ، ولم يجد السَّحَرة بعد ذلك الحبال والعصى التى ألقوها ، فعلموا أن هذه معجزة من معجزات الله ، وليس فى طوق بشر أن يخترعها ، فخروا لله ساجدين ، وقالوا : آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون .

١٠ — غضب فرعون ، وأخذ يهذى هذيان المحموم ، ويقول لهم : كيف اجترأتم على أن تؤمنوا برب موسى وهارون ، قبل أن آذن لكم ، كأن الإيمان

بالخالق القادر ، يتطلب إذن المخلوق العاجز ، ثم مضى فى هذيانه وجنونه ، فقال : إنها مؤامرة ، إنها دسيسة ، إنه تواطؤ بينكم وبين موسى على سلب الملك ، وقلب نظام الحكم ، إن موسى كبيركم وأستاذكم الذى علمكم السحر ، ثم أخذ فى التهديد والوعيد ، فقال لهم : أقسم لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف : اليد اليمنى والرجل اليسرى ، حتى أنكّل بكم ، وأذيقكم أشد العذاب ، وأشوهكم تشويهاً ، وليس يكفينى لكم ذلك ، فلأصلبنكم على جذوع النخل تمثيلا بكم ، وعظة وعبرة لغيركم ، ولتعلمُن بعد ذلك : أينا أشد عذاباً ، وأدوم عقاباً ، أ أنا أم إله موسى الذى سجدتم له قبل أن آذن لكم ؟ يا ويلكم !

١١ — ما أقوى الضعيف بإيمانه ! وما أشد استهانته بقوة الاعتقاد على الطغيان والبهتان ! لقد قال المستضعفون فى الأرض ، المسخَّرون لخدمة فرعون ، العابدون الساجدون له ، مقالة صريحة مدوّية : لن نخاف عقابك ، ولن نرضى باتباعك ، ولن نُؤْثر سلامتنا من عذابك ، على ما جاءنا من الهُدى والبينات ، وما ظهر لنا من الحق والمعجزات ، ولن ننتظر إذنك حتى نؤمن بالله ، ولن يَثنينا عن الخضوع له تهديدك ، ولن نترك عبادة الذى فطرنا وخلقنا ، إلى عبادة إنسان ضالّ لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً ، فافعل ما أردت ، واصنع بنا ما شئت ، وعذّبنا تعذيباً ، ونكِّل بنا تنكيلا ، إنما تصنع ما تهواه ، وتحكم بما تراه ، فى هذه الحياة الدنيا فحسْب ، ولقد اشترينا الآخرة بدنياك ، وآثرنا الإيمان على ضلالك ، وإننا آمنا بربنا ، لا ليخلصنا من عذابك وبطشك ، ولكن ليغفر لنا ما ارتكبنا من خطايا فى اتباعك ، والسير فى ركابك ، ومن أعمال السحر التى أكرهتنا عليها فى معارضة موسى عليه السلام ، والله خير لنا من الدنيا وما فيها ، وأبقى جزاء وثواباً .

١٢— وليس تهديد فرعون لمن آمنوا بالله ، وخرّوا له ساجدين ، مما يؤبه له ، فكلٌّ محاسب على عمله ، وإن كل شخص سيموت ، وسيبعث يوم القيامة ، فمن يُبْعث وهو كافر ، ويقف أمام ربه ليلقى جزاءه ، فسيجد جهنم يعذب فيها دائماً ، ولا يموت فيها فيستريح بالموت ، ولا يحيا فيها حياة نافعة ، بل يبقى فى هوان وعذاب .

١٣— ومن يبعث وهو مؤمن بالله ورسوله ، وما جاء به الرسول من معجزات وبينات ، وقد قرن إيمانه بالأعمال الحسنة ، الصالحة النافعة ، المستقيمة فى الحياة ، فقد أعد الله له الدرجات العُلا ، والمنازل الرفيعة ، والحياة الباقية الطيبة .

١٤— وهذه الدرجات التى أعدها الله للمؤمنين الذين عملوا الصالحات ، هى جنات أعدت أمكنتها لهم ، وزودت بكل أنواع النعيم ، ووسائل الراحة والسعادة ، يمكثون فيها دائماً ، ويقيمون فيها إلى غير نهاية ، وهذه الدرجات العلا ، وتلك الجنات ، جزاء لمن تطهروا من دنس المعاصى ، بالإيمان والأعمال الصالحة .

(٦)

من الآية ٧٧ إلى الآية ٨٩ من سورة طه

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ، فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ، لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ، فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ، فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ، وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى –١– . يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ، وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ، وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى –٢– . وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، ثُمَّ اهْتَدَى –٣– . وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ؟ قَالَ هُمْ : أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي ، وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ، –٤– قَالَ : فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ، وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ، فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ، قَالَ : يَا قَوْمِ ، أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ؟ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ؟ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ؟ –٥– . قَالُوا : مَا أَخْلَفْنَا

مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ، وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا ، فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِىُّ ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ، فَقَالُوا : هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَى ، فَنَسِىَ ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ، وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ؟ –٦– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أسر بعبادى	اخرج بهم من مصر ليلا .
اضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً	اجعل لهم مسلكاً ، وشق لهم طريقاً فى البحر جافاً .
لا تخاف دركاً	لا تخاف أن يدركك فرعون وجنوده من ورائك .
ولا تخشى	ولا تخاف غرقاً فى البحر أمامك .
فأتبعهم فرعون بجنوده	خرج وراءهم ومعه جنوده .
فغشيهم من اليم ماغشيهم	فأصابهم من أهوال البحر ما لا يعلم كنهه إلا الله .
وأضل فرعون قومه	مال فرعون بقومه عن سبيل الرشاد .
وما هدى	وما أرشدهم إلى الحق .
من عدوكم	من فرعون .
وواعدناكم جانب الطور الأيمن	ووعد الله موسى وسبعين رجلا من بنى إسرائيل ، فى الجانب الذى يكون على يمينهم من الطور ، المناجاة ونزول التوراة على موسى .

الألفاظ	شرحها
المنّ	صمغ حُلو الطعم كالعسل .
والسلوى	طير السُّمَانَى .
ولا تطغَوْا فيه	لا تتجاوزوا حدود ما أحل الله لكم فى التمتع بهذه الطيبات ، فتنفقوها فى المعاصى والمنكرات .
غضبى	عقابى .
هوى	هلك وسقط سقوطاً لا نهوض بعده .
ثم اهتدى	ثم استقام وثبت على الهدى ، من التوبة والإيمان والعمل الصالح .
وما أعجلك عن قومك	أى شىء أوجب إسراعك فى الحضور إلى جانب الطور ، قبل من معك من النقباء ؟
هم أولاء على أثرى	ها هم أولاء قد حضروا على أثرى ، وبينى وبينهم خطوات يسيرة .
وعجلت إليك رب لترضى	وقد أدّانى اجتهادى إلى أن الإسراع فى الحضور إليك ، مما يَزيد فى رضاك عنى .
فتنّا قومك من بعدك	ابتلينا قومك الذين خلفتهم مع هارون بالفتنة والضلال ، بعد خروجك من بينهم .
وأضلهم السامرى	وأوقعهم السامرى — وكان منافقاً من بنى إسرائيل — فى الضلال ، فعبدوا العجل الذى كان المصريون يعبدونه .
أسفاً	حزيناً .
فأخلفتم موعدى	فرجعتم عما وعدتمونى به من الثبات على الإيمان بالله .

الألفاظ	شرحها
ما أخلفنا موعدك بملكنا	لم نخالف وعدنا إياك برأينا ورغبتنا ، ولكن أضلنا السامرى ، وغلبنا على رأينا .
ولكنا حُمِّلنا أوزاراً من زينة القوم	ولكن السامرىّ خدعنا ، بأن قال لنا : إن الحلى التى معكم قد سلبتموها من قبط مصر وتحملتم بسببها أوزاراً ، فعاقبكم الله بتأخير عودة موسى ، فألقوها ليرجع .
فقذفناها	فألقيناه فى نار السامرىّ كما أمر .
وكذلك ألقى السامرى	وكذلك ألقى السامرى فى النار ما معه من حلى ، ليُحكم خديعتنا .
فأخرج لهم	فأخرج لهم من النار .
عجلا جسداً	تمثال عجل مجسّد .
له خوار	له صوت كصوت العجول الحية .
فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى	فقال السامرى ومن اتبعه : هذا العجل هو إلهكم وإله موسى .
فنسى	لكن موسى نسى أن يعود إليكم ، ليرى الإله الذى يبحث عنه ، فذهب يطلبه عند الجانب الأيمن من الطور .
أن لا يرجع إليهم قولا	أن العجل لا يستطيع أن يكلمهم .

مجمل المعنى

١ — بعد أن تتابعت الحجج والمعجزات ، والآيات البينات ، من موسى لفرعون ، فلم يؤمن بها ، وتمادى فى طغيانه ، أوحى الله إلى موسى وحياً مقروناً بالقسم والتوكيد ، أن يخرج ليلا من مصر ببنى إسرائيل ، وأن يجعل لهم فى البحر طريقاً يابساً جافاً ، وأخبره بأنه لا يخاف من أن يتعقبه فرعون وجنوده فيدركوه ، ولا يخشى الغرق إذا سلك طريقاً فى البحر ، فخرج موسى ليلا ببنى إسرائيل ، ومضى حتى وصل إلى البحر ، فضربه بعصاه كما أمره الله ، فانفلق البحر فلقتين عاليتين ، كل فِرق كالطود العظيم ، وانفتح له من بينهما طريق يابس جافّ ممهّد ، فسار فيه موسى ومن ورائه بنو إسرائيل ؛ فلما وصل فرعون ووجد الطريق جافا واضحاً فى البحر ، ورأى بنى إسرائيل يسيرون فيه بلا خوف من غرق ، ولا خشية من أن يدركهم ، غَرَّه الطمع ، فاتبعهم ، واقتفى أثرهم ، فما كاد فرعون وجنوده ينزلون ، حتى انطبق عليهم البحر ، وطواهم الماء ، وأصابهم من أهوال البحر ما لا يعلم كنهه إلا الله ، وغرقوا جميعاً ، وهكذا أضل فرعون قومه ، وجاوز بهم سبيل الرشاد ، وسلك بهم الطريق إلى الهلاك والنار ، يأمرهم بالكفر بالله ، وتكذيب رسله ، وما هداهم إلى الحق ، وما سلك بهم الطريق المستقيم : طريق الإيمان بالله ، واتباع رسله .

٢ — وقد خاطب الله بنى إسرائيل بعد أن استنقذهم من الاضطهاد والعذاب ، وأنجاهم من فرعون وجنوده ، فعدد نعمه عليهم ، بأن أنجاهم من عدوهم فرعون ، وواعدهم متمثلين فى موسى والسبعين نقيباً منهم ، الذين ذهبوا مع موسى ليسمعوا ويروا مناجاة الله له ، ونزول التوراة عليه ، عند الجانب

الذى على يمينهم من الطور ، وضرب لهم موعد أربعين ليلة ، وكفل لهم أرزاقهم طيبة شهية ، فى أرض التيه ، من منٍّ حلو كالشهد ، ولحم طيب من السلوَى ، (تراجع الفقرة السابعة من الصفحة ٤٩ من تفسير الجزء الأول) ، وقال لهم : كلوا من طيبات ما أعطيناكم من رزق ميسّر ، حلال لذيذ ، ولا تتجاوزوا الحد فى الاستمتاع به ، فتُنفقوه فى منكر أو معصية ، أو تكونوا فيه مسرفين ، أو لنعمة الله بَطِرِين أو جاحدين ، إنكم إن فعلتم شيئاً من ذلك ، استحققتم غضبى ، وحلت عليكم نقمتى ، ومن يستوجب غضَب الله ، فإنه يتردى فى الهاوية ، ويسقط فى درك من العذاب لا نهوض له منه .

٣ — ومع أنى عزيز ذو انتقام ، فإنى كثير المغفرة ، واسع الرحمة ، لمن تاب عن الشرك ، وأقلع عن المعاصى ، ونهى النفس عن الآثام ، وآمن بالله ورسله ، وما أنزل عليهم ، وعمل الأعمال الصالحة وَفق الخير والاستقامة ، ثم ثبت على الهدى المقتضى للتوبة والإيمان والعمل الصالح .

٤ — ولما ذهب موسى والنقباء إلى مناجاة ربه ، كان قد سبقهم بمسافة يسيرة إلى الطور ، فلم يرض له ربه ذلك ، وأخبره أن رئيس القوم لا ينبغى أن يعتزلهم أو يتميز عنهم ، خصوصاً إذا كانوا ذاهبين إلى مقام كريم ، وموقف عظيم ، فقال له : أى شىء جعلك تتعجل المجئ إلى المكان الموعود دون قومك ؟ فأجاب موسى ، بأنهم آتون ورائى ، وليس بينى وبينهم إلا مسافة يسيرة ، وقد أدّانى اجتهادى إلى أن السبق بالوفاء إلى موعدك ، والمسارعة إلى طاعتك ، مما يرضيك .

٥ — ولما أتم موسى الميقات المحدد ، وهو الأربعون ليلة ، وترك بنى إسرائيل مع أخيه هارون ، كان بينهم شيطان رجيم ، وعدو مُضل مبين ، هو

السامرىّ ، فأخبر الله موسى أنه ابتلى قومه بالفتنة ، بعد أن ذهب عنهم وتركهم ، وأن السامرىّ أضلهم ، وأرجعهم إلى عبادة العجل ، كما كان المصريون يفعلون ، فعاد موسى إليهم ، وهو فى أشد حالات الغضب والحزن ، فقال لهم : رجعتم إلى ضلالكم القديم ، ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، بأن يعطيكم التوراة التى فيها هدى ونور ؟ هل طال بكم عهد مفارقتى لكم ، فخرجتم من الإيمان إلى الكفر ؟ أو أردتم أن تفعلوا فعلا سيئاً يستوجب غضب ربكم ، فأخلفتم ما وعدتمونى به من الثبات على الإيمان ، والبقاء على الهدى ، واتخذتم العجل ؟ .

٦ — قالوا لموسى : إننا لم نخلف ما وعدناك به من الثبات على الإيمان برأينا وإرادتنا ، ولكن تسلط علينا السامرىّ فأضلنا وخدعنا ، وقال لنا : إن ما لدينا من ذهب أخذناه من المصريين عاريةً ولم نرده إليهم ، قد أغضب ربكم ، وما هو إلا أوزار تحملونها ، فتؤخر عودة موسى إليكم ، والرأى أن تقذفوها فى النار التى أوقدتها لكم ، ليرضى ربكم ، ويرجع موسى إليكم ، فصدّقناه وقذفنا بالحلىّ فى ناره ، وكذلك أسرع السامرى فقذف ما معه من حلىّ ، فوقع الذهب فى قالَب التمثال الذى كان السامرى قد دسه فى النار ، فأخرج لهم من حُليّهم تمثالا مجسما متقن الصنع لعجل مجوف ، وعرضه بينهم فى مهب الريح ، بحيث يخرج منه صوت كخوار البقر ، فعجب الناس لذلك ، وخدعتهم دقة الصناعة والمهارة ، وفُتِنوا بخداع السامرىّ ، ووقفوا أمام العجل مَبْهورين ، فاستغل السامرىّ إعجابهم بالتمثال ، وقال لهم : هذا إلهكم الذى ينبغى أن تعبدوه ، وهو إله موسى الذى ترككم وذهب ليبحث عنه ، ونسى أن يعود إليكم ليرى عندكم الإله الذى يبحث عنه ؛ ما أجهل القوم وما أضل عقولهم ! أفلا يرون أن هذا

التمثال الذى يزعم لهم السامرى أنه إله يعبد ، ويضر وينفع ، لا يستطيع أن يكون مثلهم ، فيُعيد عليهم الكلام ، أو يرد عليهم القول ؟ فهو أقل منهم قدرة ، وأحَطّ عُنصراً ، لأنه لا يتكلم وهم يتكلمون ، وهو جماد صامت ، وهم أحياء يتحركون ، ويقومون ويقعدون ، فكيف يكون إلههم؟ والإله يجب أن يكون قادراً على أن يضر وينفع ، وهذا التمثال الصامت الجامد لا يضر ولا ينفع ، فكيف يكون إلهاً ؟

(٧)

من الآية ٩٠ إلى الآية ٩٨ من سورة طه

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَرُونُ مِنْ قَبْلُ : يَا قَوْمِ ، إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ ، فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي —١— . قَالُوا : لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى —٢— . قَالَ : يَا هَارُونُ ، مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ ؟ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ؟ قَالَ : يَابْنَ أُمَّ ، لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ، إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ : فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي —٣— . قَالَ : فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ؟ قَالَ : بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ، وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي —٤— . قَالَ : فَاذْهَبْ ، فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ : لَا مِسَاسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ، لَنُحَرِّقَنَّهُ ، ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا —٥— . إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
من قبلُ	من قبل أن يأتى موسى ويرجع .
فتنتم به	ابتُليتم بالعجل فلا تعبدوه .
لن نبرح عليه	سنلزم عبادته .
عاكفين	مقيمين ملازمين .
ضلّوا	انحرفوا عن الإيمان بالله إلى عبادة العجل .
ألا تتبعن	أن تلحقنى وتجىء إلىّ لتخبرنى ، ولا هنا : زائدة
أفعصيت أمرى	أخالفت أمرى إليك فى مراقبتهم ، ومنعهم من الضلال ؟
يا بن أم	يا أخى ، يا بن أمى .
لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى	لا تشتد فى الغضب علىّ ، فتجذبنى من شعر لحيتى أو رأسى .
خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل	خشيت إن تركتهم ، أو قاتلت الضالين منهم ، أن تقول : إنى أحدثت تفريقاً بينهم .
ولم ترقب قولى	ولم تتبع ما أمرتنى به ، من أن أخلُفَك فى الإشراف عليهم ، والإصلاح بينهم .
ما خطبك يا سامرى	ما أمرك وما شأنك الذى أنت فيه يا سامرى ؟ .
بصُرت بما لم يبصروا به	عرفت ما لم يعرفوه ، وهو أن الذى جئتهم به ليس بحق .
فقبضت قبضة من أثر الرسول	فأخذت شيئاً من دين موسى وسُنّته .

شرحها	الألفاظ
فطرحتها وتركتها .	فنبذتها
مثل ما فعلت حسَّنَتْه لى نفسى ، وحدثتنى به .	وكذلك سولت لى نفسى
فإنا قد كتبنا عليك عقوبة فى الحياة .	فإن لك فى الحياة
أن تقول لكل من رأيت : لا أمسك ولا تمسنى ، خوف أن يصيبك أذاه ، فتعيش طريداً .	أن تقول : لا مساس
وإن لك عقاباً أشد فى الآخرة .	وإن لك موعداً
لن يخلفك الله إياه ، وسيأتيك لا محالة .	لن تخلفه
لازمت عبادته ، وأقمت عليها .	ظلت عليه عاكفاً
لنُذَرِّيَنَّه رماداً فى البحر تذرية .	لننسفنه

مجمل المعنى

١ — ولقد نصح هارون لمن ضلوا من بنى إسرائيل ، واتبعوا السامرى ، فقال لهم قبل أن يأتى موسى ويرجع : يا قوم ، إن عبادتكم العجل فتنة وضلال وبلاء ، وتمويه من السامرى ، وقد ابتُليتم وفتنتم بعبادته من قبلُ فى مصر ، فكيف ترجعون إليها ؟ وإن الإله الذى يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به أحداً ، هو ربكم الرحمن ، الذى أنشأكم ورعاكم ، وشملكم بلطفه ورحمته ، لا العجل الذى لا ينفع ولا يضر ، ومن أجل ذلك أدعوكم أن تثبتوا على دينكم ، وتتبعونى ولا تتبعوا السامرى ، وتطيعونى فيما أمرتكم به ، من الثبات على الدين الحق .

٢ - أجاب أصحاب السامرى هارون : بأنهم مستمرون على عبادة العجل ، وسيقيمون حوله يعبدونه ، حتى يعود إليهم موسى ، فيخبرهم إن كان هذا هو الإله الذى صنعه لهم السامرى ، أو الإله الذى ذهب هو لمناجاته ، فاعتزلهم هارون ومعه اثنا عشر ألفاً من بنى إسرائيل ، ممن ثبتوا على دينهم ، ولم يتبعوا السامرى .

٣ - رجع موسى فوجد كثيراً من بنى إسرائيل عاكفين على عبادة العجل ، فاشتد هياجه وغضبه على أخيه هارون ، وقال له فى غيظ وعنف ، وقد جذبه من لحيته وشعر رأسه : ما منعك إذ رأيت القوم قد انخدعوا بكيد السامرى ، وضلوا باتباعه ، ومالوا إلى عبادة العجل ، أن تَتْبعنى وتلحق بى ، لتخبرنى بحالهم ؟ ألم آمرك أن تخلُفنى فى هؤلاء القوم ، وأن تصلح فيهم ، ولا تتبع سبيل المفسدين ؟ فكيف رضيت أن تقيم بينهم ، وقد كفروا وضلوا ؟ قال هارون لأخيه موسى : يا أخى ، ترفق بى ولا تغضب ، فإن بينى وبينك من واشجة الرَّحِم ، وعاطفة الإخاء ، ما يخفِّف من حدتك علىّ ، ويجعلك تتلطف بى ، ألست أخى وابن أمى ؟ ألتمس منك ألا تجذبنى من لحيتى ورأسى ، وأن تتمهل حتى تعرف عذرى ، إنى لم أفارقهم ، ولم ألحق بك مع من ثبت على دينه منهم ، لأنى خشيت أن تظن أنى فرقت بين بنى إسرائيل ، فجعلت فريقاً يتبعك ، وفريقاً يتبع السامرى ، وخشيت أن تقول لى : إنك تركتَهم ، وقد أمرتك أن تبقى بينهم وتخلفنى فيهم ، وتراعى ما قلته لك ، وتحفظ ما أمرتك به ، فانتظرتك حتى تعود ، وترى رأيك فيهم .

٤ - أقبل موسى باللوم على السامرى ، وقال له : ما شأنك ؟ وما حملك على أن خاطبت بنى إسرائيل بما خاطبت ، وفعلت معهم ما فعلت ؟ فلجأ إلى

التزييف والمكابرة، وقال لموسى : عرفت ما لم يعرفه أحد، من أنكم لستم على حق ،، وكنت قد اتبعتك ، وأخذت بشيء من دينك ، فطرحته وتركته ، إلى عبادة العجل الذى كنت أعبده ، وبمثل ذلك حدثتنى نفسى ، وحسَّنته لى ، ففعلته .

٥ — عاقب الله السامرى فى الدنيا عقاباً مؤلماً ، فأمر الناس باعتزاله، ومنعهم من مخالطته ، وحرّم عليهم ملاقاته ومحادثته ومعايشته ، حتى نَفَرَ من الناس ونفروا منه ، فلزم البرِّية ، وعاش مع الوحوش حتى استوحش ، وصار إذا رأى أحداً يقول : لا مساس ، أى لا تمسنى ولا أمسك ، خشية أن ينالنى أذاك ، أو ينالك أذاى . وقد أعد له عذاباً فى الآخرة ، لن يقع فيه خُلْف ، بل ينجزه الله له، وقد وبخ موسى عليه السلام السامرى على اتخاذه العجل إلهاً ، ونبهه على سُخْفه وسوء تفكيره، فقال له : انظر إلى إلهك الذى ظَلِلتَ عاكفاً على عبادته ، أقسم لنُحَرِّقَنَّه بالنار التى صنعته بها ، حتى يصير رماداً ، ثم لنُذَرِّيَنَّه فى البحر تذرية ، حتى لا ترى له عيناً ولا أثراً .

٦ — ولما فرغ موسى من إبطال ما عمله السامرى ، عاد إلى بيان الدين الحق ، فقال : ما لكم أيها القوم معبود مستحق للعبادة إلا الله ، الذى ليس فى الوجود إله سواه ، وقد وسع علمه كل ما من شأنه أن يعلم ، لا العجل الذى يذاب فى النار ويصب فى قالب ، ثم يحرق ويصير رماداً ، ويذرَّى فى البحر ، فلا يحس ولا يتكلم ، ولا يشكو ولا يتألم .

(٨)

من الآية ٩٩ إلى الآية ١١٤ من سورة طه

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا –١– مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ، خَالِدِينَ فِيهِ ، وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ! –٢– . يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ، يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ، إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا –٣– . وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ، فَقُلْ : يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ، فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ، لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا –٤– . يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ، فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ، يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ ، وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا –٥– . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا –٦– . وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ — وَهُوَ مُؤْمِنٌ — فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا –٧– . وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا

عَرَبِيًّا ، وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ، أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا —٨— . فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ : رَبِّ زِدْنِي عِلْماً —٩— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق	مثل ما قصصناه عليك من قصة موسى وفرعون ، نقص عليك بعض أنباء ما سبق ، من أخبار الأمم الماضية .
آتيناك من لدنّا ذكراً	أعطيناك من عندنا قرآناً .
أعرض عنه	انصرف عن القرآن ولم يؤمن به .
وزراً	عقاباً ثقيلا .
خالدين فيه	ماكثين فى عذاب هذا الوزر دائماً .
ساء لهم يوم القيامة حملا	بئس حملا وزرهم يوم القيامة ! .
ينفخ فى الصور	تمثيل لبعث الناس من قبورهم ، أو الصور : هو البوق الذى ينفخ فيه إسرافيل للبعث .
زرقاً	مشوهة خلقهم .
يتخافتون بينهم	يقول بعضهم لبعض سرًّا ، لهول ذلك اليوم .
إن لبثتم إلا عشراً	ما لبثتم فى القبور إلا وقتاً قصيراً ، مقداره عشر ليال .

الألفاظ	شرحها
أمثلُهم طريقة	أعد لهم قولا .
ينسفها ربى نسفاً	يفتتها الله تفتيتاً ، حتى تصير كالهباء ، ثم يرسل الرياح فتذروها .
فيذرها قاعاً صفصفاً	فيتركها سهلا مستوياً أملس ، لا يبقى من جِرمها الناتئ عن الأرض شيئاً .
عوجاً	تعوجاً .
أمتاً	ارتفاعاً ونتوءاً .
يومئذ	يوم نسف الجبال فى يوم القيامة .
يتبعون الداعى	يتبعون صوت الداعى إلى المحشر ، وهو إسرافيل .
لا عوج له	اتباعاً قصداً نحو الصوت ، لا ينحرفون عنه .
وخشعت الأصوات للرحمن	سكتت وخضعت لهيبته وجلاله .
همساً	صوتاً خفيفاً لخفق الأقدام ، وهى تسير إلى المحشر .
ورضى له قولا	ورضى له الشفاعة .
يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم	يعلم ما تقدمهم من الأحوال ، وما يستقبلونه منها .
ولا يحيطون به علماً	ولا يحيط علمهم وإدراكهم علماً بمعلوماته .
وعنت الوجوه	وخضعت وذلت أصحاب الوجوه .
للحىّ القيوم	للباقى الذى لا يَفْنَى ، الدائم القيام على تدبير الكون وحفظه .
وقد خاب من حمل ظلماً	وقد يئس من رحمة الله من جاء فى موقف القيامة ، وهو يحمل كفراً وأوزاراً .
الصالحات	الأعمال الطيبة التى تجرى على نهج الشرع .

الألفاظ	شرحها
مؤمن	مصدق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .
ظلماً	ازدياداً فى سيئاته .
هضماً	نقصاً من حسناته .
صرّفنا	كررنا على صور مختلفة .
تعالى الله	جل الله ، وعظم قدره .
من قبل أن يقضى إليك وحيه	من قبل أن ينتهى جبريل من إلقاء ما يوحيه إليك .
زدنى علماً	زدنى فهماً .

مجمل المعنى

١ — مثل ذلك القَصص البديع الذى سمعته من أخبار موسى وهارون ، وفرعون وبنى إسرائيل ، نقص عليك بعض أنباء ما قد سبق من الحوادث الماضية ، التى جرت على الأمم السابقة ، تبصرةً لك ، وتذكيراً لأمتك ، وقد أنزلنا عليك من عندنا ذكراً عظيماً ، وقرآناً كريماً ، مشتملا على هذا القَصَص والأخبار ، جديراً بالتفكير والاعتبار .

٢ — كل من سمع هذا القرآن ، وذلك الذكر العظيم الشأن ، وأعرض عنه ولم يؤمن به ، ولم يتبع ما جاء فيه ، فإن الله سيعاقبه على كفره عقاباً شديداً ، وسيأتى يوم القيامة موصوماً بالكفر ، يحمل من أجله ومن أجل سائر ذنوبه عقوبة ثقيلة فادحة ، كالحِمل الذى يثقل الكاهل ، ويُنْقِض الظهر ، وسيمكث الكافرون فى عقاب هذا الوزر دائماً ، لا يخرجون منه ، وبئس الوزر حملا لهم يوم القيامة !

٣ — يوم القيامة هو يومُ يأمر الله بالحشر ، وجمع الناس للحساب ، فيبرز الناس من قبورهم حين إعلانهم بيوم البعث ، ونسوق المجرمين وجميع الكافرين فى هذا اليوم ، وهم فى أقبح صورة ، وأسوأ حال ، قد ازرقت عيونهم قبحاً ، وتشوهت خلقتهم ، لا يتكلمون ولا يتخاطبون ، لشدة الهول والخوف ، إلا تَهَامُساً خافتاً ، لا يكاد يسمعه بعضهم من بعض ، مستقصرين الأجل الذى قضوه بعد الموت بين الدنيا والآخرة ، فيقول بعضهم لبعض : ما مكثتم فِى القبور إلا مدة قصيرة ، قدر عشرة ليال ، ويقول أعدَلُهم قولا فى التعبير عن المدة التى قضوها من الموت إلى البعث ، وتصويرا للهول الذى لاقوه : ما مكثتم إلا يوماً واحداً ، والله وحده هو الذى يعلم حقيقة ما يقولون ، وهو الذى يعلم مقدار الأجل الذى قضوه ، وحقيقة المدة التى مكثوها بعد الموت .

٤ — ويسألك يا محمد بعض الكفار سخرية ، وإنكاراً ليوم القيامة ، عما يفعل ربك بالجبال الشامخة ، وقممها العالية ، وأجرامها الهائلة ، وصخورها القاسية ، فقل لهم : يدكُّها ربى دكا ، وينسفها نسفاً ، ويفتتها تفتيتاً ، ويُذهب نشوزها ونتوءها ، ويترك ما كان مقرًّا لها سهلا أملس مستوياً مع سطح الأرض ، فلا يبقى لها عَين ولا أثر يميزها عن أجزاء الأرض الأخرى ، ولا تلمح العين منها اعوجاجاً وانخفاضاً ، أو نتوءا ونشوزاً .

٥ — يوم ينسف الله الجبال ، ويأذن بالقيامة ، ويؤذِّن مؤذن بيوم البعث ، ترى الناس يقومون سراعاً كالجراد المنتشر ، يتبعون صوت الدعوة ، ويقصدونه قصداً ، لا يعدل عنه أحد ، ولا ينحرف عن السبُل مدعوّ ، وقد خيّمت عليهم الهيبة والجلال من خشية الرحمن ، فخفتت الأصوات خفوتا ، فلا تسمع منها إلا صوتاً خفيا ، كخفق أقدامهم وهى ماضية إلى

المحشر ، فى هذا اليوم ، وبين هذه الأهوال ، لا وسيلة ولا شفاعة ، وكلٌّ بما كسب رهين ، ولا تنفع الشفاعة ، إلا من أذن له الرحمن أن يكون شافعاً لنفسه ، ورضى ما يقوله الشافع فى شأنه هو ، ومن أجله هو ، لا من أجل غيره .

٦ — الله يعلم ما تَقدَّمهم من الأحوال ، وما يستقبلونه منها ، ولا تحيط مداركهم بذاته وصفاته ، فإنه أجلّ وأعظم من أن يحيط بعلمه مخلوق قاصر .

٧ — يوم القيامة يبعث الناس للحساب ، وقد ظهر عليهم الخضوع والانكسار ، وبدت على وجوههم علامات الذل ، كما تبدو على وجوه العتاة الأسارى ، حين يُساقون فى السلاسل والأغلال ، وقد أسفرت الحقيقة ، وانكشف الغطاء ، وعرف كلٌّ مصيره ، فخاب وباء بالندم والخسران من بُعث وهو ظالم لنفسه ، يحمل عليها أوزار الكفر والشرك والعصيان ، وبُشِّر بالنعيم والفلاح من كان فى دنياه يعمل الصالحات ، ويقوم بالطاعات ، ويقدم الأعمال الطيبة ، وهو مؤمن مصدق بالله ورسله واليوم الآخر ، فسيوفى أجره من الثواب كاملا ، وسيجرى عليه العدل الإلهى ، فلا يحمل ذنب غيره ، ولا تحسب عليه سيئة لم يجترحها ، ولا ينقص من حسناته حسنة ، ولا يؤخذ من أجره شىء ، ولا يخاف جزاء ظلم ولا هضم فى هذا اليوم ، « وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » .

٨ — ومثل الآيات التى سقناها متضمنة الوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، المنبئة عما سيقع من أحوال القيامة وأهوالها — أنزلنا القرآن كله بلسان عربى فصيح ، ليفهمه العرب ، وتوعدنا فيه بأنواع الوعيد العصاة ، لعلهم

يتقون ويحذرون أن ينزل بهم من العذاب ما نزل بمن تقدمهم ، أو يحدث لهم عظة وفكراً واعتباراً ، يدعوهم إلى الطاعات ، ويؤديهم فى الآخرة إلى حسن الثواب .

٩ — ولما ذكر سبحانه عظمة القرآن ، وما نزل فيه من الوعد والوعيد ، بلسان عربى مبين ، ذكر عظمة مُنزله ، وأنه مستحق للتعالى ، منزه عن مماثلة المخلوقين فى الذات والصفات والأحوال ، وأنه صاحب الملك ، المستولى على كل شىء ، النافذ الأمر والنهى ، الحقيق بأن يرجى ثوابه ويُخْشى عقابه ، الحق فى ألوهيته وملكوته — لما ذكرت عظمةُ القرآن وعظمة مُنزله جل وعلا ، طُلِب منه — صلى الله عليه وسلم — التأنى فى حفظ القرآن وتفهمه ، وتدبر معانيه ، وألا يعجل بحفظه وترديده ، ومتابعة جبريل لفظاً لفظاً ، حتى يُتم إليه وحيه ، وينتهى من نزوله ، ويفسر معانيه ، ويتقرر عنده ، قيل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ألقى إليه جبريل عليه السلام الوحى ، يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة ، لعظيم تشوقه ، وشدة حرصه على التلقى والحفظ ، فنهاه ربه عن ذلك ، ورغب إليه فى التأنى ، لأن استقرار الألفاظ فى الأذهان ، تابع لاستقرار معانيها منها ؛ وهذا نمط عال من التربية والتأديب ، الذى قال عنه صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ، فإن حسن الاستماع ، والتأنى فى فهم ما يُلقى من الكلام ، خير معين على استقرار الألفاظ فى الأذهان ، وإدراك الفهم السليم ، ومعرفة الحكم السديد ؛ (تراجع الصفحة ١٣٤ وما بعدها من تفسير جزء «تبارك» ، عند شرح قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ») ، وقد أرشد الله نبيه إلى المداومة على طلب العلم ،

والاستزادة منه ، فإن فوق كل ذى علم عليم ، فقال له : « وقل : رب زدنى علماً » ، أى معرفة وذكراً وفهماً ؛ وهذا القول يتضمن التواضع ، والشكر لله على ما علّمه ، من التأنى فى الاستماع إلى تمام القول ، قيل : ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة فى شىء ، إلا فى طلب العلم .

(٩)

من الآية ١١٥ إلى الآية ١٢٧ من سورة طه

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ، وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا –١– . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ : اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى –٢– . فَقُلْنَا : يَا آدَمُ ، إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ، فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى –٣– . إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى –٤– فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ، قَالَ : يَا آدَمُ ، هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ؟ –٥– . فَأَكَلَا مِنْهَا ، فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى –٦– قَالَ : اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ، فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى –٧– وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ، قَالَ : رَبِّ ، لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى ، وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ؟ قَالَ : كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ،

وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى -٨- . وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى -٩- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
عهدنا إلى آدم	وصّيناه وأمرناه ألا يأكل من الشجرة .
من قبلُ	من قبل أن يأكل من الشجرة .
فنسى	فنسى العهد وغفل عنه .
عزماً	تصميماً فى الرأى ، وثباتاً فى الأمور .
وإذ قلنا للملائكة	واذكر وقت قولنا للملائكة .
اسجدوا لآدم	حيوا آدم تحية تكريم ومهابة ، لا خضوعاً وعبادة .
فسجدوا	فامتثلوا لأمر الله ، وحيوا آدم وكرّموه .
أبى	أظهر الإباء ، وتوقف عن الامتثال لأمر الله .
عدوّ لك	من أعدائك ، لأنه لم يسجد لك ، ولم يقر بفضلك .
فلا يخرجنكما	فلا يكونن سبباً فى إخراجكما .
فتشقى	فتتعب فى طلب القوت ، ومقاساة المصاعب فى الدنيا .
ألا تجوع	أن نكفل رزقك فى الجنة ، فلا تشعر بالجوع .
ولا تعرى	ونعد لك فيها الملابس فلا تتعرى .
لا تظمأ	لا تعطش .
ولا تضحى	ولا يصيبك فيها حرّ الشمس .

الألفاظ	شرحها
فوسوس إليه الشيطان	أنهى إليه وسوسته وحديثه سرًّا .
شجرة الخلد	شجرة من أكل منها خلد فى الحياة ولم يمت .
لا يَبْلَى	لا يفنى ولا يزول .
سوءاتهما	عوراتهما .
وطفقا يخصفان	وجعلا يلزقان عليهما الورق ليسترا به عوراتهما .
فغوى	فضلّ سبيل الرشاد .
اجتباه	قرّبه واصطفاه .
فتاب عليه	فقبل توبته .
وهَدَى	هداه إلى الاعتذار والاستغفار ، وامتثال أوامر ربه.
بعضكم لبعض عدو	ستقع بين ذريتك العداوة والبغضاء من أجل شئون الدنيا .
إما يأتينكم منى هدى	إن يأتكم منى رسالة وشريعة أنزلها لهدايتكم ، أدغمت إن الشرطية فى ما : الزائدة .
فلا يضل ولا يشقى	فلا يضل الرشاد فى الدنيا ، ولا يشقى بالعذاب فى الآخرة .
معيشة ضنكاً	حياة ضيقة مع الطمع والشح .
أعمى	فاقد البصر .
فنسيتها	فعميت عنها وتركتها .
أسرف	انهمك فى الشهوات والمعاصى .

مجمل المعنى

١ — ولقد وصينا آدم من قبل أن يأكل من الشجرة، وأمرناه حينما أسكناه هو وزوجه الجنة ، ألا يأكل من الشجرة ، فنسى وَصاتنا ، ولم يكن له ثبات وعزم على اتباع أمرنا ، لأنه لو تذكر عهدنا ، وثبت على طاعة أمرنا ، لما استطاع الشيطان أن يغرَّه ، ويُسوّل إليه مخالفتنا .

٢ — واذكر يا محمد وقت أن سوّينا آدم، ونفخنا فيه من روحنا، وأمرنا الملائكة أن يسجدوا له ويعظموه ويخضعوا له ، ويحيوه ويكرموه ، فامتثل الملائكة أمر الله ، وفعلوا ما أُمروا به ، وسجدوا لآدم ، إلا إبليس أخذته العزة فامتنع واستكبر ، وأبى أن يظهر الخضوع لآدم وأن يكرّمه ، بل استهان به وحقره .

٣ — فأردنا النصح لآدم ، وقلنا له : يا آدم ، إن هذا الذى رأيته يأبى احترامك وتكريمك ، عدو لك ولزوجك ، لا يريد لكما السعادة ، ولا يبتغى لكما الخير ، فاحذرا أن يَغُرَّكما ويخدعكما ، فتخالفا أمرى ، وتطيعاه فى فعل ما نهيتكما عنه ، فيكون ذلك سبباً فى إخراجكما من الجنة ، وتهبطا إلى الأرض ، فتشقيا فيها بالسعى والكد ، وتقاسيا بها التعب والنصَب .

٤ — عليك أن تجدّ وتحرص على البقاء فى الجنة ، وتنتهى عن كل ما يُخرجك منها ، ويحرمك طيباتها ، ولقد كفلت لك بها كل أسباب الراحة والهناءة ، وهيأت لك فيها كل وسائل التنعم ، من مأكل طيب ، ومشرب هنىء ، وملبس فاخر ، ومسكن جميل ؛ ولك أن تطمئن إلى أنك لا تجوع فيها ولا تعرى ، ولا تشعر بعطش ، ولا يصيبك حر أو برد ، تلك الأمور التى إذا خرجت من الجنة ، وهبطت إلى الأرض ، فستشقى بها .

٥ — ولكن الشقاء فى الدنيا كتب على آدم ، فتسلط عليه إبليس ، فوسوس إلى نفسه ، وأسَرَّ إليه الحديث ، قائلا له : يا آدم ، هل تحب أن أدلك على شجرة ، إذا أكلت منها عشت إلى الأبد ، وخلدت فى الحياة ولم تمت ، وأعطِيتَ ملكاً لا يفنى ولا يزول ؟ .

٦ — فانخدع آدم وحواء بوسوسة الشيطان ، ووقعا فى حبائله ، ونسيا عهد ربهما ، وأكلا من الشجرة التى نهى الله عنها ، فحقّ عليهما أن يُحرما النعم التى أسبغها الله عليهما ، فأزال عنهما الكساء الذى كان يستر عوراتهما ، ويجمّل منظرهما ، ويقى أجسامهما ، فشعرا بالخيبة والندم ، وأخذا يواريان سوءاتهما ، ويلزقان عليها من أوراق الجنة ليستترا بها ؛ ولكن حق عليهما حرمان هذه النعم ، وكتب عليهما الخروج من الجنة ، وعصى آدم ربه فضلّ سبيل الرشاد ، ثم تفضل الله عليه فقرّبه واصطفاه ، فشعر بإثمه ، وندم على خطيئته ، وتاب إلى ربه ، فقبل توبته ، وهداه إلى الاعتذار والاستغفار فغفر له ، ودعاه فاستجاب دعاءه .

٧ — وقال له ولحواء : اخرجا من الجنة ، واهبطا منها ، واسكنا الأرض حيث تتقاسمان التعب والكد فى سبيل الحياة ، وحيث تقع العداوة بين ذرّيتكما ، من أجل مطامع الدنيا ، ومن أجل متاع الحياة ومغانمها ، تلك التى كانت ميسّرة لكما فى الجنة ، ولن أترك أبناءك يضلون ويشقون ، فسأبعث لهم الرسل ، وأنزل عليهم الشرائع ، وأبيّن لهم سبيل الهدى ، فمن اتبع الرسل وعمل بالشريعة ، وسلك سبيل هداى ، فقد نال سعادة الدنيا والآخرة ، فلا يضل طريق الخير والنجاح فى الدنيا ، ولا يشقى بالعذاب فى الآخرة .

٨ — وأما من انصرف عن هداى ، وأعرض عن اتباع السبيل السوىّ ، فإنه يعيش عيشة ضنك فى الدنيا ، معيشة يلابسها الضيق والشح والطمع ،

فلا يشعر صاحبها براحة أو هناءة ، ونشقيه فى الآخرة ، فنحشره يوم القيامة أعمى ، فاقد البصر ، يتخبط هنا وهناك على غير هدى ، فيقع فى حَيرة ، ويسأل : يا رب ، لم حرمتنى فى الآخرة نعمة البصر ، وقد كنت بصيراً فى الدنيا ؟ فيجاب : بأن هذا جزاؤك ، فقد فعلت مثل هذا فى الدنيا ، ورضيت لنفسك أن تنحرف عن سواء السبيل ، فلقد تفضلنا عليك بالبصر ، لترى به ما آتيناك من آياتنا فى الدنيا وفى الآفاق ، فعمِيت عنها ونسيتها ، ولم تنظر إليها بعين المعتبر ، فكذبت بها ، ومثل ذلك أيضاً فعلنا بك فى الآخرة ، فنسيناك وأغفلناك ، وبعثناك أعمى لتذوق وبال أمرك .

٩ — ومثل هذا الجزاء السيئ من المعيشة الضنك فى الدنيا ، والعمى يوم الحشر فى الآخرة ، نجزى كل من جاوز الحد ، فأسرف فى المعاصى ، وانهمك فى الشهوات ، ولم يؤمن بآيات ربه ، فكذب بها ، وأعرض عنها ، وسيكون عذاب يوم الحشر وهو العمى الذى لا يزول أبداً ، أشد من ضيق العيش المنقضى بانقضاء الدنيا .

(١٠)

من الآية ١٢٨ من سورة طه ، إلى آخر السورة

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى —١— . وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى —٢— . فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، لَعَلَّكَ تَرْضَى —٣— . وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى —٤— . وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ، لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ، نَحْنُ نَرْزُقُكَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى —٥— . وَقَالُوا : لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ! أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ؟ —٦— . وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ ، لَقَالُوا : رَبَّنَا ، لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ! —٧— . قُلْ : كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ ، فَتَرَبَّصُوا ، فَسَتَعْلَمُونَ : مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ، وَمَنِ اهْتَدَى ؟ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أفلم يهد لهم	أفلم يُبيِّن الله لهم .
كم أهلكنا قبلهم من القرون	كثرة ما أهلكنا من الأمم التى سلفت قبلهم .
يمشون فى مساكنهم	وهم يشاهدون آثار هلاكهم ، حينما يمشون فى مساكنهم .
لآيات	لدلائل وعبراً وعظات .
لأولى النهى	لذوى العقول الناهية عن التغافل والتعامى .
ولولا كلمة سبقت من ربك	ولولا قضاء من الله سبق بتأخير عذاب من كفروا برسالتك إلى يوم القيامة .
لكان لزاماً	لكان العذاب لا زماً لهم فى الدنيا ، كما لزم الأمم السالفة الكافرة .
وأجل مسمى	ولولا أجل مسمى ووقت معلوم لنا حددناه لعذابهم .
قبل طلوع الشمس وقبل غروبها	فى صلاة الفجر وفى صلاة الظهر والعصر .
ومن آناء الليل	وتعهد ساعات الليل بالصلاة والتسبيح .
لعلك ترضى	اذكر الله فى هذه الأوقات ، رجاء أن تنال عنده ما به ترضى نفسك ، ويسر قلبك .
ولا تمدن عينيك	ولا تطيلين نظر عينيك استحساناً وتمنياً أن يكون لك .
أزواجاً منهم	أصنافاً من الكفرة .
زهرة الحياة الدنيا	زينتها وبهجتها .

الألفاظ	شرحها
لنفتنهم فيه	لنبلوهم بسببه ، حتى يستحقوا العذاب بكفرهم وبطرهم .
ورزق ربك	والكسب الحلال .
أهلك	أقاربك وأهل بيتك .
واصطبر عليها	وداوم عليها .
لا نسألك رزقاً	لا نسألك أن ترزق نفسك وأهلك .
لولا يأتينا بآية من ربه	هلا يأتينا محمد ببينة ومعجزة من عند ربه ، تدل على صحة نبوته ! .
أوَ لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى	أوَ لم تأتهم البينات التى فى التوراة والإنجيل ، الدالة على البشارة بنبوتك ؟
أن نذل ونخزى	نذل فى الدنيا بالهوان ، ويلحقنا الخزى فى الآخرة بالعذاب .
كلٌّ متربص	كل واحد منا ومنكم منتظر ما يئول إليه أمرنا وأمركم .
فستعلمون : من أصحاب الصراط السوىّ	فستعلمون يوم القيامة : من هم على الطريق الحق ، والدين الصحيح .
ومن اهتدى .	ومن سلك السبيل القويم ، ففاز بالنعيم المقيم .

مجمل المعنى

١ — أفلم يبين الله لهؤلاء الذين كذبوك ولم يتبعوك يا محمد ، كثرة ما أهلكنا من الأمم السابقة التى كذبت رسلها ، وهم يشاهدون بأعينهم آثار الإهلاك ، حين يمشون فى مساكنهم ، ويتقلبون فى بلاد عادوثمود وأصحاب الأيكة ، من الأماكن التى كانت قريش تمر عليها وهى فى طريقها إلى الشام واليمن ؟ إن فى تلك الآثار الباقية ، التى تدل على إهلاك القرون الماضية ، لعدم إيمانهم ، وتكذيب رسلهم ، لدلائل وعبراً وعظات ، لأصحاب العقول السليمة ، الناهية عن التغافل والتعامى .

٢ — ولولا أن حكم الله سبق ، وقضاءه أبرم بتأخير جزاء من كفر بك يا محمد إلى يوم القيامة ، وأنه جعل الساعة موعداً وأجلا مسمى لعذابهم — لولا ذلك لكان عذابهم لازماً فى الدنيا ، ولعجّلنا لهم العذاب فى الحياة ، كما عجّلناه لثمود وعاد وغيرهما .

٣ — فاصبر يا محمد على أذى المكذبين لآيات الله من قومك ، بما يقولونه فيك من أنك ساحر ، وأنك مجنون ، وأنك شاعر ، وصَلِّ لربك وأنت حامدله ، صلاة الصبح قبل طلوع الشمس ، وصلاة الظهر والعصر قبل غروبها ، وتعهد آناء الليل وساعاته ، حيث هدوءُ البال وصفاء النفس ، بالتسبيح والصلاة ، فصل فيها صلاة المغرب والعشاء ، وتهجد بالليل نافلة لك ، وحافظ على صلاة الصبح وصلاة المغرب — وهما طرفا النهار — لقصر وقتهما ، ولأنك ستستقبل بعد صلاة الصبح وجه النهار للسعى والكد ، وتستقبل الليل بعد صلاة المغرب ، حيث يخيم الظلام ، ويسود السكون ، فتكون حينئذ صافى النفس ، متصلا بالله ، اذكر ربك يا محمد وسبحه ، وصل له فى

هذه الأوقات ، رجاء أن يُفيض عليك برضاء النفس ، ومسرة القلب .

٤ — ولا تَطمحَنَّ ببصرك يا محمد إلى ما متعنا به أزواجاً ، وناساً وأقواماً من الكفرة ، من مال وبنين ، ومراكب وملابس ، ومطاعم ومنازل ، فإنما ذلك زينة الحياة الدنيا ، وبهجتها وزهرتها — والزهرة لا بقاء لها ولا دوام ، وسرعان ما تفنى وتزول — والخطاب وإن كان فى الظاهر للرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن المقصود به أمته ، لأنه كان عليه السلام أبعد الخلق عن الدنيا ، والإعجاب بزخرفها — وقد متعناهم بما متعناهم به من بهجة الدنيا لنبلوهم ، فيركبهم الغرور والبطَر والجحود ، ويكفروا بالله ، فيستوجبوا العذاب ؛ وإن ما أعطاك الله من رزق حلال قليل ، إلى جانب ما ادخرناه لك وللمؤمنين من نعيم الآخرة ، لخير مما متّع به هؤلاء المشركين فى الدنيا وأدوم ، لأنه لا يذهب ولا ينقطع .

٥ — ولما أمره تعالى بالتسبيح فى الأوقات المذكورة ، ونهاه عن الطموح ببصره إلى ما متع به الكفار ، أمره بأن يأمر أهله بالصلاة ، التى هى بعد الشهادة من أكبر أركان الإسلام ، وأمره بالاصطبار على مداومتها ومشاقها ، وألا يشتغل عنها ، وأن يُفْرِغ باله للآخرة ، ولا يهتم لأمر الرزق ، لأنه لا يكلفه أن يرزق نفسه ، ولكنه هو الذى يرزقه وأهله ، ويعطيه المال ، ويهيئ له كسب العيش ، والعاقبة الصالحة لأهل التقوى : أهل الخشية والخوف من الله .

٦ — وقد حكى الله بعض أباطيلهم ، بقولهم : هلا يأتينا محمد بآية من ربه ، تدل على صدقه فى دعوى النبوة ! إمعاناً فى الجحود والإنكار لما أتاهم به محمد ، من آيات ومعجزات ؛ وقد رد عز وعلا مقالتهم القبيحة بقوله : « أو لم تأتهم بيِّنة ما فى الصحف الأولى؟ » أى أو لم تأتهم الصحف الأولى

وهى التوراة والإنجيل ، وسائر الكتب السماوية ، بالبينات الدالة على البشارة بنبوتك ؟

٧ — ولو أنا أهلكناهم بظلمهم ، من قبل أن نرسل إليهم محمداً ، ومن قبل أن نأتيهم ببينة القرآن ، وجاءوا يوم القيامة لنحاسبهم على سوء ما فعلوا ، لقالوا : ربنا ، هلا أرسلت إلينا رسولا يدعونا إلى طاعتك ، فنتبع آياتك ، وما تنزله عليه من أمرك ونهيك ، من قبل أن نذل فى الدنيا بالهوان والعذاب ، ونَخْزَى بدخول النار يوم القيامة ! ولكنا قطعنا معذرتهم ، فلم نهلكهم قبل أن نأتيهم بآية ، وقبل أن نرسل إليهم رسولا .

٨ — قل لأولئك الكفرة المنكرين : كل واحد منا ومنكم متربص ، ومنتظر عاقبة أمره ، وما يئول إليه حاله ، فانتظروا كيف شئتم ، فسيأتى يوم القيامة ، وستظهر الحقيقة ، وتعلمون من هم أهل الحق ، وأصحاب الطريق المستقيم المعتدل ، الذى لا اعوجاج فيه ، أنحن أم أنتم ؟ وستعلمون حينئذ من المهتدى من الضلالة ، ومن سار على سنن الطريق القويم ؟

فهرس الجزء السادس عشر لتفسير القرآن

الرقم	أسماء السور	أرقام الآيات فى المصاحف	أرقام الصفحات
١	الكهف	من ٧٩ — ٨٢	من ٣ — ٥
٢	«	« ٨٣ — ٩١	« ٦ — ١١
٣	«	« ٩٢ — ٩٨	« ١٢ — ١٥
٤	«	« ٩٩ — ١١٠	« ١٦ — ٢٠
١	مريم	« ١ — ١٥	« ٢١ — ٢٨
٢	«	« ١٦ — ٣٦	« ٢٩ — ٣٩
٣	«	« ٣٧ — ٤٠	« ٤٠ — ٤٣
٤	«	« ٤١ — ٥٠	« ٤٤ — ٤٩
٥	«	« ٥١ — ٦٣	« ٥٠ — ٥٥
٦	«	« ٦٤ — ٧٦	« ٥٦ — ٦٤
٧	«	« ٧٧ — ٩٨	« ٦٥ — ٧٢
١	طه	« ١ — ٨	« ٧٣ — ٧٥
٢	«	« ٩ — ٢٤	« ٧٦ — ٨٢
٣	«	« ٢٥ — ٤١	« ٨٣ — ٨٨
٤	«	« ٤٢ — ٥٦	« ٨٩ — ٩٦
٥	«	« ٥٧ — ٧٦	« ٩٧ — ١٠٦
٦	«	« ٧٧ — ٨٩	« ١٠٧ — ١١٤
٧	«	« ٩٠ — ٩٨	« ١١٥ — ١١٩
٨	«	« ٩٩ — ١١٤	« ١٢٠ — ١٢٧
٩	«	« ١١٥ — ١٢٧	« ١٢٨ — ١٣٣
١٠	«	« ١٢٨ — ١٣٥	« ١٣٤ — ١٣٩

تفسير القرآن الكريم

الجزء السابع عشر

تأليف

محمود محمد حمزة
المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان
المراقب بوزارة التربية والتعليم

محمد أحمد برانق
المفتش العام بالتعليم الإعدادى



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسيرِ الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ، وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

سورة الأنبياء

نزلت بمكة وآياتها ١١٢ آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

من الآية الأولى إلى الآية ١٥

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ، وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ -١- . مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ، إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ، وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا : هَلْ هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ؟ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟ -٢- . قَالَ : رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ -٣- . بَلْ قَالُوا : أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، بَلِ افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ، فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ -٤- . مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ؟ -٥- وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِى إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ -٦- . وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ، وَمَا

كَانُوا خَالِدِينَ . ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ ، وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ —٧— . لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ —٨— . وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ، وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ . لَا تَرْكُضُوا ، وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ —٩— . قَالُوا : يَا وَيْلَنَا ! إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ، حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ —١٠— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ذكر	وعظ و إرشاد .
محدث	مكرَّر متجدد .
وهم يلعبون	وهم يهزءون به ، ويسخرون منه .
لاهية قلوبهم	غافلة قلوبهم عن تدبّر معناه .
وأسروا النجوى الذين ظلموا	بالغ الكفار فى إخفاء ما يتسارّون به فى اجتماعاتهم .
هل هذا إلا بشر مثلكم	ما هذا إلا بشر مثلكم .
أفتأتون السحر	أفتعدلون إلى الباطل .
ربى يعلم القول فى السماء والأرض	ربى يعلم كل ما يقال فى ملكوته سرًّا كان أو جهراً .

الألفاظ	شرحها
أضغاث أحلام	أخلاط حالم رآها فى النوم ، جمع ضِغث ، وهو الحزمة من نباتات مختلفة ، رطبة ويابسة .
أهل الذكر	أهل المعرفة من العلماء بالتوراة والإنجيل .
جسداً	ذوى جسد .
ثم صدقناهم الوعد	ثم أنجزنا وعدنا للرسل ، بنجاتهم ونصرهم .
المسرفين	المسرفين فى التكذيب والعصيان .
فيه ذكركم	فيه ما يشرفكم ويذيع صيتكم ، لأنه بِلُغتكم .
قصمنا	أهلكنا .
من قرية	من أهالى قرية .
أحسوا بأسنا	شعر أهالى القرية بظهور العذاب الذى يستأصلهم .
يركضون	يهربون مسرعين .
أترفتم فيه	تنعّمتم فيه .
لعلكم تُسألون	لعلكم تُقصدون للسؤال ، والتشاور فيما نزل بكم من العذاب .
حصيداً	كالزرع المحصود بالمناجل فى استئصاله .
خامدين	خمدت أنفاسهم فماتوا .

مجمل المعنى

١ — اقترب الوقت الذى يحاسب فيه الناس على أعمالهم ، وهو يوم القيامة ، والمراد بالناس هنا : كفار قريش ، فهم يرونه بعيد الوقوع ونراه قريباً ، لأن كل ما هو آتٍ قريب ، وإن طالت أوقات ترقبه ، وما بقى من الدنيا

أقل مما مضى ؛ وهؤلاء الكفار فى غفلة تامة ، معرضون عن التفكير فى ذلك الوقت ، ساهون عن الاستعداد والتأهب له ، بالإيمان بالله وبرسوله ، وعمل الصالحات ، والنظر فى عاقبة أمرهم .

٢ — هؤلاء الكفار ، ما يأتيهم من وعظ وإرشاد من ربهم فى القرآن ، نكرره ونعيده على أسماعهم كى يتعظوا به ، وينتبهوا من سِنَة الغفلة والجهالة ، إلا استمعوه وهم يستهزئون به ، ويسخرون منه ، لاهية قلوبهم عن التفكير فيه ، معرضة عن تدبّر مراميه ؛ وتسارّ الكفار الظالمون المشركون ، وبالغوا فى إخفاء حديثهم فيما بينهم ، وتشاوروا فى أمر الرسول عليه الصلاة والسلام ، والوسائل التى يعرقلون بها دعوته ، يقولون : ما محمد الذى يدعوكم إلى ترك عبادة الأصنام إلا بشر مثلكم ، لا يتميز عنكم بشىء ، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق كما نفعل ، فإن أتى من الخوارق ما يخالف مألوفكم ، فليس إلا من قبيل السحر — وقصدوا بالسحر القرآن الذى تحداهم به الرسول ، فبهرهم وأعجزهم عن مجاراته ، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة — أفتعدلون إلى الباطل ، وأنتم تعرفون الحق ؟ وإنما أخفوا أحاديثهم فيما بينهم ، ليهيئوا وسائل الشر والفساد فى صد دعوة الرسول .

٣ — وقد أخبر الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أوحى إليه أحوال الكفار وأقوالهم ، فقال الرسول لهم : ربى يعلم ما أخفيتم وما أعلنتم من أقوالكم ، ويستوى عنده سرّكم وجهركم ، وهو مطلع على كل ما يحدث فى السماء والأرض ، وهو السميع العليم ، فلا يخفى عليه شىء مما تسرون وتضمرون .

٤ — لم يكتفوا بادعائهم أن القرآن سحر ، بل قالوا : إنما هو أخلاط أحلام من محمد ، وأباطيل لفقها وتخيّلها ، ولا حقيقة لها ، فلما رأوا أن ما زعموه يبعد تصديقه ، وأنه من المستحيل أن يكون القرآن فى فصاحته

وبلاغته أحلام نائم . انتقلوا إلى فرية ثالثة ، فقالوا : لقد اختلقه وتقوّله محمد ، فليس القرآن إلاّ مفتريات ادعى أنها من عند الله ، ثم انتقلوا إلى فرية رابعة ، فقالوا : إنه كلام شعرىّ ، له فصاحة الشعراء ، ولكنه يخيّل إلى السامع معانى لاحقيقة لها ؛ وهذا الاضطراب والتردد ، يدل على ضعف حجج هؤلاء المكابرين المعاندين . ثم أسرفوا فى عنادهم ، فطلبوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يأتيهم بمعجزة تدل على صدقه ، كالمعجزة التى أُرسِل بها الأولون من الرسل ، كاليد البيضاء والعصا لموسى ، والناقة لصالح ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى لعيسى .

٥ — دعهم أيها الرسول فى غيهم وضلالهم ، فهذا ديدن الكفار مع رسلهم ، فما آمن أهالى قرية من القرى التى أبدنا أهلها واستأصلناها ، بعد أن أنفذنا ما اقترحوه من الآيات ، بل لجُّوا فى كفرهم ، واستمروا فى عنادهم ، أفيؤمن قومك لو جئتهم بما اقترحوه ؟ وفى الآية تنبيه على أن سبب عدم الإتيان بما اقترحه كفار قريش ، أن الله لو أنفذ ما اقترحوه ولم يؤمنوا ، لاستحقوا عذاب الإبادة كمن كانوا قبلهم ، وقد سبقت مشيئة الله أنه لا يهلكهم والرسول فيهم ، « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » .

٦ — وكيف ينكرون عليك أن تكون رسولا إليهم ، ويقولون : ما هذا إلا بشر مثلكم ، فما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم كما أوحينا إليك ، ولم نرسل ملائكة ، فقل لهم يا محمد : إن كنتم تجهلون هذا ، فاسألوا العلماء بالتوراة والإنجيل من أهل الذكر ، الذين يذكرون أخبار الأنبياء ، عن أحوال الرسل المتقدمين ، لتزول شبهتهم ، فقد اعتادوا أن يسألوهم ويشاوروهم فى أمرك ، ويثقوا بقولهم ، وليتأكدوا أن جميع الرسل كانوا من البشر .

٧ — إننا لم نجعل الرسل الذين أرسلناهم قبلك خارجين عن طباع البشر ،

فلا يحتاجون إلى غذاء ، وإنما جعلناهم ذوى أجساد ، يسرى عليهم ما يسرى على سائر الناس ، فيحيَون كما يحيَون ، ويموتون كما يموتون عند انقضاء آجالهم ، ولم نجعلهم خالدين فى الدنيا ، ثم صدقناهم فى وعدنا لهم ، بالنصر والنجاة وإهلاك أعدائهم ، فأنجيناهم ، وأنجينا من نشاء أن نوفقهم إلى الإيمان من قومهم ، وأهلكنا من أسرفوا فى الكفر والمعاصى .

٨ — لقد أنزلنا إليكم يا معشر قريش كتاباً فيه ما يوجب الشرف لكم ، لأنه بلغتكم ، وفيه مواعظ وعِبر ، وحِكَم وتشريع ، وفيه ما تطلبون به حسن الأحدوثة وطيب الذكر ، من مكارم الأخلاق ، وحميد الصفات ، وشرفناكم ببعثة الرسول منكم ، أفلا تعقلون ، فتثوبوا إلى رشدكم ، وتؤمنوا به ؟

٩ — وكثيراً ما كسرنا شوكة من عتَوْا وتجبروا ، فأهلكنا أهالى قرى كانت كافرة ظالمة ، وأوجدنا بعدها قوماً آخرين ، فلما شعَر أهالى هذه القرى بما يتهددهم من العذاب الشديد ، إذا هم يفرون من قراهم مسرعين ، فقيل لهم استهزاء بهم : لا تهربُوا ، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من التنعم ولذائذ الحياة ، وعودوا إلى مساكنكم التى كنتم تفخرون بها ، لعلكم تُقصدون للسؤال والتشاور فيما حل بقريتكم من الكوارث والنوازل ، على ما جرت به عادتكم مع قومكم .

١٠ — قالوا بعد أن رأوا العذاب عِياناً ، ويئسوا من النجاة : الويل لنا ، والهلاك لابد لاحق بنا ، إنا كنا ظالمين بكفرنا ، وعدم اتباع رسلنا ، فما زالوا يرددون هذه الكلمات ، وهى : يا ويلنا إنا كنا ظالمين ، حتى جعلناهم مثل الزرع الذى حُصد واستؤصل ، ورميت سيقانه على الأرض ، فخمدت أنفاسهم ، وأصبحوا كرماد النار الخامدة بعد إطفائها .

(٢)

من الآية ١٦ إلى الآية ٢٥ من سورة الأنبياء

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ —١— . لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ، إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ . بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ —٢— . وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ، وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ —٣— . أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ؟ —٤— . لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ! —٥— . لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ —٦— . أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ؟ قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ، فَهُمْ مُعْرِضُونَ —٧— . وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ : أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لهواً	ما يُتَلَهَّى به من زوجة أو ولد أو غيرهما .
من لدنّا	من عندنا من الحور العين ، بحيث لا يكون لأحد تصرف فيه .
نقذف بالحق على الباطل فيدمغه	نرمى بالحق كالإيمان ، على الباطل كالكفر ، فيغلبه ويذهب به ، وأصل الدمغ : كسر الدماغ .
زاهق	ذاهب .
ومَن عنده	والملائكة المنزّلون منزلة المقرَّبين من الملوك .
يستحسرون	يَعيَوْن ويسأمون بما يؤدونه من العبادات .
لا يفترون	لا يملُّون ولا يسأمون من متابعة تسبيحهم .
آلهة من الأرض	آلهة تتخذ من عناصر الأرض ، كالحجارة والمعادن .
هم يُنشرون	هم يحيون الموتى ، ويبعثونهم من قبورهم .
فيهما	فى السموات والأرض .
هذا ذكر مَن معى	هذا هو القرآن المنزل علىّ لأتعبد به أنا ومن معى من المؤمنين .
وذكر من قبلى	وهذه الكتب السماوية التى أرسلت على مَن قبلى من الأنبياء .

مجمل المعنى

١ — وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لهواً ولعباً ، ولا عبثاً وباطلا ، وإنما خلقناهما دلالة على قدرتنا ، ونفعاً لعبادنا ، وتبصرة لمن فكر وتدبر ما فيهما من ضروب الإبداع ، وتذكرة لذوى الاعتبار ، وسبباً لما تنتظم به أمور العباد فى معاشهم ومعادهم ، وتنبيهاً على أن من خلقهما يجب امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

٢ — لو أردنا أن نتخذ ما نتلهى به من زوجة أو ولد أو غيرهما ، لاتخذناه مما يليق بمقامنا ، واخترناه مما عندنا من الحور العين أو الملائكة إن أردنا أن نفعل — وهو معنى قوله تعالى : « لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء » — لكنا لم نُرد فلم نفعل ، لاستحالة أن يكون لنا زوجة أو ولد نتلهى به ، إذ لا يليق بذاتنا العلية العبث واللهو ، بل من شأننا أن نرمى بالحق الذى هو حججنا وأدلتنا ، على الباطل الذى هو وصفى بصفات المحدثين ، وشُبَه الكفار التى يخترعونها ، فيمحقه ويغلبه ويقهره ، فإذا الباطل ذاهب مقهور مغلوب ، فيكون مثله كمثل من يُشَجّ دماغه بحجر أو نحوه فيكسر ، فتزهق روحه ويموت ، ولكم أيها الكفار العذاب الشديد ، بسبب ما تصفون به المولى جل وعلا بما لا يليق بمقامه ، وسيجزيكم العذاب على وصفكم هذا يوم القيامة . .

٣ — ولله تعالى ملك كل من فى السموات والأرض خلقاً وتدبيراً وتصرفاً ، وإحياء وإماتة ، وتعذيباً وإثابة ، والذين يُنزلهم منازل الشرف لديه من الملائكة لكرامتهم عليه عز وجل ، فصاروا لديه بمنزلة المقربين لدى الملوك ، هؤلاء الملائكة مع مكانتهم ، لا يتعاظمون عن عبادة الله ، ولا يأنفون ،

ولا يعيَوْن بأدائها ودوامها ولا يملُّون ، فهم يسبّحون الليل والنهار تسبيحاً دائماً متصلا ، تمجيداً لله وتعظيماً له فى جميع الأوقات ، لا يتخلل تسبيحهم فترة بفراغ أو شغل ، ولا يسأمون من متابعة تسبيحهم .

٤ — هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة لهم من عناصر الأرض ، إما منحوتة من الحجارة ، وإما مصنوعة من المعادن ؟ وهؤلاء الآلهة قادرون على أن يُنشروا الموتى ويحيوهم يوم البعث ؟ فإن من لوازم الألوهية الاقتدار على جميع الممكنات التى منها إحياء الموتى ، فإذا كان هؤلاء الآلهة غير قادرين ، فأى عقل يجوِّز اتخاذهم آلهة ؟ والمراد بهذا : إظهار جهل الكفار فى عبادة الأصنام ، والتشنيع عليهم ، والتهكم بهم ، وبيان أن هذه الأصنام أحقر وأعجز من أن تكون آلهة .

٥ — لو كان فى السموات والأرض آلهة غير الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى خلقهما وأبدع صنعهما ، لفسدتا واختل نظامهما البديع المشاهد ، لحدوث اختلاف بينهم ، على حسب المألوف عند تعدد الحاكم ، ولذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ؛ فتنزيهاً لمالك الملك ، ذى العرش والسلطان ، عما ينسبه إليه الكفار من اتخاذ الزوجة والولد ، وعن أن يكون له شريك فى الملك ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ! .

٦ — الله جل جلاله لا يُسأل عما يفعل ، ولا ينبغى أن يعترض عليه أحد فى شىء من أفعاله ، لعظمته وتفرده بالألوهية ، وجميع خلقه يُسألون أمام ذاته العليَّة عما يفعلونه ، لأنه ربهم ومالكهم ، وهم عبيده ومملوكون له ، قال صلى الله عليه وسلم : « من وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه » .

٧ — أوَجد الكفار آلهة يُنشرون الموتى ، فاتخذوهم آلهة ، وأعرضوا عن عبادة الله ،

كما وجدوا فيهم خواص الألوهية ؟ وقد كرر الله الاستفهام استعظاماً لكفرهم ، واستفظاعاً لأمرهم ، وإظهاراً لجهلهم ، وتوبيخاً لهم ؛ فقل لهم أيها الرسول : هاتوا برهانكم على صدق ما تدّعون ، إما من العقل ، وإما من النقل ، فإنه لا يصح القول بما لا دليل عليه ، وقد تضافرت الأدلة على بطلان ما تدّعون عقلا ونقلا ، أما عقلا فقد بيّناه فى قوله : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، وأما نقلا فهذا هو القرآن المنزل علىّ وعلى من معى من المؤمنين ، وهذه هى الكتب التى نزلت على من تقدمنى من الأنبياء والمرسلين ، وهى التوراة والإنجيل والزبور والصحف ، فراجعوها وانظروا : هل تجدون فى واحد منها أن الله قد أذن باتخاذ إله من دونه ؟ وهل تجدون فيها إلا الأمر بالتوحيد ، والنهى عن الشرك ؟ لا تُبال يا محمد بهم ، ولا يحزنك قولهم ، فإن أكثرهم قد فقدوا التمييز بين الحق والباطل ، من أجل ذلك هم معرضون عن توحيدى واتباعك ، ولا يرعَوُون عما هم عليه من الكفر والضلال ، مهما كررت عليهم من البينات والحجج .

٨ — وما أرسلنا من رسول ، سواء أنزلنا عليه كتاباً أم لم ننزل ، إلا أوحينا إليه : أنه لا إله إلا أنا ، فاعبدونى وحدى ، فأدلة العقل والنقل شاهدة أنى لا شريك لى .

(٣)

من الآية ٢٦ إلى الآية ٣٣ من سورة الأنبياء

وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ! بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ —١— . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ : إِنِّي إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِ ، فَذٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ —٢— . أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ؟ —٣— . وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ، وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ، لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ —٤— . وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ، وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ —٥— . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بل عباد مكرمون	بل الملائكة عباد مخلوقون مقرَّبون .
لا يسبقونه بالقول	لا يقولون شيئاً حتى يقوله ، كما هو شأن العبيد المؤدبين .
يعلم ما بين أيديهم ما خلفهم	لا يخفى عليه خافية من أمر الملائكة .
مشفقون	خائفون .
أن السموات والأرض كانتا رتقاً	أن السموات والأرض فى بدء خلقهما كانتا ملتحمتين .
ففتقناها	ففصلناهما .
وجعلنا من الماء كل شىء حىّ	خلقنا من الماء كل كائن حىّ من الحيوان والنبات ، لأنه أكثر عناصرهما .
رواسى	جبالا ثوابت .
أن تميد بكم	كراهة ميلانها بكم واضطرابها .
فجاجاً سبلا	مسالك واسعة تسير فيها السابلة .
وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً	جعلنا السماء لكم كالسقف للبيت ، وحفظناها من السقوط .
يسبحون	يسيرون فى أفلاكهم بسرعة فائقة .

مجمل المعنى

١ — وقالت قبيلة خُزَاعة : إحدى قبائل العرب : إن الملائكة بنات الله ، وإن الله صاهر الجنّ ، « وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً » وإن المولى جل شأنه قد اتخذ من الملائكة أولاداً ، وعبدوهم طمعاً فى شفاعتهم عند الله ؛ تنزيهاً لله أن يكون له ولد ! — والمراد بالولد هنا . الجمع — وليست الملائكة بنات الله كما زعموا ، وإنما هم خلق من عباده ، مقربون إليه ، مخلوقون من نور ، لا يفترون عن عبادته لحظة ، ولا يسبق قولهم قوله ، كما هو ديْدن العبيد المؤدبين ، ولا يقولون ما لم يقله ، ولا يعملون شيئاً إلا بأمره ، ولا تخفى عليه خافية من أمرهم : قدموه أو أخروه ، عملوه أو أرجئوه ، ولا يشفعون لأحد إلا لمن ارتضى الشفاعة له ، وشفاعتهم الاستغفار ، وهم من مهابته وإجلاله على خوف وحذر ، خشية أن يقع منهم تقصير فى حق مولاهم ، فإذا كانت هذه حالهم ، فكيف يستحقون أن يُعبدوا ؟ وكيف يشفعون لمن لم يأذن الله تعالى لهم أن يشفعوا له ؟ وفى الآية إنكار ضمنى على كل من ينسب الولد إلى الله ؛ كالنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، واليهود الذين قالوا : عُزَير ابن الله ،

٢ — ومن يقُل من الملائكة — فرضاً — : إنى إله من دون الله ، فذلك جزاؤه عندنا جهنم ، وهذا لا يدل على أنهم قالوا ذلك ، ولكنه مثل قوله تعالى فى خطاب رسوله عليه الصلاة والسلام : « لئن أشركت ليحبطن عملك » ، وكما نجزى من يقول هذا القول هذا المصير ، نجزى الظالمين من المشركين ، الذي ظلموا أنفسهم بالإشراك ، وادعاء الألوهية لبعض من خلقنا .

٣ — أو لم يعلم الذين كفروا بكمال قدرتنا ، وبالغ حكمتنا ، أن السموات

والأرض كانتا شيئاً واحداً ، كانتا ملتصقتين ملتحمتين ، ففصلناهما وفرقناهما ، كانت الأرض جزءاً من أحد الكواكب وهو الشمس ، ولشدة دوران الشمس فى فلكها ، انفصل جزء منها ، فتكونت هذه الكرة الأرضية ، يدل على ذلك أن الأرض ما زالت تدور حول أمها الشمس فى فلكها دورة تقطعها فى سنة كاملة ، وأن القشرة الأرضية هى التى بردت بعد انقضاء ألوف الألوف من السنين ، وأن باطن الأرض ما زال ملتهباً كما كان قبل انفصال الأرض من الشمس ، وقد قرر القرآن الكريم هذه النظرية من نحو أربعة عشر قرناً — ثم سلطنا أشعة الشمس على مياه البحار التى فى الأرض ، فتكون البخار الذى استحال مطراً ، فخلقنا من مائه كل شىء حىّ من الإنسان والحيوان ، والنبات والطير والسمك ، فالماء حياة كل كائن حىّ ، إما لأنه أكثر مواده ، وإما لفرط احتياجه إليه ، وقلة صبره عليه ، ولو جف الماء لهلك الإنسان والحيوان ، وذبل النبات بعد نُضرته ، وذوى بعد بهجته ؛ أفلا يؤمن الكفار بعد أن أظهرنا لهم هذه القدرة القادرة ، والحكمة الباهرة ، ويتركون عبادة الأصنام ؟ .

٤ — وجعلنا فى الأرض جبالا ثوابت ، كراهة أن تميل بسكانها ، فلولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب ، لما فى جوفها من المواد الدائمة الجيَشان ، وجعلنا فى هذه الجبال مسالك واسعة للسابلة ، ليستدلوا بمظاهر قدرة الصانع الحكيم على قدرته وتوحيده ، وينزهوه عما لا يليق به ، وليهتدوا بهذه الطرق إلى مقاصدهم .

٥ — وجعلنا فوقكم الكواكب والنجوم كالسقف محفوظة من السقوط ، لما بين الكواكب من التماسك والتجاذب بكمال قدرتنا ، وبالغ حكمتنا — وهو مثل قوله تعالى : « ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه » —

والكفار عن أحوال هذه الكواكب والنجوم ، وكيفية حركاتها ، واتجاهاتها ، ومطالعها ومغاربها ، ونظامها العجيب الذى يدل على الصانع الحكيم ، معرضون لا يفكرون فى مظاهر هذه القدرة ، ليعلموا أن موجدها واحد لا شريك له .

٦ — وهو الذى خلق الليل والنهار يتعاقبان فى نظام محكم ، والشمس والقمر ، كل واحد منهما يسبح فى فلكه ، ويدور حول محوره فى أدق نظام ، فالشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ؛ والضمير فى قوله : « يسبحون » ، يعود على الشمس والقمر ، وعاد الضمير عليهما جمعاً ، لتعدد مطالعهما ، وذكَر الله ضمير العقلاء ، لتشبيههما بهم فى السباحة .

(٤)

من الآية ٣٤ إلى الآية ٤١ من سورة الأنبياء

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ، أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ؟ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ —١— . وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا : أَهٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ؟ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمٰنِ هُمْ كَافِرُونَ —٢— . خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ، سَأُرِيكُمْ آيَاتِي ، فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ —٣— . وَيَقُولُونَ : مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ —٤— . لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ، بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ، وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ —٥— . وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ، فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الخلد	دوام البقاء فى الدنيا .
نبلوكم بالشر والخير فتنة	نعاملكم معاملة المختبر لكم بالشر والخير ابتلاء .
إن يتخذونك إلا هزواً	ما يتخذونك إلا سخرية .
يذكر آلهتكم	يعيب آلهتكم .
يذكر الرحمن	بالقرآن المنزل من الرحمن .
خلق الإنسان من عجل	خلق الإنسان عَجولا قليل الصبر ، حتى فى استعجال ما يضره .
لا يكُفّون	لا يدفعون .
فتبهتهم	فتدهشهم وتحيرهم .

أمل كاذب

قال بعض الكفار : إن محمداً شاعر ، فالأجدر بنا أن نتربص به ريب المنون ، كما مات مَن قبله من الشعراء ، فنزل قوله تعالى : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد . . . » وهذا شأن الخصم الضعيف الحجة ، فإنه يتمنى هلاك خصمه .

مجمل المعنى

١ — إن كان الكفار لما أعيتهم الحيلة فى إدحاض حججك ، وعجزوا عن مقاومة دعوتك ، وقالوا فى يأس وقنوط : ننتظر حتى يوافى محمداً أجلُه ، فإن الله سيتم نوره ولو كره الكافرون ، فإن أدركك الموت قبل أن تُتم

رسالتك — فرضاً — ، فما جعلنا لبشر من قبلك دوام البقاء فى الدنيا ، وقد مات من كان قبلك من الأنبياء ، وتولى الله دينه بالحياطة ، فهكذا يحفظ الله دينك وشرعك ، أفإن مت أفَهُمُ الخالدون فى الدنيا أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ؟ إنه لا يجوز أبداً الشماتة فى الموت ، وقد قال ذو الإصبع العدوانى فى هذا المعنى :

فقل للشامتين بنا : أفيقوا — سيلقى الشامتون كما لقينا

فكل نفس ذائقة مرارة الموت فى الدنيا ، ونعاملكم فيها معاملة المختبر ، بالكوارث والشدة والمرض والفقر تارة ، وبالنعم والرخاء والصحة والغنى تارة أخرى ، فننظر كيف يكون شكركم وصبركم ، أو جحودكم وجزعكم ؟ وإلينا ترجعون للثواب والعقاب .

٢ — وإذا رآك الذين كفروا ، فإنهم ما يتخذونك إلا هزواً وسخرية ، يقولون : أهذا الذى يعيب آلهتكم ، ويذكرها بسوء ؟ وهم فى الوقت نفسه كافرون بالقرآن الذى أنزل عليك ، جاحدون لنعم الرحمن ، الذى أسدى إليهم ما يستحق به شكره ، والاعتراف بربوبيته ، فهم أحق أن يُسخر منهم ، ويستهزأ بهم؛وسبب نزول هذه الآية : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بأبى سفيان وأبى جهل ، فلما رآه أبو جهل ضحك ، وقال لأبى سفيان : هذا نبىُّ بنى عبد مناف— يقصد قوم بنى سفيان— فغضب أبو سفيان ، وقال : ولم تنكر أن يكون لبنى عبد مناف نبىّ ؟ وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قولهما ، فرجع إلى أبى جهل وقال له : « لا تزال على كفرك حتى يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة، أما أنت يا أبا سفيان ، فإنما قلت ما قلت حَميَّة » .

٣ — إنهم يستعجلونك بالعذاب ، ويقولون : إن كان هذا هو الحق من عندك،

فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ، والإنسان مطبوع على العجلة ، مجبول على عدم الصبر وقلة الثبات ، ومن مظاهر عجلته استعجاله العذاب ، مع أنه ليس فى مصلحته ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ، وسأريكم أيها الكفار آياتى فى الانتقام منكم ، فلا تستعجلونى فى وقوعه .

٤ — ويقول الكفار للنبى وأصحابه استهزاء وسخرية ، واستبعاداً لصدق ما هددهم به الرسول : متى وقت العذاب فى الدنيا ؟ ومتى وقت يوم القيامة فى الآخرة ، إن كنتم صادقين يا معشر المؤمنين ؟ وقد أنجز الله وعده لرسوله ، فهزم الكفار أشنع هزيمة فى وقعة بدر فى الدنيا ، وسيعذبهم عذاباً أليماً فى الآخرة .

٥ — لو يعرف الذين كفروا هول ما يستعجلون وقوعه ، حين تحيط بهم النار من كل جانب ، فلا يستطيعون دفعها عن وجوههم ولا عن ظهورهم ، ولا يجدون ناصراً يدفعها عنهم ، لما تمادوا فى غيهم ، ولما استعجلوا وقوع العذاب بهم ، فالآيات لا تأتى بحسب اقتراحهم ، بل لها وقت قدره الله لها ، فتأتيهم فجأة فتدهشهم وتحيرهم ، فلا يستطيعون ردها ، ولا هم يمهلون لتوبة أو معذرة طرفة عين .

٦ — لا تعبأ أيها الرسول باستهزاء الكفار وسخريتهم بك ، فهذا ديدنهم مع من نرسلهم إليهم ، فلقد استهزئ برسل من قبلك ، فنزل بالذين سخروا منهم عاقبة استهزائهم ، وأنجزنا وعدنا بنصرة رسلنا ، فاصبر كما صبروا .

(٥)

من الآية ٤٢ إلى الآية ٥٠ من سورة الأنبياء

قُلْ : مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمٰنِ ؟ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ -١- . أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ، لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ، بَلْ مَتَّعْنَا هٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ؟ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ! -٢- . قُلْ : إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ، وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ -٣- . وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ : يَا وَيْلَنَا ! إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ -٤- . وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ -٥- . وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهٰرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً ، وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ : الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ، وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ -٦- . وَهٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ، أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ؟ -٧- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يكلؤكم	يحرسكم ويحفظكم .
تمنعهم من دوننا	تحميهم من العذاب غيرنا .
لا يستطيعون نصر أنفسهم	لا يستطيع الآلهة نصر أنفسهم ، وحمايتهم .
ولا هم منا يُصحبون	ولا يصحبهم نصر من الله .
نأتى الأرض ننقصها من أطرافها	نأتى أرض الكفار فننقصها من جوانبها بالغزو والفتح ، مكاناً بعد مكان .
أنذركم بالوحى	أنذركم بما يوحى إلىّ ، لا من قبل نفسى .
نفحة	أقل شىء من العذاب .
الموازين القسط	الموازين العادلة .
وإن كان مثقال حبة من خردل	وإن كان الموزون خردلة ، والخردل : حب شجر معروف .
كفى بنا حاسبين	كفى بنا محاسبين .
الفرقان	التوراة ، لأنها تفرق بين الحق والباطل ، والحلال والحرام .
وضياء	وهدى ونوراً يستضاء بها فى ظلمات الحيرة والجهالة .
وذكراً	وعظة .
من الساعة مشفقون	من أهوال يوم القيامة خائفون .
وهذا ذكر مبارك	وهذا قرآن كثير البركة والخير .

مجمل المعنى

١ — قل يا محمد للمفترين المستهزئين بك : مَن الذى يحرسكم ويحفظكم بالليل إذا نمتم ، وبالنهار إذا قمتم للسعى فى طلب الرزق ؟ إنه لا يستطيع أحد أن يحميكم من عذابه إن سلطه عليكم — والتعبير هنا بالرحمن : للدلالة على أنه لا حافظ لهم إلا رحمة الله ولطفه — بل الكفار لتمردهم وعصيانهم ، لا يخطر ببالهم أنّ حفظ الله إياهم ليلا ونهاراً ، وأنّ النعم التى ينعمون فى بحبوحتها ، من فضل الله عليهم ، فهم معرضون عن ذكره ، عاكفون على عبادة الأصنام ، غافلون لاهون ، ألهتهم النعم عن المنعم فلا يذكرونه ، ولا يخافون عذابه .

٢ — ألهم آلهة لهم قدرة قادرة ، تحميهم من وقوع العذاب بهم غيرنا ، فهم يعوّلون عليها ، ويثقون بحمايتها ؟ ألا فليعلموا أن هذه الآلهة التى يعبدونها فى غاية الحقارة والضعف ، فهم لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً لا ضرّاً ، ومن لا يقدر على حماية نفسه ، ولا يصحبه نصر ومعونة من الله ، كيف ينصر غيره ويحميه ؟

٣ — لقد متعنا هؤلاء الكفار ، ومتعنا آباءهم بما أجزلنا لهم من النعم فى الحياة الدنيا ، وبما قدرنا لهم من الأعمار الطويلة ، فحسبوا أنهم سيظلون مغمورين بهذه النعم ، وظنوا أنها لا تزول ، وهذا أكذب الأمل — فاغترّوا وأعرضوا ، أفلا يعلمون أننا نستطيع أن نأتى أرضهم ، فننقصها من جوانبها موضعاً إثر موضع ، وننزعها من أيديهم بتسليط المسلمين عليها ؟— وقد أنجز الله وعده ، ففتح المسلمون مكة ، ودان العرب قاصيهم ودانيهم لهم ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً — أفهؤلاء الكفار هم الغالبون ؟

٣ — قل لهم يا محمد : هذا بلاغ لكم ، فأنا أنذركم بما يوحى إلىّ من ربى ، لا من قبل نفسى ، وأنتم تتصامّون عن سماع دعوتى ، والإصغاء إلى إنذارى ، ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ، وستنفتح هذه الآذان الصماء عند تحقيق مقتضى هذا الإنذار .

٤ — إنّ ما يصيحون به من إعلان عداوتك ، إنما هو كقرع الطبل الأجوف ، ولئن وقع بهم مجرد مسّ ، وأقل شىء من العذاب ، ليرفعُن عقيرتهم يدعون على أنفسهم بالويل والهلاك ، وليعترفن أنهم سلكوا معك مسلك الظالمين فى تكذيبك ، والإشراك بالله .

٥ — فى يوم القيامة تُحضر الموازين العادلة لتوزن بها صحائف الأعمال ، فلا تُظلم نفس من حقها شيئاً ، بنقص من إحسان محسن ، أو بزيادة من إساءة مسىء ، — وهو تصوير لرعاية العدل والإنصاف — وإن كان العمل زنة خردلة أتينا بها وأحضرناها ، وجازينا صاحبها بما يستحقه من ثواب أو عقاب ؛ والمراد : أن كل شىء من الأعمال كبيراً كان أو صغيراً ، غير ضائع عند الله — وكفى بنا محاسبين على ما قدمته الخلائق من خير أو شر ، إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا .

٦ — ولقد آتينا موسى وهرون التوراة الفارقة بين الحق والباطل ، وبين الحلال والحرام ، آتيناهما التوراة هدى ونوراً يستضاء بها فى معرفة الشرائع ، وفى ظلمات الحيرة والجهالة ، ولتكون عظة يتعظ بها المتقون الذين يخشون ربهم ، حتى فى الخلوات إذا غابوا عن أنظار الناس ، وهم خائفون وجلون من أهوال يوم القيامة وعذابه ، وسائر ما يجرى فيه .

٧ — وهذا قرآن كثير الخير والبركة ، أنزلناه على رسولنا محمد ، أفأنتم يا معشر قريش ومن لفّ لفّكم منكرون له ، مع أنكم تعلمون أنه معجز ، لا يقدر أحد أن يأتى بمثله ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدتم فيه اختلافاً كثيراً .

(٦)

من الآية ٥١ إلى الآية ٧٣ من سورة الأنبياء

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَا هٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ؟ قَالُوا : وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ . قَالَ : لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قَالُوا : أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ ، أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ؟ قَالَ : بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ، وَأَنَا عَلَى ذٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ –١– . وَتَاللّٰهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ –٢– . فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ، لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ –٣– . قَالُوا : مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا ؟ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ؟ قَالُوا : سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ، يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ –٤– . قَالُوا : فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ ، لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ . قَالُوا : أَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ قَالَ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا ، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ –٥– . فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ، فَقَالُوا : إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ، لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هٰؤُلَاءِ

يَنْطِقُونَ . قَالَ : أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ؟ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ . أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ؟ —٦— . قَالُوا : حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ —٧— . قُلْنَا : يَا نَارُ ، كُونِي بَرْدًا وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ —٨— . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ، فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ، وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ —٩— . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ . وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ —١٠— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
رُشده	تمام العقل ، والاهتداء إلى وجوه الإصلاح وهو شاب ، بالنبوة .
من قبل	من قبل نبوّة موسى وهرون .
عالمين	عارفين أنه أهل للنبوة .
التماثيل	الأصنام ، وعبّر الله عنها بالتماثيل تحقيراً لها .

الألفاظ	شرحها
عاكفون	مقبلون على عبادتها .
مبين	بيِّن ظاهر .
أجئتنا بالحق	أتقول حقًّا ؟
اللاعبين	الهازلين المازحين .
فطرهن	خلق السموات والأرض .
من الشاهدين	من المتحققين لما أقوله ، المبرهنين على صحته .
لأكيدن أصنامكم	لأدبِّرن لأصنامكم مكيدة .
تُوَلوا مدبرين	تنصرفوا إلى مجتمعكم فى يوم عيدكم .
فجعلهم جذاذاً	فجعل الأصنام بعد تحطيمها قطعاً صغيرة .
إلا كبيراً لهم	إلا عظيم الآلهة .
لعلهم إليه يرجعون	ليرجعوا إليه فيسألوه عمن كسرها ، فيظهر عجزه.
يذكرهم	يسب الأصنام ويعيبهم .
على أعين الناس	على مرأى من الناس بحيث يرونه .
لعلهم يشهدون	لعلهم يشهدون بما قاله من سب الآلهة .
كبيرهم	كبير الأصنام الذى لم يُكسر .
نُكسوا على رءوسهم	انقلبوا وعادوا إلى المجادلة .
ما هؤلاء ينطقون	ليست الأصنام تستطيع النطق .
أف لكم	أتضجر من قبيح عملكم .
من دون الله	من غير الله .
انصروا آلهتكم	انتقموا لآلهتكم .
برداً وسلاماً	باردة لا ضرر فيها .
كيداً	مكراً .

الألفاظ	شرحها
الأخسرين	المغلوبين .
ويعقوب نافلة	ويعقوب بن إسحق ، زيادة على ما سأله إبراهيم من الولد .
يهدون بأمرنا	يهدون الناس بإذننا إلى ديننا .
أوحينا إليهم فعل الخيرات	أوحينا إليهم أن يفعلوا الخيرات ، ويحثوا الناس عليها .

حوار بين إبراهيم وقومه

ذكرنا فيما سبق من تفسير الأجزاء السابقة شيئاً من قصة سيدنا إبراهيم ، ونسوق اليوم بعض هذه القصة ، فى نقاش وحوار حدث بينه وبين قومه ، بعد أن سفّـه أحلامهم ، وحطّم أصنامهم .

مجمل المعنى

١ — لما أراد الله إبطال عبادة الأصنام فى العراق ، اختار لذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فأكمل له عقله ، وآتاه النبوة وهو شاب . وكان عالماً أنه جدير بهذه الثقة ، لما جمع من محاسن الصفات ، ومكارم الخصال ، فذهب إبراهيم إلى أبيه وقومه — وكان ملكهم إذ ذاك النمروذ بن كنعان — ودارت بينه وبينهم المحادثة الآتية :

إبراهيم : ما هذه الأحجار التى تقيمونها ، وتعكفون على عبادتها من دون الله ، وهى لا تنفع ولا تضر ، ولا تسمع ولا تبصر ؟

قومه : إنا وجدنا آباءنا يعبدونها ، فاقتدينا بهم ، وعبدناها مثلهم .

إبراهيم : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال بيّن ظاهر ، بعبادة جمادات من أحجار تصنعونها بأيديكم ، وإذا جاز التقليد فإنما يكون لمن يوقن أن من يقلده كان على حق .

قومه : هذا الذى جئتنا به ، أجِدٌّ وحق هو ، أم لعب وهزل ؟ قالوا هذا لما استبعدوا أن يأتى إليهم الضلال عن طريق آبائهم ، وظنوا أن إبراهيم يقول هذا على سبيل المزاح .

إبراهيم : لست هازلا ، فربكم هو رب السموات والأرض ، وهو الذى خلقهن وأبدعهن على غير مثال سابق ، وأنا على ما أقول من الشاهدين ، ولست من الهازلين ، وأستطيع أن أبرهن على قولى بالأدلة القاطعة ، والحجج الدامغة .

٢ — ثم قال إبراهيم فى نفسه : أقسم بالله لأدبِّرن مكيدة لأصنامكم ، بعد أن تخرجوا إلى مجتمعكم فى يوم عيدكم ، وكان هؤلاء القوم قد اعتادوا أن يخرجوا فى يوم عيدهم إلى مجتمع لهم ، فإذا انتهوا من اجتماعهم ، دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ، ثم عادوا إلى منازلهم .

٣ — أتى إبراهيم بفأس فحطّم الأصنام كلها ، وانتشرت جذاذاتها فى أرض المعبَد ، ما عدا كبير الأصنام فإنه لم يحطمه ، وعمد إلى فأسه فعلقها فى عنقه ، ليرجعوا إليه ، ويسألوه : من كسر الأصنام ؟ ومن وضع الفأس فى عنقك ، فإن من شأن العابدين أن يرجعوا إلى معبودهم فى حل ما أشكل عليهم ، وليكون عجزه عن الجواب حجة لإبراهيم على قومه .

٤ — لما رجع قومه من مجتمعهم ، ودخلوا معبدهم ، ورأوا ما حل بأصنامهم ، سأل بعضهم بعضاً : من ذلك الظالم الذى اجترأ على الآلهة فحطَّمها ؟ فأجاب جماعة منهم : قد سمعنا شابًّا يذم الأصنام ، ويعيب عبادتها ، فلعله هو الذى حطَّمها .

٥ — قالوا : فأحضروه على مرأى من الناس ليروه ، لعلهم يشهدون بما قاله من سبّ للآلهة ؛ ثم أحضروا إبراهيم وسألوه : أأنت الذى كسّرت أصنامنا ، وحطّمت آلهتنا يا إبراهيم ؟ فقال : الذى كسرها كبيرهم هذا ، فاسألوا الأصنام تجبكم إن نطقت ؛ وفى إجابة إبراهيم استهزاء بقومه ، وتوبيخ لهم على أنهم يعبدون أحجاراً لا تضر ولا تنفع ، ولا تغنى عنهم شيئاً ، بل لا تستطيع أن تحمى نفسها ممن يعتدى عليها ، ولم يكذب إبراهيم فى توجيه التهمة إلى كبير الأصنام ، فقد علق إسناد الكسر إليه على نطق الأصنام ، وهى لا تستطيع أن تنطق ، فكأنه قال : إن كان الأصنام ينطقون فقد فعل كبيرهم هذا التحطيم ، فاسألوهم ، وهو أسلوب منطقى يدل على براعة إبراهيم فى دفاعه عن نفسه .

٦ — رجع القوم إلى أنفسهم يفكرون ، واستشاروا عقولهم ، فقال بعضهم لبعض : أنتم الظالمون بعبادة معبودات لا تستطيع النطق ، ولا تضر ولا تنفع ، ثم عادوا إلى مجادلة إبراهيم ، فقالوا له : إنك تعلم أن هذه الأصنام لا تقدر أن تنطق ، فكيف تطلب منا أن نسألها ؟ فقال لهم : أيليق أن تعبدوا ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، قبحاً لكم ولما تعبدون من غير الله ، أليس لكم عقول تفكر ؟

٧ — فلما عجزوا عن الجدال والمحاجّة تداولوا فيما بينهم ، ثم قالوا : حرّقوه ، فإن الإحراق بالنار أهول ما يعاقب به من يعتدى على آلهتكم ، وانصروها بالانتقام ممن حطَّمها ، إن كنتم تريدون الثأر لها ممن أهانها .

٨ — فبنوا بنياناً ، وجمعوا فيه حطباً كثيراً ، وأوقدوا النار فيه ، حتى صار الطائر لا يستطيع أن يمر عليها لشدة توهجها ، ثم أوثقوا إبراهيم ، ووضعوه فى منجنيق ، ورموه فى النار ، فلما ألقوه فيها صرف الله عنه أذاها ، وسلّمه من شرها ، قال للنار : كونى باردة وسلامة على إبراهيم .

٩ — وأراد النمروذ وقومه أن يضروا إبراهيم فأنجيناه ، ورد الله كيد أعدائه فى نحورهم ، وكانت نجاة إبراهيم دليلا على أن الحق لابد أن يتغلب على الباطل ، وذهب إبراهيم بعد نجاته من العراق إلى الشام ، ومعه ابن أخيه لوط ، وهى الأرض التى باركنا فيها: ببعث أكثر الأنبياء بها ، وانتشار شرائعهم بين العالمين منها ، وخصب أرضها ؛ فنزل إبراهيم بفلسطين ، وذهب لوط إلى المؤتفكة — وهى إحدى المدائن التى قُلبت على قوم لوط — وسنقص خبره فيما بعد — وبينهما مسيرة يوم وليلة .

١٠ — ووهبنا لإبراهيم إسحق — وكان قد سأل ربه أن يرزقه الأولاد بقوله : « رب هب لى من الصالحين » — ووهب لإسحق يعقوب زيادة على ما طلبه إبراهيم ، ولم يكتف بمن وهب له من الولد ، بل وهب له ولد الولد ، وجعلنا كلاً من إبراهيم وإسحق ويعقوب ولوط أئمة يقتدى بهم فى الأعمال الصالحات ، ويهدون الناس بأمرنا وإذننا إلى ديننا ، وأوحينا إليهم أن يفعلوا الخيرات ، وأن يحثوا الناس عليها ، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة هم وأتباعهم ، وكانوا مخلصين لنا فى العبادة ؛ ويتضح من هذه الآية أنه كان فى الأمم السالفة صلاة وزكاة ، إلا أنهما ليستا كالصلاة والزكاة المفروضتين على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو أنهما عبادة وصدقة .

(٧)

من الآية ٧٤ إلى الآية ٧٧ من سورة الأنبياء

وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ، وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ –١– . وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ، وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ ، فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ –٢– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
حكماً وعلماً	عدلا فى القضاء بين الخصوم ، ومعرفة بما ينبغى أن يعلمه الأنبياء من أمور الدين .
الخبائث	أقبح الذنوب وهى اللواط .
القرية	سدوم ، وكانت سبع قرى .
وأدخلناه فى رحمتنا	أدخلناه فيمن شملتهم رحمتنا ، بأن نجيناه وأهله إلا امرأته .

الألفاظ	شرحها
نادى من قبل	دعا ربه أن يهلك قومه قبل إبراهيم وإسحق ويعقوب ولوط .
من الكرب العظيم	من الغم الشديد الذى كان يلاقيه من أذى قومه .

قصة لوط

سبق أن ذكرنا شيئاً من قصة سيدنا لوط مع قومه الذين كانوا يرتكبون أفظع المنكرات ، وأقذر المعاصى ، فى الصفحة ١٢٠ من تفسير الجزء الثامن ، وكان قومه يقيمون فى سَدوم — وتسمى مدائن لوط ، أو المؤتفكة ، وتشتمل على سبع قرى — وبيّنا أن الله جل وعلا عاقبهم بزلزال دمر منازلهم ، حتى صار عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ، أبادتهم ، وأفنتهم عن آخرهم ، وطهر الأرض من شذوذهم الجنسى ، ويراد بتكرار هذه القصة وغيرها تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام ، ليعلم أن قريشاً إن كانوا قد ناصبوه العِداء ، فقد كان هذا دأب الذين من قبلهم مع رسلهم ، ولكن الله ينصر رسله ، ويعذب المعاندين من الكفار بأشد العذاب .

قصة نوح

أما قصة نوح ، فقد مكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلم يلق من قومه إلا الإعراض عنه ، والتكذيب له ، حتى كانوا إذا رأوه وضعوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا قوله ، وغطوا أعينهم بثيابهم حتى لا يرَوْه ، وكان الرجل منهم يلقاه فيخنقه ، ولا يتركه إلا مغشيًّا عليه ، فلما يئس من إيمانهم ، دعا ربه فقال : « إنى مغلوب فانتصر » : فانتقم لى ، وقال : « رب ،

لا تذر على الأرض من الكفار دياراً » ، فاستجاب الله دعاءه ، وأغرق قومه بالطوفان ، إلا من آمن منهم ، وقد ذكرنا شيئاً من قصته فى الصفحة ١٠٢ من تفسيرِ الجزء الثامن ، والصفحة ٩٩ من تفسير الجزء الحادى عشر ، والصفحة ٣٢ من تفسير الجزء الثانى عشر .

مجمل المعنى

١ — لقد منحنا لوطاً المقدرة على القضاء بين الخصوم بالعدل والقسطاس ، ومنحناه من العلم القدر الذى ينبغى أن يعلمه الأنبياء من أمور الدين ، ونجيناه من القُرى التى كان أهلها يأتون الذكران ، ويتركون ما خلَق لهم ربهم من أزواجهم ، وأبَدنا أهلها بزلزال دمر منازلهم وأفناهم ، ما عدا قرية بقيت للوط وأتباعه ، أما امرأته فقد أصابها ما أصاب قومها ، لأنها كانت ضالعة معهم ، تفشى إليهم أسراره ، ولم يحل بقوم لوط هذا العذاب ، إلا لأنهم كانوا سيّئى السيرة خارجين عن طاعة الله .

٢ — واذكر أيها الرسول نوحاً وما فعله قومه معه ، لتصبر على أذى قومك ، فقد كادوا له أشد الكيد ، حتى اشتد غمه وحزنه ، وقد كانت رسالته قبل رسالة إبراهيم وإسحق ويعقوب ولوط ، فدعا الله ألا يبقى على الأرض من الكافرين أحداً ، فاستجاب الله دعاءه ، ونجاه وأهله ومن آمن به من قومه ، ما عدا امرأته لخيانتها إياه ، وأحد أبنائه الذى ظل على كفره ، ونصر الله نوحاً على القوم الذين كذبوا بالآيات الدالة على صدقه ، فى دعوته إياهم إلى الإيمان بالله وحده ، إن هؤلاء القوم الكفار كانوا قوم سوء ، لانهماكهم فى الشر والفساد ، وإصرارهم على الكفر والعناد ، فأُغرقوا جميعاً .

(٨)

من الآية ٧٨ إلى الآية ٨٢ من سورة الأنبياء

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ، إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ، وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً -١- . وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ -٢- . وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ -٣- . وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ، تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ، وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ، وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فى الحرث	فى حقل مزروع .
نفشت فيه غنم القوم	انتشرت فيه ليلا غنم لطائفة من الناس ، فرعته ، ولم يكن معها راع .

الألفاظ	شرحها
وكنا لحكمهم شاهدين	وكنا لحكم داود وسليمان والمتحاكمين إليهما مراقبين.
ففهمناها سليمان	ففهمنا سليمان الفتوى فى هذه القضية .
يسبّحن والطير	تُردد الجبال والطير تسبيح داود ، بطريقة لا يعلمها إلا الله .
وكنا فاعلين	وكنا قادرين على أن نفعل هذا التسبيح .
وعلمناه صنعة لبوس لكم	وعلمنا داود صنعة لباس لكم ، وهى الدروع التى تصنع من الحديد .
لتُحصنكم من بأسكم	لتحفظكم من ضرب السيوف وطعن الرماح ، فى حروب أعدائكم .
عاصفة	شديدة .
دون ذلك	غير ذلك .

قصة داود وسليمان فى مسألة الحرث

كان داود ملكاً لبنى إسرائيل ، وكانوا يحتكمون إليه فى قضاياهم ، وكان سليمان منذ صغره يجلس فى مجلسه حين يتحاكم بنو إسرائيل إليه ، فيجلسه عن يمينه ، ويستشيره فى بعض أموره ، ليدرِّبه على الحكم ، فنشأ سليمان فطِناً ذكيًّا راجح العقل ، حتى فاق فى الدقة وعمق البحث أباه ، وحدث أن أقبلت ليلا غنم على مزرعة ، ولم يكن معها راع ، فأفسدت الزرع ، وأتت عليه ، فاحتكم أصحاب المزرعة إلى داود ، قالوا : يا نبى الله ، إنا حرثنا أرضنا وزرعناها ، وسقيناها وتعهدناها ، حتى إذا آن أوان حصادها ، جاء غنم هؤلاء القوم ليلا ، فانتشرت فى زرعنا فرعته ، حتى لم يبق منه شىء ، فقال لأصحاب الغنم : أحق ما يقوله

هؤلاء ؟ قالوا : نعم ، فقال لأصحاب المزرعة : كم تقدّرون لزرعكم ؟ قالوا : كذا وكذا ، وقال لأصحاب الغنم : كم تقدرون ثمناً لأغنامكم ؟ قالوا : كذا وكذا ، فلما رأى الثمنين متقاربين ، قال لأصحاب الغنم : ادفعوا أغنامكم إلى أصحاب المزرعة تعويضاً لهم عن زرعهم ، فقال سليمان — وكانت سنه لم تتجاوز الحادية عشرة — : إن أذنت لى يا أبت تكلمت ، فقال داود : تكلم يا بنى بما عندك ، فقال : الرأى عندى أن يدفع أصحاب الغنم أغنامهم إلى أصحاب المزرعة ، فينتفع هؤلاء بأصوافها وألبانها ونتاجها ، وأن يأخذ أصحاب الغنم المزرعة ، فيحرُثوها ويزرعوها ، ويسقوها ويتعهدوها ، حتى يستوى الزرع على سُوقه ، فإذا حان وقت حصاده ، سلموا المزرعة إلى أصحابها ، وتسلموا منهم أغنامهم ، فرضى الجميع بهذا الحكم ، وقال داود : وُفِّقت يا بنى ، وأنفذ ما قضى به سليمان .

مجمل المعنى

١ — واذكر يا محمد قصة داود وسليمان ، حين أصدرا حكمهما فى مزرعة انتشرت فيها غنم أفلتت من حظيرتها ليلا ، ولم يكن معها راع ، فأفسدت الزرع وأتت عليه ، وكنا لحكم الحاكمَين والمتحاكمين إليهما مراقبين ، ففهّمنا سليمان الفتوى فى هذه القضية ، وارتأى رأياً ارتضاه المتحاكمان ، وقضى به أبوه ، وآتينا كلاًّ من داود وسليمان القدرة على العدل فى الأحكام ، وعلماً بأمور الدين ، فصار كلٌّ منهما يحكم باجتهاده أحكاماً بعيدة عن الهوى .

٢ — وسخرنا مع داود الجبال والطير تردد تسبيحه ، إما بلسان الحال ، وإما

بلسان المقال — والأوْلى ألا يصرف اللفظ عن ظاهره ، على أن يكون هذا التسبيح بطريقة لا يعلمها إلا علام الغيوب — وكنا قادرين على أن نفعل هذا التسبيح ، وهو ليس ببدع منا ، وإن كان فى مظهره عجيباً .

٣ — وكان داود يتعفف أن يأخذ شيئاً من أموال الدولة يقيم به أوَده ، لشدة ورعه وتقواه ، فسأل الله أن يمكّنه من عمل يرتزق منه ، فألان له الحديد ، وعلمه صنعة لباس لكم ، وهى قمصان من حلقات الحديد يلبسها المحارب ، فتصد عنه ضربات السيوف ، وطعنات الرماح ، فى أثناء الحرب ، وفى هذا يقول صلى الله عليه وسلم : « ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » ، فهل أنتم يا معشر قريش شاكرون نعمتى على تيسير صنع الدروع ، فتصدقوا رسولى الذى أرسلته إليكم بشيراً ونذيراً ؛ وقد ولد داود سنة ١٨٨٠ قبل الهجرة ، التى توافق سنة ١٢٣٩ قبل الميلاد ، واختير ملكاً على بنى إسرائيل بعد أن قتل الطاغية الجبار جالوت ، كما تقدم فى الصفحة ١٤٥ من تفسير الجزء الثانى ، وأنزل الله عليه الزبور الذى بيّنّاه فى الصفحة ١٦ من تفسير الجزء السادس ، وكان حسن الصوت جَهْوَرِيَّه ، فإذا تغنى بمزاميره طرب لسماعها كلّ كائن حىّ ، حتى الوحش والطير .

٤ — وآتينا سليمان الذى ورث داود بنعمتين : سخرنا له الريح الشديدة الهبوب ، يمتطيها على بساطه ، فيقطع فى غدوّه أو رواحه ما يقطعه المسافر فى شهر ، وهذه الريح تجرى بأمر سليمان ، حاملة البساط غادية رائحة ، ليتفقد شئون ملكه ، وكنا بكل شىء عالمين ، فنستطيع بعلمنا أن نفعل المعجزات

التى يعجز عنها البشر ؛ والنعمة الأخرى أننا سخرنا له من الشياطين من يغوصون له فى البحار ، فيستخرجون منها نفائسها من لآلئ وغيرها ، كما أنهم يعملون عملا غير الغوص ، فيبنون له القصور الشاهقة ، والمدن العظيمة ، وكنا حافظين للشياطين حتى لا يَزيغوا عن أمره ، أو يفسدوا ما صنعوه .

(٩)

من الآية ٨٣ إلى الآية ٨٦ من سورة الأنبياء

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ : أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ، وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ، رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ، وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ، وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ، كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ، وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِى رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ -٢- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مسَّنى الضر	نالنى ضر فى أهلى ومالى وبدنى .
ومثلهم معهم	وآتيناه ضعف ما كان له من الأولاد .
ذكرى للعابدين	تذكرة للغَير من العابدين .
ذا الكفل	هو نبىّ اختلف المفسرون فى اسمه وزمن وجوده ، والكِفل : النصيب .

قصة أيوب

هو نبىّ اشتهر بالاستقامة والتقوى ، وكفالة الأيتام والأرامل ، وإكرام الضيف ، وكان ذا مال وبنين ، وضرب به المثل فى احتمال الصبر على الأذى والمكروه ، ابتلاه الله بالفقر بعد الغنى ، وبهدم بيته على أولاده ، فماتوا جميعاً ، وبمرض فى بدنه طال أمده ، وقد استمر هذا المرض زمناً طويلا اختلف المفسرون فيه ، ولكنه صبر صبراً جميلا كان مضرب المثل ، فلما بلغت الشدة غاية مداها ، دعا ربه أن يكشف عنه كربه ، فاستجاب الله دعاءه ، ووهب له العافية فى بدنه ، ورزقه ضعف ما كان عنده من الأولاد ، ورد إليه أكثر مما فقده من المال ، رحمة من الله وفضلا ؛ أما ما ذكره القصاصون من ابتلائه بمرض تناثر منه لحمه ، وتقرَّح منه جسده ، حتى صار مسرحاً للديدان ، فقول لا ظل له من الحقيقة ، لأن الأنبياء منزهون عن الأمراض المنفرة ، وجلال مناصبهم يأبى أن يكون منهم من ينأى الناس عن مخالطتهم ومعاشرتهم .

مجمل المعنى

١ — واذكر يا محمد أيوب الذى ضرب أكبر رقم قياسى فى الصبر على الأذى ، وضرب به المثل فى قوة الاحتمال ، فعند ما بلغت به الشدة مداها ، ففقد ماله وأولاده ، واعتل جسمه ، وطالت مدة علته ، نادى ربه : أنى قد نالنى من الضر ما يفوق احتمال البشر ، فامنن علىّ بواسع رحمتك ، وأفض علىّ من فيض إحسانك ، وأنت أعظم رحمة من كل من يتصف بالرحمة ، فاستجبنا له ، فكشفنا عنه ضره ، ورزقناه ضعف مَن كان عنده من

الأولاد الذين ماتوا ، ورددنا إليه أكثر مما فقده من المال ، رحمة من عندنا ، وتذكرة لغيره من العابدين ، ليصبروا كما صبر .

٢ — وإسماعيل وإدريس وذو الكفل ، هؤلاء صبروا على مشاق التكاليف ، وشدائد النوائب ، فأدخلناهم فى رحمتنا باختيارهم للنبوة فى الدنيا ، وتنعمهم بنعيم الجنة فى الآخرة ، إنهم من الصالحين الكاملين فى الصلاح ، المعصومين من الذنوب .

(١٠)

من الآية ٨٧ إلى الآية ٨٨ من سورة الأنبياء

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً ، فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ : أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ ! إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وذا النون	صاحب الحوت ، وهو يونس بن متَّى عليه السلام ؛ والنون : الحوت .
مغاضباً	غضبان على قومه ، مما قاساه منهم فى سبيل دعوته.
فظن أن لن نقدر عليه	فتوهم أننا لا نحتم عليه الرجوع إلى القوم الذين أرسلناه إليهم .
فى الظلمات	وهو مستقر فى ظلمة بطن الحوت ، وظلمات البحر المتكاثفة .
سبحانك	أنزهك أن يُعجزك أى شىء فى الكون !
من الغم	من همّ سجنه فى بطن الحوت .

قصة يونس عليه السلام

هو يونس بن متى ، أرسله الله إلى قوم بنينَوَى من بلاد الموْصل بالعراق ، فلم يستجيبوا دعوته ، وناصبوه العِداء ، فلما أعيته الحيلة معهم ، وأصروا على تكذيبه وعناده ، بَرِم بطول دعوته إياهم ، وشدة شكيمتهم ، وتمادى إصرارهم ، وكان حديث عهد بالنبوة ، لم يتدرب على معاناة مشقتها ، فتركهم مغاضباً لهم ، معتقداً أن الله لا يؤاخذه على تركهم ، وظل سائراً حتى أتى إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فركب سفينة اكتظت بحملها وركابها ، وناءت بهم ، وكادت تهوى بهم إلى قرار اليَم ، وأحس ركابها بما يتهددهم من الأخطار ، فألقوا أحمالها ، فظلت مثقلة بمن عليها ، ورأوا أن يخففوا عنها بإلقاء بعض الركاب فى البحر ، رغبة فى نجاة سائرهم ، فاقترعوا ، فكان يونس ممن أصابتهم القرعة ، فألقوه فى البحر ، فالتقمه حوت كبير ، فأوحى الله إليه : أن لن يلحقه أى أذى ، وإنما يكون جوف الحوت سجناً له ، عقاباً له على ترك قومه .

مكث فى جوف الحوت مدة ، رجح بعض الثقات أنها ثلاثة أيام ، ظل يونس خلالها عاكفاً على تسبيح الله جل شأنه ، وقد اجتمعت عليه ظلمة جوف الحوت ، وظلمات البحر المتكاثفة ، ثم نادى ربه وهو فى هذه الظلمات الحالكة ، قائلا : لا إله إلا أنت ، سبحانك ! إنى كنت من الظالمين ، فاستجاب الله دعوته ، وقبل منه توبته ، وألهم الحوت أن يطرح يونس من جوفه فى أرض فضاء ، فخرج ضعيفاً سقيماً ، مما عاناه مدة بقائه فى جوف الحوت ، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين — وهو القرع — ، لاتساع ورقه ، ثم عاد إلى قومه الذين فارقهم مغاضباً لهم — وكانوا مائة ألف أو يزيدون — فهداهم الله إلى الإيمان ، وقد ذكرنا شيئاً من قصته فى الصفحة ١٢٠ من تفسير الجزء الحادى عشر .

مجمل المعنى

واذكر قصة صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام ، إذ أرسلناه إلى قوم بنينوى بالموصل فكذبوه ، فحذرهم وأنذرهم فلم يبالوه ، فلما لم يبق فى قوس صبره منزع ، فارقهم غاضباً ، لكثرة ما قاسى منهم ، ولم نكن قد أذنّا له أن يتركهم ، وسبق إلى وهمه أننا لا نحتم عليه ونلزمه البقاء معهم ، بل نكلف غيره من الأنبياء الذين كانوا معاصرين له أن يتم ما بدأ به ، وأننا نعفيه من هذه الدعوة ، فذهب إلى ساحل البحر وركب سفينة ، ثم أُلقىَ منها إلى البحر كما سبق بيانه فى قصته ، فالتقطه حوت عظيم ، وأحس يونس بخطئه ، فدعا ربه وهو مستقر فى جوف الحوت — وقد اجتمعت عليه ظلمة جوف الحوت ، وظلمات البحر المتكاثفة — قائلا : لا إله إلا أنت ، أنزهك أن تعجز عن أى شىء فى الكون ، إنى كنت من الظالمين فى ذهابى من بين القوم الذين أرسلتنى إليهم بدون أمرك ، فاستجبنا له ، ونجيناه من كربته ، وأمرنا الحوت أن يقذفه من جوفه على الساحل ، وكذلك ننجى المؤمنين من كربتهم ، إذا استغاثوا بنا .

(١١)

من الآية ٨٩ إلى الآية ٩١ من سورة الأنبياء

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ : رَبِّ ، لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى ، وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ -١-. إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ -٢- . وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ، فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ -٣- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لا تذرنى فرداً	لا تتركنى وحيداً بلا ولد يرثنى .
خير الوارثين	خير من يبقى بعد فناء العالم .
أصلحنا له زوجه	جعلنا زوجته صالحة للولادة ، بعد أن كانت عقيماً ، وبلغت سن اليأس .
رغباً ورهباً	رغبة فى رحمتنا، ورهبة من عقابنا .
خاشعين	متواضعين .
والتى أحصنت فرجها	ومريم العفيفة التى لم تلحقها ريبة .

الألفاظ	شرحها
فنفخنا فيها من روحنا	فكلفنا جبريل أن ينفخ فى جيب درعها ، فحملت بعيسى .
آية للعالمين	دليلا لجميع الخلق على قدرتنا ، لأنها ولدت عيسى من غير أن يمسها بشر .

قصة زكريا ويحيي

بلغ زكريا من الكبر عتيًّا ، واشتعل رأسه شيباً ، ولم يرزق ولداً ، وجاوزت زوجته سن اليأس ، فعز عليهما ألا يكون منهما ولد ، وخاف زكريا أن يموت قبل أن يرزق ولداً ، ينقل عنه علمه ومعرفته ، فدعا ربه قائلا : رب لا تتركنى وحيداً بلا ولد يرثنى ، ويخلفنى فى قومى ، فبينما هو قائم يصلى فى المحراب ، نادته الملائكة ، وبشرته أن الله سيرزقه بغلام اسمه يحيي ، لم يسبق أن تسمى أحد باسمه ، فسأل ربه أن يجعل له علامة تدل على هذه البشرى ، فأوحى الله إليه : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ؛ تراجع الصفحة ٩٦ من تفسير الجزء الثالث ، والصفحات التى من ٢١ — ٢٨ من تفسير الجزء السادس عشر .

حملت زوجته بيحيي ، فنشأ فى بيت النبوة غلاماً زكيًّا ، ولما شب اصطفاه الله للنبوة ، وقد ذبحه حاكم فلسطين إجابة لداعى الهوى ، وذلك أنه أراد أن يتزوج ابنة أخيه ، فنهاه يحيي ، فسألته خطيبته أن يقتله ، حتى لا يقف حجر عثرة فى سبيلهما ، وألحت عليه هى وأمها أن يفعل ، فأمر بيحيي فذبح وهو الذى يسميه بعضهم : يوحنا المعمدان .

قصة مَرْيَمَ

هى مريم بنت عمران ، أحد كبار علماء بنى إسرائيل ، حملت بها أمها ، فنذرت أن يكون مَن فى بطنها خادماً فى بيت المقدس ، فلما وضعت مريم — ولا يخدم فى بيت المقدس إلا الذكور — تحسرت وتألمت ، ولكن الله تقبلها بقبول حسن ، وأنبتها نباتاً حسناً ، ولما توفى أبوها وهى صغيرة ، كفلها زوج خالتها زكريا ، وأبلغتها الملائكة أن الله قد اصطفاها وطهّرها من كل دنس ، وفضّلها على نساء العالمين فى زمانها ، وهكذا نشأت مريم على الطهارة والعفة والتقوى .

ولما بلغت مبلغ النساء ، جاءها جبريل وبشرها أن سيكون لها غلام زكى ، فقالت : كيف يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر؟ قال : هذه إرادة الله ، ثم نفخ فى جيب قميصها ، فدخلت النفخة فى جوفها ، فإذا هى حامل ، ولما ولدت عيسى أنطقه الله ، فبرّأ أمه من كل ريبة ؛ تراجع الصفحة ٩٢ وما بعدها من تفسير الجزء الثالث ، والصفحة ٢٩ — ٣٩ من تفسير الجزء السادس عشر .

مجمل المعنى

١ — واذكر يا محمد قصة زكريا ، إذ نادى ربه قائلا : رب ، لا تتركنى وحيداً بلا ولد يرثنى ، وأنت خير من يبقى يوم ترث الأرض ومن عليها بعد فناء العالم ، فاستجبنا نداءه ، ووهبنا له يحيى ، وجعلنا زوجته صالحة للولادة بعد أن كانت عاقراً ، وبعد أن جاوزت سن اليأس ، فحملت بعد عقمها .

٢ — إن من ذكرناهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، كانوا يبادرون إلى أفعال الخيرات ، ويلجئون إلينا لدعوتنا فى حالتى الرخاء والشدة ، رغبة فى ثوابنا ، ورهبة من عقابنا ، كانوا يرجون رحمتنا ، ويخافون عذابنا ، كانوا متواضعين خاشعين ، دائبين على عبادتهم وطاعتهم .

٣ — واذكر مريم العفيفة الطاهرة الذيل ، التى لم تشُبها ريبة ، فقد كلفنا جبريل أن ينفخ فى جيب قميصها ، فدخلت النفخة فى جوفها ، فحملت بعيسى عليه السلام ، وقد يكون المراد بنفخ الروح فى مريم ، إيجاد كائن حىّ منها وهو عيسى ، كما فى قوله تعالى عند إيجاد آدم عليه السلام يخاطب الملائكة : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين » ، وليس المراد أنه وقع نفخ حقيقى — وجعلنا أمر مريم وقصتها هى وابنها عيسى ، علامة دالة على عظيم قدرتنا لجميع الخلائق ، إذ ولدته من غير أن يمسها بشر ، وأنطقناه وهو فى المهد لتبرئة أمه .

(١٢)

من الآية ٩٢ إلى الآية ١٠٠ من سورة الأنبياء

إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ .
وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ، كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ —١— ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ
الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ، وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ —٢—.
وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ —٣— . حَتَّى إِذَا
فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ،
وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ، فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ،
يَا وَيْلَنَا ! قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا ، بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ —٤— .
إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ، أَنْتُمْ لَهَا
وَارِدُونَ . لَوْ كَانَ هٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا ، وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ .
لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ، وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إن هذه أمتكم	إن ملة التوحيد ملتكم أيها الناس .
أمة واحدة	غير مختلفة بين الأنبياء .
وتقطعوا أمرهم بينهم	تفرقوا فى أمر الدين فيما بينهم .
فلا كُفران لسعيه	فلا تضييع لعمله .
كاتبون	مثبِتون فى صحيفة أعماله .
وحرام على قرية أهلكناها	ممتنع ومحظور على كل قرية أهلكنا أهلها .
أنهم لا يرجعون	أنهم لا يرجعون إلينا يوم القيامة للجزاء .
حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج	حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج .
حدَب	مرتفع من الأرض ، كجبل أو أكمة .
ينسلون	يسرعون .
الوعدُ الحق	وعد الله الذى لا ريب فيه ، وهو يوم القيامة .
شاخصة أبصار الذين كفروا	ناظرة لا تطرِف أعين الكفار .
كنا فى غفلة من هذا	كنا غافلين عن هذا اليوم ، ولم نظن أنه حق .
حصب جهنم	وقود جهنم ، أو حطب جهنم على لغة أهل اليمن .
زفير	أنين ، وتنفس شديد يخرج من أفواههم .
لا يسمعون	لا يسمعون شيئاً لهول العذاب ، وشدة أجيج النار .

مجمل المعنى

١ — بعد أن ذكر الله الأنبياء الذين أرسلهم لهداية قومهم ، وبيّن أن هؤلاء الأنبياء جميعاً كانوا يدعون إلى التوحيد ، أشار هنا أن ملة التوحيد هى الملة الجديرة بأن يعتنقها الناس كافة ، ويعَضُّوا عليها بالنواجذ ، ويراعوا حقوقها ، ولا يُخلوا بشىء منها ، لأن الأنبياء كلهم بُعثوا للدعوة إليها ، والإيمان بها ، وقد جعلها الله ملة واحدة لا اختلاف فيها ، وهى عبادة الإله الذى يجب على الناس أن يوحّدوه ويفردوه بالعبادة ، ولكن الناس فرّقوا أمر دينهم ، وصاروا شيعاً ، فصار منهم الموحّد ، واليهودى ، والنصرانى ، والمجوسىّ ، وعابد الصنم ، وغيرهم ، وكلهم إلى الله راجعون يوم البعث والحساب ، فيحاسبهم على حسب أعمالهم ، ويجازيهم عليها ، ويعلمون حينئذ مَن المحق ومَنِ المبطل .

٢ — فمن يعمل عملا من الصالحات : صغيراً كان أو كبيراً ، وهو مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فلا يضيع عليه ثواب عمله ، ولا يحرم أجره ، وإنا لمثبتون له ثوابه فى صحيفة أعماله ، ونظير هذا قوله تعالى : « فاستجاب لهم ربهم : أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » .

٣ — وممتنع على كل قرية أهلكنا أهلها وأخذناهم بذنوبهم ، أنهم لا يرجعون إلينا للحساب والجزاء يوم البعث ، وهو تقرير لقوله تعالى : « كل إلينا راجعون » .

٤ — حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج ، وهم من كل مرتفع من الأرض — كجبل أو أكمة — يُسرعون فى خروجهم منه ، وحضر يوم القيامة ، فإذا أبصار

الكفار تبقى مفتوحة لا تطرف من هول الموقف — يقول الكفار حينئذ : الويل والهلاك لنا ! ، لقد كنا فى غفلة من هذا اليوم ، ولم نكن نعتقد أنه حق ، بل كنا ظالمين حين كذبنا الرسل ، وقاومنا دعوتهم ، ووضعنا العراقيل فى سبيلها .

٥ — إنكم وما تعبدون من الأصنام يأهل مكة وقود جهنم ، أنتم واردون لها ، وداخلون فيها — لو كان هؤلاء الأصنام التى تعبدونها آلهة كما زعمتم ، ما دخلوا النار ، وما صاروا حطب جهنم ووقودها ، وكل من العابدين والمعبودين خالدون فيها ، ولا خلاص لهم منها ، وللكفار فيها أنين ، وزفير يتصاعد من جوفهم إلى أفواههم ، وهم فيها لا يسمعون شيئاً لهول العذاب ، وشدة أجيج النار ؛ وجهنم لا تكون للأصنام عذاباً ولا عقوبة ، لأنها لم ترتكب ذنباً ، ولكنها تكون عذاباً أليماً لمن عبدها ، حين تكون وقوداً للنار ، قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ، وقودها الناس والحجارة » ، ونار الحجارة أشد من كل نار ، لأنها تُحمى فتلتصق بأجسادهم ، فيكون إيلامها أقسى وأمرّ . . .

(١٣)

من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء إلى آخر السورة

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى ، أُولٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُون . لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ، وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ . لَا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ ، وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ : هٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ —١— . يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا ، إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ —٢— . وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ : أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ —٣— . إِنَّ فِى هٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ . وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ —٤— . قُلْ : إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ : أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ : آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ، وَإِنْ أَدْرِى : أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ؟ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ ، وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ، وَإِنْ أَدْرِى : لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ ، وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ —٦— . قَالَ : رَبِّ ، احْكُمْ بِالْحَقِّ ، وَرَبُّنَا الرَّحْمٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الحسنى	المنزلة الحسنى ، وهى أن يوفقهم الله إلى طاعته .
عنها	عن جهنم .
حسيسها	حس حركتها ، وصوت تأجُّجها .
لا يحزنهم الفزع الأكبر	لا يحدُث لهم خوف من أهوال يوم القيامة ، لاطمئنانهم بما قدموه من صالح الأعمال .
نطوى السماء	نُقوّض بناء الكواكب ، بانهيار ما بينها من تجاذب وتماسك .
كطىِّ السجِل للكتب	كما يطوى الكاتب رسالة ، فيختفى ما فيها من المكتوب .
كما بدأنا أول خلق نعيده	كما بدأنا ما خلقناه من العدم ، نعيده إلى العدم .
وعداً علينا	وعدنا ذلك وعداً علينا إنجازه ، والوفاء به .
فى الزبور	فى كل كتاب مزبور : مكتوب ، من الكتب المنزلة .
من بعد الذكر	بعد أن دوّنا كل شىء فى اللوح المحفوظ .
إن فى هذا لبلاغاً	إن فيما ذكرنا فى هذه السورة من أخبار ومواعظ لكفاية .
لقوم عابدين	لقوم همهُّم العبادة والطاعة .
فهل أنتم مسلمون	فهل أنتم منقادون إلى مايوحى إلىّ من توحيد الله وطاعته ؟ .

الألفاظ	شرحها
آذنتكم	أعلمتكم ما أمرت به .
على سواء	على عدل واستقامة رأى ، وبرهان واضح ، وبيان صريح .
وإن أدرى	وما أدرى .
لعله فتنة	لعل ما أعلمتكم به بلاء واختبار لكم من الله ، لينظر كيف تعملون .
ومتاع إلى حين	وتمتع إلى أجل مقدر ، تقتضيه مشيئة الله .
احكم بالحق	احكم بينى وبين كفار مكة بالعدل ، المقتضِى وقوع العذاب بهم .
على ما تصفون	على ما تصفون به ربكم ، من ادعائكم عليه أنه اتخذ ولداً .

جدال بشأن الآلهة

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة يوماً ، وصناديد قريش فى الحطيم ، وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما ، فجلس مع رجال قريش ، فعرَض له النضر بن الحرث ، فكلمه رسول فأفحمه ، ثم تلا عليهم قوله تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ، أنتم لها واردون » ، وأقبل عبد الله ابن الزِّبَعْرَى – قبل إسلامه – فرآهم يتهامسون ، فقال : فيم خوضكم ؟ ، فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال ابن الزبعرى : أما والله لأخاصمنه ، ثم قال لرسول الله : أأنت قلت هذا ؟ قال : نعم ،

قال : أليس اليهود قد عبدوا عُزَيراً ، والنصارى عبدوا المسيح ، وبعض بطون خزاعة عبدوا الملائكة ؟ فقال رسول الله : « بلى » ، فضحك المشركون ، فقال ابن الزِّبعرى : فيكون هؤلاء المعبودون حصب جهنم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أجهلك بلغة قومك ! ؛ أليست ما لما لا يعقِل ؟ ثم قال له : « إن هؤلاء العابدين قد عبدوا الشياطين التى وسوست لهم أن يعبدوا من عبدوهم » ، ونزل قوله تعالى : « ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومُك منه يَصِدون » : (يضحكون) ، ثم نزل قوله : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى . . . » .

مجمل المعنى

١ — إن الذين سبقت لهم منا المنزلة الحسنى — وهى السعادة — فحالفهم التوفيق إلى طاعة الله ، وبشروا بالجنة التى وعدوا بها ، أولئك مبعدون عن جهنم ، لعلو درجتهم ، وشرف منزلتهم ، لا يسمعون حس تحركها ، ولا صوت تأجّجها ، لبعدهم عنها ، وهم خالدون فيما اشتهت أنفسهم من النعيم ، لا يحزُنهم أهوال يوم القيامة ، ولا يُفزعهم أن يؤمر بالعاصين إلى النار ، وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة ، يقولون لهم : هذا يومكم الذى كنتم تبشّرون به فى الدنيا .

٢ — اذكر لهم يا محمد أهوال يوم القيامة ، يوم يتقوض بناء السماء ، وتتهاوى الكواكب ، بعد زوال ما بينها من تجاذب وتماسك ، فتختفى معالمها ، كما تختفى الكتابة حين يطوى الكاتب رسالته على ما فيها ، فتعود إلى العدم كما كانت قبل خلقها ، فكما خلقنا أول الأمر كل شىء من العدم ، نعيده إلى العدم ، وعَدْنا أن نفعل ذلك وعداً ، علينا إنجازه والوفاء به ،

إنا كنا قادرين على ما نشاء ، وكان وعدنا مفعولا ، فلابد أن يقع .

٣ — ولقد كتبنا فى كل كتاب مزبور : (مكتوب) ، من الكتب التى أنزلناها على رسلنا من توراة وإنجيل وقرآن ، بعد مادوّنا فى اللوح المحفوظ —وهو أم الكتب جميعاً — أن أرض الجنة يرثها عبادى الصالحون، وهم عامة المؤمنين الذى كانوا يُستضعفون فى مشارق الأرض ومغاربها ، فيقولون حين يرثونها : « الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض ، نتبوأ من الجنة حيث نشاء » .

٤ — إن فى هذا الذى ذكرناه فى هذه السورة من الأخبار والمواعظ ، والوعد والوعيد ، والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد ، لكفاية لقوم همهم العبادة والطاعة ، وسبباً لبلوغهم أقصى غاياتهم ، وما أرسلناك يا محمد بما ذكرناه وبيّناه من الشرائع والأحكام ، إلا رحمة للعالمين ، فقد كان الناس قبلك فى جهالة جهلاء ، وطُخية عمياء ، وكان أهل الكتاب فى حَيرة من أمر دينهم ، لانقطاع تواترهم ، ووقوع الاختلاف بينهم ، فبعثناك لتهدى الناس إلى سبيل الحق والرشاد ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور ، وتميز لهم الحق من الباطل ، فكانت بعثتك سبباً لإسعادهم ، وموجبة لإصلاح معاشهم ومعادهم ، فمن آمن بك ، وصدق برسالتك ، سعِد وأمنَ ، ومن لم يؤمن بك ، سلم مؤقتاً مما لحق بالأمم الماضية الذين كذبوا رسلهم من العذاب ، فما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يا محمد .

٥ — قل لهم يا محمد : إنما يوحَى إلىّ : أنه لا إله لكم إلا الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فهل أنتم منقادون إلى ما يوحى إلىّ من وحدانيته ، مخلصون العبادة له ؟ فإن أعرضوا عن توحيد الله ، وتنزيهه عما لا يليق به ، فقل لهم : لقد أعلمتكم ما أمِرت به

على عدل واستقامة رأى ، وبرهان ساطع ، وبيان واضح ، وما أدرى : أقريب ما توعدون به من العذاب وقيام الساعة أم بعيد ؟ ولكنه كائن لا محالة .

٦ – إن الله يعلم ما تجهرون به من القول ، بالطعن فى الإسلام ، ويعلم ما تكتمون من الإحن والأحقاد فى صدوركم ، وما تتآمرون به على المسلمين فى مجتمعاتكم ، وما أدرى : لعل تأخير عقوبتكم استدراج لكم لتزدادوا إثماً ، وامتحان من الله ، لينظر كيف تعملون ، مع ما أسبغه عليكم من النعم ، وتمتع إلى أجل تقتضيه مشيئة الله .

٧ – أمر الله الرسول عليه الصلاة والسلام حين أمعن قومه فى عنادهم ، أن يفوّض الأمر إليه فى شأنهم ، ويقول : رب ، اقض بينى وبين أهل مكة بالعدل المقتضى لاستعجال وقوع نوع من العذاب بهم ، وانتصارى عليهم ، وربنا الذى وسعت رحمته كل شىء ، وهو الذى أطلب منه العون على ما تصفون من الأباطيل والإفك ، كقولكم : اتخذ الله ولداً ، وقولكم : محمد شاعر ، والقرآن شعر وتخيّل ، وأن راية الإسلام إن خَفَقَت أياماً فستسكن ؛ وقد حكم الله على الكفار بالهزيمة فى بدر ، واستكانة الكفار وخضوعهم يوم فتح مكة .

سُورَةُ الحَجّ

نزلت بالمدينة ، ما عدا الآيات التى من ٥٢ ــ ٥٥ فإنها نزلت بين مكة والمدينة ، وآياتها ٧٨ آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية السابعة

يٰأَيُّهَا النَّاسُ ، اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ –١–. يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ، وَلٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ –٢–. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ . كُتِبَ عَلَيْهِ : أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ، وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ –٣–. يٰأَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ ، فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ، لِنُبَيِّنَ لَكُمْ –٤–. وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ،

وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ، لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا —٥— . وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ —٦— ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
زلزلة الساعة	شدة الحركة والاضطراب يوم القيامة .
تذهل	تسلو وتغفل من شدة الدهشة .
وتضع كل ذات حمل حملها	وتسقط كل حُبلى جنينها .
مَريد	متمرد ، متجرد للفساد .
كُتب عليه	قُضى على الشيطان .
من تولاه	من اتبعه .
نطفة	سائل ينزل عند اتصال الرجل بالمرأة : (مَنِىّ) .
علَقة	قطعة متجمدة من الدم .
مُضغة	قطعة من اللحم .
مخلَّقة وغير مخلَّقة	تامة الخلق ، أو غير تامة كالسقْط .

الألفاظ	شرحها
الأرحام	جمع رحِم ، وهو موضع تكوين الولد .
طفلا	أطفالا ، والطفل للمفرد والجمع ، قال تعالى : أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » .
يُرد إلى أرذل العُمر	يرد إلى أردأ وقت العمر ، وهو الهرم ، وفساد العقل من الكبر .
لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً	ليعود إلى حالة الطفولة ، فينسى كل ما علمه .
هامدة	يابسة لا تنبت شيئاً كالميتة .
اهتزت	تحركت .
وربَت	وانتفخت وزادت مما فى داخلها من الماء والنبات .
زوج بهيج	صنف ولون حسن ، يكون منه عضو التذكير وعضو التأنيث .
ذلك	ما تقدم من إيجاد الإنسان وإيجاد النبات .

مجمل المعنى

١ — يأيها الناس ، اتقوا عقاب ربكم ، بطاعته فى العمل بأوامره ، واجتناب نواهيه ، إن أهوال الساعة فى اضطراب الخلائق حين خروجهم سراعاً من قبورهم لا يعرفون مصيرهم ، وتحركهم بعد سكونهم ، شئ هائل ، مفزع مزعج ، ولا ينجّيكم من هولها ، ولا يخلصكم من زلزلتها ، سوى التدرّع بلباس التقوى .

٢ — يوم ترون زلزلتها ، تغفل كل مرضعة عن رضيعها فتتركه ، وتشتغل بنفسها عن كل شىء سواها لشدة دهشتها ، وتُسقط كل حُبلى جنينها من شدة

الفزع — وهو تصوير لشدة الانزعاج والخوف — فليس فى يوم البعث إرضاع ولا حمل ، ويخيَّل إليك أن الناس سُكارى لعدم اتزانهم ، وكثرة حيرتهم ، وليسوا بسُكارى لأنهم لم يعاقروا خمراً ، ولكن خوف عذاب الله الشديد هو الذى أفزعهم ، فأطار لبهم ، وأذهب صوابهم .

٣ — وكان النضر بن الحرث كثير الجدل لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان يقول كما يقول بعض العرب : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، وينكر البعث وإحياء الموتى بعد أن صاروا تراباً ، فنزل قوله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم . . . » والمعنى : ومن الناس من يجادل فى الله بغير معرفة ، جهلا وسفسطة وعناداً ، فينسب إليه ما لا يليق به ، ويتّبع فى المجادلة قول كل شيطان متمرد ، متجرد للفساد ، مُعَرًّى من كل خير ، قد قضى الله عليه أنه من اتبعه فإنه لا يألو جهداً فى إضلاله ، ويهديه إلى ما يؤدى به إلى عذاب النار المستعرة .

٤ — يأيها الناس ، إن كنتم فى شك من إعادة الخلائق إلى الحياة يوم البعث بعد أن يصيروا تراباً ، فانظروا إلى بدء خلقكم ، لعله يزيل شككم ، فقد خلقنا آدم من تراب ، ثم خلقنا ذريته من نطفة — وهى المنىّ — ثم صارت النطفة قطعة دم متجمدة ، ثم صارت هذه قطعة من اللحم ، إما مخلَّقة ، بأن تم لها مدة الحمل ، وتوارد عليها خلق بعد خلق ، وإما غير مخلَّقة ، بأن لم يتم لها ذلك فسقطت ، لنبين لكم بهذا التدريج عظم قدرتنا وحكمتنا ؛ ولا ريب أن من قدر على خلق آدم من تراب ، ثم قدر على التغيير والتصوير فى خلق ذريته من بعده ، قادر على إعادته بعد أن صار تراباً .

٥ — ونحن نُقر من نشاء فى الأرحام من الأجِنَّة إلى أجل قدّره الله لها ، وهو وقت الوضع ، وأقله ستة أشهر ، وأكثره أربع سنين ، وغالبه تسعة أشهر ،

ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا ، ثم نعمّركم لتبلغوا تمام عقلكم وتمييزكم وقوتكم ، ومنكم من يُتوفَّى قبل أن يبلغ أشده ، أو فى وقت بلوغه إياه ، ومنكم من يرد إلى أردأ العمر ، وأخس وقت فى حياته ، وهو الهرم المؤدى إلى فساد العقل ، فيعود إلى هيئته الأولى إبّان الطفولة من ضعف العقل ، وقلة الإدراك ، فينسى ما علمه ، ولا يدرك منه شيئاً .

٦ — وترى الأرض ساكنة يابسة لا تنبت شيئاً ، كأنها ميتة ، فإذا أنزلنا عليها الماء تحركت بما يشقها من النبات ، وارتفعت وزادت بما داخلها من الماء وبروز النبات ، وأنبتت من كل صنف ولون حسن يروق منظره ، منه ما يشتمل على عضو التذكير ، ومنه ما يشتمل على عضو التأنيث .

٧ — ذلك الذى تقدم ذكره من خَلق الإنسان فى أطوار مختلفة ، وتحوُّله بعد الولادة إلى أحوال عدة ، وإحياء الأرض بعد موتها ، بسبب أن الله وحده هو الثابت الدائم ، وهو الحقيق أن يُعبد ، وما دام قادراً على جميع الممكنات ، وجب القطع بأنه قادر على إحياء الموتى ، وأنه قدير على كل شىء ، وأن الساعة آتية لا شك فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور بمقتضى وعده الذى لا يُخلفه .

(٢)

من الآية ٨ إلى الآية ١٣ من سورة الحج

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ . ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ، وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ، وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ، —١— . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ : فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ —٢— . يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ، ذٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ، يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ، لَبِئْسَ الْمَوْلَى ، وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ! —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولا هدًى ولا كتاب منير	ولا سند له من استدلال أو وحي .
ثاني عطفه	لاوى جانبه تكبراً عن الإيمان ! والعِطف : الجانب .
عن سبيل الله	عن دين الله .

الألفاظ	شرحها
خزْى	ذل وهوان .
بما قدامت يداك	بسبب ما قدمته يداك من الكفر والمعاصى .
على حرف	على طرف من الدين لا ثبات له فيه .
خير	صحة وسلامة فى نفسه وماله .
فتنة	سقم فى بدنه ، ومحنة فى ماله .
انقلب على وجهه	ارتد ورجع إلى الكفر .
لبئس المولى	لبئس الناصر .
ولبئس العشير	ولبئس الصاحب المعاشر .

مجمل المعنى

١ — ومن الناس — كأبى جهل ومن على شاكلته — من يجادل فى الله بالباطل ، فينكر عليه إسناد النبوة إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وينكر على محمد أنه أنزِل عليه القرآن ، يجادل بغير علم ، ولا سند له من استدلال ونظر صحيح ، أو وحى نزل عليه مظهر للحق ، يستنير به فى جداله ، وهو مع ذلك يلوى جانبه تكبراً ، ويشمخ بأنفه ، ويـُعرض عن قبول الحق ، « إذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه وقراً » ، يمعن فى الجدل الباطل ، وليس له غرض من الجدال إلا الإضلال عن دين الله ، المؤدى إلى الهدى والرشاد — هذا المجادل الذى جمع بين الضلال والإضلال والكفر ، له فى الدنيا ذل وهوان ونكال — وقد تم هذا فى وقعة بدر — ونذيقه يوم القيامة العذاب المحرق وهو النار ، ويقال له يوم

القيامة عند دخوله النار : ذلك الهوان الذى لقيته فى الدنيا ، وذلك العذاب الذى تلقاه يوم القيامة ، بسبب ما اقترفت من الكفر والمعاصى ، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة .

٢ — وقدم على النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة جماعة من الأعراب من البادية مهاجرين ، فكان الواحد منهم إذا صح بها بدنه ، ونتجت فرسه مهراً حسناً ، وولدت امرأته غلاماً ، وكثر ماله وماشيته ، رضى واطمأن ، وقال : ما أصبت منذ دخلت دين الإسلام إلا خيراً ، وإن كان الأمر بخلاف ذلك ، فمرض ، أو ولدت له امرأته بنتاً ، أو أجهضت ولدها ، أو ذهب ماله ، أو تأخرت عنه الصدقة ، تشاءم بالإسلام ، وقال : ما أصبت إلا شرًّا ، وانقلب عن دينه ؛ والمعنى : أن من الناس من يعبد الله على طرَف من الدين لا ثبات له ، كمن يكون على طرف الجيش عند لقاء العدو ، فإذا أحس بغنيمة قرّ ، وإن أحس بهزيمة فرّ ، مثل هذا إذا أصابه خير من صحة فى بدنه ، وسلامة فى نفسه وماله ، رضى واطمأن ، وأقام على دينه ، وإن أصابته محنة كسقم فى بدنه ، أو محنة فى نفسه وماله ، ارتد ورجع إلى الكفر ، فضيع دنياه بفوات ما أمّله فيها من الغنائم ، وبحبوط ثواب عمله فيها ، وضيع آخرته بما سيلقاه من العذاب الأليم ، بدل النعيم المقيم ، ذلك الذى أصابه هو الخسران البيِّن ، الذى لا خسران مثله .

٣ — يعبد من غير الله الأصنام التى لا تضره إن لم يعبُدها ، ولا تنفعه إن عبدها ، لأنه يعبد جماداً لا غَناء فيه ، ذلك هو الضلال البعيد عن الحق ، يعبُد من ضرره بعبادته أقرب من نفعه الذى يتوقعه منه ، وهو الشفاعة له إلى الله يوم القيامة ، لبئس الناصر ، ولبئس الصاحب المعاشر ، الذى لا يفيد فى شفاعة ، ولا يغيث من التجأ إليه ، وهو الصنم .

(٣)

من الآية ١٤ إلى الآية ١٨ من سورة الحج

إِنَّ اللّٰهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، إِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ —١— . مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّٰهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ، ثُمَّ لْيَقْطَعْ ، فَلْيَنْظُرْ : هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ —٢— . وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَأَنَّ اللّٰهَ يَهْدِى مَنْ يُرِيدُ —٣— . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، إِنَّ اللّٰهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللّٰهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ —٤— . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ ، وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ، وَمَنْ يُهِنِ اللّٰهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أن لن ينصره الله	أن لن ينصر الله رسوله .
بسبب إلى السماء	بحبل إلى سقف بيته .
ليقطع	ليختنق بالشنق ، وبقطع مجرى تنفسه .
كيده	حيلته وفعله فى عدم نصرة الرسول .
ما يغيظ	غيظه أو الذى يغيظه .
الذين هادوا	اليهود .
الصابئين	عبّاد النجوم .
المجوس	عبّاد النيران .
يسجد له	يخضع له بما يراد منه ، ويدل على عظمته وقدرته .
وكثير من الناس	ويسجد له كثير من الناس ، وهم المؤمنون .
وكثير حق عليه العذاب	وكثير من الناس يستحق العذاب ، وهم العصاة والكافرون .
ومن يهن الله فما له من مكرم	من تتعلق مشيئة الله بإشقائه ، فما له من مسعد .

مجمل المعنى

١ — إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فيتفضل عليهم بالنعيم الدائم منّة منه وكرماً ، إن الله يفعل ما يريد ، فيثيب الطائع ، ويعذب العاصى ، ولا معقب لحكمه : « فأما الذين آمنوا

وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ».

٢ — والله سبحانه وتعالى ناصرٌ رسوله فى الدنيا بإعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، وفى الآخرة بإعلاء درجته ، وإدخال من صدّقه جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وتعذيب من كذّبه ، بإذاقته عذاب الحريق ، فمن غاظه ذلك من أعاديه ، وظن لحقده وحنقه أن الله لن ينصره، فليمت كمداً ، بأن يمد حبلا إلى سقف بيته ، ويربط به عنقه ، حتى يختنق ويموت شنقاً بقطع مجرى تنفسه ، وليتصور فى نفسه — إن فعل هذا — : هل يُذهبن فعله هذا — وهو أقصى ما يقدر عليه — غيظه من نصر الله لرسوله .

٣ — إننا مثل إنزالنا الكتب السابقة ، أنزلنا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم : آيات ظاهرات واضحات ، لا لَبس فيها ولا إبهام، وأنزلنا أن الله يهدى من يريد هدايته .

٤ — إن الذين آمنوا بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، واليهود المنتسبين إلى ملة موسى ، وعبّاد النجوم أو الملائكة ، والنصارى المنتسبين إلى ملة عيسى ، وعبّاد النيران أو الشمس أو القمر ، والمشركين عبّاد الأوثان ، والبراهمة ، إن الله يقضى ويحكم بينهم يوم القيامة ، بإظهار المحق من المبطل ، فيجازى كلا بما يستحقه ، ويدخله المحل المعد له ، فيكون محل المؤمنين الجنة ، ومحل الكافرين النار ، إن الله عالمٌ عملَ كل عبد من عباده ، مراقب أفعاله وأحواله ، فلا يعزُب عنه شىء منها .

٥ — ألم تعلم أيها المكلف ، أن الله يخضع له من فى السموات ومن فى الأرض ، ويدل بخضوعه على عظمة الله وكمال قدرته ، ويخضع له الشمس والقمر والنجوم ، فكل منها يخضع فى فلكه لقدرته ، وتنقاد له الجبال والشجر

والدواب ، فيما يراد منها ، فقد سخرها لمنفعة الإنسان ، وذللها له ، ويخضع له كثير من الناس المؤمنين خضوع طاعة وامتثال ، ويوجد كثير من الناس يأبى الخضوع ، فاستحق العذاب لكفره وعصيانه ؛ ومن تعلّقت مشيئة الله بشقائه لفساد فطرته ، فما له من مكرم يكرمه بإسعاده ، إن الله يفعل ما يشاء : يعز من يشاء ، ويذل من يشاء .

(٤)

من الآية ١٩ إلى الآية ٢٥ من سورة الحج

هٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ، يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ، وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ، وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ —١— . إِنَّ اللّٰهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ —٢— . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً : الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ؛ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
هذان خصمان	المؤمنون خصم والكفار خصم ، والخصم يطلق على الواحد والجمع .
اختصموا فى ربهم	تنازعوا فى أمر دين ربهم .
قطّعت لهم ثياب من نار	قدرت لهم ثياب على مقادير أجسامهم ، يلبسونها فتحيط بهم النار .
الحميم	الماء البالغ أقصى درجات الحرارة .
يُصهر به ما فى بطونهم والجلود	يذاب بالحميم من فرط حرارته ما فى بطونهم ، وتُشوى به جلودهم .
مقامع من حديد	أعمدة من حديد يضربون بها على رءوسهم .
من غمّ	مما يلحقهم من شدة الهم والكدر .
يُحلَّوْن فيها	تلبسهم الملائكة بأمر الله حُليًّا فى الجنة .
أساور	جمع أَسوِرة ، وهذه جمع سِوار .
وهُدوا إلى الطيب من القول	هداهم الله إلى طيب القول ، فأعلنوا إيمانهم .
ويصدون عن سبيل الله	ومن شأنهم المنع من الدخول فى دين الله ، وفى المسجد الحرام .
العاكف فيه والباد	المقيم فيه والبادى ، وهو كل من أتى من البادية ، ويشمل كل من أتى للزيارة .
بإلحاد بظلم	بمعصية ظالماً ، كاحتكار طعام ، أو عدول عن القصد والاستقامة .

مجمل المعنى

١ — هذان فريقان مختصمان : المؤمنون خصم ، والكافرون خصم ، تنازعوا فى أمر دين ربهم ، يوم مبارزتهم فى وقعة بدر ، ففريق المؤمنين حمزة وعلىّ وعُبَيدة بن الحرث ، وفريق الكافرين : عُتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد ابن عتبة ، وعاد الضمير على الخصمين جمعاً فى قوله : « اختصموا » ، لأن كل فريق من الخصمين أكثر من واحد ، فهو كقوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » ، فالكفار من الخصمين قُدرت لهم ثياب من نار على قدر أجسامهم ، يلبسونها فتحيط بهم النار من كل جانب ، وهذه الثياب هى السرابيل التى تقدم الكلام عنها فى الصفحة ١١٣ من تفسير الجزء الثالث عشر ، ويبقى الجزء البارز من الثياب وهى الرءوس ، هذه الرءوس يصب عليها الماء المغلَى ، البالغ أقصى درجات الحرارة ، فيذابُ من فرط حرارته ما فى بطون الكفار من أحشاء وشحوم وغيرهما ، وتشوى به جلودهم ، ولهم — للإمعان فى التنكيل بهم — أعمدة من حديد يضربون بها على رءوسهم ، وكلما حاولوا الخروج من النار من هول ما يلقون من العذاب ، وما يلحقهم من شدة الغم والهم ، والحزن والكدر ، أعيدوا فيها ، وهو مثل قوله تعالى : « يريدون أن يخرجوا من النار ، وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم » ، وقيل لهم : ذوقوا عذاب النار البالغة غاية الإحراق والألم .

٢ — أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات — وهم الفريق الثانى — فإن الله يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، تحليهم الملائكة بأمر الله ببعض أساور من ذهب ، ويؤتَوْن لآلئ ثمينة ، ولباسهم فيها مصنوع من الحرير ،

فيستمتعون فى الآخرة بما حرموه فى الدنيا من التحلى بالذهب ولبس الحرير ، ويتحلون بما كان يتحلى به الملوك فى الدنيا من الأساور الذهبية ، والتيجان المرصعة باللآلىء ؛ ذلك لأنهم أرشدوا إلى الطيب من القول فنطقوا بالشهادتين ، وهدوا إلى طريق الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وهى الدين الحق .

٣ — ثم أعاد الله القول إلى الكفار ، الذين منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخول مكة حاجًّا معتمراً ، عام الحديبية سنة ست للهجرة ، ومعه طائفة كبيرة من المسلمين ، فذكر أن الذين كفروا ، ومن شأنهم الصد عن دين الله وعن المسجد الحرام ، الذى جعله الله متعبداً لجميع الناس للصلاة والطواف والعبادة ، يستوى فيهم المقيم منهم عنده ، وأهل البادية ، وكل من يقدَم لزيارته — هؤلاء يذيقهم الله العذاب الأليم ، كما يذيق به من أراد فى الحرم اقتراف إثم ، أو عدولا عن القصد والاستقامة ، فكل معصية صغُرت أو كبرت فيه يعد مرتكبها ظالماً ، ويستحق من أجلها العذاب الأليم .

(٥)

من الآية ٢٦ إلى الآية ٣٣ من سورة الحج

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ : أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً ، وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ -١- . وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا ، وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ، وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ -٣- . ذَٰلِكَ ، وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ، -٤- . فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ، وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ، فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ، أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ -٥- . ذَٰلِكَ ، وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ -٦- . لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ -٧- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بوأنا	عيَّنا وبيَّنا .
طهِّر بيتى	طهره من الأوثان والأقذار .
القائمين	المقيمين عنده .
الركع السجود	المصلين ، جمع راكع وساجد .
وأذن فى الناس بالحج	ناد يامحمد فى الناس أن يأتوا للحج .
رجالا	مشاة ، جمع راجل : وهو الماشى على رجليه .
وعلى كل ضامر	وركباناً على كل بعير مهزول أتعبه السفر .
يأتين	تأتى هذه الإبل الضوامر .
من كل فجّ عميق	من كل طريق بعيد .
ليشهدوا منافع لهم	ليحضروا منافع لهم : دينية بمغفرة ذنوبهم ، ودنيوية بالتجارة وغيرها .
فى أيام معلومات	فى يوم النحر وأيام التشريق .
بهيمة الأنعام	البهيمة : كل ذات أربع قوائم من الدواب ، والأنعام : الإبل والبقر والغنم .
البائس الفقير	الذى أصابه بؤس وشدة فقر .
ليقضوا تفثهم	ليزيلوا وسخهم ، وليقصوا شواربهم وأظفارهم .
وليوفوا نذورهم	يؤدوا ما نذروه من هدايا وضحايا وغيرهما ، مما ليس فيه معصية .
وليطّوفوا بالبيت العتيق	وليطوفوا بالكعبة ، التى هى أول بيت بنى لعبادة الله وحده .

الألفاظ	شرحها
ذلك	الشأن والحال فى ذلك الذى تقدم .
حُرُمات الله	أحكامه ، وما لا يحل انتهاكه .
إلا ما يتلى عليكم	إلا ما يتلى عليكم من المحرَّمات .
فاجتنبوا الرجس من الأوثان	فاجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان ، وأصل الرجس : الشىء القذر .
حنفاء لله	مخلصين لله فى عبادته ، عادلين عن كل دين سوى دينه .
خرّ من السماء	سقط من السماء .
سحيق	بعيد .
يعظم شعائر الله	يعظم الهدايا التى تهدى للحرم ، بأن تكون حِساناً سِماناً غالية الثمن .
فإنها من تقوى القلوب	فإن تعظيمها من أفعال ذوى القلوب التقية .
لكم فيها منافع	لكم فى الهدايا منافع ، كشرب ألبانها ، وركوبها ، والحمل عليها .
إلى أجل مسمى	إلى وقت نحرها .
ثم محلها	ثم مكان حل نحرها .
إلى البيت العتيق	عنده ، والمراد به : الحرم .

مجمل المعنى

١ — واذكر يا محمد لهؤلاء الكفار الذين يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ، وقت أن عيّنا لأبيهم إبراهيم مكان البيت ، وأريناه أساسه ، وكان مكانه قد انطمس أيام الطوفان ، فأعلمناه به ، وأمرناه أن لا تُشرك بى شيئاً ،

وطهر بيتى من الأصنام والأرجاس — وكان لجُرهم أصنام فى محل البيت وحوله حينما أقاموا بمكة — ليكون المكان طاهراً لمن يطوف به ، ويقيم عنده ويصلى فيه ، وعبر الله عن الصلاة بذكر بعض أركانها ، وهى الركوع والسجود ، وكلفناه أن يبنى البيت فى مكانه الذى أرشدناه إليه ؛ وفى هذا الأسلوب توبيخ لمن أشرك بالله من قُطّان مكة سلالة إبراهيم ، كأن الله تعالى يقول لهم : كان هذا الأمر مفروضاً على أبيكم ، فلِمَ خالفتموه بإشراككم ؟

٢ — وأذن يا محمد فى الناس بدعوتهم إلى الحج ، وأعلمهم به ، يأتوك إما مشاة ، وإما رُكباناً على كل بعير مهزول قد أجهده طول السير ، فتأتى هذه الإبل الضوامر براكبيها من كل طريق بعيد ، ليشهدوا منافع لهم ، إما دينية بغفران ذنوبهم ، وأداء فريضة الحج ، وإما دنيوية بمزاولة التجارة ، وليذكروا اسم الله عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها ، التى يتقربون بها إلى المولى جل وعلا فى يوم النحر وأيام التشريق ؛ على أنه أتاح لهم ذبح ما رزقهم من بهيمة الإبل والبقر والضأن والمعز ، فكلوا أيها المضَحُّون من لحوم هذه الأنعام —ومن السنة أن يبدءوا بأكل الكبِد— ولا تعملوا ما كان يعمله أهل الجاهلية من التحرج من أكلها ، وتصدقوا بأكثرها على من أصابه بؤس أو شدة فقر .

وقد اضطربت آراء المفسرين فيمن خاطبه الله بقوله : « وأذن فى الناس بالحج » ، فذهب بعضهم إلى أنه إبراهيم عليه السلام ، وآثر بعضهم أن يكون الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن القرآن نزل عليه ، ولأن قوله : « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت » ، هو على معنى : اذكر يا محمد وقت أن عيَّنا لإبراهيم مكان البيت ، فالخطاب أولا وثانياً لرسول

الله ، ولأن إبراهيم عليه السلام حين بنى البيت ، لم يكن صوته يصل إلى آذان من يلبّون دعوته ، فيأتوا إليه مشاة وركباناً من كل فج عميق ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان معه بالمدينة من يبثون الدعوة إلى الحج ، وهذه السورة مكية مدنية ، بل نقل بعضهم عن ابن عباس أنها مدنية .

٣ — ثم ليُزِل الحجاج بعد تقديم الهدايا أو ساخهم وشعثهم ، بقص الأظفار والشوارب ، ولينظفوا أجسامهم ، وليحلقوا رءوسهم بعد تحللهم من الإحرام ، وليرموا جمارهم ، وليوفوا نذورهم إلا ما فيه معصية ، وليطوّفوا بالبيت طواف الإفاضة الذى يكون بعد عرفة ، وهو الذى يكون به تمام تحللهم مما كان محرّماً عليهم .

٤ — الأمر والشأن هو ذلك الذى بيّناه ؛ ومن يعظم أحكام الله ، وسائر ما لا يحل انتهاكه ، وجميع ما يتعلق بالحج من التكاليف ، فالتعظيم خير له عند ربه ، فيثيبه عليه فى الآخرة ، وأحلت لكم الأنعام أكلا بعد الذبح ، إلا ما يُتلى عليكم تحريمه فى قوله : « غير مُحلى الصيد وأنتم حرم » ، وقوله : « حرمت عليكم الميتة والدم . . . » ، إلى آخر المحرمات التى سبق ذكرها فى الصفحة ٢٧ والصفحة ٣٣ من تفسير الجزء السادس ، فلا تحرّموا غير ما حرم الله ، أما البَحيرة والسائبة وغيرهما مما كان العرب يحرمون أكلها فى الجاهلية ، فحلال لكم .

٥ — فاجتنبوا الرجس الذى هو عبادة الأوثان ، كما يُجتنب كل نجس قذر ، ويدخل فى الأوثان الصلبان التى تقام وتعظم ، واجتنبوا قول الكذب والباطل ، وما كان يقوله أهل الجاهلية فى حجّهم ، وهو : لبيك لا شريك لك إلا شريكٌ هو لك ، تملكه وما ملك ، وكونوا مخلصين لله فى عبادته ،

مائلين إلى الحق ، عادلين عن كل دين سوى دينه ، غير مشركين به أحداً ؛ ومن يتخذ لله شريكاً سقط من أوج إيمانه إلى حضيض الكفر ، فيكون بمنزلة من سقط من السماء ، فتخطفه الطير ، وتتفرق أجزاؤه فى حواصلها ، أو تعصف به الريح ، فتهوى به فى مكان بعيد ، فهو لا يرجى صلاحه ، لأن الشيطان قد طوح به فى مهاوى الضلالة .

٦ — الأمر والشأن فى أمر المشركين هو الذى سبق ذكره ؛ ومن يعظم شعائر الله ، بعنايته بما يختاره من الأنعام التى تهدى إلى الحرم ، بأن تكون حساناً سماناً غالية الأثمان ، فإن الشعائر الحسان السمان الغالية الأثمان ، من أفعال ذوى القلوب التقية ، والتقوى مصدرها القلب ، وفى الحديث : « التقوى ها هنا » ، وأشار صلى الله عليه وسلم إلى صدره ، والمراد بتقوى القلوب : التقوى الحقيقية الصادقة ، التى يتصف بها المؤمن الصادق الإيمان ؛ وسميت الهدايا شعائر : لإشعارها بالعلامة التى يظهر بها أنها هَدْى ، وقد ذكرنا هذه العلامات فى الصفحة ٣١ من تفسير الجزء السادس ؛ وقد أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة ، فيها جمل لأبى جهل ، فى أنفه بُرَةٌ من ذهب ، وأهدى عمر رضى الله عنه نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار ، فسأل رسول الله أن يبيعها ويشترى بثمنها بُدناً ، فنهاه عن ذلك ، وقال : « بل أهدها » .

٧ — لكم فيما تهدونه إلى بيت الله حق الانتفاع قبل إرسالها لنحرها ، من شرب لبنها ، وأخذ نسلها وصوفها ، وركوبها والحمل عليها ، ثم مكان نحرها ينتهى إلى بيت الله العتيق ، وليس المراد أن يكون النحر فيه ، ولكن المراد فى الحرم كله ، كمِنى ، وفجاج مكة ، فكل هذه أمكنة للنحر .

(٦)

من الآية ٣٤ إلى الآية ٣٧ من سورة الحج

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ، فَلَهُ أَسْلِمُوا ، وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ : الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ، وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ —١— . وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ، لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا ، وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ، كَذٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ —٢— . لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا ، وَلَا دِمَاؤُهَا ، وَلٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ، كَذٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ، وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
منسكاً	نوعاً من العبادة .
من بهيمة الأنعام	من ذبح ذوات الأربع ، من الإبل والبقر والضأن والمعز .
أسلموا	انقادوا وأطيعوا .
المخبتين	المتواضعين المطيعين .
وجلت قلوبهم	اشتد خوف قلوبهم هيبة من الله .
البُدن	الإبل التى تهدى للحرم ، وهى جمع بَدَنة ، سميت كذلك لعظم بدنها .
من شعائر الله	من أعلام دين الله التى شرعها للمسلمين .
صوافّ	قائمات على ثلاث ، معقولة إحدى اليدين ، والعَقل : حبل يثنى به يد البعير إلى ركبته .
وجبت جنوبها	سقطت جوانبها على الأرض بعد الذبح .
القانع	الذى يرضى ويقنع بما عنده وبما يعطَى ، ولا يسأل الناس .
المعترّ	الذى يعترضَ الناس بالسؤال .
كذلك	مثل ما أبحنا لكم ذبحها .
لن ينال اللهَ لحومها ولا دماؤها	لن ينال رضا الله لحومها ولا دماؤها .
يناله التقوى منكم	ينال رضاه تقوى قلوبكم .
لتكبروا الله على ما هداكم	لتعظموا الله على ما أرشدكم إليه من تسخير البُدن ، وكيفية التقرب بها .

مجمل المعنى

١ — لقد شرعنا لكل أمة من عهد إبراهيم إلى مَن بعده ضرباً من القرابين ، يتقربون به إلينا ، ليذكروا اسم الله دون غيره عند ذبح قرابينهم ، على ما رزقهم من ذبح البهائم ذوات الأربع ، من الإبل والبقر ، والضأن والمعز ، لأن إلهكم إله واحد ، وإن اختلفت التكاليف باختلاف الأزمنة والأمم ، فله وحده أخلصوا فى التقرب إليه ، ولا تشوبوه بالإشراك ، فمن أخلص فى التقرب إليه ، ولم يشب إخلاصه شرك ، كان من المطيعين المتواضعين ؛ وبشِر يا محمد بالجنة والثواب الجزيل المتواضعين المخلصين المجتهدين فى العبادة ، الذين إذا ذكر الله اشتد خوفهم من شدة هيبته ، وخشعت قلوبهم لذكره ، والصابرين على ما أصابهم من المحن والمصائب والبلايا ، والمقيمى الصلاة فى أوقاتها ، والذين ينفقون بعض أموالهم فى سبيل البر ؛ ومن وجوه البرّ إهداء الهدايا التى يغالون فيها .

٢ — والإبل التى تهدى إلى الكعبة ، جعلناها لكم من أعلام الدين التى شرعها المولى جل وعلا ، لكم فيها نفع فى الدنيا ، وأجر فى الآخرة ، فاذكروا اسم الله عليها عند ذبحها بأن تقولوا : « باسم الله الله أكبر ، اللهم منك وإليك » ، على أن تكون عند ذبحها معقولة ، قد صَفَّت قوائمها ، ما عدا إحدى يديها التى تثنى عند الركبة ، وتشد بحبل على العضد ، فإذا ذُبحت وسقطت جوانبها على الأرض ، فقد أبحنا لكم أن تأكلوا منها إن شئتم ، وأطعموا منها المحتاج الذى يقنع ويرضى بما عنده من الكفاف ، ويتعفف عن السؤال ، وأطعموا السائل المتعرض للناس للسؤال ؛ ومثل ما وصفناه لكم من طريقة ذبح البُدن ، سخرنا هذه البُدن لكم ، فتركبونها وتستخدمونها

فى شئونكم ، وتأخذون منها ألبانها وأوبارها ؛ ومع عظم أجسامها وقوتها ، جعلناها منقادة إليكم ، لا تستعصى عليكم ، لتشكرونا على إنعامنا عليكم ، بالتقرب والإخلاص .

٣ — لن يصل إلى الله لحومها المتصدَّق بها ، ولا دماؤها المراقة بنحرها ، ولكن يصل إليه ، ويرفع إليه ، وينال رضاه ، تقوى قلوبكم التى تدعوكم إلى تعظيمه والتقرب إليه ، وكما أرشدكم الله إلى أعلام دينه ، سخر لكم هذه البُدن ، لتعظموا الله وتوحدوه ، وتشكروه على إرشادكم إلى طريقة تسخير هذه البُدن ، والتقرب بها إليه — وكرر الله قوله : « كذلك سخرها لكم » ، تذكيراً بما أسبغه من عظيم آلائه — وبشر المحسنين المخلصين فيما يأتونه ويذرونه بالجنة .

(٧)

من الآية ٣٨ إلى الآية ٤١ من سورة الحج

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ —١—. أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ —٢—. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا : رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ —٣—: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ —٤—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يدافع عن الذين آمنوا	يدفع عنهم أذى المشركين .
خوّان كفور	كثير الخيانة فى أمانته ، كفور لنعمة ربه .
أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا	رخص الله للمؤمنين أن يقاتلوا المشركين لظلمهم إياهم .

الألفاظ	شرحها
ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض	ولولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال أعدائهم المشركين .
لهُدّمت صوامع	لخربت صوامع الرهبان ، جمع صومعة ، وهى بناء مرتفع محدّد الطرف .
وبيَع	وخربت كنائس النصارى ، والبيع : جمع بِيعة .
وصلوات	وخربت كنائس اليهود ، وهى بالعبرانية صُلوتا ، ومعناها : المصلى .
عزيز	ذو سلطان نافذ .

الدين يحرّم الاغتيال

لما كثر المؤمنون بمكة ، وآذاهم الكفار ، وهاجر منهم من هاجر إلى الحبشة ، أراد بعض المؤمنين بمكة ممن أوذوا أشد إيذاء ، أن يقتُل من أمكنه من الكفار ، ويغتال من يقدر عليه أخذاً بالثأر ، فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل قوله : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا . . . » ، إلى آخر الآية .

مجمل المعنى

١ — إن الله يدافع عن المؤمنين كثيراً من غوائل المشركين ومضارهم وأخطارهم ، ويمكّن الإيمان فى قلوبهم ، فلا يقدر الكفار على إمالتهم عن دينهم ، إن الله لا يحب كل خائن غادر ، كفور بنعمة الله ، كمن يتقرب إلى الأصنام بذبيحته ، ويلطخ الكعبة والأوثان بدمائها .

٢ — رخص الله للمؤمنين أن يقاتلوا المشركين أعداءهم ، بسبب إيذائهم إياهم حين كانوا بمكة ، وقد كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيأتون إليه ما بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه ، فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أومر بقتال ، وإنما أمرت بالصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل ، والدعاء إلى الله ، فلما هاجر أباح الله للمؤمنين قتال المشركين ؛ وهذه الآية أول آية — على الأصح — نزلت فى الجهاد ، ناسخة لكل ما فى القرآن من إعراض وصفح ؛ وإن الله على نصر المؤمنين لقدير ، وهذا وعد لهم بالنصر على الكفار ، وتغلبهم عليهم ، ودفع أذاهم عنهم .

٣ — هؤلاء المؤمنون الذين وعدهم الله بالنصر ، هم الذين أُخرجوا من مكة بغير حق استوجبوا به إخراجهم ، اللهم إلا قولهم : ربنا هو الله وحده ؛ ولولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الكفار ، لخربت — باستيلاء المشركين على أهل الملل — صوامع الرهبان ، وبيَع النصارى ، وكنائس اليهود ، ومساجد المسلمين — هذه المعابد التى يذكر فيها اسم الله كثيراً ، وبهذا تنقطع العبادة بخراب هذه المعابد ، لكنه أوجب قتال الكفار لتبقى هذه المعابد ؛ ولينصرن الله من ينصر دينه ، إن الله لقوى على نصرهم ، عزيز ذو سلطان نافذ ، وقدرة قادرة ، لا يُمنع مما يريد ؛ وقد أنجز الله وعده بتسليط المهاجرين والأنصار على صناديد قريش ، وأكاسرة العجم ، وقياصرة الرومان ، فأورثهم أرضهم وديارهم .

٤ — هؤلاء الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق ، هم الذين إن مكّنا سلطانهم فى الأرض ، أقاموا الصلاة ، وأدوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله الحكم والمرجع فى شئون خلقه يوم القيامة ، وهو الذى لا يزول حكمه أبداً ؛ وقد تم هذا فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعهد خلفائه الراشدين ، رضى الله عنهم .

(٨)

من الآية ٤٢ إلى الآية ٤٦ من سورة الحج

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ، وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ، وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ؛ وَكُذِّبَ مُوسَى ، فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ؟ —١— . فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ ، وَقَصْرٍ مَشِيدٍ —٢— . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أصحاب مدين	قوم شعيب .
فأمليت للكافرين	أخرت عقابهم بعض الوقت ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم .
ثم أخذتهم	ثم عاقبتهم بأشد أنواع العذاب .

الألفاظ	شرحها
فكيف كان نكير	فكيف كانت عاقبة إنكارى عليهم فى تماديهم فى عصيانهم ؟.
فكأيـّن من قرية	كثير من أهل قرية .
وهى ظالمة	وأهلها ظالمون بكفرهم .
خاوية على عروشها	ساقطة جدرانها على عروشها .
وبئر معطلة	وكم من بئر متروكة تعطلت منافعها بعد موت أهلها .
وقصر مشيد	وكم من قصر رفيع العماد خُرِّب بعد موت أهله .
أفلم يسيروا فى الأرض	أفلم يسِرْ أهل مكة فى مناكب الأرض ، فيروا ما حل بأسلافهم فيعتبروا ؟

مجمل المعنى

١ — إن يكذبك قومك من كفار قريش يا محمد فيما أرسلت به إليهم ، فتأسّ بمن قبلك ، وتعزّ بما أصابهم من أقوامهم ، واقتدِ بهم ، واصبر كما صبروا ، فقد كذبت قبل قريش قوم نوح ، وقبيلة عاد التى أرسل إليها هود ، وقبيلة ثمود التى أرسل إليها صالح ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وأصحاب مَدْين الذين أرسل إليهم شعيب ، وكذلك كُذب موسى حين أرسل إلى فرعون وقومه بمصر ، مع وضوح آياته وعظم معجزاته — وقد تغير الأسلوب فى شأن موسى ، فلم يقل الله : وقوم موسى ، لأن بنى إسرائيل قوم موسى لم يكذبوه ، وإنما كذبه فرعون وقومه — فأخرت عقاب الكفار

بعض الوقت ، لعلهم يرعوون عن غيهم ، ويثوبون إلى رشدهم ، بعد ما سمعوا دعوة رسلهم ، فلما لم يُجد فيهم الوعظ والإرشاد ، عاقبتهم بأشد أنواع العذاب ، فكيف كانت عاقبة إنكارى عليهم ما يقترفونه من المعاصى ؟ وكيف غيرنا النعمة نقمة ، والحياة هلاكاً ، والعمران خراباً ؟ ألستُ بهذا قد أنفذت جميع ما وعدت به الأنبياء من النصر على مخالفيهم ، والتمكين لهم فى الأرض ؟ فينبغى أن تتدرع يا محمد بالصبر ، فإنا ناصروك على معانديك .

٢ — إن كثيراً من القرى دمرناها وأهلكنا أهلها ، لظلمهم بكفرهم ، فجدرانها سقطت على سقوفها ، بأن اختل بناء هذه الجدران فسقطت السقوف ، ثم انهارت الجدران فسقطت فوق السقوف ؛ وكم كان بهذه القرى من بئر كانت عامرة بمن يرد إليها للسُّقيا ، فصارت معطلة مطموسة ، بعد موت من كانوا يستسقون منها ، وكم من قصر كان رفيع العماد ، خرب بعد فناء أهله .

٣ — أفلم يَسرْ كفار مكة فى مناكب الأرض ، فيشاهدوا هذه القرى ، ويروْا مصارع من أهلكناهم فيها ، فيعتبروا بهم ، ويحذروا عقاب الله أن ينزل عليهم ، فتستيقظ قلوبهم من غفلتها ، وتستمع آذانهم أخبار من شاهدوا آثار الأمم التى عصت أمر ربها ورسله ؟ إن العمى الحقيقى الذى يلحق بالأبصار ، ليس هو الذى يعتد به ، وإنما الذى يعتد به هو عمى القلوب التى فى الصدور ، هو عمى البصائر التى لا تتعظ ولا تعتبر ، وتظل منهمكة فى الغواية واتباع الهوى .

(٩)

من الآية ٤٧ إلى الآية ٥١ من سورة الحج

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ —١— . وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، ثُمَّ أَخَذْتُهَا ، وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ —٢— . قُلْ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وإن يوماً عند ربك	وإن يوماً من أيام الآخرة ، حين يكون الأمر لله وحده ، لشدته كألف سنة من سِنى الدنيا .
نذير مبين	نذير واضح الإنذار .
سعَوْا فى آياتنا	بذلوا جهدهم فى إبطال آيات القرآن .
مُعاجزين	ظانين أن لن نقدر عليهم ، بإحيائهم للبعث والحساب .

مجمل المعنى

١ — ويستعجلك كفار مكة أيها الرسول فى إيقاع العذاب بهم تحدياً لك ، فيقول لك النضر بن الحرث : ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، ويقول لك : إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ؛ ولن يخلف الله وعده بإنزال العذاب بهم — وقد أنجز وعده يوم بدر — وإن يوماً واحداً من أيام الآخرة ، التى يكون الأمر فيها لله وحده ، لشدته وهوله حين تلقون العذاب والهوان أيها الكفار ، ليُرى كألف سنة مما تعدون فى الدنيا ، لأن أيام الشدائد يستطيل الإنسان كل ثانية فيها .

٢ — وكثير من أهل القرى فى الأمم الغابرة ، أخرت عذابها كما أمهلتكم يا كفار قريش ، واستعجلوا العذاب استهزاء كما استعجلتم ، وكانت ظالمة مستوجبة للعقوبة ، ثم عاقبتها عقاباً شديداً ، وعذبتها عذاباً نُكراً ، فذاقت وبال أمرها ، وكان عاقبة أمرها خُسراً ، والمرجع والحكم فى جميع الناس إلى يوم القيامة .

٣ — قل يا محمد : يأهل مكة المستعجلين للعذاب ، إنما أنا لكم نذير واضح الإنذار بما أوحى إلىّ من ربى ، فمن آمنوا وعملوا الصالحات منكم ، ورجعوا عما هم عليه من الكفر ، فلهم مغفرة من الذنوب التى اقترفوها ، ورزق كريم وهو الجنة ؛ أما من بذلوا جهدهم فى إبطال آيات القرآن التى أنزلناها ، واستمروا على ما هم عليه من الكفر ، ظانين أننا لن نقدر على إحيائهم للبعث والحساب يوم القيامة ، مثبطين غيرهم عن الدخول فى دين الإسلام ، مُشاقّين لنا ، فأولئك أصحاب النار ، يدخلونها ويصطلون بنارها .

(١٠)

من الآية ٥٢ إلى الآية ٥٧ من سورة الحج

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ -١- . لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ -٢- . وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ، أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ -٣- . الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ -٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
رسول	رجل بعثه الله بشريعة يدعو الناس إليها .
نبىّ	« « « « « « « ، أمر بالتبليغ أو لم يؤمر .
تمنى	قرأ شيئاً من الآيات المنزلة ، وتمنى الكتاب : قرأه ، (كما فى لسان العرب) .
ألقى الشيطان فى أمنيَّته	ألقى الشيطان الشكوك والشُّبه فيما يقرأ الرسل والأنبياء ، على أنصار الله وأوليائه .
فينسخ الله ما يُلقى الشيطان	يبطل الله ما يوسوسه الشيطان فى صدور أوليائه وأنصاره .
يحكم الله آياته	برد الشُّبه فى آيات محكمة لاتُدحض .
فتنة	امتحاناً وابتلاء .
مرض	شك ونفاق .
والقاسية قلوبهم	والمشركون الذين قست قلوبهم ، فأعرضوا عن قبول الحق .
الظالمين	فريقى الشاكّين والمشركين .
شقاق بعيد	خلاف طويل مع الرسول والمؤمنين .
أنه الحق من ربك	أن القرآن هو الحق المنزل عليك من ربك .
فتُخبت لهم قلوبهم	فتطمئن له قلوبهم وتخشع ، والإخبات : التواضع والخشوع .
مرْية	شك .
تأتيهم الساعة بغتة	تأتيهم القيامة فجأة .

شرحها	الألفاظ
عذاب يوم لا خير فيه ، يلاقون فيه القتل والهوان ، كيوم بدر .	عذاب يوم عقيم

قصة الغرانيق المزيفة

روى بعض المفسرين والمؤرخين ، المولعون بكل غريب ، وتابعهم المستشرقون : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى إعراض قومه عنه ، وإيذاءهم أصحابه ، تمنى ألا يُنزل عليه شيء ينفرهم منه ، فجلس يوماً فى ناد من أندية قريش حول الكعبة ، ومعه بعض رجالهم ، فقرأ عليهم سورة « النجم » ، حتى إذا بلغ قوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » ، ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العُلا ، وإن شفاعتهن لتُرتجى ؛ ولما بلغ قوله : « فاسجدوا لله واعبدوا » ، سجد الحاضرون جميعاً ، حتى لم يبق مؤمن ولا كافر إلا سجد ، وأعلنت قريش رضاها عما تلاه النبى ، وقالوا : أما إذ جعلت لآلهتنا نصيباً من الشفاعة فنحن معك ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كاد يسمع أن مسألة الغرانيق جرت لسانه ، حتى كبر عليه هذا الأمر ، وجزع جزعاً شديداً ، واغتم أشد الغم ، ورجع إلى الله تائباً ، فأنزل الله عليه : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ، إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته . . . » ، وقوله : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره . . . » .

هذه هى قصة الغرانيق التى أثبتها المفسرون والمؤرخون ، وأذاعها

المستشرقون فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهى قصة مزيفة ، تدحضها الأدلة الآتية :

١ — أن قوله تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره . . . » ، نزلت فى وفد ثقيف ، وقد أثبتنا هذا فى الفقرة الثانية من الصفحة ٥٥ من تفسير الجزء الخامس عشر .

٢ — أن الغرانيق رويت بروايات مختلفة متعددة الصور ، فرواها بعضهم : الغرانقة العلا ، وإن شفاعتهن تُرتجى ، ورواها غيرهم : إن شفاعتهن تُرتجى ، من غير ذكر الغرانقة ، وقال آخرون : وإنها لهى الغرانيق العلا ، أو : إنهن لهن الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لهى التى تُرتجى ، وهذا التغيير يدل على ضعف الرواية وعدم صحتها ، وأن الزنادقة لما وضعوها لم يتحرّوا أن تكون بلفظ واحد .

٣ — أن سياق سورة النجم يأبى صحة هذه الرواية ، فإن الله تعالى يقول : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان » ؛ فهذه الآيات تذم الأوثان وتعيب عبادتها ، فليس معقولا أن ينسب الله إليها الشفاعة يوم القيامة .

٤ — أن تشبيه الآلهة بالغرانيق لم يرد فى شعر العرب ولا فى نثرهم ، ولم يجر على ألسنتهم ، وقد ورد فى اللغة : الغرنوق والغرنيق : طائر طويل القوائم أبيض أو أسود ، أو الكركى ، أو الشاب الأبيض الناعم الجميل ، كما فى لسان العرب : (مادة غرنق) .

٥ — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجرب عليه أحد كذباً قط ، فكيف يقول على الله ما لم يقله ، وهو سبحانه وتعالى يقول : « ولو تقوّل علينا

بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين » ، (تراجع الصفحة ٥٣ من تفسيرنا لجزء تبارك) .

٦ — أن هذه الرواية لا تتفق مع العصمة التى لكل نبى فى تبليغ رسالة ربه ، وتؤدّى إلى أنه عليه الصلاة والسلام على غير بصيرة فيما يوحى إليه ، وإلى عدم الوثوق بالقرآن ، وأنه لا يؤمن فيه الزيادة والتغيير والتبديل .

٧ — أن الأحاديث التى روت هذه الرواية ، لم يروها ثقة ، وليس لها سند صحيح متصل .

مجمل المعنى

١ — وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ، إلا إذا قرءوا شيئاً من الآيات المنزلة ، ألقى الشيطان الشكوك والشُّبه فيما يقرءونه على أنصار الله وأوليائه . ليحول بينهم وبين الإيمان بالله ، وليجادلوا الرسل بالباطل ، ونظير هذا قوله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوًّا شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » ، (تراجع الصفحة السادسة من تفسير الجزء الثامن) ، وذلك كوسوسة الشيطان للكفار عندما نزل تحريم الميتة ، فقد ألقى فى روعهم أن محمداً يُحل ذبيح نفسه ، ويحرم ذبيح الله ، وعندما نزل قوله : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » ، وسوس الشيطان فى صدور الكفار ، أن يجادلوا رسول الله فى أن عيسى والملائكة عُبدوا من دون الله ، (تراجع الصفحة ٥٨ من تفسير هذا الجزء) — فيبطل الله ما يلقيه الشيطان ، ومما ينفثه من سموم وسوسته لأوليائه ، بتوفيق رسول الله إلى رد هذه الشُّبه ، وبإنزال ما يبطلها فى آيات محكمة مثبتة ، لا تُدحض بأى وجه من الوجوه ، والله عليم بكل شىء — ومن جملة ما يعلمه ما يصدر

من الشيطان من الوسوسة إلى أوليائه — حكيم فى كل ما يفعل .

٢ — ليجعل الله ما يلقيه الشيطان ابتلاء واختبارا للذين فى قلوبهم شك ونفاق ، وللذين قست قلوبهم فلم تلِن لقبول الحق ، فيختبر مقدار إرادتهم قوة أو ضعفاً ، فى دفع نزغات الشيطان أو الإذعان لها ، وإن هذين الفريقين الذين استولى عليهم الشيطان فأصمهم وأعمى أبصارهم ، لفى عداوة شديدة لك أيها الرسول ، ومخالفة تامة ، ومشاقة وعناد ؛ وليعلم الذين شرحنا صدورهم للإيمان ، بما وفقناهم إليه من المعرفة والنظر الصحيح ، أن القرآن هو الحق الذى لا مراء فيه ، نزل عليك من ربك ، فيثبتوا على إيمانهم ، فتتخشع له قلوبهم ؛ وإن الله لهادى المؤمنين إن أشكل عليهم أمر إلى النظر الصحيح ، الموصل إلى الحق الصريح ، وهو دين الإسلام ، فيردون شُبه الشياطين عن آيات الله عز وجل .

٣ — ولا يزال الذين كفروا فى شك من القرآن حتى تأتيهم القيامة فجأة ، أو يأتيهم عذاب يوم منفرد عن سائر الأيام فى الدنيا ، بشدته التى لا مثيل لها ، وهو يوم بدر الذى قتل فيه صناديد قريش وعتاتهم ؛ ووصف الله اليوم بالعقيم ، لأنه للكفار كالريح العقيم التى لا تنشىء مطراً ، ولا تأتى بخير .

٤ — السلطان القاهر ، والتصرف المطلق يوم إذ تأتيهم الساعة ، لله وحده ، لا منازع له فيه ولا مدافع ، يحكم فيه بين المؤمنين والكافرين ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يستقرون فى جنات مشتملة على كل صنوف النعيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين بسبب كفرهم .

(١١)

من الآية ٥٨ إلى الآية ٦٦ من سورة الحج

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ، وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ —١— . ذَٰلِكَ ، وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ —٢— . ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ —٣— . ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ —٤— . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ؟ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ —٥— . لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ —٦— . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ، وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ —٧— . وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ —٨—

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مُدخلا	موضعاً .
ذلك	ذلك الأمر الذى قصصناه عليك ، وهو إنجاز الوعد للمهاجرين .
بُغِيَ عليه	وكان المقاتل مبغيًّا عليه ممن أراد قتاله .
يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل	يدخل أحدهما فى وقت الآخر ، بأن يكون ظلام فى جهة وضياء فى جهة أخرى ، وبالعكس .
لطيف خبير	يعلم ما دقّ وجلّ من الأمور .
الفُلك	السفن ، الواحد والجمع بلفظ واحد .

ثواب المهاجرين ، وعناد المشركين

١ — قال بعض الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا نبى الله ، هؤلاء الذين قُتلوا ، قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ، ونحن نجاهد معك ، فما لنا إن مِتنا ؟ فنزل قوله تعالى : « والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ، وإن الله لهو خير الرازقين » .

٢ — وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سَرية ، فلقوا المشركين لليلتين بقيتا من المحرم ، فقال المشركون بعضهم لبعض : قاتلوا أصحاب محمد ، فإنهم يحرمون القتال فى الشهر الحرام ، فناشدهم المسلمون أن يكفُّوا عن القتال لحرمة الشهر ، وذكَّروهم بالله ، وألا يتعرضوا لقتالهم ، فإنهم

لا يستحلون القتال فى الشهر الحرام ، فأبى المشركون ، وقاتلوهم وبغوا عليهم ، فقاتلهم المسلمون وانتصروا عليهم ، وخشوا عاقبة قتالهم فى الشهر الحرام ، فأنزل الله قوله : « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغى عليه ، لينصرنه الله » .

مجمل المعنى

١ — والذين هاجروا من ديارهم وأموالهم من مكة إلى المدينة ، ثم قتلوا فى الحرب أو ماتوا فى فراشهم ، يبغون بهجرتهم نصر دين الله ، سواءٌ فى المثوبة ، وليُثيبن الله الفريقين الثواب الجزيل فى الجنة ، وإن الله لهو خير مُثيب ، يعطى من يشاء بغير حساب ما لا يقدر عليه غيره ، وليدخلنهم موضعاً يرضوْنه ، وهو الجنة التى فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وإن الله لعليم بما يرضيهم ، حليم لا يعاجل أعداءهم بالعقوبة .

٢ — ذلك هو الأمر الذى قصصناه عليك من إنجاز الوعد للمهاجرين ، ومَن جازَى من المؤمنين الظالمَ المعتدِى عليه بمثل ما جازاه به ، ولم يزد فى القصاص ، فقاتلهم كما قاتلوه فى الشهر الحرام ، وكان مبغيا عليه ، مضطرا إلى الدفاع عن نفسه ، لينصرنه الله لا محالة على الباغى ، ونظيره قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ، إن الله يعفو عن المعتدَى عليه ، حيث قاتل فى الشهر الحرام ، غفور له لاضطراره إلى الدفاع عن نفسه .

٣ — ذلك النصر من آيات قدرة الله ، لأنه قادر على ما لا يقدر عليه أحد ؛ ومن آيات قدرته أنه يدخل وقت الليل فى وقت النهار ، فتكون بعض

الجهات فى ظلام دامس ، وبعضها فى ضياء ساطع فى نفس الوقت ، كما يبدو هذا فى مصر وأمريكا مثلا ، فحين يكون الوقت ليلا فى مصر ، يكون نهاراً فى أمريكا وبالعكس ، وذلك بسبب كريّة الأرض ، ودورانها حول نفسها ، أمام الشمس ؛ وهذا دليل واضح على أن القرآن الكريم صرّح بما لم يكشفه العلم الحديث إلا منذ عهد قريب ؛ والله الذى يسمع دبيب النمل ويبصر حركاته فى جنح الليل البهيم ، قادر على ما لا يقدر عليه غيره ، وقد سبق شرح هذا فى الفقرة الثانية من الصفحة ٨٨ من تفسير الجزء الثالث .

٤ — ذلك النصر ، وهذه القدرة ، بسبب أن الله هو الحق ، فدينه الحق ، وعبادته حق ، والمسلمون ينتصرون بحكم وعده الحق ، وأن ما يعبده الكفار من الأصنام هو الباطل الذى لا يستطيع البقاء أمام الحق ، وأن الله هو القاهر المقتدر ، المستعلى على كل شىء بقدرته ، الكبير الذى يصغر أمامه كل شىء ، الموصوف بالعظمة والجلال .

٥ — ألم تعلم أيها المكلف أن الله ينزل ماء الأمطار على الأرض القاحلة ، فتحيا وتخضرّ ، وتنبت أنواع النبات والأزهار والثمار ، فيأكل الناس والحيوان من خيراتها ، ويستمتعون بجمال مناظرها ، إن الله رحيم بعباده ، يفعل ما يؤدى إلى منفعتهم ، عالم بمقادير ما يصلح شئونهم .

٦ — كل ما فى السموات والأرض ملك لله وحده ، منقاد لمشيئته ، وهو يتصرف فى مخلوقاته كما يشاء ، وهو الغنى عن خلقه ، الذى تفتقر كل المخلوقات إليه ، ولا يفتقر هو إلى شىء أبداً ، وهو المستحق وحده للحمد من جميع خلقه .

٧ — ومن لطف الله بعباده ، أن جعل ما فى الأرض من بحار وأنهار ، وشجر

ونبات ونار ، وحيوان ومعادن وأحجار ، مهيأ لنفع بنى آدم ، فهم يتخذون منها ما هم فى حاجة إليه من غذاء وملبس ومسكن ، وقد ألهمهم أن يصنعوا السفن تحملهم وتحمل متاجرهم من بلد إلى آخر ، وأن يُخرجوا من البحار سمكاً طرياً لذيذاً ، وبعض أنواع الحلى كاللؤلؤ والمرجان ، وجعل فى السماء كواكب تضىء بالليل أو النهار ، وتعطينا الحرارة اللازمة لحياتنا ، وأمسك تلك الكواكب فى الفضاء بقدرته العظيمة ، لما بينها من تجاذب وتماسك ، فإذا اقتضت مشيئة الله وإرادته انقضاء العالم ، اختل نظامها ، « وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » ؛ فتنهار وتتساقط .

٨ — والله سبحانه وتعالى هو الذى أوجدنا فى هذه الدنيا نتمتع بخيراتها ، وهو الذى يُميتنا إذا انقضت آجالنا ، ثم يُحيينا مرة ثانية يوم القيامة ، لنحاسَب على ما فعلنا فى الدنيا من حسنات وسيئات ، ولكن الإنسان قليل الشكر على نعم الله سبحانه وتعالى ، مع تعددها وترادفها .

(١٢)

من الآية ٦٧ إلى الآية ٧٢ من سورة الحج

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ ، فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ، إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ —١— . وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ : اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ . اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ —٢— . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ —٣— . وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ —٤— . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ، يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، قُلْ : أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ ؟ النَّارُ ، وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ! —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لكل أمة	لكل أهل دين .
منسكاً	شرعاً ومنهاجاً .
هم ناسكوه	هم عاملون به إلى أن ينسخ .
فلا ينازعُنك فى الأمر	فلا تمكنهم من الجدال المؤدى إلى النزاع فى أمر الدين .
وادع إلى ربك	وادع إلى توحيد ربك والإيمان به .
الله أعلم بما تعملون	الله أعلم بما تعملون من الأباطيل ، وتحريف الكتب المنزلة على رسلكم .
الله يحكم بينكم يوم القيامة	الله يفصل بينكم وبين المسلمين يوم القيامة ، فيستبين المحق من المبطل .
إن ذلك فى كتاب	إن ما يحدث فى العالم مدوّن فى اللوح المحفوظ .
ما لم ينزل به سلطاناً	ما ليس مأخوذاً عن حجة سمعية أنزلها الله .
وما ليس لهم به علم	وما ليس مأخوذاً عن حجة عقلية .
المنكر	الإنكار ، بظهور العبوس والتجهم على وجوههم .
يسطون	يبطشون .
بشرّ من ذلكم	بأغيظ وأكره لكم من آيات القرآن .
وبئس المصير	ومصيركم إلى النار ، وبئس المصير .

مجمل المعنى

١ — لكل أهل دين جعلنا شرعاً هم عاملون به ، فالذين كانوا من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام ، منسكهم ما فى التوراة ، وهم عاملون به لا غيرهم ، والذين كانوا من مبعث عيسى عليه السلام إلى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم، منسكهم ما فى الإنجيل ، وهم عاملون به لا غيرهم ، والذين من مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة — وهم كافة الناس فى جميع بقاع الأرض — منسكهم ما فى القرآن ، ويجب أن يعملوا به ، فلا يعارضنَّك هؤلاء المتعبدون بأديانهم فى أمر دينك ، زاعمين أن شريعتهم فى التوراة والإنجيل ، فإن ما فيهما كان شريعة لهما قبل أن يُنسخ بما فى القرآن ، فلا تلتفت إلى قولهم ، ولا تمكنهم من المجادلة المؤدية إلى النزاع ، لأن المجادلة إنما تنفع مع من يبغى الوصول إلى الحق ، أما هؤلاء فهم يبغون الجدال بالباطل ، وادع كل الناس إلى توحيد ربك وعبادته ، والإيمان به ، والعمل بشريعتك ، إنك لعلى دين سوىٍّ لا اعوجاج فيه .

٢ — وإن عدلوا عن النظر إلى الأدلة الواضحة فى القرآن ، واستمرءوا مرعى الجدال ، بعد أن ظهر لهم الحق ، ولزمتهم الحجة ، فأعرض عن مجادلتهم ، وقل لهم : الله أعلم بما تعملون من الأباطيل ، وتحريف الكتب المنزلة ، فيجازيكم على عنادكم ومكابرتكم ، وليس بعد إيضاح الأدلة إلا حكم الله يوم القيامة ، فهو الذى يحكم بينى وبينكم يوم القيامة ، فيما كنتم تختلفون فيه معى .

٣ — لقد علمت يا محمد أن الله يعلم ما فى السماء والأرض ، فلا يخفى عليه شيء فيهما ، ومن جملة ما يعلمه أقوالُ المجادلين ؛ إن كل ما يحدث فى العالم مثبت فى اللوح المحفوظ ، مدوّن به قبل حدوثه ، إن كتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة ، والإحاطة بما فى السماء والأرض ، أمر يسير على الله .

٤ — ويعبد المشركون من كفار مكة الأصنام ، التى ليست عبادتها مأخوذة عن دليل سمعى — وهو المراد بقوله : « ما لم ينزل به سلطاناً » — ولا مأخوذة عن دليل عقلى— وهو المراد بقوله: « وما ليس لهم به علم» — وإذا لم يكن أمرهم كذلك ، فهو عن تقليد وجهل ، ويجب فى كل أمر هذا شأنه أن يكون باطلا ، وليس للذين ارتكبوا هذا الظلم بعبادة ما لا يضر ولا ينفع — بل إن ضره أقرب من نفعه — نصير يقرّ مذهبهم ، أو يدفع عنهم عذاب الله يوم القيامة .

٥ — وهؤلاء الكفار مع جهلهم ، إذا تتلى عليهم آياتنا من القرآن ، واضحات الدلالة على الدين الحق ، وتزييف عقائدهم ، تعرف فى وجوههم علامات الإنكار لها ، لفرط تكبرهم ، وتشبثهم بأباطيل أخذوها تقليداً وجهلا ، ويبدو على هذه الوجوه أمارات الغيظ والحنق ، فيعبسون ويتجهمون ويغضبون ، ويكادون يبطشون بالذين يتلون عليهم آيات القرآن ، ويوشكون أن يبسطوا إليهم أيديهم بالسوء ، فقل لهم أيها الرسول : إن كان ما نزل من الآيات شرًّا لكم ، وقد أدى إلى غيظكم وحنقكم ، أفأنبئكم بشر مما أثار غيظكم على من يتلون عليكم آيات القرآن ، حتى كدتم تبطشون بهم ؟ هو النار ، وعد الله الكافرين بأن مصيرهم إليها ، وبئس المصير هى !.

(١٣)

من الآية ٧٣ من سورة الحج إلى آخر السورة

يٰأَيُّهَا النَّاسُ، ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ! —١— . مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ —٢— . اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ —٣— . يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ، وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ —٤— . هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هٰذَا ، لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى ، وَنِعْمَ النَّصِيرُ! —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولو اجتمعوا له	ولو اجتمع الأصنام كلها لخلق الذباب ، لعجزوا.
وإن يسلبهم	وإن يأخذ الذباب من الأصنام شيئاً مما تطلى به أجسامهم .
لا يستنقذوه منه	لا تستطيع الأصنام أن تسترده ، لعجزهم أن يخلصوه من الذباب .
ضعُف الطالب والمطلوب	ضعف الصنم الطالب لما سلب منه ، والذباب المطلوب لرد ما سلبه !.
يصطفى من الملائكة رسلا	يختار من الملائكة وسطاً بينه وبين الأنبياء بالوحى .
يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم	يعلم ما قدموا وما سيفعلونه ، ويدرك ماضى أحوالهم ومستقبلها .
جاهدوا فى الله حق جهاده	جاهدوا من أجل رضا الله أعداءكم وأنفسكم ، مستفرغين أقصى طاقتكم .
اجتباكم	اختاركم .
حرج	ضيق ، بأن سهل لكم أمور الدين عند الضرورات .
ملة أبيكم إبراهيم	ووسع عليكم دينه ، توسعة ملة أبيكم إبراهيم .
هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا	كما اختاركم سماكم المسلمين فى الكتب المنزلة من قبل ، وفى هذا القرآن .

الألفاظ	شرحها
ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس	اجتباكم وفضلكم ، ليكون الرسول شاهداً على أنه بلغكم رسالته ، وتكونوا شهداء على من قبلكم من الأمم بأن رسلهم بلّغتهم دعوتهم .
اعتصموا بالله	اسألوا الله العصمة من كل المحرمات .

مجمل المعنى

يا كفار مكة المتمردين العاصين ، إنا نضرب لكم مثلا ، فاستمعوا له استماع تدبر وتفكر ، لعله يكون أقرب إلى أفهامكم : « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » ، إن الأصنام الذين تعبدونهم من دون الله — وهى أكثر من ثلثمائة صنم حول الكعبة — لا يقدرون على خلق مخلوق حقير مَهين كالذباب ، ولو تضافروا على خلقه ، وتعاونوا جميعاً على إيجاده ، فكيف يليق بالعاقل أن يتخذ هؤلاء العاجزين آلهة ، ومع هذا فإنى أنزلُ عن الخلق والإيجاد ، وأتكلم فيما هو أسهل وأيسر ، فهذه الأصنام إن يأخذ الذباب — وهو المخلوق الحقير المهين — منهم شيئاً ، لا يستطيعون أن يستردوه ويخلصوه منها ، على ضعفه وقذارته لعجزهم — وكان المشركون يُطلون أجسام الأصنام بالزعفران ، ورءوسهم بالعسل ، فيقع الذباب على هذا الطلاء وينال منه ، كما كانوا يضمّخونهم بأنواع الطيب — فما أضعف الصنم الذى يعجز عن استرداد ما سُلب منه ، وما أضعف الذباب الذى يُطلب لاسترداد ما سلبه !

٢ — ما قدر المشركون المولى حق قدره ، ولا وضعوه الموضع اللائق بجلاله وعظمته ، حيث أشركوا به أحجاراً اصطنعوها لا تضر ولا تنفع ، وقد

بلغ بها العجز أنها لم تنتصف من الذباب ، ولم تقدر أن تدفعه عنها ، أو تسترد ما سلبه منها ؛ إن الله الذى تشركون به هذه الأصنام تقليداً وجهلا ، لقوىٌّ على خلق جميع الممكنات ، عزيز قاهر لا يغلبه شىء ، أما آلهتكم فعاجزة مقهورة .

٣ — ليس اختيار محمد للرسالة بِدْعاً ، فالله يتصرف فى شئونه كما يشاء ، يختار من الملائكة من يتوسطون بالوحى بينه وبين رسله ، كجبريل ، ويختار من الناس رُسلا يبلغون سائرهم ما نزل عليهم ، ويدعونهم إلى الحق والهدى ، كمحمد ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، إنه سميع لقول من يختارهم لتبليغ رسالته ، بصير بمن يختاره للرسالة ، يعلم ما قدَّموا وما سيعملونه ، ويدرك ماضى أحوالهم ومستقبلها ، وإلى الله مرجع الأمور كلها ، لا يُسأل عما يفعل ، بالنسبة لمن اصطفاهم .

٤ — يأيها الذين آمنوا ، أدوا صلاتكم لأنها أهم أركان الدين ، واطمئنوا فى ركوعكم وسجودكم لأنها مظهر من مظاهر خضوعكم وعبوديتكم ، واعبدوا ربكم فيما تعبَّدكم به ، وتحروا ما هو خير فى أفعالكم ، كصلة الرحم ، ومكارم الأخلاق ، والتصدق على الفقراء ، وإغاثة المحتاجين ، ومعاملة الناس بالحسنى ، لتفوزوا بنعيم الجنة ، وجاهدوا حبًّا فى الله ، باستفراغ أقصى جهدكم فى سبيل إعلاء دينه ، وبردِّ نفوسكم عن متابعة الهوى ، فقد قال صلى الله عليه وسلم حين رجع من غزوة تبوك : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، وهو مجاهدة النفس » — إن الله سبحانه وتعالى هو الذى اختاركم لدينه ، فوفقكم إلى الإسلام ونصرته ، والذب عنه ، وما جعل عليكم فى الدين من ضيق ، بتكليفكم ما يشق عليكم القيام به ، بل سهله لكم عند الضرورات ، كالتيمم ، وقصر

الصلاة ، وأكل الميتة ، والفطر عند السفر والمرض ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم » ، كما أن الله فتح لكم باب التوبة ، وشرع لكم الكفارات فى حقوقه ، والدِّيات ونحوها فى حقوق العباد ، ووسّع عليكم دينه توسعة ملة أبيكم إبراهيم ، فافعلوا الخير لعلكم تفلحون .

٥ — وكما اجتباكم الله فوفقكم إلى الإسلام ونصرته والذب عنه ، سمّاكم المسلمين فى الكتب التى نزلت قبل القرآن ، وفى هذا القرآن المنزل على المصطفى عليه الصلاة والسلام ، واجتباكم كذلك وفضلكم ، ليكون الرسول شهيداً عليكم يوم القيامة بأنه بلغكم رسالته ، وتكونوا أنتم شهداء على من قبلكم من الأمم بأن رسلهم بلّغتهم رسالاتهم ، اعتماداً على ما ورد فى القرآن — وذلك أنه يقال لأمة محمد صلى الله عليه وسلم حين يؤدون شهادتهم : من أين عرفتم أن الرسل أبلغوا رسالاتهم ؟ فيقولون : عرفنا ذلك بإخبار الله تعالى فى كتابه الناطق ، على لسان رسوله الصادق ؛ ونظيره قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » ، (تراجع الفقرة الثانية فى الصفحة السادسة من تفسير الجزء الثانى) ، وإذ فضلكم الله بهذه الكرامة ، فاعبدوا الله حق عبادته ، فأقيموا الصلاة وداوموا عليها ، وأدوا الزكاة لتطهركم وتزكيكم ، وتقربوا إلى الله بكل أنواع الطاعات ، والجئوا إليه وحده فى جميع أموركم ، واسألوه العصمة من سائر المحرمات ، فإنه هو سيدكم المتولى أموركم ، وهو نعم المولى فلا مثيل له فى الولاية عليكم ، ونعم الناصر المعين لكم !.

فهرس الجزء السابع عشر لتفسير القرآن

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثامن عشر

تأليف

محمود محمد حمزة

المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان

المراقب بوزارة التربية والتعليم

محمد أحمد برانق

المفتش العام بالتعليم الإعدادى



ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ، وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

سورة المؤمنون

نزلت بمكة ، وآياتها ١١٨ آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

من الآية الأولى إلى الآية الحادية عشرة

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ، فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ -١- . أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ -٢- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
قد أفلح المؤمنون	قد فاز وظفر المؤمنون بمرادهم .
خاشعون	متواضعون ، مقبلون على صلاتهم ، يغضون أبصارهم ، وينكسون رءوسهم .
عن اللغو معرضون	عما لا يعنيهم من قول أو فعل معرضون
لفروجهم حافظون	يحفظون فروجهم من الحرام ، والفرج : يكون للرجل والمرأة .
أو ما ملكت أيمانهم	أو السرارى الإماء .
العادون	المتعدون حدود الله .
لأماناتهم وعهدهم راعون	لما يؤتمنون عليه ويعاهدون عليه حافظون .
الفردوس	أعلى الجنة .

مجمل المعنى

١ — لقد فاز المؤمنون بأمانيهم ، وظفروا بمرادهم ومرامهم ، الذين اجتمعت فيهم هذه الصفات الست الآتية ، وهم :

ا : المتواضعون فى صلاتهم ، المقبلون عليها ، لا يشغلهم عنها شاغل ، الذين تسكن جوارحهم عند أدائها ، ويغضون أبصارهم ، فلا ينظرون إلا إلى موضع سجودهم ، وينكسون رءوسهم ، ولا يعبثون بأى شىء فى أثناء صلاتهم ، وقد قيل : صلاة بلا خشوع ، كجسد بلا روح .

ب : والمعرضون عما لا يعنيهم من قول أو فعل ، الذين يصونون ألسنتهم عن كل قول قبيح .

ج : والمؤدون للزكاة عن طيب نفس ، والمراد بالزكاة الصدقة ، لأن فيها تطهيراً للنفس من كل دنس ؛ وليس المراد بها الزكاة المفروضة ، لأنها فرضت بالمدينة ، والسورة مكية .

د : والمتعفّفُون عن الزنى ، الحافظون لفروجهم ، إلا على زوجاتهم أو ما ملكت أيمانهم من الإماء ، فإنهم غير ملُومين فى مباشرتهن ، فمن ابتغى خلاف الزوجات والإماء فزنى أو لاط ، فأولئك هم المتجاوزون حدود الله ، ويدخل فى حفظ الفروج النهىُ عن الاستمناء ، لأن المستمنى لا يحفظ فرجه .

هـ : والقائمون بحفظ ما يؤتمنون ويعاهدون عليه ، بعدم التصرف فيه ، أو الإخلال به ، إما فيما بينهم وبين المولى جل وعلا ، كالصلاة والصيام والحج ، والأيمان والنذور ، وإما فيما بينهم وبين الناس ، كالأموال المودعة ، والعقود والمواعيد وغيرها ، ويندرج تحت هذا : قيام الولاة بما يجب عليهم نحو الأمم التى يتولون شئونها ، فإنها أمانة فى أعناقهم .

و : والمواظبون على أداء صلواتهم فى أوقاتها على أكمل وجه .

٢ ـ أولئك المنعوتون بهذه الخلال الجليلة هم الوارثون دون غيرهم ، الذين يرثون أعلى منازل الجنة ، المستحقون لها ، المخلدون فيها أبداً .

(٢)

من الآية ١٢ إلى الآية ١٥ من سورة المؤمنون

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ —١— . ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
من سلالة من طين	السلالة : استخراج الشيء من الشيء ، وكل إنسان مخلوق من الطين .
نطفة	سائلاً ينزل عند مباشرة الرجل المرأة : (منيًّا) .
قرار مكين	مستقَر حصين ، وهو رَحِمُ المرأة .
علقة	قطعة متجمدة من الدم .
مضغة	قطعة من اللحم .
أنشأناه خلقاً آخر	ثم صار إنساناً تامّ الخلْق ، يسمع ويُبصر .

مجمل المعنى

١ — ولقد خلقنا كل إنسان فى بدء أمره مستلا من الطين ، لأن النطفة تتولد من الأغذية ، والأغذية إما حيوانية وإما نباتية ، والحيوانية تنتهى إلى النباتية ، والنباتية تتولد من الطِّين ، فكل إنسان فى الحقيقة من سُلالة من طين ؛ ثم إن هذه السُّلالة تواردت عليها أطوار حتى صارت نطفة ، ثم أودعنا هذه النطفة مستقراً حصيناً ، وحرزاً مكيناً ، وهو رحِم المرأة ، ثم صيرنا النطفة البيضاء : «المنىّ» قطعة دم متجمدة ، ثم أحلْنا هذه القطعة المتجمدة من الدم قطعة لحم ، ثم جعلنا بعض هذه القطعة من اللحم صُلْباً لتكوين العظام ، وجعلنا بعضها رخواً ، فامتدّ حتى كسا العظام وسترها ، ثم أنشأنا الإنسان خلقاً آخر ، فصارت له صورة متميِّزة ، فاستحال بعد خروجه من رحم أمه إنساناً ناطقاً ، سميعاً بصيراً ، وأودعنا كل عضو ما به يؤدى وظيفته ، فتعالى الله أحسن الخالقين فى قدرته الباهرة ، وحكمته البالغة ! .

٢ — ثم إنكم بعد ما بيّناه من عجائب خلقكم طوراً بعد طَوْر ، لصائرون بعد انقضاء آجالكم إلى الموت لا محالة ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون للحساب والجزاء .

(٣)

من الآية ١٧ إلى الآية ٢٢ من سورة المؤمنون

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ، وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ –١– . وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ، فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ –٢– . فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ، لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ –٣– . وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ، وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ –٤– . وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ، وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ –٥– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
سبع طرائق	سبع مدارات للكواكب السبع السيارة .
وما كنا عن الخلق غافلين	وما كنا غافلين عن هذا الخلق العجيب ، وهو سير هذه الكواكب فى أفلاكها .

الألفاظ	شرحها
بقدر	بمقدار ما يحتاج إليه البشر .
فأسكناه فى الأرض	فجعلناه مستقرًّا فى الأرض لتُخصب به ، فتنبت النبات .
وإنا على ذهاب به لقادرون	وإنا لقادرون على أن نحبس المطر فتجدب الأرض .
وشجرة تخرج من طور سيناء	وأنشأنا لكم شجرة الزيتون التى أصلها من طور سينين .
تَنبُت بالدهن	تُنبت زيتونها الذى يُستخرج منه الدُّهنُ .
وصبغ للآكلين	ويستخرج من زيتونها الزيت الذى يُصبغُ به الخبز عند غمسه فيه .

مجمل المعنى

١ — ولقد خلقنا فوقكم سبعة أفلاك للكواكب السبع السيارة تسبح فيها ، بعضها فوق بعض ، أعلاها زُحل ، فالمشترِى ، فالمرِّيخ ، فالشمس ، فالزُّهَرة ، فعُطارد ، فالقمر ؛ وبين هذه الكواكب تجاذب وتماسك بقدرة الله تعالى ، يحفظها أن تتهاوى وتتساقط ، أو يختل نظامها ، وما كنا عن هذا الخلق العجيب الذى خلقناه بباهر قدرتنا غافلين ، بل دبرنا أمره ببالغ حكمتنا ، وحفظناه من أن يتسرب إليه أى خلل ، ونظيره قوله تعالى : « ويُمْسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه » .

٢ — وأنزلنا عليكم من السحاب مطراً من الأبخرة المتصاعدة من البحار ، بمقدار ما علمنا أنه يصلح لكم ، ويكفى حاجتكم ، وتسلمون معه من المضرة ، فلم يكن سيلا جارفاً مفسداً ، فجرى بعضه فى الأنهار ، وأقررنا بعضه فى الأرض لتتفجر منه العيون ، بعد أن تستوفوا حاجتكم منه ، لإخصاب الأرض وإنبات النبات ، وإنا لقادرون على أن نذهب به عنكم بانحباس المطر ، فتجدب الأرض ، ويعم القحط ، لأن من قدر على إنزاله ، كان قادراً على منعه ، ونظير هذا قوله تعالى : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً ، فمن يأتيكم بماء معين ؟ »

٣ — وأنشأنا لكم بهذا الماء بساتين من نخيل وأعناب — وكانت هذه الفاكهة أكثر فواكه العرب — لكم فى هذه البساتين فواكه كثيرة ، وزروع متعددة ، ومن الزروع والثمار تأكلون ، فتتغذون بها ، وتحصلون على معايشكم ، ببيع ما يفيض عن حاجتكم .

٤ — وأنشأنا لكم شجرة الزيتون ، التى منشؤها الأصلى طور سينين ، الذى ناجى موسى عليه السلام ربه عليه ، ومنه انتشرت فى جهات كثيرة ؛ هذه الشجرة تثمر الزيتون الذى تستخرجون منه دهنا لعلاجكم ، وزيتاً لإضاءة سراجكم ، ويكون صبغاً تصبغون به الخبز حين تغمسونه به ، وتتخذونه إدامالكم ؛ وقد خص الله شجرة الزيتون بالذكر من بين سائر الأشجار ، لاستقلالها بمنافع كثيرة ، ومزايا جليلة ، وهى الشجرة المباركة التى ذكرها الله تعالى فى قوله : « يوقد من شجرة مباركة زيتونة ، لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ، ولو لم تمسسه نار » ، (تراجع الصفحة ٨٥ من تفسير هذا الجزء) .

٥ — وإن لكم فى الإبل والبقر والضأن والمعز ، لعظة تعتبرون بها ، وتستدلون

على ما غمرتـُكم به من النعم ، فنحن نسقيكم مما تستخرجونه من بطونها من الألبان ، ولكم فيها منافع كثيرة ، فتتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ملابس ومساكن ، كما تتَّجرون فيها وهى حية ، فتـُدِر عليكم ما يصلح معيشتكم ، وتأكلون من لحومها بعد ذبحها ، كما أنكم تـُحملون على ظهور الإبل التى هى سفن البر ، كما تحملون على سفن البحر .

(٤)

من الآية ٢٣ إلى الآية ٣٠ من سورة المؤمنون

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ ، اعْبُدُوا اللَّهَ ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ – – . فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ، فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ –٢– . قَالَ : رَبِّ ، انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ –٣– . فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ : أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ، فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ، إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ، وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ، إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ –٤– . فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ، فَقُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَقُلْ : رَبِّ ، أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ –٥– . إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ ، وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ –٦– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أفلا تتقون	أفلا تخافون عذاب الله بعبادتكم غيره ؟
الملأ	الأشراف من قوم نوح .
يريد أن يتفضل عليكم	يطلب أن يفضُلكم ويسودكم .
إن هو إلا رجل به جِنة	ما هو إلا رجل به جنون .
فتربّصوا به حتى حين	فانتظروا وقتاً لعله يُفيق من جنونه .
بما كذبون	بسبب تكذيبهم إياى .
الفلك	السفينة ، الواحد والجمع سواء .
بأعيننا ووحينا	برعايتنا وحفظنا وأمرنا ، وتعليمنا على لسان الوحى ، حتى لا يخطئ .
فار التنّور	نبع الماء من وجه الأرض .
فاسلك فيها من كلّ زوجين اثنين	فأدخل فيها من كل نوع من الحيوان فردين مزدوجين .
ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا	ولا تخاطبنى فى الشفاعة لمن كفر من أهلك .
استويت	استقررت فى السفينة .
لآيات	لدلالات على قدرة الله .
وإن كنا لمبتلين	وإنا كنا مختبرين قوم نوح .

مجمل المعنى

١ — إن الإنسان لظلوم كفار بنعمة ربه ، مع ترادفها وتلاحقها ، وفى القصص التى نسوقها عظة وعبرة ، فلقد أرسلنا نوحاً إلى قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام ، ويطلقون عليها أسماء اخترعوها ، كوَدّ وسُواع ، ويغوث ، ويَعوق ، ونَسر ؛ فقال لهم نوح فى رفق وأناة : يا قوم ، اعبدوا الله وأطيعوه ووحدوه ، فإنه ليس لكم إله غيره ، أفلا تخافون نقمته ، إن سلب منكم نعمته ؟ أفلا تخشون عذابه ، إن رفضتم عبادته ، وآثرتم عليها عبادة غيره ، وكفرتم بنعمه التى لا تعد ولا تحصى ؟

٢ — فقال الأشراف الذين كفروا من قوم نوح لعوامِّهم وأتباعهم : لا تسمعوا لهذا القول ، فما نوحٌ إلا إنسان مثلكم ، لا فرق بينه وبينكم ، إنه يريد أن يسودكم ويترأس عليكم ، ويجعلكم أتباعاً له ، فلم يجد إلى مأربه سبيلا إلا ادعاء النبوة ، ولو شاء الله أن يرسل رسولا يدعو إلى عبادته وحده ، ونبذ عبادة الأصنام ، لأرسل رسولا من الملائكة يبلغوننا ذلك عنه ، لا بشراً مثلكم ، ما سمعنا بمثل هذا الكلام الذى ذكره نوح فى آبائنا الغابرين ، الذين كانوا مثلنا يعبدون الأصنام ، فما نوح إلا رجل مخبول ، أصابه مس من الجنون ، فانتظروا لعله يفيق من جنونه ، فيعدل عن رأيه ، وإلا قتلتموه .

٣ — فلما سمع نوح قولهم ، ويئس من إيمانهم ، وتحقق أنهم مصرون على التمادى فى الضلال ، قال : رب ، انصرنى عليهم ، وأنجز ما وعدتنى به من إهلاكهم ، ولا تذر على الأرض أحداً منهم ، بسبب تكذيبهم إياى ، وعصيانهم ما أرسلت به إليهم .

٤ — فاستجبنا دعاءه ، بأن أوحينا إليه : أن اصنع السفينة برعايتنا وكلاءتنا وهدايتنا ، وبما نرشدك إليه على لسان الوحى عن طريقة صنعها ، فإذا حان وقت عذابنا ، ونبع الماء من وجه الأرض ، كان ذلك علامة على بدء الطوفان الذى سنغرق به الكفار من قومك ، فأدخل فى السفينة من كل صنف من الحيوان فردين مزدوجين : كثور وبقرة ، وجمل وناقة ، وديك ودجاجة ، واحمل معك أهلك ، إلا من سبق قضائى عليهم بالإغراق ، وهما زوجتك الخائنة ، وابنك كنعان الكافر ، واحمل معك الذين آمنوا بك ، ولا تخاطبنى فى الذين كفروا ولو كانوا من أهلك ، فإنهم مغرَقون لا محالة ، لظلمهم بالإشراك وارتكاب المعاصى ، ولا يستحقون أن تستشفع لهم .

٥ — فإذا استقررت أنت ومن معك فى السفينة ، فاشكر الله على آلائه عليك ، باستجابة دعائك ، وانتصارك على أعدائك ، وقل : « الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين » ، وقل عند نزولك من السفينة : رب ، أنزلنى منزلا مباركاً يؤدى إلى مزيد الخير فى الدارين ، وأنت خير المنزلين ، لأنك تبوئ من ترضى عنه مبوأ صدق ، وتحفظه من كل سوء ، وتدفع عنه المكاره .

٦ — إن فيما صنع الله بنوح وقومه لدلالات واضحات على قدرة الله ، يستدل بها على وحدانيته وقدرته ، ويعتبر بها أولو الألباب ، وإنا كنا مختبرين قوم نوح بإرسال رسولنا إليهم ، ووعظه إياهم ، لننظر من يعتبر ويتذكر ، ومن يفكر ويتدبر ، فغلبت على الكافرين شقوتهم ، وكانوا قوماً ضالين ؛ وقد ذكرنا مزيداً من قصة نوح فيما تقدم من تفسير الأجزاء السابقة .

(٥)

من الآية ٣١ إلى الآية ٤١ من سورة المؤمنون

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ . فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ : أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ —١— وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ ، وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا : مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ، وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَنْ لَخَاسِرُونَ —٢— . أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ! إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ، نَمُوتُ وَنَحْيَا ، وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ، وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ —٣— . قَالَ : رَبِّ ، انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ . قَالَ : عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ . فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ ، فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ، فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ! —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
قرنا آخرين	قوماً آخرين .
وكذبوا بلقاء الآخرة	كذبوا بلقاء البعث والحساب ، والثواب والعقاب .
أترفناهم فى الحياة الدنيا	نعمناهم فى الحياة الدنيا .
هيهات هيهات لما توعدون	إنه لبعيد بعداً شاسعاً ما تهددون به من البعث بعد الموت .
نموت ونحيا	يموت بعضنا عند انقضاء أجله ، ويحيا بعضنا حتى يستوفى أجله .
افترى على الله كذباً	اختلق على الله كذباً ، بادعائه البعث .
الصيحة	الصاعقة .
بالحق	بالعدل والوعد الحق ، الذى وعدنا به رسلنا .
غثاء	كالغثاء ، وهو ما يحمله السيل من ورق الشجر الجاف ، والعيدان الهشة .
بعداً	هلاكاً وسحقاً ، وبعداً من رحمة الله .

من المعنىّ بهذه الآيات

اختلف المفسرون فيمن عنَاهم الله بإنشائهم بعد قوم نوح ، فذهب بعضهم إلى أنهم قوم هود ، واستدلوا بقوله تعالى حكاية عنهم : «واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح » ، وبمجىء قصة عاد بعد قصة قوم نوح فى سورة الأعراف

وسورة هود ، وذهب آخرون إلى أنهم قوم صالح ، واستدلوا بذكر الصيحة فى آخر القصة ، لأن من أهلكوا بها قومُ صالح ، لا قوم هود الذين أهلكوا بريح صرصر عاتية ، وإلى الرأى الثانى نميل ، لأن الرأى الأول ظنى ، أما الثانى فهو رأى قطعى ، يحمل دليله الذى لا شك فيه .

مجمل المعنى

١ — ثم أنشأنا بعد قوم نوح قوماً آخرين ، وهم ثمود قوم صالح ، وكانت مساكنهم بالحِجر بين الحجاز والشام ، تعرف إلى الآن بفج الناقة ، فأرسلنا فيهم رسولا منهم — وهو صالح عليه السلام — وقلنا لهم على لسان رسولنا : اعبدوا الله وأطيعوه ووحدوه ، فإنه ليس لكم إله غيره ، أفلا تخافون عقابه إن أصررتم على الكفر ؟

٢ — وقال أشراف قومه وقادتهم ورؤساؤهم ، الذين كفروا واستكبروا عن قبول الدعوة ، وعز عليهم أن يطيعوا رجلا منهم ، وكذبوا بلقاء ما فى الآخرة من بعث وحساب ، وثواب وعقاب ، ونعمناهم فى الحياة الدنيا بكثرة الأموال والأولاد ، والزروع والثمار ، وبوأناهم فى الأرض يتخذون من سهولها قصوراً ، وينحتون من الجبال بيوتاً — قال هؤلاء الأشراف لعوامهم وأتباعهم : ما هذا الذى يدعى أنه رسول إليكم من عند الله إلا إنسان مثلكم ، يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون منه ، فلا ميزة له عليكم ، لأنه يحتاج إلى الطعام والشراب كأصغر رجل فيكم ، ولئن أطعتم بشراً مثلكم فيما يأمركم به ، ونبذتم عبادة الأصنام ، إنكم لترجعون بصفقة المغبون ، إذ أخضعتم أنفسكم لرجل ليس بأفضل منكم .

٣ — أيعدكم هذا الرجل أنكم إذا متم ، وكنتم تراباً وعظاماً نخرة ، مجردة عن

اللحم ، أنكم تخرجون من قبوركم ، بعد أن تدب فيكم حياة جديدة أخرى ، فتصيرون إلى الحياة كما كنتم تحيون فى الدنيا ؟ إنه لبعيد كل البعد أن تصدقوا ما يهددكم به من البعث والحساب فى الحياة الآخرة التى يزعمها ، فلا حياة إلا حياتنا الدنيا ، يموت بعضنا عند انقضاء أجله ، ويحيا بعضنا حتى يستوفى أجله ، وما نحن بمبعوثين بعد الموت كما يدعى ، وما هو إلا رجل اختلق على الله كذباً أنه مُرسل من عنده إلينا ، وما نحن له بمصدقين .

٤ — قال صالح عليه السلام ، بعد أن يئس من إيمانهم ، وسلك فى دعوتهم كل مسلك : رب ، انصرنى عليهم ، وانتقم لى منهم ، وأنجز ما وعدتنى به من إهلاكهم ، بسبب إمعانهم فى تكذيبى ، وإصرارهم على الكفر ، فاستجاب الله دعاءه ، وأوحى إليه : أنهم عما قليل من الزمان ليصيرنّ نادمين على كفرهم وتكذيبهم ؛ فأخذتهم صاعقة من الله تعالى الذى يقضى بالحق — وهى استفراغ كهربى ، يحصل بين كهربتين ، إحداهما موجبة ، والأخرى سالبة ، ويكون الاستفراغ فى جسم مما على وجه الأرض ، فينصهر إذا كان معدنيًّا ، ويحترق إذا كان شجراً أو إنساناً ، ويتفتت إن كان بناء أو صخراً ، (تراجع الفقرة ٦ من الصفحة ١١٦ من تفسير الجزء الثامن) — فدمرت هذه الصاعقة منازل قوم صالح ، وأهلكتهم ، ولم ينج منهم إلا من آمن ، فصاروا كالحشيش اليابس الهش المتفتت ، أو ورق الشجر الجاف ، فهلاكاً وسحقاً لكل من كذبوا رسول الله إليهم ، وبعداً لهم من رحمة الله !.

(٦)

من الآية ٤٢ إلى الآية ٥٠ من سورة المؤمنون

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ، مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ، وما يَسْتَأْخِرُونَ -١- . ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ، كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ، فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ، وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ -٢- . ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هٰرُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ، إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، فَاسْتَكْبَرُوا ، وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ . فَقَالُوا : أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ، وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ؟ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ، وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ -٤- . وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ، وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ -٥- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
تترى	متتابعة متواترة .
فأتبعنا بعضهم بعضاً	فأتبعنا بعض الأمم بعضاً فى الإهلاك .

الألفاظ	شرحها
أحاديث	قصصاً يسمُرُ بها الناس فى مجتمعاتهم ، أو يتعظون بها .
وسلطان مبين	وحجة بيّنة كاليد والعصا .
عالين	متكبرين ، يتعالَوْن على بنى إسرائيل بالقهْرِ والظلم .
عابدون	خاضعون مطيعون ، كالخدم والعبيد .
لعلهم يهتدون	لعلّ بنى إسرائيل يهتدون بما فى التوراة من الشرائع والمواعظ .
رَبْوة	أرض بيت المَقدس المرتفعة .
ذات قرار	يستقر عليها ساكنوها ، لانبساطها وخِصب أرضها .
ومَعِين	وماء جار .

مجمل المعنى

١ — ثم أنشأنا بعد قوم صالح أقواماً آخرين ، فكذبوا رسلهم ، فقضينا بإهلاكهم ، ما تسبق أية أمة الوقت الذى عُين لهلاكها ، وما يستأخرون عنه.

٢ — ثم أرسلنا رسلنا متتابعين متواترين ، واحداً بعد الآخر ، كلما جاء أمةً رسولُها كذبوه حين يبلّغهم رسالته ، فأتبعنا بعض هؤلاء الأقوام بعضاً بالإهلاك ، ولم يبق منهم أحد ، وجعلناهم قصصاً يسمُر بها السمار فى مجتمعاتهم ، ويلهُون بسردها فى مجالسهم ، فسُحقاً وهلاكاً وبُعداً من رحمة الله لقوم لا يؤمنون !.

٣ — ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بالمعجزات البيّنة الواضحة ، المؤيدة لرسالتهما ، كاليد والعصا ، إلى فرعون وقومه ، فاستكبروا عن الإيمان بالله ، ومتابعة موسى وهرون ، وكانوا قوماً متكبرين ، يقهرون بنى إسرائيل ، ويظلمونهم بتسخيرهم فى الأعمال الشاقة ، كبناء قصورهم ومعابدهم ، فكان حال الكفار مع موسى وهرون ، كحال من سبق الكلام عنهم آنفاً ، قصارى شبهتهم قياس حال الأنبياء على أحوالهم من المماثلة البشرية ، ومظاهر المعيشة ، وغاب عنهم أن النفوس البشرية وإن تماثلت فى المظهر ، تتباين فى المخبر ، فتختلف فى مراقى الكمال ، ومهاوى النقصان ، وأن الله لا يصطفى للنبوة إلا من صفا جوهره ، وزكت نفسه ، ففرعون وقومه كانوا مغرقين فى الباطل والضلال ، حين قالوا لموسى وهرون : أنؤمن لبشرين مثلنا ، وقومهما من بنى إسرائيل خاضعون لنا كالخدم والعبيد ؟ يريدون بهذا الغض من كرامة موسى وأخيه ، فكذبوهما فكانوا من المهلكين بالغرق فى بحر القلزم : (البحر الأحمر) بمصر .

٤ — ولقد آتينا موسى التوراة ، لعل بنى إسرائيل يهتدون بشرائعها ومواعظها .

٥ — وجعلنا عيسى ابن مريم وأمه مريم آية عجيبة خارقة للعادة ، دالة على عظيم قدرتنا ، بولادته منها من غير أن يمسها بشر ، فالآية فيهما واحدة ، وهى ولادة عيسى من مريم ، من غير أن يباشرها رجل ، ولذلك لم يقل الله : وجعلنا ابن مريم وأمه آيتين ، وجعلناهما يأويان إلى أرض بيت المقدس المرتفعة ، التى فى واد منبسط خصب ، ذى زروع وثمار ، صالح لأن يستقر فيه ساكنوه ، وبه ماء جار ظاهر ، كثير المنفعة .

(٧)

من الآية ٥١ إلى الآية ٦١ من سورة المؤمنون

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ ، كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ —١— . وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ . فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ —٢— . أَيَحْسَبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ؟ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ —٣— إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ : أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ، أُولَـٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أمتكم أمة واحدة	ملتكم ملة واحدة ، جديرة بأن تعتنقوها .
فتقطعوا أمرهم بينهم	ففرّق الناس أمر دينهم فيما بينهم ، فجعلوه أدياناً مختلفة .

الألفاظ	شرحها
زبراً	فرقاً وأحزاباً ؛ جمع زبور : وهو الفِرقة.
كلّ حزب بما لديهم فرحون	كل فريق معجَبٌ بدينه ، مغتبط به .
فذرهم فى غمرتهم	فدعهم فى حيرتهم وجهالتهم وضلالتهم .
حتى حين	حتى وقت يستبين الحق ، ويتميز من الباطل .
أن ما نمدهم به	أن ما نعطيهم إياه .
نسارع لهم فى الخيرات	هو ثواب نعجِّل به لهم فى الدنيا .
من خشية ربهم مشفقون	من خوف عذاب ربهم خائفون حذرون .
يؤتون ما آتوا	يعطون ما أعطوه من الصدقات .
وقلوبهم وَجِلة	وقلوبهم خائفة ألا تقبل منهم .
أنهم إلى ربهم راجعون	لأن مرجعهم إلى الله .

مجمل المعنى

١ — لقد أمرنا الرسل كلهم فى زمانهم أن يأكلوا من الطيبات التى أحللناها لهم ، ويتناولوا المستلذّ من المباحات ، وأن يعملوا الأعمال الصالحات ، ليكونوا قدوة لأممهم ، وقلنا لهم : إنى بما تعملون من الأعمال الظاهرة والباطنة عليم ، فأجازيكم عليها .

٢ — وإن ملة التوحيد هى الملة الواحدة ، الجديرة بأن تعتنقوها أيها المكلفون ، ولا تُخِلُّوا بشىء منها ، والأنبياء كلهم بُعثوا للدعوة إليها ، والإيمان بها ، وقد جعلها الله ملة واحدة لا اختلاف فيها ، وهى عبادة الإله وحده ، الذى يجبْ أن يُفرد بالعبادة ، وأنا ربكم لا شريك لى فى الربوبية ، فاتقوا عقابى ، فإن بطشى لشديد لمن أعرض عن عبادتى ، ولكن الناس

شقّوا عصا الطاعة ، وفرقوا أمر دينهم ، وصاروا شيعاً وأحزاباً ، مع وضوح الأدلة على أن دين التوحيد هو الدين الحق ، فصار منهم اليهودى والنصرانى والمجوسى وعابد الصنم ، وصار كل فريق بما لديه من الدين الذى اختاره مغتبطاً به ، مدعياً أنه الحق ، وغيره الباطل ، فدعهم أيها الرسول فى حيرتهم وجهالتهم وضلالتهم ، حتى يتميَّز لهم الحق من الباطل ، وسيتم الله نوره ولو كره الكافرون .

٣ — أيظن هؤلاء الكفار الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، أن ما نعطيهم من مال وبنين ، هو ثواب نعجّل به لهم فى الدنيا ، ودليل على رضانا عنهم ، يفيدهم فى الأخرى ؟ كلا ! إنهم لواهمون فيما ظنوا ، بل إنهم لسخافة عقولهم ، لا يشعرون أن ذلك استدراج لهم ، فهم كالأنعام بل هم أضل ، لعدم فطنتهم وشعورهم ، إذ لو تأملوا لعلموا أن هذا الإعطاء استدراج لهم ، لا تعجُّلٌ فى إيصال الخير إليهم .

٤ — إن المؤمنين الذين توافرت فيهم الصفات الآتية :

ا : من يخافون عذاب الله ويحذرونه ، فلا يعملون ما يعرّضهم لعقابه .

ب : ومن يصدقون بآيات القرآن ، والدلائل الدالة على باهر قدرة الله وبالغ حكمته .

ج : ومن لا يشركون بربهم غيره ، ويخلصون فى العبادة له وحده ، ويقبلون عليها طلباً لرضوانه ورحمته .

د : ومن يُعطُون ما أعطَوه من الصدقات ، ويفعلون ما يفعلون من الطاعات ، ويؤدون الأعمال الصالحات ، سواء أكانت من حقوق الله أم من حقوق العباد ، وقلوبهم مع كل هذا خائفة ألا تقبل

منهم، أو لا تقع من المولى الموقع اللائق ، لتقصير لا يُدْركونه ، أو إخلال لا يُحسّونه ، فهم يُصَلُّون ويصومون ويتصدّقون، وهم مع هذا فى شدة الخوف من الله، يوم يرجعون إليه للحساب .

هؤلاء جميعاً يسارعون إلى فعل الخيرات الدنيوية ، ويبذلون جهدهم فى أن يسبقوا غيرهم لأدائها ، لئلا يفوتهم وقتها .

(٨)

من الآية ٦٢ إلى الآية ٧٥ من سورة المؤمنون

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ —١— بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هٰذَا ، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ ، هُمْ لَهَا عَامِلُونَ . حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ، لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ، إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ . قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ، فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ . مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ —٢— أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ؟ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ؟ —٣— أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ؟ —٤— أَمْ يَقُولُونَ : بِهِ جِنَّةٌ ؟ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ —٥— وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ ، فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ —٦— أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ؟ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ —٧— وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ؟ -٨- وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ ، لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ -٩- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وُسعها	قدر طاقتها .
كتاب ينطق بالحق	كتاب ينطق بالحق بما عملته كل نفس فى الدنيا ، وهو صحيفة الأعمال .
فى غمرة من هذا	فى غفلة وجهالة من هذا الكتاب الذى يفصح عن مساوئهم .
ولهم أعمال من دون ذلك	ولهم أعمال خبيثة غير ما بيناه ، وهى فنون كفرهم ومعاصيهم .
يجأرون	يصرُخون ويستغيثون ويضجون : (يجعرون) .
على أعقابكم تنكصون	ترجعون القَهْقَرى ، معرضين عن سماعها .
مستكبرين به	مستكبرين بالبيت الحرام الذى أهله فى أمن ، مكذبين بالقرآن .
سامراً تهجرون	جماعة من السُّمَّار ، تتحدثون ليلا بهجر القول وفحشه ، وسامرا : مفرد بمعنى الجمع .
اتبع الحق أهواءهم	اتبع القرآن الذى ينطق بالحق ميولهم ، بإباحة عبادة الأصنام .
أتيناهم بذكرهم	أتيناهم بالقرآن الذى فيه وعظهم وشرفهم .

الألفاظ	شرحها
خَرْجاً	أجراً على أداء الرسالة .
لَنَاكبون	لعادلون عن الطريق السوىّ ، وهو الإسلام .
من ضر	من قحط .
للجُّوا فى طغيانهم يعمهون	لتمادَوا فى ضلالهم يتحيرون ويترددون .

مجمل المعنى

١ — لقد جرت سنتنا ألا نكلف أى نفس إلا على قدر طاقتها ، من التكاليف وأداء العبادات وغيرها ، فمن لم يستطع أن يصلى قائماً صلى قاعداً ، أو على أى وضع يلائمه ، ومن لم يستطع الصوم أبحنا له أن يفطر ولا جناح عليه ، وعندنا صحف الأعمال التى تقرأ عند الحساب ، تُفصح عما فعلته كل نفس فى الدنيا بالصدق ، فلا يوجد فيها ما يخالف الواقع ، ونظير هذا قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » ، ولا يُظلم أحد من الناس مثقال ذرّة مما نطقت به صحائفهم ، فلا ينقصون من ثواب أعمال الخير ، ولا يزدادون شيئاً على أعمال الشر .

٢ — بل قلوب الكفار فى غفلة غامرة من هذا الذى بيّناه فى القرآن ، من أن لدينا كتاباً ينطق بالحق ، ويفضح أعمالهم السيئة ، ولهم أعمال خبيثة كثيرة سوى ذلك ، وهى فنون كفرهم ومعاصيهم ، التى من جملتها طعنهم فى القرآن ، المشار إليه بقوله : « مستكبرين به سامرا تهجرون » — وسيأتى ذكرها هنا — وهم متمرسون عليها ، معتادون فعلها ، ولا يزالون يعملون

هذه الأعمال السيئة ، حتى إذا أخذنا متنعميهم ورؤساءهم بعذاب القحط ،حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، لمّا ألقوا عليه وهو يصلى عند البيت سَلَى جزور — وهو الجلدة الرقيقة التى يخرج فيها المولود من بطن أمه — فقال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنيناً كسنين يوسف » ، فأصابتهم سنة أكلوا فيها الجيف والجلود والعظام المحرَقة والعِلْهِز — وهو الدم يخلطونه بأوبار الإبل ، ثم يشوونه بالنار — حتى إذا أخذناهم بعذاب القحط ، إذا هم يصرخون ويستغيثون ويضجون ، فقيل لهم : لا تصرخوا فى الوقت الذى اعتراكم فيه ما اعتراكم ، وحل فيه عقابنا إياكم ، إنكم لا تستحقون نصراً ولا معونة من عذابنا ، ولا ينفعكم جزعكم ، فقد كانت آيات القرآن تقرأ عليكم ، فكنتم عند قراءتها تنفرون وتعرضون عنها وعمن يتلوها ، مستكبرين عن الإيمان بمُقامكم فى البيت الحرام ، قائلين : نحن سكان البيت الحرام الذى يأمن فيه كل خائف ، مفتخرين بأنكم أهلُه ، وكنتم تسمرون فى مجتمعاتكم ليلا حول الكعبة ، فتطعنون فى القرآن ، وتهذون ، وتتحدثون فيه بهُجر القول وفحشه ، وتسمونه سحراً وشعراً ، وتسبون الرسول أفظع السب .

٢ — أفلم يتدبر الكفار القرآن الدال على صدق الرسول ، فيعلموا أنه الحق ، وأنه معجز لجميع البشر ، فهل جاءهم بما لم يأت آباءهم الأولين ، فأنكروه وأعرضوا عنه ، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر ؟ ألا يعلمون أن إنزال الكتب على الرسل قد جرت به سنتنا ، وأن إنزال القرآن على محمد لم يكن بدعاً ، فلِمَ ينكرونه ويستبعدون وقوعه ؟

٤ — ألم يعرفوا رسولهم من قبل ، واشتهاره بالصدق والأمانة وحسن الخلق ؟

بلى ! لقد عرفوه ، ولكنهم حسدوه ، فهم لدعوته منكرون .

٥ — أيقولون : به جنون فلا نبالى بقوله ؟ مع أنهم يعتقدون أنه أرجحهم عقلا ، وأثقبهم نظراً ؛ ليس الأمر كما زعموا ، بل السبب فى ذلك أنه جاءهم بالدين الحق ، المشتمل على التوحيد والشرائع والتكاليف ، وأكثرهم للحق كارهون ، لأنه يخالف نزواتهم وشهواتهم وأهواءهم ؛ والتعبير بالأكثر هنا ، لأن منهم من ترك الإيمان استنكافاً من توبيخ قومه ، كأبى طالب عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، لا كراهة فى الحق .

٦ — ولو اتبع القرآنُ الذى جاء به الرسول أهواء الكفار ، بأن يكون لهم آلهة شتى مع الله تعالى ، لخرجت السموات والأرض عن نظامها ، وخُرِّب العالم ، لتعدّد الآلهة ، ووقوع الخلاف بينهم ، بل لقد أتيناهم بالقرآن الذى فيه وعظهم وشرفهم ، كما قال تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك » ، وهو الذى تمنوه بقولهم كما حكى الله عنهم : « لو أن عندنا ذكراً من الأولين ، لكنا عباد الله المخلصين » ، وقد نزل القرآن بلغتهم ، وهم مع هذا معرضون عن القرآن الذى به فخرهم وشرفهم .

٧ — أم هم يزعمون أنك تسألهم على أداء رسالتك إليهم جُعلا وأجراً ، فهم لذلك لا يؤمنون ؟ إنك لا تسألهم ذلك ، فإن أجر ربك من الرزق فى الدنيا ، وثوابه فى الآخرة ، خير ، لسعته ودوامه ، وفيه مندوحة عن عطائهم ، والله خير من يُعطى ويُؤجِر ، ولا يستطيع أحد أن يرزق مثل رزقه ، أو يُنعم مثل إنعامه ، وقد عَرَضَت عليك قريش أموالها لتكون أغنى رجل فيها ، على أن تُعرض عن دعوتك ، فأبيت .

٨ — وإنك لتدعوهم إلى الطريق السوىّ ، وهو دين الإسلام القويم ، الذى تشهد العقول السليمة باستقامته ، وأنه لا عوج فيه ؛ وإن الذين لا يؤمنون

بالآخرة وما فيها من البعث والحساب ، والثواب والعقاب ، لعادلون عن الصراط السوىِّ ، مائلون إلى الزيغ والضلال .

٩ — ولو رحمنا كفار قريش ، وكشفنا ما بهم من قحط ، لتمادَوا فى ضلالهم ، وإمعانهم فى الكفر والعناد ، والاستكبار عن دعوة الرسول ، وظلّوا سادرين فى جهالتهم ، متحيّرين مترددين فى ضلالتهم .

(٩)

من الآية ٧٦ إلى الآية ٩٠ من سورة المؤمنون

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ، فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ . حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ، إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ -١- . وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ -٢- . وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ ، وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَهُوَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ -٣- . بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ : قَالُوا : أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ، أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هٰذَا مِنْ قَبْلُ ، إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ -٤- . قُلْ : لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ سَيَقُولُونَ : لِلّٰهِ ، قُلْ : أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ -٥- . قُلْ : مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟ سَيَقُولُونَ : لِلّٰهِ ، قُلْ : أَفَلَا تَتَّقُونَ -٦- . قُلْ : مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ سَيَقُولُونَ : لِلّٰهِ ، قُلْ : فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ؟ -٧- . بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ -٨- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أخذناهم بالعذاب	عاقبناهم بالقحط والجوع .
فما استكانوا	فما خضعوا ولا انقادوا .
وما يتضرعون	وما يلجئون إلى الله بالدعاء فى ضراعة واستكانة .
فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد	فتحنا عليهم باب جهنم ، ليَلْقَوا فيها العذاب الشديد .
مُبْلِسون	يائسون من كل خير ، متحيرون .
قليلا ما تشكرون	لا تشكرونه ألبتة ، أو لا تشكرونه إلا شكراً قليلا .
ذرأكم فى الأرض	خلقكم وبثكم فيها للتناسل .
تحشرون	تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ، للبعث والحساب .
اختلاف الليل والنهار	تعاقبهما ، وانتقاص أحدهما بزيادة الآخر .
لقد وُعدنا نحن وآباؤنا هذا	لقد وعدنا ووعد آباؤنا على ألسنة الأنبياء هذا البعث .
أساطير الأولين	أكاذيب الأولين التى سطروها .
أفلا تذكرون	أفلا تتعظون ؟
أفلا تتقون	أفلا تحذرون عقاب الله ؟
ملكوت كل شىء	ملك كل شىء .
يجير ولا يجار عليه	يغيث ، ولا يغيث أحدٌ أحداً عليه ، فيمنعه منه .
فأنى تسحرون	فكيف تُخْدعون ؟

مجمل المعنى

١ — ولقد عاقبنا كفار مكة بالقحط والجوع ، حتى أكلوا العِلْهِزَ الذى تقدم ذكره فى الصفحة ٣٠ ، لتماديهم فى ضلالهم ، وإفراطهم فى الكفر والاستكبار ، وعداوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فما خضعوا ولا انقادوا ، بل أقاموا على عتوِّهم واستكبارهم ، ولم تَلِنْ مقادتهم ، ولم يجأروا إلى الله بالدعاء ليكشف الضر عنهم ، حتى إذا فتحنا عليهم يوم القيامة باباً من أبواب جهنم التى يَلْقَوْن فيها العذاب الشديد ، إذا هم بسبب هذا الفتح يائسون من النجاة ، متحيرون لا يدرون ماذا يفعلون ، ونظير هذا : « ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون » .

٢ — وهو الذى خلق لكم السمع والأبصار ، لتحسوا قدرة الله التى يعجز عن مثلها جميع البشر ، وخلق لكم العقول لتستعملوها فى آيات الله وفى أنفسكم ، وتستدلوا بها على عظمة الخالق ، فما أفادكم سمعكم ولا أبصاركم ولا عقولكم شيئاً ، ولم تعرفوا حق المنعم بهذه النعم عليكم ، ولم تشكروه على آلائه ، بل إن شكرتم فإن شكركم لا يوازى شيئاً بجانب هذه النعم المترادفة .

٣ — وهو الذى خلقكم ، وبثكم فى الأرض ، وأخرج منكم ذراريكم لتتناسلوا حتى كثرتم ، وإليه تجمعون يوم القيامة الذى لا حاكم سواه فيه ، بعد تفرق أجزائكم ، للحساب والجزاء ، وهو الذى يقدر وحده على الإحياء والإماتة ، وله وحده يرجع تعاقب الليل والنهار ، واختلافهما بالزيادة والنقصان ، أفلا تفهمون بالنظر والتأمل ، أنكم غارقون فى بحار نعمتنا ، وتدركون أن من له هذه القدرة يكون قادراً على البعث ، وأنه لا يعقل أن يكون له شريك من خلقه ؟

٤ — ولكن كفار مكة لم يعقلوا هذا ، بل قالوا مثل ما قال أسلافهم من قبل في إنكار البعث ، مع وضوح الدلائل على وقوعه تقليداً لهم ، وكأن ذلك شنشنة يتوارثها الخلف عن السلف ، قالوا مستبعدين وقوع البعث : أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً نخرة ، أئنا لمبعوثون ؟ وغاب عنهم أنهم كانوا تراباً قبل ذلك ، فاستحالوا بقدرة الله أناسى ، وقالوا ممعنين فى تكذيبهم : لقد وُعدنا نحن بالبعث ، ووعد آباؤنا به على ألسنة الرسل من قبل ، فلم نر لهذا أثراً ، فما هذا القرآن فى تقرير البعث إلا أكاذيب الأولين ، سطّروها ولا حقيقة لها .

٥ — قل يا محمد لهؤلاء المعاندين المنكرين للبعث ، الذين يستبعدون وقوعه : إن كنتم من العقلاء أهل العلم والمعرفة ، فقولوا لى : مَن خالق الأرض ومن فيها ؟ — وأراد الله بتوجيه هذا السؤال إليهم وما يليه من الأسئلة ، إظهار فرط عنادهم ، حتى تجاهلوا هذا الأمر الجلى الواضح ، الذى لا يجهله من له مُسكة من العقل ، ولذا أخبر عن جوابهم قبل أن يجيبوا ، لأن العقل المجرد عن الهوى ، سيضطرهم إلى الاعتراف بهذه الحقيقة — سيقولون : الله وحده خالق الأرض ومن فيها ، فقل لهم بعد اعترافهم هذا : أتقولون هذا ولا تتعظون ، فتعلموا أنه من خلق هذا العالم من العدم ، قادر على إحياء الموتى ، بل إنه لأهون عليه أن يعيدهم كما بدأهم ؟ فكان خليقاً بكم ألا تشركوا به أحدا فى ربوبيته .

٦ — وقل لهم ما هو أعظم من هذا : مَن رب الكواكب السبع السيارة التى تعلمون أنها تدور فى أفلاكها فى نظام عجيب ؟ ومن هو رب العرش العظيم ؟ سيقولون : لله ، فقل لهم : أتعلمون هذا ولا تحذرون عقابه ، إن أشركتم فى عبادته غيره من الأصنام العاجزة ، التى تضر ولا تنفع ؟

٧ — وقل لهم : مَن بيده مِلك كل شيء في هذا الكون الشاسع ، الذى لا يحيط به إلا هو ، القاهر فوق عباده ، ومِن دلائل قدرته أنه يغيث من يشاء ويحرسه ويَحميه ، فلا يستطيع أحد أن يناله بسوء ، ولا يُغيث أحدٌ منه أحداً إن أراده بضرّ ، إن كنتم من ذوى المعرفة ؟ سيقولون : لله ، فقل لهم : فكيف تُخْدَعُون فتنْصرفوا عن الرشاد والهدى ، وتتبعوا الشيطان والهوى ، مع ظهور الحق ، وتضافر الأدلة على وحدانيته ، وباهر قدرته ، وبالغ حكمته ؟

٨ — بل أتيناهم بالأدلة الكافية على الوعد الحق ، وهو البعث يوم القيامة ، وأن الله واحد لا شريك له ، وهو فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، وإنهم لكاذبون فيما ادّعوه من إنكار البعث ، وفى الشرك بالله ، وفى قولهم : إن أخبار البعث أكاذيب ملفقة .

(١٠)

من الآية ٩١ إلى الآية ١٠٠ من سورة المؤمنون

مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ ، إِذَنْ لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ! : عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ !—١—. قُلْ : رَبِّ ، إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ، رَبِّ ، فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ —٢— . وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ —٣— . اُدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ —٤— . وَقُلْ : رَبِّ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ . حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ، قَالَ : رَبِّ ، ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلَّا ! إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لذهب كل إله بما خلق	لانفرد كل إله بما خلقه ، واستبد به .
ولعلا بعضهم على بعض	ولعدا بعضهم على بعض ، رغبة فى التغلب عليه .
عالم الغيب والشهادة	يعلم ما يغيب عنا وما نشاهده .
فتعالى عما يشركون	فتعاظم قدره عن أن يكون له شريك !
إما تريني ما يوعدون	إن ترنى ما يوعد به الكفار من العذاب ، وما : زائدة مدغمة فى إن الشرطية .
فلا تجعلنى فى القوم الظالمين	فلا تعذبنى بعذاب هؤلاء الظالمين .
ادفع بالتى هى أحسن السيئة	قابل السيئة بالخصلة التى هى أحسن منها ، وهى الحسنة .
أعوذ بك من همزات الشياطين	أعتصم بك من وساوس الشياطين ، والهمز : النخس ، ومنه المهماز .
أن يحضرون	أن يحضرونى فى أمورى ، وفى خلجات نفسى .
إذا جاء أحدهم الموت	إذا جاءت الكفار ، أمارات الموت .
رب ارجعون	رب ، ارجعنى إلى الدنيا ؛ خوطب المولى بخطاب الجمع للتعظيم .
فيما تركت	فيما ضيعت من عمرى فى ترك الإيمان فى الدنيا .
إنها كلمة	إن قول الكافر : رب ارجعون ، كلمة هو قائلها .
ومن ورائهم برزخ	ومن أمامهم حاجز يصدهم عن الرجوع ، وهو الموت .

مجمل المعنى

١ — ما اتخذ الله أى ولد كما زعمتم أيها المشركون ، لتنزهه أن يماثله أحد ، وما كان معه أى إله يشاركه فى الألوهية ، فلو كان معه إله كما ادعيتم ، لانفرد كل إله بما خلقه ، واستقل به فى هذا الكون ، وحارب بعضهم بعضاً ، رجاء أن يتغاب على مُلكه ، كما هو الحال فى ملوك الدنيا ؛ تنزيهاً للمولى جل وعلا عما تصفون به المولى من نسبة الولد والشريك إليه ! إنه هو الذى اختص بعلم ما غاب علمه عنّا وما نشاهده علماً عامًّا شاملا ؛ فتعاظم وتمجد قدر الواحد الأحد عما يصفه به المشركون ، من نسبة الشريك إليه ! .

٢ — قل يا محمد إظهاراً لخضوعك وعبوديتك : رب ، إن تعلقت مشيئتك بعقوبة قومى لإصرارهم على الكفر والعناد ، وكان لابد أن تُرِيَنّى ما يوعدون به من العذاب المستأصل فى الدنيا ، فلا تجعلنى يا رب قريناً لهم فى العذاب الذى يَحيق بهم ، فتعذبنى بعذاب هؤلاء القوم الظالمين ؛ أمره الله بهذا الدعاء ، مع أنه فى حرز منيع من أن ينزل به أى عذاب ، للإشعار بفظاعة هذا العذاب ، وأنه بالقدر الذى يقتضى أن يسأل رسوله النجاة منه .

٣ — وإنا لقادرون على أن نريك ما نتوعدهم به من العذاب الذى ينكرونه ويسخرون منه ، لكنا نؤخره ، لأنا نعلم أن كثيراً من هؤلاء الكفار ، وأعقاب المستكبرين المعاندين سيؤمنون ، ولأننا لانعذبهم وأنت فيهم ؛ على أن المولى قد أرى رسوله شيئاً من عذاب الكفار بعد الهجرة ، عندما نكّل بصناديد قريش فى وقعة بدر ، وهذا العذاب وإن لم يكن عذاباً

مستأصلا ، يُشعر أن قدرة الله التى غلّبت فئة قليلة على فئة كبيرة ، قادرة على كل شىء .

٤ — قابل أيها الرسول السيئة بالخصلة التى هى أحسن منها ، وهى الصفح والإعراض عمن ارتكبوها ، فإن العفو من مكارم الأخلاق التى تحليت بها ، ونحن أعلم بما يصفونك به مما أنت براء منه ، وكِل أمرهم إلينا ، ونحن نتولى جزاءهم .

٥ — وقل : رب ، أعتصم بك من نزغات الشياطين ، المغرية بارتكاب خلاف ما أمرت به من التحلى بمكارم الأخلاق ، وأعتصم بك من وسوسة الشياطين التى تَشْغَلُ عن ذكرك ، وتحضُّ على ارتكاب المعاصى ، وأعتصم بك يا رب أن يحضرونى فى أثناء تأدية عبادتى ، أو يحوموا حولى ، فلا أكون كالكفار الذين تهمزهم الشياطين وتؤثر فيهم ، حتى إذا دنا أجل أحدهم ، وأحسّ أمارات الموت ، ورأى مقعده من النار ، تبين له الحق والباطل ، فتمنى أن يطول أجله فى الدنيا ، فقال فى حسرة وألم ، وندم على ما فرّط فى جنب الله فى أثناء حياته ، وعلى سُخْريته بدعوة رسوله : رب ، ارجعونى إلى الدنيا ، لعلى أعمل صالحاً يعوّض ما ضيّعت من عمرى فى ترك الإيمان ، وأداء الطاعات ، فيكون جواب تمنيه : كلا ! لن تعود إلى الدنيا ؛ وقوله : « رب ارجعون » ، إنما هى كلمة هو قائلها لتسلط الحسرة والهموم عليه ، ولا فائدة منها ، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ، ولو رُدّ الكفار إلى الدنيا لعادوا لما نُهوا عنه ، وكيف يُرَدّون إلى الدنيا ، ومن أمامهم حاجز يصدهم عن الرجوع ، وهو الموت الذى

يصيرون إليه ؟ فيبقون إلى يوم البعث الذى يحيون فيه حياة جديدة للحساب والجزاء ؛ وفى قول الكافر : رب ارجعون ، خطاب للمولى بضمير الجمع تعظيماً له ، كما يقول رئيس الوزارة مثلا فى خطابه لعاهل الدولة : كلفتمونى يا سيدى أن أؤلف الوزارة .

(١١)

من الآية ١٠١ إلى الآية ١١١ من سورة المؤمنون

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ، وَلَا يَتَسَاءَلُونَ —١— . فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ، فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ، وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ —٢— . أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ، فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ؟ قَالُوا : رَبَّنَا ، غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ، وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ . رَبَّنَا ، أَخْرِجْنَا مِنْهَا ، فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ —٣— . قَالَ : اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا ، فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي ، وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ —٤— . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا : أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
نفخ فى الصور	أعلم الناس بيوم البعث ، أو نفخ فى البوق .
فلا أنساب بينهم	فلا مفاخرة بالأنساب ، ولا تراحم ولا تعاطف بينهم .
ولا يتساءلون	ولا يسأل بعضهم بعضاً ، لاشتغال كل امرئ بنفسه .
فمن ثقلت موازينه	فمن رجحت حسناته على سيئاته .
ومن خفت موازينه	ومن رجحت سيئاته على حسناته .
تلفَح وجوههم النار	تُحرق وجوههم النارُ .
وهم فيها كالحون	وهم فى النار عابسون ، قد تقلصت شفاههم ، وبدت أسنانهم .
شِقوتنا	شقاوتنا — وهو اسم هيئة .
اخسئوا فيها	ذِلّوا وانزجروا انزجار الكلاب ، والخَسْء : الزجر والطرد .
ولا تكلّمون	ولا تكلمونى فى رفع العذاب عنكم .
فريق من عبادى	هم أهل الصُّفَّة الفقراء من المسلمين .
أنسَوْكم ذكرى .	تركتم ذكرى من فرط اشتغالكم بالاستهزاء .

مجمل المعنى

١ — فإذا أُعلن الناس بيوم البعث — وعبر الله عن هذا الإعلان بالنفخ فى البوق ، وهو تمثيل وتصوير لبعث الناس من قبورهم وعرضهم للحساب ، واستجابتهم للدعوة مُهطِعين مُسْرعين ، وقد صاح فيهم بوق عظيم ،

كما يستجيب الجنود فيهبون من نومهم ، حين ينفخ أحدهم فى بوقه نفخة تسمى نوْبة الاستيقاظ ، أو أن يأمر الله إسرافيل أن ينفخ فى البوق — إذا حدث هذا ، هَبَّ الموتى من قبورهم ، بعد أن تجمعت بقدرة الله تعالى أجزاؤهم ، ودبت الحياة فى أبدانهم ، وهُرِعوا إلى الموقف حفاة عراة ، لا فاضل بينهم ولا مفضول ، ولا فرق بين ملك وسوقة ، يستوى فيهم الرفيع والوضيع ، ولا ينفع أحداً منهم رفعةُ نسبه ، ولا ماله ونشبه ، ويزول التعاطف والتراحم فيما بينهم من فرط الحيرة ، واستيلاء الدهشة ، بحيث يفرّ المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وزوجته وبنيه ، ولا يسأل أحد منهم آخر عن حاله ، لاشتغال كل امرئ بنفسه عن حال غيره ، يقولون : يا ويلنا ! مَن بعثنا من مرقدنا ؟ ولا تناقض بين قوله هنا : «ولا يتَساءلون» ، وبين قوله فى سورة « الصافات » : «وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » ، لأن هذا التساؤل يكون بعد الحساب .

٢ — فمن كانت له عقيدة صحيحة ، وأعمال صالحة ، يكون لها عند الله قَدْر ووزْنٌ ، وحسنات وافرة ترجحُ سيئاته ، فأولئك هم الفائزون بالنجاة ودخول الجنة ؛ ومن لم يقم الله لأعمالهم وزناً ، ولم يجعل لها قدراً ، ورجحت سيئاتهم على حسناتهم ، فأولئك هم الذين خسروا أنفسهم ، وغبنوها بتعطيلها عن العمل لما يُرضى الله سبحانه وتعالى ، وانغمسوا فى الآثام والمعاصى ، فكانت النار مثوًى لهم ، يستقرّون فيها على قدر ما اجترحوا من السيئات ، فتحرق وجوههم كما تحرق أبدانهم ، وهم من شدة الاحتراق تتقلص شفاههم ، وتبدو أسنانهم ، كما يبدو هذا فى رءوس الأنعام المشويَّة .

٣ — ويقال لهؤلاء العصاة تعنيفاً وتأنيباً ، وتذكيراً لهم بما استحقوا العذاب من

أجله : ألم تكن آياتى الدالة على ما يؤدى إلى هدايتكم ورشادكم تتلى عليكم ، وفيها وعيد لمن ضل سواء السبيل ، فكنتم تعرضون عنها ، وتكذبون بها ؟ فيقولون : لقد غلبت علينا شقاوتنا التى اقتضاها سوء استعدادنا ، وفساد فطرتنا ، فانغمسنا فى اللذات المحرمة ، وكنا قوماً ضالين عن الحق والهدى ، ربنا ، أخرجنا من النار إلى دار الدنيا ، فإن عدنا إلى المعاصى فإنا ظالمون نستحق أشد الجزاء .

٤ — فيقول لهم المولى على لسان مالك خازن النار وملائكة العذاب : لاقوا الذل والهوان أيها العصاة المجرمون ، وانزجروا انزجار الكلاب ، ولا تكلمونى فى رفع العذاب عنكم ، فليس المقام مقام سؤال ، أوَ لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من انتقال من الدار الفانية إلى الدار الباقية ؟ — أوَ لم نعمركم فى الدنيا ما يتذكر فيه من تذكر ؟ إنه كان فريق من عبادى الصالحين الفقراء — وهم أهل الصُّفَّة الذين سبق الكلام عنهم فى الصفحة ٣٨ من تفسير الجزء الثالث — يقولون : ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خير الراحمين ، فعاملتموهم أسوأ معاملة : اتخذتموهم هزواً وسخرية ، حتى تركتم ذكرى ووعيدى لكم بالعذاب الأليم من فرط انهماككم فى الاستهزاء والسخرية بعبادى ، ولم تخافوا بطشى بسبب احتقاركم أوليائى ، وكنتم منهم تضحكون استهزاء وسخرية ، فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، إنا نسيناكم ، وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » .

٥ — إنى جزيت عبادى هؤلاء الصالحين بالنعيم المقيم فى الجنة ، بسبب إيمانهم وصبرهم على أذاكم ، يلقون فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

(١٢)

من الآية ١١٢ من سورة المؤمنون إلى آخر السورة

قَالَ : كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا : لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ –١– قَالَ : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ، لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ –٢– أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً ، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ؟ –٣– فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ! –٤– وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ، فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ –٥– . وَقُلْ : رَبِّ ، اغْفِرْ وَارْحَمْ ، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ –٦– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
كم لبثتم فى الأرض عدد سنين .	كم مكثتم فى الدنيا أحياء عدداً من السنين ؟
لبثنا يوماً أو بعض يوم	استقصر الكفار مدة لبثهم أحياء فى الدنيا ، لهول ما لاقوه من العذاب فى الآخرة .

الألفاظ	شرحها
فاسأل العادّين	فاسأل الملائكة الحفظة ، الذين كانوا يعدّون أعمارنا ، ويحْصون أعمالنا .
إن لبثتم إلا قليلا	ما لبثتم إلا قليلا ، بالنسبة لطول مكثكم فى النار .
لو أنكم كنتم تعلمون	لو أنكم كنتم من أهل العلم والتفكر ، لعلمتم قِصَر أيام الدنيا .
عبثاً	للعبث والتلهى بوجودكم فى الدنيا .
لا برهان له به	لم يقم دليل له بأنه يستحق الألوهية .
حسابه عند ربه	جزاؤه عند ربه .

نقـاش

النقاش الآتى يحدث يوم القيامة ، ذكر بصيغة الماضى ، للدلالة على تحقق وقوعه .

مجمل المعنى

١ – قال الله للكفار على لسان مالك توبيخاً لهم ، لأنهم كانوا يزعمون أن لا حياة إلا حياة الدنيا ، فلما أحياهم الله وعذّبهم بالنار سئلوا : كم مكثتم من السنين فى الأرض أحياء فى الدنيا التى تريدون الرجوع إليها ؟ قالوا لهول ما رأوا من العذاب ، استقصاراً لمدة مُكثهم فى الأرض ، بالنسبة إلى مدة وجودهم فى النار : لبثنا يوماً أو بعض يوم – شكّوا فى مدة مكثهم فى الدنيا من السنين ، واستقصروها بالنسبة إلى مدة وجودهم

فى النار ، لأن الحياة الدنيا كانت حياة لهو ولعب ، وأيام السرور قصار ، والإنسان يستقصر عادة أيام الدَّعة ، ويستطيل أيام المحنة — وقالوا لمالك : إن أردت تحقيق مدة مكثنا فى الدنيا ، فاسأل الملائكة الحفظة الذين كانوا يعدون أعمارنا ، ويحصون أعمالنا ، فإنا لما نحن فيه من العذاب مشغولون عن تذكرها وإحصائها .

٢ — فيرد الله عليهم على لسان مالك : نعم ما لبثتم فى الدنيا إلا قليلا ، لو أنكم كنتم من أهل العلم والتدبر والفكر ، لعلمتم قصر أيام الدنيا ، وعملتم بموجب علمكم ، وما اغتررتم بها وعصيتم ، ولم يصدر منكم ما يستوجب بقاءكم فى النار ، فصدقهم الله فى استقلال أيام الدنيا ، ووبخهم على غفلتهم التى كانوا عليها فيها .

٣ — أفحسبتم أيها العصاة المتمردون أننا خلقناكم للتلهى بكم ، وأننا نهمل أمركم ، فلا ثواب ولا عقاب للطائعين والعاصين ، وأنكم إلينا لا ترجعون للحساب والجزاء ؟ كلا ! لم نخلقكم عبثاً ، وإنما خلقناكم لنكلفكم أداء العبادات ، ثم ترجعون إلينا من دار التكليف إلى دار الجزاء ، فنثيب المحسن ونعاقب المسىء ، ونظير هذا قوله تعالى : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى؟ » .

٤ — فتعالى وتعاظم مقدار الله عن اللهو والعبث وغيرهما عما لا يليق به ، وهو الملك وما عداه مملوك له ، وهو الحق الحقيق بالملك ، وكل شىء منه وإليه : بدءا وإعادة ، وإثابة وعقاباً ، لا إله إلا هو ، وكل ما عداه عبيد له ، رب العرش الكريم الذى يحيط علمه بجميع الأجرام علويها وسفليها ، وتصدر منه الرحمة والبركة .

٥ — ومن يعبدْ مع الله إلهاً آخر ، لم يقم أى دليل على استحقاقه للعبادة ، فإنما

جزاؤه عند ربه ، يجازيه بما يستحقه ، ويكون مصيره النار وبئس القرار ، والكافرون لن يكون نصيبهم الفوز والفلاح ، لتمردهم وعصيانهم .

٦ — وقل أيها الرسول : أفِضْ علينا يا ربنا من مغفرتك ورحمتك ، فإنهما العاصمان من المخاوف ، وأنت خير غافر وراحم ، فإذا أدركت رحمتك أحداً أغنته عن رحمة غيره ، ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمتك .

سُورةُ النُّور

نزلت بالمدينة وآياتها ٦٤ آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية الثالثة

سُورةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ، وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ —١— ، الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ —٢— وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ —٣— الزَّانِى لاَ يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، وحُرِّمَ ذٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فرضناها	فرضنا ما فيها من الأحكام .
الزانى لا ينكح إلا زانية	الزانى فى الأعم الأغلب لا يتزوج إلا زانية .

مجمل المعنى

١ — هذه سورة أنزلناها ، وفرضنا ما بها من الأحكام ، وأنزلنا فيها آيات واضحات الدلالة ، لعلكم تتعظون فتتقوا المحارم .

٢ — الزانية والزانى الحرّان البالغان العاقلان المؤمنان غير المتزوجين ، فاجلدوا أيها الولاة والأئمة كل واحد منهما مائة جلدة ، جلداً غير مبرّح ، لأن هلاكه غير مقصود ، بسوط لا شديد ولا لين ، ولا عقدة فيه ولا فرع له — والأفضل أن يكون الجلد على الظهر ، ولا يجوز أن يكون الجلد على الوجه ، أو على موضع يفضى إلى موت المجلود — ويكون على الرقيق نصف هذا الحد ، لقوله تعالى حكاية عن الإماء : « فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » ، وحكم العبد حكم الأمة ، أما المتزوج من الزناة فيرجم بالحجارة حتى يموت ، بشرط أن يكون بالغاً عاقلا مؤمناً متزوجاً زواجاً صحيحاً ، قد دخل بزوجته .

٣ — ولا تأخذكم أيها المؤمنون بأحد من هؤلاء الزناة رحمة أو شفقة فى حكم الله وإقامة حده ، بأن تعطلوه أو تتسامحوا فيه لشفاعة أو جاه ، إن كنتم

تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فإن الإيمان يقتضى الجدّ في طاعة الله ، وإقامة حدوده وأحكامه ، وليحضُرْ عذاب الزانى والزانية من جلْد أو رجم طائفة من المؤمنين ، زيادة فى التنكيل بهما ، وإشاعة لفضيحتهما ، ليكونا عبرة لغيرهما ، وأقل الشهود — على الأرجح — أربعة من المؤمنين ، لأن الفاسق يكون أكثر خجلا أمام الصُّلَحاء ، أما الفُسّاق فلا يَعتدّ الزانى بحضورهم ، لأنهم أشباهه فى الفسق ، فلا يخجل منهم .

٤ — والأغلب والأعم ، أن الزانى الفاسق الخبيث ، الذى شأنه عصيان الله وارتكاب هذا المنكر ، لا يرغب فى تزوج الصوالح العفيفات من النساء ، وإنما يرغب فى فاسقة خبيثة مثله ، أو فى مشركة ، لأن الطيور على أشكالها تقع ، والزنى عديلُ الشرك فى القُبْح ، ولذا ضُمت المشركة إلى الزانية ، لأنها ليس لها من دينها ما يردعها ، كما أن التعفف عديل الإيمان ؛ والزانية الخبيثة البغىّ لا يرغب فى زواجها الصلحاء الأعفاء من الرجال ، وإنما يرغب فيها مَن يلائمها فى طباعها من الفسقة والمشركين ، فالمشاكلة بينهما هى علة الألفة والانسجام ، وحُرّم مثل هذا الزواج على المؤمنين ، لأن فيه تشبهاً بالفساق ، وتَرْكَ الرغبة فى الصوالح ، ولأنه يؤدى إلى سوء السُّمعة ، والطعنُ فى النسب ، ولأن البغايا قد تعودن الشَّبَق — طلب الوطء — وغير ذلك من المفاسد .

(٢)

من الآية الرابعة إلى الآية العاشرة من سورة النور

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ، ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ، إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا ، فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ —١— ، وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ ، فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللّٰهِ : إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، وَالْخَامِسةُ : أَنَّ لَعْنَةَ اللّٰهِ عَلَيْهِ ، إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللّٰهِ : إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . وَالْخَامِسَةَ : أَنَّ غَضَبَ اللّٰهِ عَلَيْهَا ، إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ —٢— وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ، وَأَنَّ اللّٰهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يرمون المحصنات	يتهمون العفيفات من النساء، والأعفاء من الرجال بالزنى .
الفاسقون	الخارجون عن طاعة الله .
وأصلحوا	وأصلحوا أعمالهم بالعزم على ألا يعودوا إلى اتهام الأبرياء .
يدرأ	يدفع

مجمل المعنى

١ — كل من كان عاقلا بالغاً، وقَذَف بالزنى العفيفات الحرّات البالغات، العاقلات المسلمات، اللاتى لَسْنَ زوجات لهم، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء يشهدون على صحة ما اتهموهنّ به، على أن تكون شهادتهم نتيجة مُعاينة، كالمِروَدِ فى المُكْحُلة — فاجلدوهم ثمانين جلدة، ولا فرق فيمن يُتهم بالزنى أن يكون رجلا أو امرأة، وتخصيص النساء بالذكر فى الآية، وإن كان الرجال يشاركونهن فى هذا الحكم، لأن اتهام النساء أغلب وأشنع، وقد جعل الله الشهود على الزنى أربعة تغليظاً على المدعى، وستراً لعباده من الفضيحة، فإن اضطرب واحد منهم فى شهادته، جلد الثلاثة الذين شهدوا، ولا تُقبل لمن قذفوا بعد جلدهم أية شهادة أبداً، لأنهم مفترون كاذبون، وأولئك هم الخارجون عن طاعة الله، لاختلاقهم هذا الأمر الذى يخدش الشرف، ويهدر الكرامة، إلا الذين تابوا مما اقترفوا من تلك الذنوب العظيمة، واستغفروا ربهم، وعزموا على ترك العودة إلى

مثله ، وأصلحوا أعمالهم بالاستسلام للحدّ ، والاعتراف بالخطأ ، فإن الله لكونه غفوراً رحيماً يغفر لهم ، ويقبل توبتهم ، ويُسْدِل عليهم واسع رحمته ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ومن لا ذنب له فهو مقبول الشهادة .

٢ — هذا الحكم السابق خاص بمن يرْمون الأجانب عنهم بالزنى ؛ والذين يرمون زوجاتهم بهذه التهمة ، ولم يكن لهم شهداء عليهن إلا أنفسهم ، يشهدون بما اتهموهنّ به ، فشهادة أحدهم التى ترفع عنه حدّ القذف —وهو ثمانون جلدة — أربع شهادات بالله : إنه لمن الصادقين فيما اتَّهم به زوجته ، والشهادة الخامسة قوله : لعنةُ الله عليه إن كان من الكاذبين فى اتهام زوجته ، ويدفع عن الزوجة حد الزنى الذى اتهمها به الزوج ، أن تشهد بالله أربع شهادات : إن زوجها لمن الكاذبين فيما رماها به ، والشهادة الخامسة : أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فى اتهامه إياها .

اللِّعان أو الملاعنة

ويسمى الشرع اتهام الزوج للزوجة بالزنى ، ودفاع الزوجة عن نفسها على هذا النحو : لعاناً أو مُلاَعنة ، وهو : شهادات مؤكدة بالأيمان ، مقرونة باللّعن ، تقوم مقام الشهود فى قذف الأجانب ، وتحضر الزوجة مجلس اللّعان لدفع عار الزنى عنها ، ويستحسن أن يكون اللعان فى المسجد الجامع بعد العصر ، فى حشد من الناس ؛ ويترتب على اللّعان الفرقة بين الزوجين فرقة طلاق بائن ، فلا يجتمعان أبداً ولا يتوارثان .

وكيفية اللعان أن يكلف الحاكم أو من يقوم مقامه الزوجَ أن يقول : أشهد بالله : لقد رأيت فلانة بنت فلان زوجتى هذه تزنى ، ورأيت فرج الزانى

فى فرجها كالمرود فى المكحلة ، وما وطئتها بعد رؤيتى لها وهى تزنى ، يردد هذا أربع مرات ، ويقول فى كل شهادة ، وإنى لمن الصادقين فيما قلته عنها ، ثم يقول فى الشهادة الخامسة : وعلىّ لعنة الله إن كنت كاذباً فيما ذكرت عنها ؛ وإن أراد أن ينفى ما قد تكون حاملا به ، قال : أشهد بالله لقد استبرأتها بالحيض ، وما وطئتها بعد الاستبراء ، وليس هذا الجنين منى ، ويكرر هذا مع كل يمين من أيمانه الأربع ، إن صح عنده ما يقول ، فإن قال ذلك كلّه سقط عنه الحد ، وانتفى عنه نسبة الولد إليه ، فإذا فرغ الرجل ، قامت المرأة فقالت : أشهد بالله إن زوجى هذا لمن الكاذبين فيما ادعاه وذكره عنى ، ثم تقول فى الخامسة : وعلىّ غضب الله إن كان من الصادقين فى قوله هذا ؛ وقد جعل الله اللّعن فى شهادة الرجال ، والغضب فى شهادة النساء ، لأن النساء يستعملن اللعن كثيراً فى حديثهن ، فربما يجترئن عليه ، لكثرة جريانه على ألسنتهن .

سبب نزول هذه الآيات

وسبب نزول هذه الآيات الأخيرة ، أن عاصم بن عدىّ الأنصارى ، قال بعد أن نزل قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » — قال : إن دخل منّا رجل بيته ، فوجد رجلا على بطن امرأته ، فإن جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك ، فقد قضى الرجل حاجته وخرج ، وإن قتله قُتِل به ، وإن سكت سكت على غيْظ ، اللهمّ بيّن لنا بياناً شافياً ، وكان لعاصم ابنُ عم له يقال له عُوَيمر ، وله امرأة يقال لها : خوْلةُ بنت قيس ، فأتى عوَيْمِرٌ عاصما ، فقال له : رأيت شريك بن سَحْماء — وهى أمه ، سمَيت بذلك لسوادها — على بطن امرأتى خولة ، فقال عاصم : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا رسول الله : ما أسرع

ما ابتُليت به فى أهل بيتى ! فقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام : وما ذاك ؟ فقال عاصم : أخبرنى عُوَيمر ابن عمى أنه رأى شريكَ بن سحماء على بطن امرأته خولة — وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بنو عم عاصم — فدعا رسول الله بهم جميعاً ، وقال لعويمر : اتق الله فى زوجتك ابنة عمك وشريك بن سحماء ابن عمك ، ولا تقذفهما ، فقال عويمر : يا رسول الله ، أقسم بالله أنى رأيت شريكاً على بطن خولة ، وأنى ما قرِبتها منذ أربعة أشهر ، وأنها حُبلى من غيرى ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خولة ، وقال لها : اتقى الله ، ولا تخبرى إلا بما صنعتِ ، فقالت : يا رسول الله ، إن عويمراً رجل غيور ، وإنه رأى شريكاً يطيل النظر إلىّ ، ويتحدث معى ، فحملته الغيرة على ما قال ، فأنزل الله قوله : « والذين يرمون أزواجهم ... » ، فلما كان وقت العصر ، نودى : الصلاة جامعة ، وبعد صلاة العصر قال لعويمر : قم واشهد بالله إن خولة لزانية ، وجرى ما سبق ذكره فيما سبق ، ثم فرق رسول الله بينهما .

٣ — ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وقبوله التوبة منكم ، وحكمته فى جميع أفعاله وأحكامه ، التى من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان ، لأصابكم ضرر عظيم ، فلو لم يُشْرع حكم اللعان ، لوجب على الزوج حد القذف ، مع أن الغالب أن يكون صادقاً ، ولو لم يجعل الله عقوبة القذف عقوبة رادعة ، ولو لم يقرر له من الشهادات ما يكفّ استهتار ذوى الأغراض السيئة عن قالة السوء ، وإذاعة الفضائح عن ربّات الخدور ، لأدّى هذا إلى إهدار الكرامات ، وخدش شرف الأعفاء والعفيفات .

(٣)

من الآية ١١ إلى الآية ٢٠ من سورة النور

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ -١- ، لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ، وَقَالُوا : هَٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ! -٢- لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ! فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ ، فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ -٣- وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ، وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ، وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ : مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ! سُبْحَانَكَ ! هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ -٦- ، إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ، لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ، وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بالإفك	بأسوأ أنواع الكذب والبهتان على عائشة رضى الله عنها .
عصبة منكم	جماعة منكم ، إما من المؤمنين ، أو ممن يتظاهرون بالإيمان نفاقاً .
لاتحسبوه شرًّا لكم	الخطاب لرسول الله وأبى بكر وعائشة وصفوان .
بل هو خير لكم	بل هو خير لكم ، لاكتسابكم الثواب على صبركم ، وظهور براءة عائشة وصفوان .
تولّى كِبره	تحمل نشر معظم هذا الإفك ، وهو عبدالله بن أبىّ بن سلول .
لولا إذ سمعتموه	هلا حين سمعتم هذا الإفك .
لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء	هلا جاء أفراد العصبة بأربعة شهداء .
أفضتم فيه	خضتم فيه وتقولتم .
تلقّونه بألسنتكم	تتلقونه بألسنتكم ، بأن يرويه بعضكم عن بعض .
وتقولون بأفواهكم	وتقولون بأفواهكم ما ليس فى قلوبكم .
ما ليس لكم به علم	ما ليس لكم يقين بحدوثه .

الألفاظ	شرحها
ولولا إذ سمعتموه قلتم	هلا قلتم حين سمعتموه .
ما يكون لنا أن نتكلم بهذا	ما ينبغى لنا أن نتكلم بهذا .
سبحانك	ننزهك أن تقدِّر على حرم رسولك الزنى ! .
أن تشيع الفاحشة	أن ينتشر العمل القبيح بألسنتهم .

حديث الإفك

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج للغزو أقرع بين نسائه ، فأيتُهن أصابتها القرعة خرجت معه ، فلما كانت غزوة بنى المصْطلقِ سنة ٦ للهجرة — وهم بطن من خزاعة يقيمون على مقربة من مكة — أصابت القرعة أمَّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وكانت لا تزال حديثة السن ، وكانت نحيفة هزيلة ، فلما فرغ رسول الله من غزوته ، وانتصر على أعدائه ، أراد العودة إلى المدينة ، والطريقُ إليها وعْرٌ شاقٌّ طويل ، فلما وصل قريباً من المدينة ، نزل مكاناً قضى فيه بعض الليل ، ثم أذّن فى الناس بالرحيل ، واتفق أن كانت عائشة خرجت من خيْمة رسول الله لبعض حاجتها فى خارج المُعسْكر ، فانقطع من عنقها عِقد من خرز ظفار : (مدينة باليمن) ، ولم تشعر به ، فلما أرادت العودة إلى الخيمة ، التمست فى طريقها إليها العقد فلم تجده ، فعادت تبحث عنه فى الظلام حتى وجدته ، واستغرقت فى البحث بعض الوقت ، فلما عادت إلى المعسكر ، وجدت القوم قد رحلوا ، وظنّ من حملوا هودجها على البعير أنها فيه لنحافتها ، فلم تجد عائشة بدًّا من البقاء حيث هى ، وأيقنت أن القوم إذا افتقدوها فلم يجدوها رجعوا إليها ، وغلبها النوم فتلففت بجلبابها وملاءتها ونامت ،

وبينما هى مستغرقة فى نومها، منتظرة من يأتى ليبحث عنها ، مَرَّ بها صفوان بن المعطَّل السُّلَمى على بعيره، حين تنفس الصبح ، وكان قد تخلَّف عن الجيش ليلتقط ما قد يسقط من أمتعة المسلمين فيأتيهم به ، فرأى سواد إنسان نائم ، فتفرس فيه فإذا هو عائشة، وكان يعرفها قبل نزول آية الحجاب ، فعراه الدهش ، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فاستيقظت عائشة على سماعها استرجاعه ، فسألها عن سبب تخلفها فلم تجب ، وغطت وجهها بمُلاءتها، فقدَّم لها بعيره ، وتأخر عنه حتى ركبت ، لم تُكلِّمه ولم يكلِّمها ، وانطلق البعير يقوده صفوان ، فلم يُدرك الجيش إلا فى المدينة ، ورأى الناس صفوانَ مُقبلا ، وعائشة على ظهر بعيره فى وَضَح النهار ، فلما بلغت عائشة منزلها ترجَّلت ، ودخلت منزلها ، ولم يخطر ببال أحد من المسلمين مَظِنةُ سوء فى زوجة رسول الله ابنة أبى بكر ، أو فى صفوان .

أخذت حَمْنَة بنتُ جحش ، بنتُ عَمَّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تُذيع ما يتهامَسُ به الناس من أمر عائشة ، ومجيئها مع صفوان حَسَداً لها ، لما كانت تجده من إيثار النبي لعائشة على أختها زينب ضَرَّتها ، ووجدت من حسَّان بنِ ثابت الشاعر عوناً ، ومن علىٍّ بن أبى طالبٍ سَميعاً ، ووجد عبد الله بن أبىّ بن سَلول فرصة سانحة للنَّيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عِرْضه ، فكان يجمع الناس ويقول لهم : والله ما نَجت عائشة من صفوان ولا نجا منها ، وبسط مِسْطَحُ ابنُ خالة أبى بكر رضى الله عنه لسانه بالسوء ، وكاد الحديث عن عائشة يؤدى إلى فِتْنة .

بلغت هذه الهمسات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهاله الأمر ، وحار فى أمره ، ما يَدرى : أيصدِّق أم يكذِّب ؟ أما عائشة فلم يجرُؤ أحد أن يبلِّغها ما يتهامس به الناس ، وإن كانت قد أنكرت فى نفسها من رسول الله جَفوة

لم تتعودها ، واتفق أن مرضت ، فكان إذا دخل عليها وعندها أمها ، لم يزد على قوله : « كيف تيكم ؟ » ، وفى إحدى مرات زيارته لها ، استأذنت منه أن تنتقل إلى بيت أبيها لتمرضها أمها ، فأذن ، واستمرت مريضة بضعاً وعشرين ليلة ، فلما نقهت ، خرجت فى إحدى الليالى لقضاء حاجتها ، ومعها أم مِسْطح خالة أبيها — ولم تكن العرب تعرف المراحيض فى منازلها — فعثرت أم مسطح ، فقالت : تعس مِسطح ! فقالت لها عائشة : بئس والله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بَدْراً ، فقالت أم مِسْطح : أوَما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟ قالت عائشة : وما الخبر ؟ فأخبرتها أم مِسْطح بما يقوله أهل الإفك ، فما كادت أم مِسْطح تتم حديثها ، حتى سقطت عائشة مغشياً عليها ، ولم تقدر أن تقضِىَ حاجتها من فرط ما أصابها من الغم ، وصار لا يَرْقأ لها دمع ، ولا يغمض لها جفن ، ولامت أمها على إخفاء الخبر عنها ، فقالت لها : هونى عليك يا بنية ، فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة قط عند رجل ولها ضرائر ، إلا كثَّرن عليها .

واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً كرم الله وجهه ، وأسامة بن زيد رضى الله عنه ، فأما على ، فقد قال : يا رسول الله ، لم يضيِّق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل جاريتها تصدُقْكَ ، وأما أسامة فنفى عن عائشة كل ريبة ؛ واستدعى رسول الله بُرَيرة جارية عائشة ، فقالت : والله ما أعلم عنها إلا خيراً ، وما كنت أعيب عليها إلا أنى كنت أعجن عجينى ، فأطلب منها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتى الشاة فتأكله .

لم يبق إلا أن يواجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها ، فدخل عليها وعندها أبوها وأمها وامرأة من الأنصار ، وكانت تبكى بكاء مُرًّا ، والمرأة تبكى معها ، فقال لها : يا عائشة ، إنه قد بلغنى عنكِ كذا وكذا ،

فإن كنت قد قارفت سوءاً فتوبى إلى الله ، فإنه يقبل التوبة من عباده ، فما انتهى من كلامه حتى ثار فى عروقها دَمُها ، وجفّ من عينيها دمعُها ، والتفتت إلى أبيها وأمها تنتظر بماذا يجيبان ، فلم يجيبا بكلمة ، فازدادت ثورةُ نفسها ، وصاحت بهما : ألا تُجيبان؟ فقالا : والله ما ندرى بماذا نُجيب؟ فاشتد بكاؤها ، ثم التفتت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى تبكى ، وقالت له : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرتَ أبداً ، وإنى أعلم : لئن أقررتُ بما يقوله الناس — والله يعلم أنى بريئة منه — لأقولن ما لم يكن ، ولئن أنكرت لا تصدقوننى ، وإنما أقول كما قال أبو يوسف — وغاب عنها اسم يعقوب لشدة ما بها — : فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون ، ولم يلبث رسول الله أن تغشّاه من الوحى ما يتغشّاه ، فلما سُرِّىَ عنه قال : أبشرى يا حُمَيراء ، فقد أنزل الله براءتك ، فقالت : الحمد لله ، فقالت لها أمها : قومى إليه واحْمديه ، فقالت عائشة : والله لا أقوم ، ولا أحمد إلا الله الذى أنزل براءتى ، ثم خرج رسول الله إلى المسجد فألقى على المسلمين ما أنزله الله فى براءة عائشة ، وهو قوله : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم . . . » ، وأمر بمسطح بن أثالة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، فجُلد كلٌّ منهم ثمانين جلدة ، وحلف أبو بكر ألا ينفق على ابن خالته مِسطح ، وكان من فقراء المهاجرين .

مجمل المعنى

١ — إن الذين جاءوا بأسوأ ما يكون من الكذب والبهتان على عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها — وهو قذفها بصفوان بن المعطل السّلمى — هم جماعة من المؤمنين أو ممن يدعى الإيمان ، فلا تحسبوا يا من يمسكم هذا الإفك — كرسول الله وعائشة وصفوان وأبى بكر — لا تحسبوه شرًّا لكم ، بل هو

خيرٌ لكم ، لاكتسابكم به الثواب العظيم على صبركم وتألمكم ، ولظهور كرامتكم على الله ، بإنزال عدة آيات فى دفع ما اختلقه الخرّاصون ، ولتعظيم شأنكم ، ولتهويل الوعيد لمن اجترأ عليه ، لكل امرئ جزاء على ما اكتسب من الإثم على مقدار خوضه فى هذا الإفك ، والذى تولى معظم إذاعة هذا الإفك من هذه العُصبة ، فأكثر من الخوض فيه لينال من رسول الله فى عرضه ، وهو عبد الله بن أبىّ بن سلول رأس المنافقين ، له عذاب عظيم فى الدنيا ، بإعلان نفاقه على رءوس الأشهاد ، وفى الآخرة بنار جهنم ، يصلاها مذموماً مدحوراً .

٢ — هلا حين سمع المؤمنون والمؤمنات هذا الإفك ، ظن بعضهم بأنفُس البعض الآخر الذين منهم خيراً — لأن الإيمان يقتضى من المؤمنين أن يتثبتوا إن جاءهم فاسق بنبأ ، وأن يحسنوا الظن بإخوانهم المؤمنين ، وأن يكفّوا عن الطعن فيهم ، وأن يذُبّوا الطاعنين عن إخوانهم ، كما يذبون عن أنفسهم — وقالوا : هذا بهتان بيِّن ، واختلاق واضح ، لا يليق بالمؤمنين ، فكيف بعائشة أم المؤمنين ، وزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

٣ — هلا جاء الأفاكون المفسدون على بهتانهم بأربعة شهداء ، يشهدون على صحة اتهامهم بمعاينة ما قذفوا به ، على حسب ما يوجبه الشرع ، فإن لم يأتوا بالشهداء ، فأولئك فى حكم الله هم الكاذبون ، فإن ما لا دليل عليه كذب وافتراء .

٤ — ولولا فضل الله عليكم فى الدنيا بأنواع النعم ، وإمهالكم لتتوبوا عما اقترفتم ، وفى الآخرة بالعفو والمغفرة عن آثامكم ، لمسكم أيتها العُصبة عاجلا عذاب عظيم ، بسبب ما خضتم فيه ، يُستصغَر دونه أى جلد ، إذ أنكم تتناقلون

هذا الإفك بألسنتكم ، ويرويه بعضكم عن بعض ، وتقولون قولا بالأفواه لا يستند إلى يقين أو دليل ، وتتحدثون به من غير تحقق ، وتظنون الخوض فى أمر عائشة سهلا هيناً ، لا إثم عليه ولا تبعة فيه ، وهو عند الله عز وجل عظيم ، يستحق أشد العقاب .

٥ — هلا قلتم حين سمعتم هذا البهتان ، ما ينبغى وما يصح لنا أن نتكلم بهذا ، فإنا ننزه الله أن تكون حرم رسوله زانية ، وإن قذف الناس محرم شرعاً ، فكيف إذا كان متعلقاً بزوجة رسول الله بنت الصديق أبى بكر ، هذا بهتان عظيم .

٦ — يعظكم الله وينصحكم أن تعودوا لمثل هذا البهتان أبداً ، ما دمتم أحياء ، إن كنتم مؤمنين ، لأن فيه إيذاء للرسول فى عرضه ، ويبين الله لكم الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب ، كى تتعظوا وتتأدبوا بها ، والله عليم بأحوالكم جليلها وصغيرها ، حكيم فى صنعه وتدبيره .

٧ — إن الذين يحبون أن ينتشر ويفشو القول السيء ، والفعل القبيح فى الذين آمنوا ، لهم عذاب أليم فى الدنيا بحد القذف — وقد أصيب حسان ومسطح بالعمى — وعذاب أليم فى الآخرة بنار جهنم إن لم يتوبوا ، والله يعلم سركم ونجواكم ، وأنتم لا تعلمون شيئاً مما يحيط به واسع علمه .

٨ — ولولا فضل الله عليكم أيتها العصبة ، ورحمته بكم ، وأنه رءوف بعباده ، رحيم بهم ، غفار لمن تاب وعمل صالحاً ، لعاجلكم بأشد العقوبات .

(٤)

من الآية ٢١ إلى الآية ٣٦ من سورة النور

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ، وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ —١— وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ! وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ —٢— إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ —٣— ، الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ، وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ، وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ، أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الفحشاء	ما اشتد قبحه من الذنوب .
المنكر	ما أنكره الشرع ، وأنكرته النفوس العالية .
ما زكا	ما صلح ولا تطهر من دنس المعصية .
يزكى من يشاء	يطهر من يشاء بالتوبة .
ولا يأتل	ولا يحلف .
أن يؤتوا	ألا يعطوا .
المحصنات الغافلات	العفيفات اللاتى لا يخطر ببالهن ما رُمين به .
دينهم الحق	جزاؤهم العادل .
الخبيثات للخبيثين	الكلمات الرديئات لا تصدر إلا من خبثاء الرجال .
أولئك	أولئك الطاهرون الذى لا يصدر منهم ردىء القول .

مجمل المعنى

١ — يأيها المؤمنون ، لا تتبعوا مسالك الشيطان ومذاهبه التى يدعوكم إليها بإشاعة الفاحشة ؛ ومن يسلك طريق الشيطان ، ويُصغ إلى وساوسه ، كان عاصياً مثله ، لأن الشيطان يوسوس إلى من يستضعفهم ، فيوعز إليهم بارتكاب أقبح القبائح ، وما ينكره الشرع ؛ وتأباه النفوس الطاهرة ، فتنفر منه ولا ترتضيه ، كقذف عائشة رضى الله عنها ؛ ولولا فضل الله

عليكم أيها القاذفون ، ورحمته بكم بتوفيقكم إلى التوبة التى محت ذنوبكم ، وتشريع الحدود المكفرة لآثامكم ، ما صلح ولا تطهر من دنس المعصية أحد منكم ، ولا بلغ مبلغ رضا الله عنه ، ولكن الله اللطيف بعباده ، يطهر من يشاء من دنس الإثم ، بإفاضة فضله عليه ، فيحمله على التوبة ، ويقبلها منه رحمة وإحساناً ، والله سميع لما قلتم ، عليم بما قصدتم .

٢ — ولا يحلف ذوو الفضل منكم فى الدين ، والسعة فى المال — والمراد به أبو بكر رضى الله عنه — ألا يعطوا ذوى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ما تعودوه من النفقة عليهم ، لجناية ارتكبوها ، وليعفوا عما فرط منهم ، وليصفحوا بالإغضاء عما ارتكبوه ؛ ألا تحبون أن يغفر الله لكم فى مقابلة عفوكم وصفحكم ، وإحسانكم إلى من أساء إليكم ! والله غفور رحيم ، مع كمال قدرته على البطش بالمسىء ، فتخلقوا بأخلاقه ؛ وقد نزلت هذه الآية فى أبى بكر رضى الله عنه ، لما حلف ألا ينفق على ابن خالته مسطح — كما قدمنا — حين خاض مع من خاضوا فى الإفك ، وكان مهاجراً مسكيناً ، قد شهد بدراً ، وكان أبو بكر ينفق عليه ، بمقدار ما يحتاج إليه ، ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى بكر هذه الآية ، قال : بلى ؛ أحب أن يغفر الله لى ، وقد تجاوزت عما كان ، وأعاد إلى مسطح نفقته ، وكفَّر عن يمينه ؛ فإن من حلف ألا يفعل شيئاً ، ثم رأى أن فعله أولى لأنه خير ، فعله وكفر عن يمينه .

٣ — إن الذين يرمون العفيفات ، الغافلات عن قذفهن ، اللاتى لا يخطر ببالهن أن ينال أحد منهن ، النقيات السرائر ، المؤمنات بالله ورسوله ، رغبة فى استباحة عرضهن ، وانتهاك حرمتهن ، وطعناً فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كاللعين عبد الله بن أبىٍّ وأشياعه من المنافقين ، لعنوا فى

الدنيا والآخرة ، وطردوا من رحمة الله ، ولهم عذاب عظيم يوم القيامة ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ، بإنطاق الله إياها ، فتنطق كل جارحة بما صدر منها من أفعال صاحبها ، يومئذ يجازيهم الله الجزاء العادل الذى يستحقونه تامًّا وافياً ، ويعلمون أن هو الله الحق الظاهر الربوبية والسلطان ، القاهر فوق عباده ؛ وخصوص السبب لا يمنع من عموم اللفظ ، فيجوز أن يكون الحكم عامًّا شاملا ، يدخل فى نطاقه من رَمى عائشة أو غيرها بالبهتان ، كما هو ظاهر الآية .

٤ — الكلمات الرديئات من القول ، لا تصدر إلا من خبثاء الناس ، والخبيثون من الناس ، لا تصدر منهم إلا الكلمات الخبيثات ، والكلمات الطيبات من القول ، لا تصدر إلا من الطاهرين من الناس ، والطاهرون من الناس ، لا يصدر منهم إلا الكلمات الطيبات ، أولئك الطاهرون مبرءون مما يقوله القاذفون فى حق عائشة وصفوان ، ولهم مغفرة عظيمة ، ورزق كريم فى الجنة .

(٥)

من الآية ٢٧ إلى الآية ٢٩ من سورة النور

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ، ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ —١— . فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ —٢— . وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ : ارْجِعُوا ، فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ —٣— . لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
تستأنسوا	تستأذنوا من يملك الإذن من أهلها .
ذلكم خير لكم	الاستئذان خير لكم من عدم الاستئذان .
لعلكم تذكرون	لتذكروه وتعملوا به .
هو أزكى لكم	الرجوع خير لكم وأفضل .
جناح	ذنب ولوم .

الألفاظ	شرحها
غير مسكونة	غير معدة للسكنى ، كالدكاكين والفنادق .
متاع لكم	منفعة لكم .
تبدون	تظهرون .

آداب قررها الدين

قالت امرأة من الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، إنى أكون فى بيتى على حال لا أحب أن يرانى عليها أحد ، لا والد ولا ولد ، فيأتى الأب فيدخل علىّ ، وإنه لا يزال يدخل علىّ رجل من أهلى ، وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع ؟ فنزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ... » ، إلى قوله : « والله بما تعملون عليم » ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله ، أفرأيت الخانات والمساكن فى طريق الشام ، ليس فيها ساكن ؟ فأنزل الله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة . . . » .

مجمل المعنى

١ — يأيها المؤمنون ، لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم المعدة لسكنكم ، ولو كانت ملكاً لكم ، أو أعرتموها لغيركم ، أو كانت مسكناً لأقرب الناس إليكم ، إلا بعد أن تستأذنوا من يملك الإذن من أهلها قبل الدخول ، على حسب العرف الشائع بينكم ، كطرق الباب بغير عنف ، أو استعمال جرس التنبيه ، أو غير ذلك ، فإن تكرر الطرق على الباب ، أو استعمال

جرس التنبيه ثلاث مرات ، فلم يأذن لكم أحد ، فارجعوا ، فإن استعلم أحد عنكم ، فاذكروا اسمكم ولقبكم ، ولا تقولوا : أنا ، فإن أذن لكم بالدخول من يملك الإذن ، حَيِّيتم مَنْ يلقاكم حين دخولكم ؛ والاستئذان والتحية خير لكم ، ولعلكم تذكرونهما ، وتعملون بهما ، ولا يليق بكم أن تدخلوا منازل غيركم بدون استئذان ، مهما بلغت درجة القرابة بين الزائر والمزور ، فإن هذا يدل على قلة الذوق ، وسوء الأدب ، وقد روى أن عطاء بن يسار سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أأستأذن على أمى ؟ قال : «نعم» قال : إنى أخدُمها ، أفأستأذن كلما دخلت عليها ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتحب أن تراها عُريانة »؟ قال : لا ، قال : « إذن فاستأذن » .

٢ — فإن لم نجد أحدا يأذن لنا فى المنزل الذى نزوره ، فلا يجوز لنا أن ندخله حتى يأتى أحد من أهله ، ويسمح لنا بالدخول ، ما لم يكن هناك دافع ، كإطفاء حريق ، أو إغاثة مستغيث ، أو منع ارتكاب منكر .

٣ — وإن بدا لسكان البيت أن يعتذروا ، لعدم مناسبة الوقت للزيارة ، أو اشتغالهم بأمر خاصّ ، فينبغى ألا نلحّ فى الدخول ، أو نقف على الأبواب ، والرجوع خير وأفضل ، والله عليم بكل أعمالكم ، فيجازيكم عليها ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له ، فليرجع » ؛ والزيارة تؤدى إلى تقوية روابط المحبة والمودة بين الناس ، ولا سيما فى الأعياد والتهانئ ، وعند السفر والعودة منه ، وعند المرض والإبلال منه ، ويجب أن يختار لها الوقت المناسب ، فلا تكون فى وقت تناول الطعام ، أو فى وقت يظن فيه نوم المزور ؛ وينبغى أن يغض الزائر نظره عن كل ما يراه فى بيت المزور ، وإذا عُين للزائر وقت وجب على

الزائر أن يحافظ عليه ، وعليه ألا يطيل الجلوس ، ولا سيما فى عيادة المريض ، وعند ما يرى المزور يكرر النظر إلى ساعته ، وعليه أن يجلس فى الموضع الذى يليق بمثله .

٤ — ولا حرج عليكم أيها المؤمنون فى دخول الأمكنة التى ليست معدة للسكنى من غير استئذان ، وإنما هى معدة لمصالح الناس كافة ، كالحوانيت والمقاهى والفنادق ، إذا كان فى دخولها منفعة لكم ، كالشراء أو الجلوس أو المبيت ، والله يعلم سركم وإعلانكم ؛ وفى هذا وعيد لمن دخل مسكناً للفساد ، أو للاطلاع على عورات الناس .

(٦)

من الآية ٣٠ إلى الآية ٣١ من سورة النور

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ، وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ، ذَٰلِكَ أَزْكَى لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ —١— . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ، وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا —٢— . وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ، أَوْ آبَائِهِنَّ، أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ، أَوْ أَبْنَائِهِنَّ، أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ، أَوْ إِخْوَانِهِنَّ، أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ، أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ، أَوْ نِسَائِهِنَّ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ، أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ، أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ —٣— . وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ، وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يغضوا من أبصارهم	يكفوا عن النظر إلى من لا يحل لهم ، ومن : زائدة .
ويحفظوا فروجهم	ويحفظوا فروجهم عن الزنى ، بمباشرة من لا يحللن لهم .
ذلك أزكى لهم	غض الأبصار وحفظ الفروج خير لهم ، وأفضل وأطهر .
ولا يبدين زينتهن	ولا يظهرن زينتهن من جمال الخلقة والحلىّ والثياب ، والأصباغ وغيرها .
إلا ما ظهر منها	إلا ما لا بد من كشفه .
وليضربن بخمرهن	وليسترن بخمرهن ، وهى جمع خمار : وهو ما يوضع على الرأس : (الطرحة) .
جيوبهن	جمع جيب ، وهو الفتحة التى يلبس منها الثوب : (القَبة) .
لبعولتهن	أزواجهن .
إخوانهن	إخوتهن .
نسائهن	النساء المسلمات اللاتى على دينهن .
التابعين	الذين يتبعون الناس للحصول على فضل طعامهم .
غير أولى الإربة من الرجال	غير أولى المأرب إلى النساء من الرجال ، كالشيوخ الطاعنين فى السن .

الألفاظ	شرحها
الطفل	الأطفال ، يطلق على الواحد والجمع ، ومثله خصم وضيف .
لم يظهروا على عورات النساء	لم يَطّلعوا على عورات النساء لعدم تمييزهم .
ولا يضربن بأرجلهن	ولا تضرب النساء بأرجلهن عند مشيهن .
ليعلم ما يخفين من زينتهن	ليعلم ما خفى من زينتهن عندسماع رنينه ، كالخلخال

مجمل المعنى

١ — قل أيها الرسول للمؤمنين يكفوا أبصارهم عمن لا يحل لهم النظر إليهن من النساء ، ويحفظوا فروجهم عمن لا يحل لهم مباشرتهن ، محافظة على الأعراض والكرامات ، فإن غض الطرف وحفظ الفرج ، أنفع لهم وأفضل ، لما فيه من البعد عن الريبة وسوء السمعة ، وأطهر من دنس الإثم ، إن الله خبير بما تصنعون بأبصاركم وفروجكم ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا تُتبع النظرة النظرة ، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة » ، لأن هذه الأولى قد تأتى عفواً بدون قصد ، أما الآخرة فإن العين فيها زانية ، ويجوز النظر إلى الخطيبة ، فقد قال صلى الله عليه وسلم للمغيرة بن شعبة حين أخبره أنه خطب امرأة : « أنظرت إليها ؟ » قال : لا ، قال : « فانظر إليها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » .

٢ — وقل للمؤمنات يكففن أبصارهن عمن لا يحل لهن النظر إليهم من الرجال بغير داع برىء ، وغرض شريف ، ويحفظن فروجهن بالتعفف عن الزنى ، وعدم تدنيس أعراضهن ، وتلويث شرفهن ، ولا يبدين زينتهن من من جمال خلقتهن ، وما يتحلين به من حلىّ وثياب ، وكحل وأصباغ ، لمن لا يحل له رؤيتها ، إلا ما جرت العادة أن يكشف عنه ، كالوجه والكفين والقدمين ، عند مزاولة عمل ، أو تعاطى بيع أو شراء ، لأن فى سترها تضييقاً عليهن ، وبخاصة الفقيرات اللاتى يخرجن ابتغاء للرزق ، وإلا ما كان لضرورة ، كالمعالجة لدى طبيب أمين ، أو ما كشفت عنه الريح ؛ فإن كانت المرأة جميلة يخشى من كشف وجهها وكفيها الفتنة ، وجب سترهما ، أما سائر الأعضاء كالرأس والعنق والصدر والذراعين والساقين وغيرهما ، فلا يجوز الكشف عنها لأجنبى .

٣ — وعلى المؤمنات أن يسترن بخمرهن رءوسهن وأعناقهن وصدورهن ، ولا يظهرن زينتهن ومواضعها منهن ، كالصدر والرأس والساقين والذراعين ، إلا لمن يأتى ذكرهم ، لكثرة مخالطتهن للمرأة ، وعدم توقع الفتنة من هذه المخالطة ، وهم :

ا : أزواجهن ، لأنهم المقصودون بالتزين ، ولهم أن ينظروا إلى جميع أبدانهن ، غير أن النظر إلى الفروج لكل من الرجل والمرأة مكروه .

ب : أو آبائهن وإن علوا ، من جهة الآباء أو الأمهات ، كآباء الآباء وآباء الأمهات .

ج : أو آباء أزواجهن .

د : أو أبنائهن وإن سفلوا ، كأبناء البنين وأبناء البنات .

هـ : أو أبناء أزواجهن وإن سفلوا ، كأبناء البنين وأبناء البنات.

و : أو إخوتهن ، سواء أكانوا من الأب أم من الأم ، أم منهما .

ز : أو أبناء إخوتهن ، لأنهن عمات لهم .

ح : أو أبناء أخواتهن ، لأنهن خالات لهم ، والجمهور على أن الأعمام والأخوال كذلك ، وإن لم ينص عليهم .

ط : أو النساء المسلمات اللاتى على دينهن ، أما غير المسلمات فلا يجوز أن يتجردن أمامهن ، بل يبدين لهن ما يبدينه للأجانب فقط — إلا أن تكون غير المسلمة أمَة — لأن غير المسلمات ربما لا يتحرجن أن يصفن للرجال ما يجب ستره .

ى : أو ما ملكت أيمانهن من الإماء والعبيد ولو كانوا كفاراً ، وقد وهب رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة عبداً ، وكان عليها ثوب قصير ، فقال لها : « إنما هو أبوك وغلامك » .

ك : أو الذين يتبعون الناس للحصول على فضل طعامهم ، ولا مأرب لهم فى النساء ، إما لبلاهتهم ، وإما لأنهم شيوخ لا مطمع لهم فيهن ، وفى الخصى والعنّين خلاف ، ويدخل فى هذا الخدم الطاعنون فى السن .

ل : أو الأطفال الصغار الذين لم يطلعوا على عورات النساء ، ولم يميزوا بينها وبين غيرها من الأعضاء ، لعدم بلوغهم سن الشهوة .

٤ — ولا يجوز للنساء أن يتبخترن فى مشيهن ، ويضربن بأرجلهن لإظهار ما يخفين من زينتهن ، كصوت خلاخيلهن وقعقعتها ، لأن هذا مع كونه منافياً للحياء الذى يجب أن تتحلى به النساء ، يغرى الرجال بهن ، ويثير فيهم الغرائز الحيوانية ؛ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون رجالا ونساء ، مما اختلستم من النظر إليهن ، ومما ارتكبتم من الأوزار والآثام ، لعلكم تفوزون برضا الله وعفوه ، فتظفروا بسعادة الدارين .

(٧)

من الآية ٣٢ إلى الآية ٣٤ من سورة النور

وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ، وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ —١—. وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ —٢—. وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا، وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِى آتَاكُمْ —٣— . وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا، لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ —٤— . وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ، وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ، وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أنكحوا	زَوِّجوا .
الأيامى	جمع أيِّم ، وتطلق على كل ذكر لا زوجة له ، وكل أنثى لا زوج لها ، بكراً أو ثيباً ، من الأحرار .
الصالحين من عبادكم وإمائكم	من يصلحون للزواج من عبيدكم وجواريكم .
إن يكونوا فقراء	إن يكن الأحرار من الرجال والنساء فقراء .
وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً	وليستعفف عن الزنى من لا يجدون ما يعينهم على الزواج من مهر ونفقة .
الكتاب	المكاتبة مع عبده أو أمته ، على تأدية مال يعتقه .
فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً	فاقبلوا مكاتبتهم ، إن آنستم منهم قدرة على الأداء وأمانة .
وآتوهم من مال الله الذى آتاكم	وحطوا عنهم بعض مال المكاتبة الذى أعطاكم الله إياه .
ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء	ولا تجبروا إماءكم على الزنى .
تحصناً	تعففاً .
ومثلا من الذين خلوا من قبلكم	وقصة عجيبة من جنس قصص الذين مضوا قبلكم .

الزواج عصمة

لما نهى الله عن السفاح المخل بالأنساب ، وأمر بغض الأبصار وحفظ الفروج ، عقب هذا بالأمر بالزواج ، لأنه يعصم عن ارتكاب الحرام ، والأمر هنا للأولياء أولا ، ثم للسادة .

مجمل المعنى

١ — وزوجوا أيها الأولياء من لا زوج له من الأحرار والحرات : بكراً أو ثيباً ، وزوِّجوا أيها السادة الأرقاء من عبيدكم وإمائكم ، متى كانوا صالحين للزواج ، والقيام بحقوقه ، ولا تنظروا فى زواج الأحرار والحرات إلى فقر من يخطب إليكم من الرجال ، أو فقر من تريدون زواجها من النساء ، ففى فضل الله ما يغنيهم ، والمالُ غادٍ ورائح ، وقد قال الله تعالى : « وإن خفتم عَيْلةً فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » ، والعيلة : الفقر ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس الغِنى عن كثرة العرَض ، وإنما الغنى غنى النفس » والعرَض : متاع الدنيا وحطامها ؛ إن الله ذو فضل واسع ، لا تنفَد نعمته ، ولا تنتهى قدرته ، عليم بحال عباده ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئه .

٢ — وليتعفف عن الزنى الذين لا يجدون ما يمكنهم من الزواج من مهر ونفقة ، حتى يوسِّع الله عليهم من فضله ، فيجدوا ما يحقق رغبتهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم » . والباءة : مباشرة النساء .

٣ — والعبيد والإماء الذين تملكونهم ، ويطلبون منكم المكاتبة رغبة فى عتقهم من ذل الرق ، فكاتبوهم إن علمتم فيهم أمانة وقدرة على الكسب من طريق شريف ، لأداء المال الذى كاتبتموهم عليه ، بأن يكون لهم حرفة يتكسبون منها ؛ والمكاتبة : أن يكاتب السيد عبده أو أمته على مال يؤديه إليه منجَّماً فى مدة معينة ، فإذا أداه فيها فهو حر ؛ فإن جاء الرقيق بالمال قبل انقضاء المدة ، وجب على سيده أن يعتقه ، ويبقى المكاتب عبداً ما دام عليه شىء ، ولو درهماً ؛ وسمى هذا الاتفاق مكاتبة ، لأن السيِّد كتب : (فرض وسجل) على نفسه عتق من يملكه إن أدّى المال ، والعجز عن الأداء يبطل المكاتبة ؛ والأمر هنا للندب ، ولما كان الإسلام يدعو إلى الحرية وعتق الأرقاء ، فقد كلف الله السادة أن يحطوا عن عبيدهم وإمائهم بعض مال الله الذى منحهم إياه ، كربعه أو ثلثه أو نحو ذلك ، ويتنازلوا عنه ، حتى يستعين الأرقاء بما يحطه سادتهم عنهم على أن يفوا بما التزموا به ، وعلى المسلمين أن يعطوهم من الزكاة المفروضة ، ليستعينوا به على فك رقابهم ، فإنهم أحد الثمانية الذين يستحقون الزكاة ، المشار إليهم بقوله : « وفى الرقاب » ، (تراجع الفقرة هـ من الصفحة ٩٤ من تفسير الجزء العاشر) .

٤ — ولا تُكرهوا أيها السادة فتياتكم على الزنى ، إن أردن تعففاً عنه يتحصَّنَّ به عن ارتكاب المعصية ، لتبتغوا بالإكراه نزراً يسيراً ، وعرَضاً حقيراً من أعراض الحياة الدنيا ، وهو أجورهن التى يحصُلن عليها من الزنى ، فتضحوا بشرفكم من أجلها ، وكان عبد الله بن أبىّ بن سلول رأس المنافقين قد أسر رجلا ، فراود الأسيرُ إحدى إمائه فأبت ، فأكرهها هذا المنافق الأثيم الحقير على القبول ، رجاء أن تحمل من الأسير ، فيطلب

فداء لولد الأسير من جاريته، حين يفتديه قومه ، وكان له ست جوار يكرِهُهن على التكسب من الزنى ، ويضربهن إن أبين ، ويفرض عليهن الضرائب ، فشكت اثنتان منهن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية ؛ ومن يكرههن ويجبرهن على الزنى ، فإن الله من بعد إكراههن غفور لهن ، رحيم بهن .

٦ — ولقد أنزلنا إليكم فى هذه السورة آيات أوضحت لكم الأحكام والحدود والآداب وغير ذلك ، وأنزلنا إليكم قصة مثل قصص الذين مضَوْا من قبلكم من الأمم ، وهى قصة عائشة التى تشبه قصة يوسف وزَليخا ، وقصة مريم ، فقد أسند إليهما ما أسند إلى عائشة من الإفك والبهتان ، وأنزلنا هذه الآيات موعظة للمتقين ، لأنهم هم الذين ينتفعون بها ، ويقتبسون من أنوارها .

(٨)

الآية ٣٥ من سورة النور

اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ —١— . مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ، لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
نور السموات والأرض	ذو نور في السموات والأرض ، يهدى به من يشاء من عباده .
مثل نوره	صفة نوره .
مشكاة	طاقة غير نافذة .
دُرّىّ	لؤلئى في صفائه .
من شجرة	من زيت شجرة .

الألفاظ	شرحها
لا شرقية ولا غربية	لا تقع الشمس عليها وقتاً دون وقت ، بل تقع عليها دائماً .
يكاد زيتها يضىء ولولم تمسسه نار	يكاد زيتها يضىء بنفسه ، لصفائه وتلألئه .
نور على نور	نور مضاعف .

مقدمة أدبية

ليس فى قدرة البشر أن يشبهوا ذات الله وصفاته بشىء مما يتعلق بمخلوقاته ، وإن اقتضت إرادة الله شيئاً من هذا ، فعلى وجه يقرب للعقول إدراكه ، ولكنها لا تستطيع أن تدرك كنهه ، ويحضرنا فى هذا المقام أن نذكر أن أبا تمام الشاعر المشهور ، المتوفَّى سنة ٢٢١ هـ ، كان يمدح أحمد بن المعتصم الخليفة العباسى ، بقصيدته السينية ، فلما انتهى فيها إلى قوله :

إقدام عمرو فى سَمَاحة حاتِمٍ   فى حِلْمِ أحْنَفَ فى ذَكاءِ إياسِ

يريد أن يشبهه بشمائل بذّ فيها بعض العرب غيرهم ، وهم عمرو بن معْدِ يكرب الزَّبيدى ، الذى اشتهر بشجاعته وإقدامه ، وحاتم الطائى ، الذى اشتهر بسخائه وجوده ، والأحنف بن قيس سيد تميم ، الذى اشتهر بحلمه ، وإياس بن معاوية المُزَنى ، قاضى البصرة أيام عمر بن عبد العزيز ، الذى اشتهر بذكائه وصدق فراسته — فلما انتهى فى قصيدته إلى هذا البيت ، قال له

أبو يوسف : يعقوب الكندى ، المتوفى فى أواسط القرن الثالث — وكان حاضراً — :
الأمير فوق مَنْ وصفت ، فأطرق أبو تمام قليلا ، ثم رفع رأسه وقال :

لا تُنكروا ضَرْبِى له مَن دونه   مَثَلا شَرُودًا فى النّدَى والْباس
فالله قد ضَرَبَ الأَقَلَّ لنوره   مَثَلاً من المِشْكاة والنِّبراس

مجمل المعنى

١ — الله ذو نور يضىء به السموات والأرض ، ويهدى به من يشاء من عباده فى ملكوته ، ويدبر الأمر فيه بحكمة بالغة ، وحجة نيرة ، لشدة إشراق نوره الذى استضاء به الكون ، واستقامت أمور مخلوقاته ، فالعقول قبس من نوره ، والعلوم أثارة من علمه .

٢ — صفة نوره كصفة النور الذى هو منتهى ما يصل إليه البشر ، وهو نور فى طاقة غير نافذة ، ينبعث من مصباح ضخم ثاقب الضوء ، والفتيلة المشتعلة فى المصباح فى قنديل من الزُّجاج ، والزجاج شَفٌّ صافى اللون ، جيد الجوهر ، كأنه والنور فيه — فى الإنارة والضوء — كوكب متلألىء تلألؤ الزُّهَرَة أو المُشترِى ، أو غيرهما من الكواكب المتألِّقة تألق الدرِّ فى صفائه ، وهذا المصباح يستمد نوره وتألقه من زَيت شجرة ، قد أودعت نفعاً وبركة ، فهى إدام ودهان ودباغ وَوقود ، وهى شجرة زيتون ، تنبت فى مكان تسقط عليه أشعة الشمس طول النهار ، لا يواريها من الشمس شىء ، كالشجرة التى تكون فوق جبل ، أو فى طرف الصحراء ، أو فى متسع الحقل ، فإن ثمرتها تكون أنضج ، وزيتها يكون أصفى ، وليست فى جهة شرقية تطلع عليها الشمس من جهة الشرق فقط ، ولا فى جهة

غربية تقع عليها الشمس من جهة الغرب فقط ، بل هى شرقيّة غربيّة — كما يقال : فلان لا مسافر ولا مقيم ، إذا كان يسافر ويقيم — يكاد زيتها من شدة تلألئه وفرط وميضه ، يضىء بنفسه من غير نار ، فإذا مسته نار ازداد ضوءاً على ضوء ؛ نور مضاعف ، وهو نور المصباح الثاقب ، زاد فى ضوئه صفاء الزيت ، وصفاء الزجاج ، وعدمُ انتشاره ، لانحصاره فى المشكاة ، فإن المصباح فيها أكثر إنارة منه فى غيرها ، فكذلك براهين الله واضحة ، وهى برهان بعد برهان ، وتنبيه بعد تنبيه ، ومواعظ تتكرر ، ورسل ترسل ، وكتب تنزل ، يهدى الله لنوره وهو الإسلام من يشاء من عباده ، فمن اقتضت إرادته هدايته منهم ، وفقه بإلهامه لإصابة الحق ، ويبين الله الأمثال للناس تقريباً لأفهامهم ، ويوضحها توضيحاً كافياً ، والله بكل شىء عليم .

(٩)

من الآية ٣٦ إلى الآية ٣٨ من سورة النور

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ —١— . وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ —٢— . لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ، وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أذن الله أن ترفع	أمر الله أن تعظَّم وتطهر .
يسبِّح	يصلى .
الغدو	أول النهار .
الآصال	جمع أصيل ، والمراد بها هنا : الأوقات من بعد الزوال إلى ما بعد العشاء .
تتقلب	تضطرب .

مجمل المعنى

١ — يصلى لله رجال فى مساجد، أمر الله أن تعظم وتطهر من الأنجاس والأقذار، ومن اللغو فى الأقوال ، وكل ما يؤذى من يعمرونها ، فيجمل بمن أكل ثُوماً أو بصلا ، أو كرَّاثاً ، أو فُجلا ألا يدخلها ، لما ينبعث من رائحة كريهة من أفواه الأولين ، وما يتأذى به عامرو المساجد من تجشؤ الأخير — ويذكر فيها اسمه فى الغُدوِّ عند أداء صلاة الصبح ، وفى الآصال عند أداء الصلوات التى بعد الزوال ، وهى صلوات الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقد أفرد الله الغُدوَّ لأنه لا تصلى فيه إلا صلاة واحدة ، وجمع الأصيل لأنه تؤدى فيه أربع صلوات ؛ هؤلاء الرجال لا يشغلهم شاغل من ضروب منافع التجارة ، ولا بيع عن ذكر الله ، وخصَّ الله البيع بالذكر ، وإن كان يدخل فى ضروب التجارة ، لأنه فى الإلهاء أدخل ، فإن الربح الحاصل فى البيع يقين ناجز ، والربح الحاصل فى الشراء شك مستقبل .

٢ — ولا يشغلهم عن إقامة الصلاة — وهى القيام بحقها على شروطها — وأداء الزكاة ، فإذا حضرت الصلاة قاموا إليها غير متثاقلين ، كما أنهم يعطون الزكاة عن رضا وطواعية ، وهم يخافون موقف يوم القيامة ، الذى تضطرب فيه القلوب ، وتزيغ الأبصار من الهول ، مع ما هم عليه من التقوى والطاعة .

٣ — يفعلون هذه القربات والطاعات ، ليجزيهم الله أحسن الجزاء على ما عملوا ،

ولا يقتصر الجزاء على استحقاقهم ، بل يزيدهم جزاء لم يخطر لهم على بال ، تفضلا منه وإحساناً ، والله بكمال قدرته ، ونفاذ مشيئته ، وسعة إحسانه ، يثيب من يشاء من عباده ثواباً لا يفى به حساب الخلق لكثرته ؛ هذه صفاتُ المؤمنين ، وهذا جزاؤهم ، أما الذين ضَلوا فجزاؤهم ما سيُذكر فى الآية الآتية .

(١٠)

من الآية ٣٩ إلى الآية ٤٢ من سورة النور

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ، يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ، وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ، فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ -١- . أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ، يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ ، مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ -٢- . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ -٣- . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ -٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
سراب	هو ما يتراءى فى الأرض المنبسطة المتسعة كالصحراء وقت الظهر كأنه ماء .

الألفاظ	شرحها
قيعة	أرض مستوية متسعة كالصحراء .
ووجد الله عنده	ووجد الله محاسباً إياه على ما اقترف من السيئات .
فوفاه حسابه	فجازاه على أعماله فى الدنيا جزاء وافياً .
بحر لجّىّ	بحر عميق بعيد الغَور .
يغشاه موج من فوقه موج	يعلوه موج مترادف .
من فوقه سحاب	من فوق الموج سحاب يحجب ضوء النجوم .
إذا أخرج يده	إذا أخرج من ابتُلى بهذه الظلمات يده .
يسبّح له	ينزهه عما لا يليق به .
والطير صافات	والطير باسطات أجنحتها .

مجمل المعنى

١ ـ الذين آمنوا حالهم كما سبق بيانه ، والذين كفروا حالهم على الضد من أحوال المؤمنين ، فإن أعمالهم التى يظنونها صالحة نافعة لهم عند الله من أعمال البر ، كسقاية الحجَّاج ، وعمارة المسجد الحرام ، وقِرى الأضياف ، وصِلة الرحم ، ونحو ذلك من أعمال البر ، يجدونها يوم القيامة ملغاة ، مخيبة لآمالهم ، لا تستحق ثواباً ، فهى كالسراب ، يظنه من يشتد به العطش ماء ، فيتلهف عليه ، ويُغذّ السير إليه ، ليرْوى منه غُلته ، حتى إذا بلغ موضع ما توهمه ماء ، لم يجد شيئاً مما علق عليه رجاءه ؛ كذلك الكافر ، يظن أن أعماله الصالحة تشفع له عند المولى جل وعلا ، وتنجيه من عذابه على ما اقترف من السيئات ، فإذا مات وقدم على ربه يوم القيامة ، لم يجد أثراً لثواب أعماله الصالحات ، فتعظم حسرته ، ويشتد

غمّه وكربته ، ووجد الله أمامه ، يحاسبه على ما اقترف من الكفر والعصيان فى الدنيا ، فأعطاه جزاءه وافياً كافياً ، والله سريع المجازاة ، لا يشغله حساب عن حساب ، ونظير هذا قوله فى سورة الفرقان : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ، فجعلناه هباء منثوراً » وقد نزلت هذه الآية فى عتبة بن ربيعة بن أمية ، تعبّد فى الجاهلية ، والتمس الدين الحق ، ولبس المسوح ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كفر به .

٢ — أو أعمال الكفار الصالحة ، لكونها ملغاة خالية من نور الحق ، كالظلمات المتراكمة فى بحر بعيد الغور ، تعلوه أمواج متراكمة ، وفوق الأمواج العليا سحاب متكاثف ، يحجب ضوء النجوم وبصيص نورها ، فينشأ عن هذا ظلمات بعضها فوق بعض : ظلمة البحر ، وظلمة الموج الأول ، وظلمة الموج الآخر ، وظلمة السحاب ، بحيث إن من ابتُلى بهذه الظلمة ، إذا أخرج يده فى هذه الظلمات لم يرها ، لانه إذا لم يكد يراها : — يقرب من رؤيتها — ، فإنه لا يراها ، أو لا يراها إلا بعد جهد ومشقة ، ومن لم يقدِّر الله له الهداية ، ويوفقه إلى نور الحق ، فما له من هداية .

٣ — ألم تعلم يا محمد — والخطاب لرسول الله ، والمراد به جميع المكلفين — أن الله تعالى ينزهه عما لا يليق به فى ذاته وصفاته وأفعاله ، كل من فى السموات ومن فى الأرض ، من ملائكة وإنس وجن ، وينعتونه بصفات الجلال ، ويدل على تنزيهه بلسان الحال ، وعلى كمال قدرته ، الطيورُ التى تبسط أجنحتها حين طيرانها ، بقدرة الله ، وحكيم صنعه ، ولطف تدبيره ، حتى لا تقع على الأرض ، فقد جعل عظامها جوفاء حتى تكون

خفيفة ، وجعل لها أذناباً توجهها حيث شاءت ، كما يوجه الرُّبان سكانَ السفينة : (دفتها) ؛ إن كل مخلوق قد علم الله ما يصدر منه من دعاء وتنزيه ، على نحو لا يعلمه إلا هو ، والله عليم بما يفعله كل مخلوق .

٤ — ولله ملك السموات والأرض ، وهو المتصرف فيهما ، وإليه وحده المرجع والأمر كله يوم القيامة .

(١١)

من الآية ٤٣ إلى الآية ٤٦ من سورة النور

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ، فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ، فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ؟ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ -١- . يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ -٢- . وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ -٣- . لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ -٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يزجى سحاباً	يسوق سحاباً .
يؤلف بينه	بضم بعضه إلى بعض .
يجعله رُكاماً	يجعله متراكماً متكاثفاً ، بعضه فوق بعض .
الوَدْق	المطر .
من السماء	من السحاب .
من جبال	من قطع السحاب العظيمة ، التى تشبه الجبال فى العظم .
من برَد	برَداً وهو الماء المتجمد ، ومن : زائدة .
سنا برقه	ضوء لمعان البرق المنبعث من السحاب .
يقلّب الله الليل والنهار	يعاقب بينهما ، وينقص أحدهما بزيادة الآخر .
لأولى الأبصار	لذوى البصائر ، والأبصار : جمع بصر ، بمعنى البصيرة .
كل دابة	كل حيوان يدب ويتحرك .
يمشى على بطنه	يزحف على بطنه .

مجمل المعنى

١ — ألم تر بعين بصيرتك أيها المكلف ، أن الله يسوق سحاباً إلى حيث يشاء ، ثم يضم بعضه إلى بعض ، ثم يجعله متكاثفاً بعضه فوق بعض ، فإذا بلغ السحاب طبقة باردة من الهواء ، ترى المطر يخرج من خلاله ، وينزل الله من السحاب العظيم المتكاثف المتراكم ، من قطعه التى تشبه الجبال

لعظمها ، إذا برد الهواء برداً مفرطاً ، ماء متجمداً يكون كبير الحجم أو صغيره ، على حسب درجة برودة الهواء ، فيصيب الله بالمطر من يشاء على حسب إرادته ، فتخصب أرضهم ، وينمو زرعهم ، ويصرفه عمن يشاء ، فتجدب أرضهم ، وتسوء حالهم ، يكاد ضوء لمعان البرق المنبعث من السحاب يذهب بالأبصار ، من فرط وميضه ، وشدة ضوئه .

٢ — يعاقب الله بين الليل والنهار ، بإتيان أحدهما عقب الآخر ، على نظام فلكي بديع ، وينقص أحدهما بزيادة الآخر بقدرته ومشيئته ؛ إن فى سوق السحاب وإنزال المطر وإيماض البرق ، لدلالة واضحة على وجود الصانع الحكيم ، وكمال قدرته ، وإحاطة علمه ، ونفاذ مشيئته ، لذوى البصائر .

٣ — والله خلق كل حى يدب ويتحرك — غير الملائكة والجن— من نوع من الماء مختص به ، إما أن يكون نطفة أو غيرها ، فإن بعض الحيوان لا يتولد من نطفة ، كما أخبرنا به بعض علماء الحيوان ، فمن الحيوان من يمشى على بطنه : كالثعبان والحية والدود والحوت ، ومنهم من يمشى على رجلين : كالإنسان والطير ، ومنهم من يمشى على أربع : كالبهائم والوحوش ، يخلق الله ما يشاء مما يمشى على أكثر من أربع ، كالعناكب ، وسرطان الماء ، وأم أربع وأربعين ، إن الله على كل شىء قدير ،

٤ — لقد أنزلنا إليكم أيها المعاندون آيات واضحات ، وهى آيات القرآن ، تبيِّن الأحكام الدينية ، والأسرار الكونية ، والله يهدى من يشاء إلى الطريق الحق ، بتوفيقه للنظر الصحيح فيها ، وتدبر معانيها .

(١٢)

من الآية ٤٧ إلى الآية ٥٤ من سورة النور

وَيَقُولُونَ : آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ ، وَمَا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ، إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ . وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ —١— . أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ؟ أَمِ ارْتَابُوا ؟ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ؟ بَلْ أُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ —٢— . إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ —٣— . وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ —٤— . وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ، قُلْ : لَا تُقْسِمُوا ، طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ —٥— . قُلْ : أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ويقولون	ويقول المنافقون .
يتولى فريق منهم	يعرض فريق من المنافقين عن الاحتكام إلى الرسول .
مرض	كفر وميل إلى الظلم .
ارتابوا	شكّوا فى نبوته وعدله .
يحيف	يجور ويظلم فى الحكم .
جهد أيمانهم	غاية جهدهم فى أيمانهم .
لئن أمرتهم ليخرجن	لئن أمرتهم بالجهاد ليخرجن إليه .
طاعة معروفة	المطلوب منكم طاعة تعرفونها ، وهى الإخلاص فيها
تولوا	تتولوا ، حذفت إحدى التاءين تخفيفاً .
فإنما عليه ما حمِّل	فإنما على رسولنا ما حمِّل من التبليغ .
وعليكم ما حمِّلتم	وعليكم ما حمِّلتم من الطاعة .

سبب النزول

انقسم الناس فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاث طوائف ، طائفة آمنت ظاهراً وكذّبت باطناً ، وهم المنافقون ، وطائفة آمنت ظاهراً وباطناً ، وهم المؤمنون المخلصون ، وطائفة كذبت ظاهراً وباطناً وهم الكفار ، ومن الطائفة الأولى بشر المنافق ، فقد اختصم مع يهودى فى أرض ، وكان المنافق مبطلا ،

فجعل اليهودي يجره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهما ، وجعل المنافق يجره إلى كعب بن الأشرف زعيم اليهود ، ويقول : إن محمداً يحيف علينا ، فنزلت هذه الآيات فى الفريق الأول .

مجمل المعنى

١ - ويقول المنافقون بألسنتهم : آمنا بالله وبالرسول ، وأطعنا ما يأمران به ، ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكم الرسول ، بعد قولهم : آمنّا بالله وبالرسول وأطعنا ، وما أولئك بالمؤمنين الصادقى الإيمان ، لأنهم آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ، وإذ دُعوا إلى حكم الله وحكم الرسول المبلغ عنه ، ليحكم الرسول بينهم وبين خصومهم ، إذا فريق منهم معرضون عن المجىء إليه ، إذا كان الحق عليهم ، لعلمهم أنه سيكشف حقيقة أمرهم ، ولا يقضى إلا بالحق والعدل ، وإن يكن لهم على غيرهم الحق ، يأتوا إلى الرسول مسرعين طائعين منقادين ، ولم يرضوا إلا بحكمه ، ليأخذ لهم حقوقهم من خصومهم ، لعلمهم أنه لا يحكم إلا بالعدل والقسطاس .

٢ - أسبب إعراض المنافقين عن الاحتكام إلى الرسول ، أنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم؟ أم سببه أنهم شكّوا فى نبُوّته وعدله ، ورأوا منه ما يزيل ثقتهم به ؟ أم سببه أنهم يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم فى الحكم ، بل أولئك المنافقون هم الذين يبتغون ظلم الناس بالإعراض عن الرسول ، وعرض أمرهم عليه ، لأنهم أعرف بنزاهته فى أحكامه ، ولأن منصب النبوة يبعده عن التحيز ، ولأن اشتهاره بالأمانة حتى قبل النبوة يجعله فوق مستوى الشك ، ولو كانوا مرتابين حقًّا فى نزاهته ، لأعرضوا عن التحاكم إليه ، حين يكون الحق لهم .

٣ — إنما كان قول المؤمنين إيماناً صادقاً ، إذا دعوا إلى كتاب الله ، وإلى حكم رسوله ليقضى بينهم ، أن يقولوا : سمعنا قوله ، وأطعنا حكمه ، وأولئك هم الناجحون فى دنياهم وأخراهم ، وهذا ما يجب قوله وفعله .

٤ — ومن يطع الله ورسوله فيما يأمران ويحكمان به ، ويخش عقاب الله فيما صدر عنه من الذنوب فى الماضى ، فيكفِّر عنها بكثرة حسناته ، ويجعل طاعة الله فى المستقبل وقاية له من عذابه ، فأولئك هم الفائزون بالنعيم فى الجنة .

٥ — وأقسم هؤلاء المنافقون بالله الأيمان المغلظة ، بالغين أقصى مراتب اليمين فى الشدة والتأكيد ، باذلين فيها غاية جهدهم وطاقتهم : لئن أمرتهم بالجهاد ليخرجن إليه ، فقل لهم يا محمد : لا تحلفوا كاذبين ، فإن الكذب فى اليمين معصية ، والمطلوب منكم طاعة تعرفونها ، هى أولى بكم وأمثل ، وهى الطاعة الصادرة عن إيمان خالص ، ونية صادقة ، لا الأيمان الكاذبة التى تحلفونها ، إن الله خبير بما تعملون من الأعمال الظاهرة والباطنة ، فلا تخفى عليه سرائركم ، من طاعتكم بالقول ، ومخالفتكم بالفعل ، وما تظهرونه من الأيمان الفاجرة ، وما تضمرونه من الكفر والنفاق ، ومخادعة المؤمنين .

٦ — قل لهم يا محمد : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول إطاعة صادقة خالصة ، فإن تتولوا عن الطاعة ، فما أضررتم الرسول بشىء ، وإنما أضررتم أنفسكم ، فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمَّله الله وكلفه من أداء الرسالة ، وقد قام بها ، وأما أنتم فعليكم ما حُمِّلتم من القبول والطاعة والإذعان ، فإن أعرضتم فقد عرَّضتم أنفسكم لسخط الله ، وإن تطيعوا الرسول تهتدوا إلى الحق ، وإن عصيتموه فما على الرسول إلا التبليغ البيِّن الواضح ، وقد أداه ، وبقى ما حملتم ، فالضرر إن أعرضتم ، والنفع إن أطعتم ، عائدان عليكم .

(١٣)

من الآية ٥٥ إلى الآية ٥٧ من سورة النور

وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ : لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ –١–. وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا –٢–. يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ –٣– . وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ –٤– . لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ –٥– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ليستخلفنهم فى الأرض	ليجعلنهم خلفاء متصرفين فى الأرض ، تصرف الملوك فى ممالكهم .
معجزين فى الأرض	يعجزوننا عن إدراكهم ، ونصر رسولنا عليهم .

إخبار القرآن بالغيب

الآية الأولى تدل على إخبار القرآن الكريم بالغيب ، وبحدوث أشياء فى المستقبل قبل حدوثها ، وهو من أدلة إعجازه ، وتدل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لإخباره بأشياء قبل وقوعها ، وقد وقعت بالفعل موافقة لما أخبر به ؛ والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته .

مجمل المعنى

١ - وعد الله الطائفة الثانية من الطوائف الثلاث التى سبق الكلام عنها فى الصفحة ١٠٠ من تفسير هذا الجزء ، هذه الطائفة التى آمنت ظاهراً وباطناً ، وضمّت إلى إيمانها العمل الصالح - وعدها الله لينصرنّ الإسلام على الكفر ، وليورّثن المؤمنين أرض الكافرين ، وليجعلنهم خلفاء فى الأرض ، غالبين عليها ، متصرفين فيها تصرف الملوك فى ممالكهم ، كما استخلف عليها الذين من قبلهم ، كبنى إسرائيل الذين صاروا ملوكاً على الشام بعد إهلاك الجبارين ، (تراجع الصفحتان ٥١ و ٦١ من تفسير الجزء السادس) ، وبسطوا نفوذهم عليها وعلى غيرها ، ومنهم داود وسليمان عليهما السلام ؛ وقد صار المسلمون خلفاء فى الأرض بعد أن أيدهم الله بنصره ، وأظهرهم على جميع جزيرة العرب ، فقهروا جيوش الأكاسرة والقياصرة ، وملكوا خزائنهم وذخائرهم ، واستتب لهم الأمر فى ديارهم .

٢ - ووعد الله المسلمين ليمكنن لهم دين الإسلام الذى ارتضاه لهم ديناً ، بالتقوية والتثبيت ، وإظهاره على الأديان كلها ، وليبدلنّهم من بعد خوفهم من

أعدائهم الكفار أمناً منهم ، بعد أن كانوا مستضعفين خائفين ؛ فإنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وآوى الأنصارُ المهاجرين ، كان المسلمون لا يُمْسُون ولا يصبحون إلا فى السلاح ، خشية أن تفاجئهم قريش ، فقال يوماً بعض أصحابه : أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ، ونضع السلاح؟ فقال عليه الصلاة والسلام : «إنكم لا تلبثون إلا قليلا ، حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبياً : ضامًّا رجليه إلى بطنه بيديه — ليس عليه حديدة ، ونزلت هذه الآية ، وقد أنجز الله وعده ، فبعد أن أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث عشرة سنة ، والمسلمون خائفون مذعورون ، تتربص بهم قريش الدوائر فى كل وقت ، هاجروا إلى المدينة ، فظهروا على أعدائهم ، وانتصروا فى غزواتهم ، وصاروا مرهوبى الجانب ، ودانت لهم بلاد المشرق والمغرب .

٣ — وإنما وعدهم الله بهذا ، لأنهم يعبدونه ويوحدونه ، لا يشركون به شيئاً من صنم أو كوكب ؛ فمن ارتد عن الإسلام ، وجحد هذه النعمة ، بعد أن حقق الله لهم ما وعدهم به ، فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله ، لأنهم اجترءوا على غمط ما تفضل به عليهم .

٤ — وأدوا الصلاة أيها المؤمنون على خير وجوهها ، وأعطوا الزكاة طيبة قلوبكم بإعطائها ، وأطيعوا الرسول فى كل ما يأمركم به ، رجاء أن تنالوا رحمة الله ، وتظفروا بجنته .

٥ — لا تحسبن الطائفة الثالثة التى عادتك وكذبتك ظاهراً وباطناً ، يعجزوننا عن إدراكهم ، ونصرك عليهم فى أى قطر من أقطار الأرض ، ومأواهم فى الآخرة ومستقرهم النار ، ولبئس المصير مصيرهم .

(١٤)

من الآية ٥٨ إلى الآية ٦٠ من سورة النور

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ؛ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ، بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْض ، كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ، وَاللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ -١-. وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ، وَاللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ -٢- . وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ، فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ، غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ، وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ، وَاللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ -٣- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الذين ملكت أيمانكم	عبيدكم وإماؤكم .
والذين لم يبلغوا الحلم منكم	والذين لم يصلوا من الصبيان إلى حد البلوغ .
ثلاث مرات	فى ثلاثة أوقات .
وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة	وحين تخلعون ثيابكم وقت القيلولة منتصف النهار .
ثلاث عورات لكم	هذه ثلاثة أوقات يحتمل فيها أن تكون عوراتكم مكشوفة فيها .
طوافون عليكم	خدمكم ومماليككم وصبيانكم يكثرون من الدخول والخروج عليكم .
بعضكم على بعض	يطوف بعضكم على بعض .
بلغ الأطفال منكم الحلم	بلغ الصبيان حد البلوغ .
القواعد من النساء	العجائز اللاتى قعدت بهن سنهن عن الحيض وإنجاب الولد .
لا يرجون نكاحاً	لا يطمعن فى مباشرتهن لكبرهن .
جناح	إثم وذنب .
أن يضعن ثيابهن	أن يخلعن عنهن ثيابهن الظاهرة ، التى لا تكشف عما يجب استتاره .
غير متبرجات بزينة	غير مظهرات زينة مما أمرن بإخفائه .
وأن يستعففن خيرلهن	وتعففهن عن وضع ما يتزين به خير لهن .

آداب اجتماعية

بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام ، ذكر الله هنا بعض الآداب الاجتماعية ، وسبب نزول الآيتين الأوليين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل غلاماً من الأنصار وقت الظهيرة إلى عمر بن الخطاب ، ليدعوه إليه ، فطرق بابه فلم يجبه أحد ، فدفع الباب ، فوجد عمر نائماً ، فعاد وردّ الباب بشدة ، فلم يستيقظ عمر ، فدفع الغلام الباب ثانية ، ونادى عمر ، فاستيقظ ، وجلس ، فانكشف شيء من عورته ، وعرف أن الغلام رأى ذلك منه ، فقال : ودِدت لو أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا أن يدخلوا علينا فى هذه الأوقات إلا بإذن ، ثم انطلق مع الغلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد أن هاتين الآيتين قد أُنزلتا عليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وخر ساجداً لله شكراً ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما هذا يا عمر ؟ فأخبره بما فعل الغلام .

وهاتان الآيتان تضمنتا آداباً اجتماعية ، تُعد من أرقى ما وصلت إليه فيها الأمم المتحضرة .

مجمل المعنى

١ — تقدمت آية الاستئذان فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ، لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم . . . » فى الصفحة ٧١ من تفسير هذا الجزء ، وهى آية عامة تشمل جميع المستأذنين فى جميع الأوقات ، وقد خص الله هنا فى هاتين الآيتين بعض المستأذنين ، فى بعض الأوقات ، فلا يدخل على الإنسان فيها عبد أو أمة صغيراً كان أو كبيراً ، وكذلك الصبيان من

الأقرباء الذين فوق أربع سنوات ولم يحتلوا — لأن من دونهم فى السن لا يدركون ما يرون — إلا بعد الاستئذان ، فيستأذن العبيد والإماء على سادتهم ، والصبيان على أهليهم قبل الدخول عليهم فى الأوقات الثلاثة الآتى بيانها ، لأنها أوقات تقتضى عادة كثير من الناس ألا يتحرزوا من كشف عوراتهم وهى :

(ا) قبل صلاة الفجر ، حيث يكون الإنسان غالباً مع زوجته ، لابساً ملابس نومه ، وقد يكون فى وضع لا يحب أن يراه عليه أحد .

(ب) وقت القائلة ، عند التجرد من الثياب بسبب اشتداد الحر ، وقد يكون الرجل مختلياً بأهله .

(ج) بعد صلاة العشاء ، حين يتعرى الرجل من ملابسه ، ويلبس ملابس النوم

هذه ثلاث مرات فى الخلوة ، قد ينكشف فيها منكم من العورة ما يجب ستره عن الغير ، وليس عليكم معاشر أرباب البيوت والمساكن ، ولا على الذين ملكت أيمانكم من عبيد وإماء ، والذين هم فوق أربع السنوات ولم يحتلموا ، إثم فى الدخول من غير استئذان بعد هذه الأوقات إلى حلول ما بعدها ، فالمماليك والصبيان طوافون يدخلون على مواليهم وأقربائهم ، وأنتم تطوفون عليهم من غير إذن ، كذلك يبين الله أحكام الاستئذان فى هذه الآية ، كما بين لكم شرائع دينه ، والله عليم بما يصلح لعباده ، حكيم فى تدبير أمورهم .

٢ — وإذا بلغ الصبيان من أولادكم وأقربائكم ، الذين أمروا بالاستئذان فى الأوقات الثلاثة التى سبق ذكرها — إذا بلغوا مبلغ الرجال ، جروا على سنة البالغين ، فليستأذنوا عند الدخول فى كل وقت ، كما استأذن مَن قبلهم

من الرجال الذين فرض الله عليهم الاستئذان فى كل وقت فى الآية العامة ، فيدخلون تحت حكم قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ، لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا » ، هكذا يبين الله لكم آياته وأحكامه ، كما بين لكم أمر الأطفال فى الإستئذان بعد البلوغ ، والله عليم بما يُصلح خلقه ، حكيم فى تدبير شئونهم ؛ وقد سأل أحد الصحابة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : أأستأذن على أختى ؟ قال : نعم ، قال : إنها فى كنفى ، وهى معى بالمنزل ، وأنا أنفق عليها ، أفأستأذن ؟ قال : نعم ، وتلا عليه هاتين الآيتين ، وروى عنه أنه قال : إنى لآمر زوجتى أن تستأذن علىّ ! وقد كرر الله قوله : « كذلك يبين الله لكم آياته أو الآيات والله عليم حكيم » ، للتأكيد والمبالغة فى طلب الاستئذان .

٣ — والنساء العجائز اللاتى قعدت بهن سنهن عن الحيض وإنجاب الأولاد ، ولا يطمعن فى مباشرتهن لكبرهن ، ولا مأرب للرجال فيهن ، فليس عليهن إثم فى أن يضعن عنهن ثيابهن الظاهرة ، التى لا يؤدى خلعها إلى كشف ما يجب ستره أمام الخدم والعبيد ، من جلباب ورداء وقناع ، على أن يكنّ غير مظهرات زينة مما أمرن بإخفائها ، كقلادة وسوار وخلخال ، وعلى ألا يبدين نحورهن وسيقانهن ؛ وتعففهن عن خلع ثيابهن الظاهرة واستتارهن بها ، خير لهن ، والله سميع بمقالهن للرجال ، عليم بمقصودهن ، وما فى قلوبهن .

(١٥)

الآية ٦١ من سورة النور

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ –١– . وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ ، أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ، أَوْ صَدِيقِكُمْ –٢– . لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً –٣– . فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً –٤– . كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ –٥– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ليس على الأعمى حرج	ليس عليه حرج فيما يتعلق ببعض التكاليف .
أن تأكلوا من بيوتكم	أن تأكلوا من بيوت أولادكم ، لأنها كبيوتكم .
أو ما ملكتم مفاتحه	أو ما كان تحت تصرفكم من أموال من تكونون وكلاء عنهم برضاهم .
أو صديقكم	أو بيوت أصدقائكم ، إذا اتضح لكم رضاهم بإذن أو قرينة .
جميعاً أو أشتاتاً	مجتمعين أو متفرقين .
فسلموا على أنفسكم	فحيوا أهل البيوت الذين هم منكم : فى الدين أو القرابة أو كليهما .
تحية من عند الله	تحية ثابتة من عند الله .
مباركة	يضاعف الله ثوابها .

مجمل المعنى

١ — رفع الله الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكاليف التى يشترك فيها البصر كالجهاد ، وعن الأعرج فيما يشترط فى التكليف به المشى ، وما يتعذر القيام به بسبب العرج ، وعن المريض فيما يعجزه مرضه عن أدائه ، كالصوم ، وأداء الصلاة تامة الأركان ، فالحرج مرفوع عن هؤلاء لمابهم من أعذار شرعية ، فإذا كان غرضهم أن يقوموا بالأكمل ،

واقتضى عذرهم النقص ، فالحرج مرفوع عنهم ، ولا ينقص ذلك من ثوابهم .

٢ — وليس على أنفسكم أيها المؤمنون حرج فى أن تأكلوا من البيوتات الآتية :

ا : من بيوت أولادكم ، لأنها كبيوتكم ، فإن الولد بعض أبيه ، وبضعة منه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم لولد شكا أباه بأنه يأخذ ماله : « أنت ومالك لأبيك » ، ولأن الله تعالى ذكر بيوت الأقرباء ولم يذكر بيوت الأبناء ، مع أنهم أحرى بالذكر .

ب : أو من بيوت آبائكم .

جـ : أو من بيوت أمهاتكم .

د : أو من بيوت إخوتكم .

هـ : أو من بيوت أخواتكم .

و : أو من بيوت أعمامكم .

ز : أو من بيوت عماتكم .

ح : أو من بيوت أخوالكم .

ط : أو من بيوت خالاتكم .

ى : أو مما يكون تحت تصرفكم من غلات ضياع من تكونون وكلاء عنهم ، وفاكهة بساتينهم ، وألبان ماشيتهم ، من غير إسراف ، على ألا يُحمل أو يُدَّخر .

ك : أو من بيوت أصدقائكم ، برضاهم بإذن أو قرينة .

٣ — وليس عليكم إثم أن تأكلوا مجتمعين مع غيركم ، أو متفرقين عنهم منفردين وحدكم ، وقد كان بعض العرب يتحرجون أن يأكلوا طعامهم وحدهم ، ويظل الواحد منهم يومه لا يأكل حتى يجد ضيفاً يأكل معه ، فإن لم يجد من يؤاكله أكل وحده آسفاً .

٤ — ومن الآداب إذا دخلتم بيتاً من هذه البيوت ، أن تحيُّوا من يقابلكم من أهلها تحية الإسلام التى شرعها الله ، وهى تحية يضاعف الله بها الثواب للمحيِّى ، وتطيب بها نفس المحيَّا ؛ والتعبير عن أهل البيوت المحيَّين بالأنفس التى تعبر عن المحيِّين ، للتنبيه على أن هذه البيوت كبيت من استضيف فيها ، فإذا حيا أهلها ، فكأنه حيا نفسه .

٥ — وكما بيَّن الله لكم الآيات السابقة ، يبين لكم هنا الآيات التى تقوى الرابطة ، وتزيد الألفة والمحبة ، لتفهموا ما يؤدى إلى خيركم ونفعكم .

(١٦)

من الآية ٦٢ من سورة النور إلى آخر السورة

إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتّى يَسْتَأْذِنُوهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ –١– . فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ، فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ –٢– . لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ، أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ –٣– . أَلَا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
على أمر جامع	على أمر يجمعهم، للمشاورة، وتدبير الحروب ونحوهما .
دعاء الرسول	دعوته إياكم للاجتماع والمشاورة .
يتسللون منكم لواذاً	يخرجون فى خفية ، يستتر بعضهم ببعض .
يخالفون عن أمره	ضُمن يخالف معنى يخرج فعُدِّى بعن .
فتنة	محنة وبلاء .
ما أنتم عليه	ما تبطنون من المخالفة والموافقة، والنفاق والإخلاص.

آداب اجتماعية أخرى

تضمنت هذه الآيات آداباً اجتماعية أخرى ، أحرى بها أن تكتب بأسلاك الذهب على قطع من الديباج ، وتعلق فى مقارِّ اجتماع البرلمانات ، والأمكنة التى تجتمع فيها اللجان ، للنظر فى شئون الدول ، وفى مجالس الدين والعلم ، ونزلت فى غزوة الخندق، حين جاءت قريش يقودها أبو سفيان، وغطفان يقودها عيينة ابن حصن ، فى شوال سنة خمس من الهجرة ، فحفر النبى صلى الله عليه وسلم خندقا حول المدينة، واجتمع المسلمون للتشاور ، والنظر فى تدبير وسائل المقاومة والدفاع ، فكان المنافقون يتسللون لواذاً ، ويعتذرون بأعذار كاذبة ، ويقولون : بيوتنا عورة .

مجمل المعنى

١ — إنما المؤمنون إيماناً صادقاً ، الكاملو الإيمان ، هم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وتغلغل الإيمان فى صميم قلوبهم ، وإذا كانوا مجتمعين مع الرسول فى أمر مهم يحتاج إلى تبادل الرأى ، كالمشاورة ، وتدبير شئون الحرب ، والتهيؤ لها ، والنظر فى أمور المسلمين ، لم يذهبوا مهما كانت أعذارهم حتى يستأذنوه ، فإن أذن لهم غادروا مجتمعهم ، وإلا بقوا حيث هم ؛ إن الذين يستأذنونك أولئك هم الذين يؤمنون بالله ورسوله إيماناً صادقاً ، أما الذين لايستأذنونك ويغادرون المجلس من غير إذن، فنى إيمانهم ضعف .

٢ — فإذا استأذنوك أيها الرسول لبعض ما يعرض لهم من مهام أمورهم ، فأذن لمن شئت منهم فى الانصراف ، فالأمر مفوض إليك فى أمورهم ، واستغفر للمستأذنين الله بعد انصرافهم إن أذنت لهم ، فإن الاستئذان ولو لعذر قوىّ ، لا يخلو من شائبة إيثار الأمور الخاصة على الأمور العامة ؛ إن الله غفور لما يفرط من العباد من زلل ، رحيم بالتيسير عليهم .

٣ — لا تجعلوا أيها المسلمون دعوة الرسول إليكم للمشاورة ، واتخاذ الأهبة لمقاومة الأعداء ، كدعوة بعضكم بعضاً ، فى جواز الإعراض والتهاون فى تلبية الدعوة ، والانصراف بغير إذن ، فإن المبادرة إلى إجابة دعوة الرسول واجبة ، والانصراف بغير إذن محرم ، وإن الله جل شأنه ليعلم الذين يخرجون من المجتمع خفية ، يستتر بعضهم ببعض ، ويلوذ بعضهم ببعض ، فليحذر الذين يخرجون عن أمر الرسول أن تصيبهم محنة وبلاء فى الدنيا ، كتسليط سلطان جائر ، أو ملك ماجن مستهتر ، فيذيق بعضكم

بأس بعض ، أو يصيبهم عذاب مؤلم موجع فى الآخرة ، إن ماتوا قبل أن يستوفوا عقابهم فى الدنيا .

٤ — ألا إن لله ملك ما فى السموات والأرض ، يحيط علمه بكل شىء فيهما ، وإنه ليعلم ما أنتم عليه أيها المكلفون من مخالفة وموافقة ، ومن نفاق وإخلاص فى الدنيا ، ويوم يرجع الناس إليه يوم القيامة ، فينبئهم بما عملوا من خير أو شر ، ويحاسبهم عليه ، والله بكل شىء عليم ، لا تخفى عليه خافية .

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

نزلت بمكة ، ما عدا الآيات التى من ٦٨ — ٧٠ ، وآياتها ٧٧ آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية الثالثة

تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ، لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا -١- . الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا -٢- . وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا -٣- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
تبارك	تكاثر خير الله ، وتعاظمت بركته ، ولا يستعمل هذا الفعل غالباً إلا لله وحده .
الفرقان	القرآن ، لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، والمؤمن والكافر .
على عبده	على محمد صلى الله عليه وسلم .
للعالمين	لجميع المخلوقات من إنس وجن .
نذيراً	مخوفاً من عذاب الله .
قدره تقديراً	هيأه وسواه كما أراد .
من دونه	من غير الله .
آلهة	أصناماً يعبدونها .
وهم يخلقون	والأصنام التي يعبدونها تنحت على صور مختلفة .
ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً	ولا يقدر الأصنام على دفع ضرر أو جلب نفع لأنفسهم .
موتاً	إماتة أحد .
حياة	إحياء أحد .
نشوراً	بعثاً للأموات .

مجمل المعنى

١ — تكاثر خير الله ، وتعاظمت بركته على عباده ، ومن مظاهر ذلك أنه أنزل القرآن على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ليكون هذا القرآن هادياً لجميع الأمم من إنس وجن ، إلى ما فيه مصلحتهم ومنفعتهم ، وسعادتهم فى الدارين ، مفرقاً بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، والمؤمن والكافر ، مخوفاً من عذاب الله يوم القيامة فى جهنم ، مبشراً المهتدين بالنعيم المقيم فى الجنة .

٢ — وهو الذى خلق السموات والأرض بعظيم قدرته من غير مساعد أو معين ، كالولد أو الشريك ، وهو وحده خالق كل شىء فى الكون من حيوان ونبات وجماد ، يسويه ويصوره على حسب إرادته ، ويهيئه لما خلقه من أجله ، كتهيئة الإنسان للإدراك والفهم ، والتدبر فى أمر المعاش والمعاد ، واستنباط الصناعات المختلفة ، ومزاولة الأعمال المتنوعة ، وإذن يكون ادعاء المشركين أن الملائكة بنات الله ، وادعاء اليهود أن عزيراً ابن الله وادعاء النصارى أن المسيح ابن الله ، بهتان وافتراء .

٣ — ولكن الكفار لسخافة عقولهم ، اتخذوا لهم آلهة يعبدونها من دون الله ، مع أن هذه الآلهة لا يستطيعون أن يخلقوا شيئاً ، بل الأصنام الذين يعبدونها منحوتون ومصورون على حسب إرادة من يعبدونهم ، فهم الذين خلقوها وأوجدوها ، وهؤلاء الأصنام لا يستطيعون التصرف فى دفع ضرر عن أنفسهم ، ولا جلب نفع لهم ، ولا يستطيعون أن يميتوا حياً ، أو يحيوا ميتاً ، أو يبعثوا الناس من قبورهم للحساب يوم القيامة ، ومن كان عاجزاً لا يصلح أن يكون إلهاً .

(٢)

من الآية الرابعة إلى الآية التاسعة من سورة الفرقان ·

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هٰذَا إِلّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ ، وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ –١– . فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُورًا ، وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ، فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا –٢– . قُلْ : أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً –٣– . وَقَالُوا : مَا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ؟ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ! أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ، أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ! –٤– . وَقَالَ الظَّالِمُونَ : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلّا رَجُلًا مَسْحُورًا –٥– انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا –٦– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إن هذا إلا إفك افتراه	ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد .
قوم آخرون	قوم ممن قرءوا الكتب السماوية .
زوراً	كذباً .
أساطير الأولين اكتتبها	أكاذيب المتقدمين انتسخها واستكتبها .
تملى عليه بكرة وأصيلا	تقرأ عليه غدوة وعشية خفية .
السر	الغيب .
لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً	هلا أنزل إليه ملك يعلن صدقه ، وينذرنا سوء المآل إن كذبناه !
أو يلقى إليه كنز	أو يلقى إليه كنز من السماء ينفق منه ، ويستغنى به عن تحصيل المعاش !
جنة يأكل منها	بستان يأكل من فاكهته ، ويتعيش بريعه !
إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً	ما تتبعون إلا رجلا غلب السحر على عقله فهذى .
ضربوا لك الأمثال	قالوا فيك هذه الأقوال الظاهرة البطلان .

مجمل المعنى

١ — وقال كفار مكة : ما القرآن إلا كذب اختلقه محمد ، وزعم أنه أنزل عليه من عند الله ، وأعانه على اختلاقه قوم آخرون من أهل الكتاب ، كانوا يلقون إليه أخبار الأمم الماضية ، وهو يعبر عنها بأسلوبه الخاص ، ويزيد عليها ما يشاء ، منهم : جبر غلام الفاكه بن المغيرة ، كان نصرانيا

ثم أسلم ، وأبو فُكيهة : يسارٌ مولى ابن الحضرمى ، كان ممن يقرءون التوراة ، وعدّاس مولى حُويطب بن عبد العُزّى ، هؤلاء كانوا كتابيين ، يقرءون الكتب التى أنزلت من قبل ، ويتحدثون أحاديث منها ، ثم أسلموا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعهدهم بعد إسلامهم ، ويجلس إليهم بمكة عند المروة أحياناً ، ويعلمهم مما علمه الله ، فتقوّل الكفار عليه ما تقولوا ، (تراجع الفقرة الخامسة من الصفحة ١٠١ من تفسير الجزء الرابع عشر ، عند قوله تعالى : « إنما يعلمه بشر . . . »)

٢ — هؤلاء الكفار ، قد حملهم كفرهم على أن يظلموا الرسول عليه الصلاة والسلام بما تقوّلوه عليه ، ويفتروا عليه هذا الزور والبهتان ، بجعل كلام الله المعجز مختلقاً ، متلقفاً من بعض من أسلم من أهل الكتاب ، وقالوا : ما القرآن إلا قصص المتقدمين وأكاذيبهم ، وأحاديثهم التى سطروها وتناقلها عنهم مَن بعدهم ، وقد انتسخها محمد من هؤلاء الذين تلقاها منهم ، فأمر بكتابتها لأنه أمى ، فهى تقرأ عليه فى الغداة ، ثم يصوغها كما يشاء ، ويتلوها علينا ؛ وخصوا هذين الوقتين بالذكر ، للادعاء بأنها تقرأ عليه خفية لا فى وضح النهار ، لئلا يقف الناس على حقيقة الحال .

٣ — قل لهم أيها الرسول : لقد أنزل الله الذى لا يعزب عن علمه شىء فى السموات والأرض هذا القرآن ، مشتملا على غيوب مستقبلة ، وأسرار خفية ، وأشياء مكنونة ، لا يعلمها إلا علام الغيوب ، ويستحيل علىّ أن أعلمها ، ما لم يعلمنى الله إياها ، ولو كان القرآن منقولا من الكتب الماضية ، لما زاد عليها شيئاً ، ولكنه جاء بأمور كثيرة ليست فيها ، وأعجز العرب قاطبة بفصاحته وبلاغته ، فكيف تجعلونه أيها الكفار أساطير الأولين ؟ إن الله لا يعجل بعقوبتكم على ما تتقولون ، مع كمال قدرته عليها ، ويرحمكم

مع استحقاقكم أن يصب عليكم العذاب صبًّا، لما سبق فى علمه أنه لا يعذبكم والرسول بينكم .

٤ — وقال هؤلاء الكفار على سبيل التهكم والاستهانة : ما لهذا الرسول يأكل الطعام كما نأكل ، ويمشى فى الأسواق لطلب المعاش وابتغاء الرزق كما نمشى ؟ فإن كان رسولا كما يزعم ، فما باله لم يخالف حاله حالنا ؟ ولماذا لا يترفع عن مستوانا ، كما يفعل الأكاسرة والقياصرة ؟ فهلا أنزل إليه ملك فيكون معه منذراً مخوفاً من يخالفه، ورِدءاً له يردّ عنه مغبة عداوتنا، فنعلم أنه صادق بتصديق الملك إياه ! أو هلا يلقى إليه كنز من السماء يستظهر به ، ويستغنى به عن تحصيل المعاش ، والمشى فى الأسواق لابتغاء الرزق ! أو هلا يكون له بستان يأكل من فاكهته ، ويتعيش من رَيعه ، فيكفيه مئونة السعى وراء رزقه !

٥ — وقال كفار قريش للمؤمنين ، وبخاصة عبد الله بن الزبعرى قبل إسلامه : إنكم ما تتبعون إلا رجلا قد سُحِر ، فجُن ، فخف عقله ، فهذى (تراجع الصفحتان ٣٧ و ٣٨ من تفسير الجزء الخامس عشر) .

٦ — انظر يا محمد كيف قالوا فيك هذه الأقاويل العجيبة ، الجارية فى غرابتها مجرى الأمثال ، باحتياجك إلى ملك يؤيد رسالتك ، وإلى مال يأتيك من السماء تنفقه على نفسك وأهلك ، وزعموا أنك خفيف العقل من سحر وقع لك ، فضلوا بذلك عن الطريق الموصل إلى الهدى ، وخبطوا خبط عشواء ، فهم لا يستطيعون سبيلا إلى النيل منك ، والقدح فى نبوتك ، فسر فى طريقك ، وأنا مؤيدك وناصرك ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

(٣)

من الآية العاشرة إلى الآية السادسة عشرة من سورة الفرقان

تَبَارَكَ الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ : جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا –١– . بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ، وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ، إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ، سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا –٢– . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ ، دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ، لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا ، وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا –٣– . قُلْ : أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ؟ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ، لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ؟ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أعتدنا	أعددنا وهيأنا .
إذا رأتهم من مكان بعيد	إذا كانت بمرأى منهم من أقصى مكان يمكن الرؤية منه .
سمعوا لها تغيظاً	سمعوا لها صوت غليان واضطرام ، كصوت المغتاظ .
وزفيراً	وصوتاً يشبه صوت المختنق حين يخرج من جوفه .
مكاناً ضيقاً	فى مكان ضيق .
مقرّنين	ضمت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل .
دعوا هنالك ثبوراً	تمنوا حينئذ الهلاك ، ليستريحوا من عذابهم الأليم .
ادعوا ثبوراً كثيراً	اطلبوا هلاكاً متعدداً ، لأن عذابكم سيكون على ألوان مختلفة .
أذلك خير	أهذا السعير المؤلم خير ؟
أم جنة الخلد	أم جنة النعيم المقيم ؟
جزاء ومصيراً	جزاء على أعمالهم ، ومصيراً ينتهون إليه .
وعداً مسئولا	وعداً جديراً بأن يسأل ويطلب .

مجمل المعنى

١ — تكاثر خير الله الذى إن شاء جعل لك خيراً مما اقترحه الكفار ، وعيروك فقده ، فيحقق لك فى الدنيا مثل ما وعدك به فى الآخرة ، هذا الخير هو أن يجعل لك فى الدنيا جنات تجرى من تحتها الأنهار ، لا جنة واحدة

كما اقترحوا ، ويجعل لك قصوراً عظيمة الشأن ، رفيعة البنيان ، تقيم فيها ، ولكنك زهدت فى الدنيا وحطامها ، فالأمر معلق على محض مشيئة الله ، وليس لأحد حق الاقتراح على الله ، وحين سأله سليمان أن يهب له ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، سخر له الريح والشياطين والطير وغيرها .

٢ — لقد أتى الكفار بأعجب مما قيل لك ، فلم يكتفوا بتكذيبك على الرغم من الدلائل القاطعة على نبوتك ، لقد كذبوا بيوم القيامة ، وغرتهم الحياة الدنيا فقصروا اهتمامهم على الحطام الدنيوى الزائل ، وظنوا أن الجاه والكرامة فى المال ، وطعنوا فيك لفقرك وكذبوك ، ولقد أعددنا لمن كذب بيوم القيامة ناراً ملتهبة ، شديدة الاستعار ، فإذا كان هؤلاء الكفار بمرأى منها ، سمعوا مع بعدهم عنها صوت غليانها واضطرامها ، الذى يشبه صوت الغضبان ، الذى يغلى صدره من شدة الغضب ، وصوت زفيرها الذى يخرج منها لشدة لهيبها واشتعالها ، فيشبه صوت زفير المغيظ المحنَق ، حين يشتد غيظه وحنقه .

٣ — وإذا ألقوا فى مكان ضيق من النار ، وهم مع ذلك مقرَّنون مسلسلون ، قد ضمت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ، تمنوا حينئذ الهلاك من هول ما يلقون ، ليستريحوا من هذا العذاب الأليم ، فيقال لهم على سبيل الاستهزاء : رويدكم ، لا تطلبوا اليوم هلاكاً واحداً ، فإنه لا يكفى لتخليصكم من العذاب ، واطلبوا هلاكاً كثيراً يتعدد بتعدد العذاب ، لأن عذابكم مع شدته وفظاعته ، سيكون على صور مختلفة ، وألوان متعددة ، فكلما نضجت جلودكم بدلناكم جلوداً غيرها لتذوقوا العذاب .

٤ — قل لهم يا محمد على سبيل التهكم والتقريع : أذلك السعير الذى أعد لكم خير ، أم جنة النعيم المقيم ، التى تفضل الله فوعد بها المتقين ، فكانت لهم

جزاء على أعمالهم ، ومصيراً ينقلبون إليه ؟ لهم فيها ما يشاءونه من فنون الملاذ والمشتهيات وأنواع النعيم ، يستمتعون به أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ؛ إن هذا الوعد الذى وعد الله به المتقين ، يسأله من وُعد به بقوله : « ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك » ، ويسأله الملائكة بقولهم : « ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم » .

(٤)

من الآية ١٧ إلى الآية ٢٠ من سورة الفرقان

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، فَيَقُولُ : أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هٰؤُلَاءِ ، أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ —١—. قَالُوا : سُبْحَانَكَ ! مَا كَانَ يَنْبَغِى لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ، وَلٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ، وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا —٢—. فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ، فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ، وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا —٣—. وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ ، وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ، أَتَصْبِرُونَ ؟ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا —٤—.

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
ويوم يجمع الله الكفار يوم القيامة .	ويوم يحشرهم
ومعبوديهم من غير الله كالملائكة والجن ، وعيسى وعزير .	وما يعبدون من دون الله
فيقول الله لهؤلاء المعبودين من ملائكة وغيرهم	فيقول
ما كان يصح لنا أن يكون لنا معبود غيرك ، فكيف نحمل غيرنا على عبادتنا ؟	ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء
حتى غفلوا عن ذكرك ، والتدبر فى آياتك ، والإيمان بك .	حتى نسوا الذكر
قوماً فاسدين ، عُمياً عن الحق .	قوماً بورا
فقد كذبكم أيها الكفار معبودوكم فى قولكم : إنهم آلهتكم .	فقد كذبوكم بما تقولون
فما تستطيعون أيها الكفار دفعاً للعذاب عنكم ولا نصراً .	فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً
ومن يظلم نفسه منكم بالإشراك بالله .	ومن يظلم منكم
إلا مَن إنهم يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق .	إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق
ابتلاء .	فتنة
أتصبرون على هذا الابتلاء ؟	أتصبرون

مجمل المعنى

١ — ذكّر الكفار يا محمد يوم يجمعهم الله يوم القيامة مع معبوديهم من الملائكة والجن ، وعيسى وعزير ، والأصنام التى ينطقها الله ، فيقول للمعبودين إثباتاً للحجة على ضلال عابديهم ، وتبكيتاً لهم : أأنتم أيها المعبودون أوقعتم عبادى هؤلاء الذين عبدوكم فى الضلال عن طريق الحق ، ودعوتموهم إلى عبادتكم فأعرضوا عن الاستماع إلى رسلى الذين أرسلتهم إليهم ، أم هم ضلوا طريق الحق بأنفسهم ؟ ونظير هذا قوله تعالى : « ويوم نحشرهم جميعاً ، ثم نقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ » وقوله حكاية عن عيسى عليه السلام : « أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ »

٢ — فيقول المعبودون متعجبين مما قيل لهم ، لأنهم ملائكة مطهرون أو أنبياء معصومون ، أو جمادات لا تقدر على شىء ، فلا يمكن أن يُضلوا عباد الله — يقولون : تنزيهاً لك أيها المولى عن كل ما لا يليق بك ! ما كان يصح أن يكون لنا معبود غيرك ، ونتولى أحداً دونك ، فكيف نحمل غيرنا على عبادتنا ، أو أن يتخذ له وليًّا غيرك؟ فنحن ما أضللناهم ، ولكنهم قوم لا يعترفون بالجميل لمن أسداه ، فقد متعت هؤلاء المشركين بالأموال والأولاد ، وإطالة العمر وسعة الرزق ، والصحة والسلامة من الأمراض ، وأسديت إليهم كثيراً من النعم ليعرفوا حقك ، ويشكروك على آلائك ، لكنهم استغرقوا فى الشهوات ، وانهمكوا فى اللذات ، حتى غفلوا عن ذكر

صنائعك ، والتدبر فى آياتك ، وتركوا الموعظة والعبرة ، فعبدونا من غير أن نكلفهم عبادتنا ، وكانوا قوماً فاسدين ، عُمياً عن الحق ، لا خير فيهم .

٣ — وعندما يتبرأ المعبودون من عابديهم ، يقول الله لهؤلاء العابدين : لقد كذبكم معبودوكم فى قولكم : إنهم آلهتكم ، وإنهم أضلوكم ، وإذن أيها الكفار قامت الحجة عليكم ، فلا تستطيعون دفعاً للعذاب عنكم ، ولا نصراً لأنفسكم من معبوديكم ، فمن جعل المخلوق شريكاً لخالقه فى العبادة ، فقد ظلم نفسه ، واستحق أن نذيقه عذاباً شديداً ، ونخلده فى النار .

٤ — وما أرسلنا قبلك يا محمد من المرسلين إلا مَن إنهم ليأكلون الطعام كما تأكل ، ويمشون فى الأسواق كما تمشى ، فكيف يتعجب الكفار من أنك تفعل كما كان يفعل من قبلك من الرسل ؟ وإن قيل لك ما سمعت ، فقد قيل قبلا للرسل من قبلك ، وجعلنا الدنيا دار ابتلاء ومحنة ، بعض الناس فيها يبتلى ببعض ، فابتلينا الأغنياء والفقراء بعضهم ببعض ، وكذلك المرضى والأصحاء ، فالغنى مختبر بالفقير ، فعليه أن يتصدق عليه ، ولا يسخر منه ، والفقير ممتحن بالغنى ، فعليه ألا يحسده على ما آتاه الله من فضله ، ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه إياه ، ولا يصح أن يقول المريض : لم لا أعافى كالصحيح ؟ أو يقول الأعمى : لم لا أكون كالبصير ، وقد روى أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ويل للعالم من الجاهل ، وويل للجاهل من العالم ، وويل للشديد من الضعيف ، وويل للضعيف من الشديد ، وويل للسلطان من الرعية ، وويل للرعية من السلطان » ، ولقد ابتلينا المرسلين بمن أرسلوا إليهم وبمن يناصبونهم

العِداء ، قال تعالى : « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً » ؛ أتصبرون أيها الناس على مايصيبكم من البلاء فتؤجروا ، أم لا تصبرون فيزداد غمكم وجزعكم ، وكان ربك بصيراً بمن يصبر أو يجزع ، وبمن يشكر على معافاته مما ابتلى به غيره ، ومن لا يشكر .

فهرس الجزء الثامن عشر من تفسير القرآن

تفسير القرآن الكريم

الجزء التاسع عشر

تأليف

محمود محمد حمزة

المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان

المراقب بوزارة التربية والتعليم

محمد أحمد برانق

المفتش العام بالتعليم الإعدادى



ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية ٢١ إلى الآية ٢٩ من سورة الفرقان

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ! لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا -١- . يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ، وَيَقُولُونَ : حِجْرًا مَحْجُورًا -٢- . وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ، فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا -٣- . أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ، وَأَحْسَنُ مَقِيلًا -٤- . وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ، وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا -٥- . الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ ، وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا -٦- . وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ، يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَا ! لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا -٧- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لا يرجون لقاءنا	لا يأملون لقاء عذابنا بسبب إنكارهم البعث .
لولا أنزل علينا الملائكة	هلا أرسل الله إلينا ملائكة !
وعَتوا عُتوًّا كبيراً	وطغوا طغياناً عظيما ، تجاوزوا فيه كل حدّ .
لا بشرى يومئذ للمجرمين	لا خير يوم القيامة بعفو أو شفاعة للكافرين .
حجراً محجوراً	حَرَاما محرماً .
وقدِمنا إلى ما عملوا من عمل	عَمدنا إلى ما فعلوه فى الدنيا .
هباء منثوراً	كالهباء المنتشر الذى يُرى فى شعاع الشمس عند فتح نافذة .
خيرٌ مستقراً	خيرٌ مكاناً يستقرون فيه .
وأحسن مَقيلا	وأحسن موضعاً يستشعرون فيه الراحة والاطمئنان .
تشقق السماء	تتشقق فتنهار الكواكب ، لاختلال ما بينها من تجاذب .
بالغمام	عند طلوع الغمام ، وهو غيم أبيض .
ونُزل الملائكة تنزيلا	ونُزِّل الملائكة بصحائف أعمال العباد تنزيلاً .
يعض الظالم على يديه	يندم الكافر على ما قدمت يداه .
عن الذكر بعد إذ جاءنى	عن القرآن بعد أن آمنت به ، وتمكنت منه .
خذُولا	يخذل من اتبعه ، ويتبرأ منه .

مجمل المعنى

١ — وقال الذين لا يأملون المصير إلى حكمنا يوم القيامة ، ولا يخافون لقاء العذاب فيه ، وينكرون البعث والحساب ، والثواب والعقاب ، كأبى جهل ومن شاكلته : — هلاّ أنزل علينا الملائكة ، فكانوا رسلاً من عند الله إلينا ، يُخبروننا بصدق محمد ، ودعوى رسالته ، أو نرى ربنا عياناً ، فيأمرنا بتصديقه ، ويعلمنا أنه رسوله إلينا ؛ ونظير هذا قوله تعالى : « أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً » ، (تراجع الفقرة الثالثة من الصفحة ٦٥ من تفسير الجزء الخامس عشر) ؛ لقد تكبر هؤلاء الكفار فى أنفسهم ، فطلبوا من الرسول فوق ما مَنح الله الأنبياءَ المصطفَين من عباده ، بل لقد تجاوزوا أقصى مراتب الطغيان ، فلم يكتفوا بالمعجزات التى عاينوها ، فاقترحوا لأنفسهم رؤية الذات المقدسة .

٢ — اذكر لهم أيها الرسول بعض أهوال يوم القيامة لعلهم يتعظون ، يوم يرون ملائكة العذاب يقولون لهم : لا بُشرى يومئذ للكافرين من عفو أو شفاعة ، فيقول الكفار لهم فى ذعر وخوف : حِجْراً محجوراً ، وهو لفظ كان يستعمل فى الجاهلية للاستعاذة ، يلقى الرجل آخر يخافه فى الشهر الحرام ، لثأر له عنده ، فيقول له : حجراً محجوراً ، أى حراماً محرماً عليك أن تنالنى بسوء فى هذا الشهر الحرام ، فلا يصيبه الموتور بأى أذى ، فإذا كان يوم القيامة ، ورأى الكفار ملائكة العذاب ، قالوا : حجراً محجوراً ، ظانّين أن ذلك ينفعهم فى الآخرة ، كما كان ينفعهم فى الدنيا ؛ وحجراً هنا : منصوبة على معنى : حجرَ الله عليكم حجراً محجوراً .

٣ — وقصدنا وعَمدنا إلى ما عمله الكفار فى الدنيا من المكارم ، كالصدقة ، وصلة الرَحم ، وقرى الضيف ، وإغاثة الملهوف ، ونُصرة المظلوم ، فأحبطنا ثوابه ، لفقدانه شرط قبوله وهو الإيمان ، وجعلناه فى حقارته وعدم جدواه ، كالغبار المنتشر ، الذى يظهر فى شعاع الشمس ، ينبعث من نافذة حين تنظيف الحجرة التى بها هذه النافذة ، ونظير هذا قوله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة . . . » (تراجع الصفحة ٩٢ من تفسير الجزء الثامن عشر .

٤ — أما أصحاب الجنة يوم القيامة — وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات — فإنهم ينزلون خير مكان يستقرون فيه ، وأحسن منزل ومأوى يستشعرون فيه الدعة والاطمئنان ؛ وأصل المقيل : المكان الذى يستريح الإنسان فيه مع أهله وقت القيلولة : منتصف النهار .

٥ — واذكر لهم أيها الرسول أهوال يوم القيامة ، إذا السماء انشقت ، يوم تتهاوى الكواكب لانعدام ما كان بينها من تماسك وتجاذب ، وينكشف الأمر عن طلوع الغمام المذكور فى قوله : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكةُ » ، (تراجع الفقرة الثانية من الصفحة ٨٨ من تفسير الجزء الثانى) ، ونزل الملائكة تنزيلاً ، ومعهم صحائف أعمال العباد .

٦ — السلطان القاهر يومئذ للرحمن وحده ، لا يشركه فيه أحد ، فيبطل كل تصرف لأحد من مخلوقاته ، ويكون الملك لله الواحد القهار ، ويكون هذا اليوم شاقاً شديداً على الكفار ، لما ينالهم فيه من الذهول ، وما يلحقهم من الذل والهوان .

٧ — واذكر لهم أيها الرسول يوم يَعَضّ الكافر على يديه — وهو عُقبة بن أبى مُعيط كما سيأتى — ندماً وأسفاً وحسرة وغيظاً ، يقول : يا ليتنى اتخذت

مع محمد طريقاً إلى النجاة والهدى ، وهو طريق الحق ، ولم تتشعّب بى طرق الضلالة ، الويل لى ! ليتنى لم أتخذ أُبىّ بن خلف خليلاً لى ، لقد أضلنى هذا الخليل عن القرآن والإيمان بمحمد ، بعد أن نطقت بالشهادتين ، وتمكنت من الإسلام ، فردَّنى عنه ، وكان هذا الخليل الضال المضل كالشيطان ، الذى يوالى الإنسان ، حتى إذا بلغ ما أراده من إضلاله ، خذله وتبرأ منه ،

عُقبَة بن أبى مُعَيط ، وأبىّ بن خَلَف

وقد نزلت هذه الآيات الثلاث فى عقبة بن أبى مُعيط ، كان يكثر مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعجبه حديثه ، وإن كان يكفُر به ، وكان لا يقدَم من سفر إلا صنع طعاماً يدعو إليه كثيراً من أهل مكة ، ، فصنع وليمة ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها ، فلبى الرسول دعوته ، ولكنه أبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل ، وكان أُبىّ بن خلف صديقه ، فعاتبه ، وقال له : صبأت ، فقال عُقبة : لا ، ولكن محمداً أبى أن يأكل من طعامى وهو فى بيتى ، إلا إذا نطقت بالشهادتين ، فاستحييتُ أن يخرج من بيتى قبل أن يطعم ، ففعلت ، فقال له أُبىّ بن خلف : وَجْهِى من وَجْهك حرام ، إلا إن أتيت محمداً فوطئت قفاه ، و بصقت فى وجهه ، فذهب إليه عُقبة فوجده ساجداً ، ففعل ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوتُ رأسك بالسيف ، ثم أسِرَ يوم بدر ، فأمر الرسول عليًّا بقتله ، فقال : أؤقتل دونهم ؟ فقال الرسول : « نعم ، بكفرك وعتوّك » ، فقال : ومَنْ للصِّبْيَة ؟ فقال الرسول : « النار » ، ثم قام علىٌّ فقتله .

وأما أبيّ بن خلف ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى قتله فى غزوة أحُد، فقد كان هذا اللعين حلف ليقتلنّ محمداً ، فبلغ ذلك رسول الله ، فقال : « بل أنا الذى أقتله إن شاء الله» ، وعلم هذا أبيّ ، فارتاع ، وقال لمن أخبره : أنشُدك الله : أسمعته يقول ذلك ؟ قال : نعم ، فلما كانت غزوة أحُد ، جعل هذا اللعين يلتمس غفلة من رسول الله ليحمل عليه ، فيحول دونه بعض المسلمين ، فلما رأى ذلك رسولُ الله ، تناول حربة فرماه بها ، فوقعت فى ترْقُوَته ، فسقط على الأرض يخور كما يخور الثور .

(٢)

من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٤ من سورة الفرقان

وَقَالَ الرَّسُولُ : يَا رَبِّ ، إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا . وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا –١– . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ! كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا –٢– . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ ، وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا –٣– . الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ ، أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا ، وَأَضَلُّ سَبِيلًا –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
اتخذوا هذا القرآن مهجوراً	تركوا هذا القرآن وهجروه ، وأعرضوا عنه .
عدوًّا	أعداء ، تستعمل للمفرد والجمع ، كقوله : « فإنهم عدو لى » .
كذلك لنثبت به فؤادك	أنزلناه منجماً كذلك ، ليتقوى بتنجيمه قلبك .

الألفاظ	شرحها
ورتلناه ترتيلاً	الترتيل فى الكلام : أن يأتى بعضه فى إثر بعض، على تؤدة وتمهُّل .
ولا يأتونك بمثل	ولا يأتونك لإبطال دعوتك باقتراح .
إلا جئناك بالحق	إلا أتيناك بالحق الذى يدفعه .
وأحسن تفسيراً	وأحسن بياناً وكشفاً .
يُحشرون على وجوههم إلى جهنم	يحشرون يوم القيامة مسحوبين على وجوههم إلى جهنم .
أولئك شرٌ مكاناً	أولئك هم فى شر منزلة .

مجمل المعنى

١ — لما أكثر الكفار من الاعتراضات الفاسدة ، والمقترحات الداحضة ، ضاق صدر الرسول عليه الصلاة والسلام ، فشكا إلى الله تعالى ما يعانيه من عناد قومه ، واستكبارهم عن قبول دعوته ، وإعراضهم عن الإيمان بالقرآن الذى أنزله عليه ، وذكر أن قريشاً تركوا القرآن المشتمل على ما فيه صلاحهم فى معاشهم ومعادهم ، وهجروه وصدوا عنه ، وزعموا أنه شعر أو سحر أو هذيان ، وقالوا : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه » ، وقالوا : إنه أساطير الأولين اختلقها محمد ، فرد الله عليه مواسياً مسلِّياً ، أن العاقبة للمتقين ، وأن كل نبىّ من الأنبياء الذين سبقوك ، ابتُلى بأعداء من الكفار يناوئونه ، ويصدون عن سبيله ، فاصبر كما صبروا ، واعتمد على ربك ، فإنه ناصرك عليهم ، وكفاه هادياً إلى طريق قهرهم وإذلالهم ، ونصيراً ينصرك عليهم .

٢ — وقال الذين كفروا : هلا أنزل الله على محمد القرآن دَفعة واحدة ، كما فعل فى التوراة والإنجيل ! وفات هؤلاء العصاة المتمردين ، أن إعجاز القرآن لا يتأثر بنزوله جملة أو منجماً ، فكان ينبغى ، أن ينظروا إليه من حيثُ إنه بهرهم بفصاحته ، وأفحمهم ببلاغته ، على أننا إنما أنزلناه عليك منجماً فى ثلاث وعشرين سنة ، لنقوى قلبك بتوالى نزول جبريل إليك ، وليسهل عليك وعلى من آمن بك حفظه وفهمه ؛ وقياس القرآن على التوراة والإنجيل قياس مع الفارق ، فإن موسى وعيسى كانا يعرفان القراءة والكتابة ، فنزل كل من التوراة والإنجيل مكتوباً ، يسهل على من تلقوهما قراءتهما ، أما أنت يا محمد فأمىّ ، لا تستطيع أن تقرأ القرآن وتحفظه ، إن نزل جملة واحدة ، — هذا — إلى أن تنجيمه كان مع مُقتَضَى أحوال المسلمين الاجتماعية ، فلم نفجأهم بأحكام الشرائع حتى لا تثقل عليهم ؛ وقد اشتمل على إجابة عن أسئلة ومقترحات للكفار ، تتابعت مرة بعد أخرى ، لهذا أتينا به نجماً بعد نجم ، وأنزلناه عليك طِوَالَ سِنِى رسالتك جزءاً جزءاً ، على تؤدة وتمهل .

٣ — ولا يأتيك الكفار باقتراح من الاقتراحات التى صارت تجرى مجرى الأمثال ، يحاولون به إبطال دعوتك ، والقدح فى نبوتك ، مثل حيازتك كنزاً تنفق منه ، ومثل إنزال الله مَلكاً يؤيد دعوتك ، ومثل إنزال القرآن جملة واحدة — لا يأتيك الكفار بمثل من هؤلاء ، إلا أتيناك بالحق الذى نقذفه على باطلهم فيمحقه ويدحضه ، يكون أحسن تفسيراً ، لما يتضمنه من الرد المفحم ، والحجة الناصعة .

٤ — قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين يحشرون يوم القيامة مسحوبين على وجوههم إلى جهنم ، لأنهم قالوا : إن محمداً شر خلق الله ، وأضلّهم ديناً — قل لهم : إنهم سيكونون يوم القيامة فى شر مكان ومنزل ، وهم أضل طريقاً ودينا ، لأنهم يعبدون ما لا يسمع ولا يعقل ، ولا يغنى عنهم شيئاً .

(٣)

من الآية ٣٥ إلى الآية ٤٤ من سورة الفرقان

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ، وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هٰرُون وَزِيرًا ، فَقُلْنَا : اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا —١— . وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ، أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ، وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا —٢— . وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ، وَقُرُونًا بَيْنَ ذٰلِكَ كَثِيرًا ، وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ، وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا —٣— . وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ، أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ؟ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا —٤— . وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا : أَهٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللّٰهُ رَسُولًا ؟ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ! وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا —٥— . أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ ؟ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ؟ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وَزيراً	معيناً مؤازراً .
فدمّرناهم تدميراً	فأهلكناهم إهلاكاً شنيعاً .
كذبوا الرسل	كذبوا رسولهم ، فكان قدحهم فى نبوته بمثابة تكذيب لجميع الرسل .
آية	عظة وعبرة .
وأعتدنا	وأعددنا وهيأنا .
أصحاب الرسِّ	أصحاب البئر ، ونبيهم شعيب عليه السلام .
وقروناً	وأمماً .
تبرنا تتبيراً	أهلكنا إهلاكاً فظيعاً .
القرية التى أمطرت مطر السوء	سَدُوم إحدى قرى لوط ، التى أمطرت حجارة .
أفلم يكونوا يرونها	أفلم يكن كفار قريش يرونها فى أسفارهم للتجارة؟
لا يرجون نشوراً	لا يتوقعون بعثاً يستوجب الحساب والعقاب .
إن يتخذونك إلا هزواً	ما يتخذونك إلا سخرية .
إن كاد ليضلنا	إن محمداً كادَ يُضلنا .
أرأيت من اتخذ إلهه هواه	اعجب يا محمد لهذا الكافر الذى اتخذ إلهه ما تهواه نفسه !
وكيلاً	حافظاً .
إن هم إلاّ كالأنعام	ما هم فى عدم تعقلهم إلا كالأنعام .

مجمل المعنى

١ — بعد أن بيّن الله أن لكل نبيّ أعداء من المجرمين ، أتبعه بذكر جماعة من الأنبياء ، وما حاق بهؤلاء الأعداء ، والمعنى : لست يا محمد أول من أُرسل فكُذب ، فلقد أنزلنا على موسى التوراة كما أنزلنا عليك القرآن ، وجعلنا معه أخاه هرون معيناً يؤازره ويعاضده ، فقلنا لهما : اذهبا إلى فرعون وقومه بدلائل توحيدنا الظاهرة فى الآفاق وفى أنفسهم ، وجاءت بها الرسل التى أرسلت قبلكما ، فذهبا إليهم ، وأظهرا المعجزات الباهرة ، والبراهين النيرة ، على صدق رسالتهما ، فكذبوها ، فأهلكناهم إهلاكاً شديد الوطأة ؛ (تراجع قصة سيدنا موسى فى الصفحات التى من ١٢ — ٢١ من تفسير الجزء التاسع ، والصفحات التى من ٧٦ — ١١٩ من تفسير الجزء السادس عشر) .

٢ — وأهلكنا قوم نوح لما كذبوه ، بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، تتابع فيها جيل بعد جيل ، لم يكن اللاحق فيها خيراً من السابق ، فكان نوح بينهم بطول مكثه فيهم ، بمثابة جملة من الرسل ، ولأن تكذيب أحد الرسل كتكذيب سائرهم — لمّا كذب قوم نوح رسولهم أغرقناهم بالطوفان ، وجعلنا إغراقهم عبرة للناس الذين أتوا بعدهم ، وأعددنا لكل من كفر برسلنا عذاباً أليماً فى الدنيا ، وسيحيق بهم عذاب أشد فى الآخرة ؛ (تراجع قصة سيدنا نوح فى الصفحات التى من ١٠١ إلى ١٠٤ من تفسير الجزء الثامن .

٣ — وكذلك أهلكنا عادا قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وأصحاب البئر — وهم قوم كانوا يعبدون الأصنام ، فأرسلنا إليهم شعيباً فكذّبوه ، فبينما هم حول بئر لهم ، إذا هى تنهار عليهم ، وخسفَ الله الأرض بهم وبديارهم —

وأهلكنا أمماً كثيرة بين هذه الأمم ، أرسلنا إليهم رسلاً فكذّبوهم ، فضربنا لهم الأمثال على لسان الرسل بما حدث لغيرهم فلم يتعظوا ، وبينّا لهم الآيات فلم يؤمنوا ، فأفنيناهم عن آخرهم ، إلا من آمن منهم .

٤ — ولقد مرت قريش عدة مرات فى أسفارهم إلى الشام للتجارة على سَدوم ، إحدى قرى قوم لوط ، التى أمطرها الله حجارة ، فأهلك أهلها لما أتوه من المنكر ، وعدم إطاعتهم رسولهم لوطاً ، أفلَمْ يَسترْع انتباههم ما حل بهذه القرية وبأهلها من الدمار والهلاك، فى أثناء مرورهم بهذه القرية ، فيتعظوا ؟ أم أنهم لكفرهم لا يتوقعون البعث يوم القيامة ، المستتبع للحساب والثواب ؟ ونظير هذا قوله : « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وباللّيل ، أفلا تعقلون ؟ » .

٥ — وإذا رآك الكفار كأبى جهل ومن على شاكلته ، فما يتخذونك إلا موضع هزئهم وسخريتهم ، يشيرون إليك ، ويقولون على سبيل الازدراء والاحتقار : أهذا الذى يزعم أن الله قد بعثه رسولاً إلينا ؟ إنه قد كاد يصرفنا عن آلهتنا من الأصنام التى نعبدها ، لولا أن ثبتنا عليها ، واستمسكنا بعبادتها ، وسوف يعلمون حين يرون العذاب الذى يستوجبه كفرهم وعنادهم مَن أضل سبيلاً ؛ وتدل هاتان الآيتان على مقدار ما عاناه المصطفى صلى الله عليه وسلم فى مجاهدة قومه .

٦ — انظر يا محمد وتعجب من جهل الكافر الذى اتخذ إلهه ما تهواه نفسه : يعبد حَجَراً ، فإن رأى حجراً آخر أحسنَ منه ، هجر الأول وَعبَد الأحسن ، فهو ينقاد لما تهواه نفسه ، ويبنى عليه أمر دينه ، مُعرضاً عن استماع الحق المؤيَّد بالبراهين الساطعة ، أفأنت تكون حفيظاً عليه ، تمنعه من الشرك ، وتحفظه من متابعة هواه ، وتحمله على الإيمان ، وتخرجه من هذا الفساد ؟ بل أتحسب أن أكثر هؤلاء الذين يعبدون ما لا يضرّ

ولا ينفع ، يسمعون كلامك سماع قبول ، ويفكرون فيما يقولون فيعقلون ، فتُجدى فيهم الآيات والحجج ، وتهتمّ بشأنهم ، وتطمع فى إيمانهم ؟ إنهم لا يُلقون إلى استماع الحق أذُناً ، ولا إلى تدبرّه عقلا ، فما هم فى عدم انتفاعهم بما يقرع آذانهم ، وعدم تدبرّهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات ، إلا كالأنعام ، بل هم أضل منها سبيلا ، لأنها تنقاد إلى من يتعهدها ، وتميِّز من يحسن إليها ممن يُسىء إليها ، وتطلب ما ينفعها ، وتتجنب ما يضرها ، وهؤلاء لا يخضعون للحق ، ولا يعترفون بإحسان الله إليهم ، ولا يطلبون ثوابه ، ، ولا يخشون عقابه ، فمن اتبعوا الهوى كانت الأنعام أفضل منهم .

(٤)

من الآية ٤٥ إلى الآية ٥٤ من سورة الفرقان

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ؟ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا . ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا –١– . ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا –٢– . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا ، وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ، وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا –٣– . وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ، لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ، وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا –٤– . وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ، فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا –٥– . وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا . فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ، وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا –٦– . وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ : هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ، وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ، وَحِجْرًا مَحْجُورًا –٧– . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ، فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ، وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا –٨– .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
ألم تر إلى صنع ربك وقدرته ؟	ألم تر إلى ربك
كيف بسط الظل ؟	كيف مدّ الظل
ثابتاً مقيماً .	ساكناً
جعلنا الشمس دليلا على وجوده ، فلولاها ما عُرف .	جعلنا الشمس عليه دليلا
ثم أزلنا الظل الممدود بقدرتنا شيئاً فشيئاً ، وجزءاً فجزءاً .	ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً
ساتراً .	لباساً
راحة للأبدان .	سباتاً
بعثا للناس بعد النوم ، ينتشرون فى الأرض لطلب المعاش .	نشوراً
مبشرات أمام المطر ، الذى هو رحمة من الله ، جمع بُشور ، من البشرى .	بُشراً بين يدى رحمته
مطهراً .	طَهوراً
لنحيي بالماء بلدة لا نبات فيها ، فتدب فيها حياة النبات .	لنحيي به بلدة ميتاً
ونسقى ذلك الماء الطهور أنعاماً وإناساً ، وأناسى : جمع إنسىّ .	ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسىّ
كررنا هذا القول بين الناس فى القرآن والكتب السماوية .	صرّفناه بينهم
ليتذكروا نعم الله عليهم .	ليذكروا

الألفاظ	شرحها
كفوراً	جحوداً بنعم الله عليهم .
وجاهدهم به	جاهد الكفار بالقرآن ، مستعيناً بالله .
مَرَجَ البحرين	أرسل البحرين فى مجريهما متجاورين غير متمازجين .
عذب فرات	حُلو شديد العذوبة .
مِلْح أجاج	ملح شديد الملوحة .
برزخاً	حاجزاً يمنع اختلاط أحدهما بالآخر .
وحجراً محجوراً	وستراً ساتراً من الأرض ، يمنع اختلاطهما .
خلق من الماء بشرا	خلق من ماء الرجل عند مباشرته زوجته إنساناً .
نسباً	ذُكوراً ذوى نسب ، ينسبُ إليهم أبناؤهم .
وصهراً	إناثاً ذوات صهر .

مجمل المعنى

١ — من دلائل قدرة الله ، وتصرفه فى أمور الكون بما ينفع عباده ، أنه بسط لهم الظل ، فعم أرضهم من مَغيب الشمس إلى وقت طلوعها فى اليوم التالى ، ليطمئن الناس إلى الدّعة والراحة ليلاً ، بعد ما عانوه من الكدّ والعمل نهاراً ، والمعنى : ألم تر يا محمد إلى صنع ربك وقدرته ، وكيف مدّ الظل ؟ — والخطاب وإن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بحسب الظاهر من الآية ، فإنه عامّ فى المعنى — ولو شاء الله لجعل الظل ثابتاً مقيماً ، لا يزول ولا تنسخه الشمس ، ثم جعل الله الشمس دليلاً على وجود الظل ، فلولاها ما عَرَف الناس حقيقة الظل ، فبالشمس وسقوط ضوئها على الأجرام نعرف الظل ، لأن الأشياء إنما تعرف بأضدادها ، فعند شروقها يزول هذا الظل عما تقع عليه أشعة الشمس ، فكانت الشمس دليلاً

على وجود الظل، ويرى بعض المفكرين أن التصوير الشمسى ظل ساكن، وأن القرآن أشار إليه قبل اختراعه بما يقرب من أربعمائة وألف سنة، كما يرى بعض المفسرين أن « على » فى الآية بمعنى : مع ، وأن المراد : جعلنا الشمس مع الظل دليلاً على وحدانيتنا وكمال قدرتنا .

٢ — ثم أزلنا الظل الممدود ومحوناه إلى حيث أردنا عند شروق الشمس ، فعند شروقها يزول هذا الظل عما تقع عليه أشعتها قليلاً قليلاً ، وجزءاً جزءاً ، وتأتى عليه ، على حسب ما يستوجبه دوران الأرض الكُرِيَّة حول نفسها أمام الشمس ، فهى تطلع فى أفق ، فينقشع ما عند أهله من الظل ، وفى الوقت نفسه تغيب عن أفق ، فيمتد فيه الظل ؛ ولما عبّر الله تعالى عن بسط الظل بالمدّ ، عبرّ عن زواله بالقبض ، ونسبه إلى ذاته العلية ، لأنه مظهر من مظاهر قدرته .

٣ — والله سبحانه وتعالى هو الذى جعل الليل فى ستره الناس وغيرهم بظلامه كاللباس ، وجعل النوم فيه لراحة الأبدان بعد كدحها فى طلب رزقها فى أثناء النهار ، وجعل النهار لكى ينتشر فيه الناس للعمل والكدّ ، فيخرجوا من مضاجعهم لتحصيل معاشهم ، فكأنهم بعد نومهم فى أثناء الليل يُبعثون ، فتدب فيهم الحياة والحركة حين يصبحون ، كنشور الميت يوم القيامة ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول إذا أصبح : « الحمد لله الذى أحيانا بعد موتنا ، وإليه النشور » .

٤ — والمولى جل وعلا هو الذى أرسل الرياح مبشرات أمام المطر ، الذى هو رحمة من الله لعباده ، تأتى الرياح فتسوق السحاب ، فينزل المطر ، وأنزل من المطر ماء تامّ الطهارة — « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به » — وهذا الماء يُحيى الله به البلد القفر المجدب ، الذى كانت أرضه ميتة لعدم إنتاجها ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزّت ، ورَبت ، وأنبتت من كل زوج

بهيج ، كما يُسقى الله ذلك الماءَ الطهورَ الأنعامَ والناس من مخلوقاته ، وهم الذين يعيشون فى البوادى على ما تجود به عليهم السماء من المطر ، فلا يعيشون إلا على ماء المطر ، أما أهل المدن والقرى ، فإنهم يُقيمون غالباً على الأنهار ومجارى المياه والمنابع ، فهم وما يقتنون من الأنعام فى غنى عن سُقيا السماء ؛ وفى هذا ما يدل على آلاء الله التى لا تعدّ ولا تحصى ، وخص الله الناس والأنعام بالذكر ، مع أن غيرهم محتاج إلى الماء احتياجهم إليه ، لأن الطير والوحش تستطيع أن تُبعدَ فى طلب الماء إن أعوزها ، ولم يقل الله : « بلدة ميتة » ، لأن البلدة فى معنى البلد .

٥ — ولقد كررنا هذا القول ، من إنشاء السحاب وإنزال المطر فى القرآن ، وفى الكتب السماوية ، ليفكر الناس فيه ، ويعرفوا كمال قدرة الله ، وتعدد نعمه ، فيقوموا بشكره ، فأبى أكثر الناس إلاّ جحوداً بنعمته ، وكفراً بها ، فهم لا يفكرون فيها ، ولا يستدلون بها على وجود الصانع الحكيم ، وعلى قدرته وإحسانه ، فبعضهم يقول : مُطرنا بنوء كذا ، معتقدين أن النجوم هى التى تُحدث المطر ، وتؤثر فى نزوله بذواتها .

٦ — ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية رسولا ، فتخف عليك يا محمد أعباء النبوة ، لكن بعثناك إلى أهل القرى كلها ، وقصرَنا الأمر فيها جميعاً عليك ، إجلالا لشأنك ، وتقديراً لكرامتك علينا ، وتفضيلا لك على سائر الرسل ، فقابل ذلك بالثبات والجدّ فى الدعوة لإظهار الحق ، ولا تطع الكفار فيما يقترحون عليك ، وما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم ، وجاهدهم بالقرآن جهاداً عظيما ، مستعيناً بعون الله وتوفيقه ، واجتهد فى القضاء على باطلهم ، ولا عليك إن أبوْا قبول الدعوة وأعرضوا عنك ؛ والنهى عن الشىء لا يقتضى أن يكون المنهىّ مشتغلا بما نهى عنه ، فقوله : « ولا تطع الكافرين » لا يقتضى أن الرسول قد سبقت طاعته لهم .

٧ — والله سبحانه وتعالى هو الذى جعل بقدرته البحرين متجاورين متلاصقين ، وأرسلهما فى مجاريهما ، كما ترسل الخيل فى المَرج ، أحدهما حلو شديد العذوبة ، سائغ شرابه ، والآخر ملح شديد الملوحة ، غير صالح للشرب ، وجعل بينهما حاجزاً من الأرض ، حتى لا يختلط ماء أحدهما بالآخر ، وساتراً يمنع اختلاطهما ، كأن كل واحد منهما يتعوّذ من الآخر أن يخالطه ، فيقول له : حجراً محجوراً ، كما كان العربىّ يستعيذ بالله إن قابله مَنْ له عليه ثأر فى الشهر الحرام ، (تراجع الفقرة الثانية من الصفحة الخامسة من تفسير هذا الجزء)

٨ — وقد اقتضت حكمة الله لبقاء النوع الإنسانى ، أن يخلق من ماء الرجل حين مباشرته زوجته ، بَشرا ، وأن يقسم البشر قسمين : قسما ذكوراً ذوى نسب ، ينسب إليهم أولادهم ، فيقال فلان ابن فلان ، أو فلانة بنت فلان ؛ وقسما إناثاً ذوات صهر ، ونظير هذا : « فجعل منه الزوجين : الذكر والأنثى » ، وكان ربك قديراً ، إذ خلق من النطفة بَشراً ذكراً أو أنثى ، ذا أعضاء مختلفة ، وأخلاق متباينة .

(٥)

من الآية ٥٥ إلى الآية ٦٢ من سورة الفرقان

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ، وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا . وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . قُلْ : مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا —١— . وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ، وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا —٢— . الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، الرَّحْمٰنُ ، فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا —٣— . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ : اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ ، قَالُوا : وَمَا الرَّحْمٰنُ ؟ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ؟ وَزَادَهُمْ نُفُورًا —٤— . تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا ، وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا . وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ ، أَوْ أَرَادَ شُكُورًا —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ظهيراً	معاوناً للشيطان ، مظاهراً له ، بطاعته إياه .
إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً	لكن من شاء أن يتقرب إلى ربه بالإيمان والبر فليفعل .
وسبِّح بحمده	ونزه الله عن كل ما لا يليق به ، مثنياً عليه ، شاكراً له .
وكفى به بذنوب عباده خبيراً	وكفى بالله مطلعاً على ذنوب عباده .
فى ستة أيام	فى ستة أطوار .
استوى على العرش	استوى : استولى ، والعرش : الملك والسلطان .
فاسأل به خبيراً	فاسأل عن المولى القادر أيها الكافر خبيراً ، يخبرك بصفاته .
أنسجد لما تأمرنا	أنسجد لما تأمرنا بالسجود له ، مع أننا لا نعرفه؟
تبارك	تعاظم قدره ، وازدادت بركته .
بُروجاً	البروج : المنازل ، وهى اثنا عشر برجاً .
سراجاً	شمساً مضيئة .
خِلْفَة	يخلف كل منهما الآخر .

مجمل المعنى

١ — لما عدد الله نعمه ، وبيّن كمال قدرته ، كان مما يدعو إلى العجب أن الكفار ما زالوا يعبدون من دون الله الأصنام التى لا تنفعهم إن عبدوها ، ولا تضرهم إن تركوها ، وأن يكون الكافر مُظاهراً للشيطان على ربّه بعبادته ، معاوناً له بإشراكه ، فلا يحزنك يا محمد ما تلقاه من عنادهم ، ولا عليك إن لم يؤمنوا ، فما أرسلناك إلا مبشراً للمؤمنين بالجنة ، ومخوفاً الكافرين بالنار ، وقل لهم : أنا لا أسألكم على تبليغ ما أرسلت به إليكم أجراً لنفسى ألبتة ، إنْ أجرى إلا على الله ، لكن من شاء منكم أن يتخذ لنفسه إلى ربه طريقاً إلى مرضاته ، والتقرب إليه باتباع دينى ، وإنفاق بعض ماله فى سبيل البر ، فليفعل .

٢ — وتوكل يا محمد فى دعوتك على الحىّ الذى لا يموت ، واعتمد عليه فى دفع شرور الكفار ، وحمايتك من أذاهم ، ولا تعبأ بتظاهرهم عليك ، فإنه الجدير بالتوكل عليه دون غيره من الأحياء المعرّضين للموت فى كل لحظة ، فإذا ماتوا ضاع من كان يتوكل عليهم ، أما المولى جل وعلا فإنه حىّ لا يموت ، لا يضيع من يتوكل عليه ، ونزّه الله عن كل ما لا يليق به ، مثنياً عليه ، شاكراً له آلاءه ، وحسبك الله عالماً بذنوب عباده ، مطلعاً على ما ظهر منها وما بطن ، ولا تعبأ بإصرار من كفر على كفره .

٣ — والله الحىّ الباقى ، الخبير بجميع عباده ، الجدير بالتوكل عليه ، هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما من هواء وغيره فى ستة أوقات ، على أطوار مختلفة ، (تراجع الفقرة الأولى من الصفحة ٩٧ من تفسير الجزء الثامن) ، ولو شاء أن يخلقهما فى لحظة لفعل ، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له :

كن ، فيكون ، ولكنه أراد أن يعلم عباده الرفق والتأني فيما يأتون به من الأمور ، ثم استولى على هذا الكون ؛ والمراد بالاستيلاء على العرش : الإخبار بعُلوّ مجده ، وبسط سلطانه على ملكوته ، أى أنه ليس له فى العظمة والجلال شبيه ، وليس له فى علوه ومجده وسلطانه شريك ، وليس المراد من « ثم » أن يكون هذا الملك والسلطان بعد خلق السموات والأرض ، بل المراد أنه بعد خلقهما بسط سلطانه ونفوذه عليهما ، وهو الرحمن الواسع الرحمة لعباده ، فاسأل أيها الكافر المعاند المغرور الجاحد ، عليماً به ، يخبرك بصفاته وأسمائه ، وباهر قدرته ، واسأل خبيراً من أهل الكتاب ، ينبئك به.

٤ — حدث أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الذى تقوله شعر ، فقال عليه الصلاة والسلام : الشعر غير هذا ، إنْ هو إلا كلام الرحمن ، فقال أبو جهل : بخٍ بخٍ ؛ لَعمرى والله إنه لكلام الرحمن الذى باليمامة ، وهو الذى يعلمك ، فقال له رسول الله : الرحمن : الذى هو إله السماء ، ومِن عنده يأتينى الوحى ، فقال أبو جهل : يا آل غالب ، من يعذِرُنى من محمد ؟ يزعم أن الله واحد ، وهو يقول : الله يعلمنى والرحمن ، ألستم تعلمون أنهما إلهان ؟ ثم قال : ربّكم الله الذى خلق هذه الأشياء ، أما الرحمن فهو مُسيلِمة ؛ والمعنى : وإذا قال الرسول للكفار : اخضعوا للرحمن ، وآمنوا بوحدانيته ، بدلا من خضوعكم للأوثان ، قالوا منكرين متعجبين : وما الرحمن ؟ متجاهلين أنه اسم من أسماء الله ، ومتظاهرين بأنهم لا يطلقون الرحمن إلا على رحمان اليمامة ، وهو مسيلمة الكذاب ، وقالوا : أنخضع لما تأمرنا أنت يا محمد بالخضوع له ؟ وزادهم الأمر بالخضوع للرحمن ، والاعتراف بوحدانيته ، نفوراً عن الإيمان ، وتباعداً عنه ، إمعاناً فى العناد .

٥ — تعاظم شأن المولى جل وعلا ، الذى جعل فى السماء اثنى عشر برجاً — هى الحَمَل والثور ، والجَوْزاء والسَّرَطَان ، والأسد والسُّنْبُلة ، والميزان والعقرب والقوس والجدى ، والدلو والحوت ، وهى منازل الكواكب السبع السيارة ، لكل كوكب بُرجان منها ، ما عدا الشمس والقمر ، فلكل منهما برج واحد ، وجعل فى البروج شمساً مضيئة نهاراً ، وقمراً ينير الأرض ليلاً إذا طلع ؛ وهو الذى جعل الليل والنهار متعاقبين ، يخلف كل منهما الآخر ، ليكون دليلاً على كمال قدرته ، وباهر حكمته ، لمن أراد أن يفكر فى صنع الله ، فيعلم أن هذا التعاقب لا بدّ له من صانع حكيم ، قادر رحيم ، وأراد شكر الله على آلائه التى لا تحصى ، ولا يمكن أن تستقصى .

(٦)

من الآية ٦٣ من سورة الفرقان ، إلى آخر السورة

وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ ، قَالُوا : سَلَامًا ، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا ، اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ، وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ، وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَامًا ، وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهًا آخَرَ ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللّٰهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا : يُضَاعَفْ لَه الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ، فَأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ اللّٰهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللّٰهُ غَفُورًا رَحِيمًا . وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللّٰهِ مَتَابًا ، وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا ، هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ، وَاجْعَلْنَا

لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً —١— . أُولٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ، وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً ، خَالِدِينَ فِيهَا ، حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا —٢— . قُلْ : مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ، فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يمشون على الأرض هوناً	يمشون على الأرض مشياً هيناً ، فى سكينة وتواضع .
قالوا : سلاماً	قالوا قولا يسلمون به من الإثم والإيذاء .
غراماً	دائماً ملازماً .
ولم يقتروا	ولم يضيّقوا تضييق البخيل .
قواماً	وسطاً .
أثاماً	عقاباً جزاء ما فعل .
ويخلد فيه مهاناً	ويستمر فى العذاب دائماً ذليلاً حقيراً .
يبدل الله سيئاتهم حسنات	يمحو سوابق معاصيهم ، ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم .
يتوب إلى الله متاباً	يرجع إلى الله رجوعاً مرضياً عنده .
باللغو	ما يجب أن يلقى ويطرح من الكلام القبيح .
مرّوا كراماً	أعرضوا عنه تكرّماً .
لم يخروا عليها صُماً وعُمياناً	لم يُكبوا عليها غير متبصرين بما فيها .

الألفاظ	شرحها
قرّة أعين	مَن نراهم يَسُرُّوننا بطاعتهم إياك .
واجعلنا للمتقين إماماً	واجعلنا قدوة للمتقين فى أمور الدين .
يُجزون الغرفة	يثابون بالدرجة العليا فى الجنة .
ما يعبأ بكم ربى	ما يعتد بكم ربى ، ولا يكترث بأمركم .
لولا دعاؤكم	لولا أنكم تدعونه عند الشدائد ليكشفها عنكم .
فسوف يكون لزاماً	فسوف يكون العذاب ملازماً لكم .

مجمل المعنى

١ — عباد الرحمن الذين يستحقون ثوابه ، وينزلهم فى أعلى درجات الجنة يوم القيامة ، هم :

(ا) الذين يمشون على الأرض مشياً هيناً ، فى رفق وتؤدة وَهوادة ، وسكينة وتواضع ، دون مرح وتبختر ، ودون اختيال وتكبر ، وإذا خاطبهم السفهاء الجهال بما يكرهون ، ردوا عليهم ردًّا يسلمون به من الإيذاء والإثم ، وأغْضَوا عن سفاهتهم ، ولم يقابلوهم فى ردهم عليهم بمثل ما تفوهوا به ، بل قابلوا إساءتهم بالإحسان ، وشدتهم باللطف واللين ، وجهلهم بالحلم والرفق .

(ب) والذين يُحْيُون هزيعاً من الليل فى عبادتهم ، ليكون تهجدهم وصلاتهم فيه بعيدَين عن مظنة الرياء .

(حـ) والذين — مع طاعتهم ، والإقبال على عبادتهم ، وحُسْن مخالطتهم للخلق ، واجتهادهم فى الحق — يدعون ربهم ألا يَزلوا زللا يغضبه ، فهم

يخافون الله دائماً، وَيخشَوْن عذابه ، ويبتهلون إليه أن يصرف عنهم عذاب جهنم ، لعدم اعتدادهم بأعمالهم ، ووثوقهم باستمرارهم على حالهم ؛ إن عذاب جهنم دائم ملازم لمن دخلها ، واصطلى بنارها ، وهى بئس المستقر والمقام ؛ ونظير هذا قوله تعالى : « والذين يُؤتون ما آتوا ، وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » .

(د) والذين إذا أنفقوا لم يجاوزوا الحد اللازم فى إنفاقهم، ولم يضيقوا على أنفسهم وأُسرهم تضييق البخيل الشحيح ، بل كان إنفاقهم وسطاً بين الإسراف والتقتير ، فلا يزيد إلى حد يصل بهم إلى الفقر ، ولا ينقص إلى حد يصل بهم إلى الضّنّ بما هو ضرورى ، ونظير هذا قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً » ، والنفقة فى معصية — قلّت أو كثرت — حرام .

(هـ) والذين لا يعبدون مع الله إلهاً آخر — فإن الشرك به ظلم عظيم ، لما فيه من تسوية الخالق الرازق بغيره ، ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؛ ولا يقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، فلا يتعدون على حياة غيرهم ، ما لم يكن القتل فى قصاص ، أوخروج على إمام ، أوردّة عن الإسلام ، أو سعى فى الأرض بالفساد — ولا يقترفون معصية الزنى ، ومن يفعل واحدة من هذه المعاصى الثلاث ، يلق جزاء ما فعل عقاباً له على إثمه : يضاعف له العذاب يوم القيامة بتتابعه عليه ، ويخلُد فيه منبوذاً مطروداً ، ذليلاً مهاناً ، فيجتمع عليه العذاب الجسمانى والروحانى ، لأنه ضم إلى الكفر أفظع المعاصى ، إلا من تاب من الكفار والزناة من المعاصى ،

بتركها ، والندم على ما فعل ، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وعمل عملا صالحاً بعد توبته ، فأولئك يمحو الله سوابق معاصيهم بالتوبة ، ويثبت مكانها لواحق طاعتهم ، ويوفقهم إلى عمل أضداد ما سلف منهم ، وكان الله غفوراً رحيماً ، يقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويثيب على الطاعات ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » ؛ ومن تاب من أى ذنب عمله — سوى ما يتعلق بحقوق العباد — وعمل عملاً صالحاً يتلافى به ما فرط منه ، فإنه بهذا يرجع إلى الله رجوعاً حسناً مرضيًّا عنده ، مكفِّراً للذنب ، ماحياً للعقاب ، محصلا للثواب .

(و) والذين لا يشهدون شهادة باطلة ، مهما كان الباعث عليها ، وإذا مرّوا مصادفة بالكلام القبيح ، والفحش من القول ، أو سمعوا ما لا يرضون من القول ، أعرضوا عنه تكرّماً وترفعاً إعراض الكرام ، مكرِّمين أنفسهم عن مجاراة السفيه ، مؤثرين الصفح والعفو .

(ز) والذين إذا وُعظوا بآيات القرآن خروا سُجَّداً وبُكيًّا ، ولم يُقبلوا عليها غير واعين لها ، ولا متبصرين بما فيها ، كمن لا يسمع ولا يبصر ، بل أكبوا عليها ، سامعين بآذان مصغية ، مبصرين بعيون راعية .

(ح) والذين يسألون ربهم أن يَهب لهم من أزواجهم وذرياتهم ما تقر به عيونهم ، وتنشرح له صدورهم ، بأن يوفقهم الله إلى طاعته ، وإلى التحلى بمكارم الأخلاق ، وحميد الصفات ، فإن المؤمن الصادق الإيمان ، إذا شاركه أهله فى طاعة الله سُرَّ بهم قلبه ، وقرت بهم عينه ، بل ليس شىء أسرّ للمؤمن من أن يرى أفراد أسرته دائبين

على طاعة الله ، مؤدين لواجباتهم الدينية ، لأنه يتوقع لقاءه بهم في الجنة ، كما يسألونه أن يجعل منهم ومن ذريتهم بتوفيقه وتيسيره ومنته أئمة في التقوى ، يقتدى بهم المتقون ، ويستهدون بهديهم ، وينتفعون بتفقههم في الدين .

٢ — أولئك الذين وصفهم الله في هذه الآيات هم المؤمنون حقًّا ، وهم عباد الرحمن حقًّا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وهم الذين يُجزون يوم القيامة الدرجات العليا ، بسبب صبرهم على مشاق الطاعات ، والإعراض عن الشهوات ، ومجاهدة النفس الأمارة بالسوء ، ويُلَقَّوْن في غرف الجنان تحية وسلاماً من الملائكة ، وهم مخلدون في الجنة ، مقيمون فيها أبداً ، لا يموتون ولا يخرجون ، ونعمت الجنة مستقرًّا ومُقاماً لعباد الرحمن هؤلاء .

٣ — قل يا محمد لأهل مكة : ما يعتد الله بكم ، ولا يكترث بعبادتكم ، ولا يبالى عصيانكم ، فهو غنىّ عنكم ، ولا وزن لكم عند ربكم ، لولا دعاؤكم إياه عند نزول المكروه ، واستغاثتكم به عند الشدائد ، ونظير هذا قوله : «فإذا ركبوا في الفلك دَعَوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » ؛ فأنتم تدعُونه حينئذ ليكشف الضر عنكم ؛ وكيف يعبأ بكم وقد كذبتم رسوله ، وطعنتم في القرآن الذى أنزله عليه ، وتكبرتم عن الإيمان ؟ فسوف ترون ما يحل بكم ، سوف يكون العذاب الذى ينزل بكم جزاء تكذيبكم عذاباً لازماً دائماً ، يحيق بكم لا محالة ؛ وقد ظهرت مقدمة هذا العذاب في الدنيا في وقعة بدر ، إذ قُتِل فيها سبعون من صناديد قريش ، وَسيلقون العذاب الأليم في الآخرة ، يوم يبطش الله بهم البطشة الكبرى ، وينتقم منهم أى انتقام .

سُورَةُ الشُّعَرَاء

نزلت بمكة ، ماعدا الآية ١٩٧ ، والآيات التى من ٢٢٤ إلى آخر السورة ، فإنها نزلت بالمدينة ، وآياتها ٢٢٧ آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية التاسعة

طسم ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ —١— . لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ —٢— إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً ، فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ —٣— . وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ —٤— . فَقَدْ كَذَّبُوا ، فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ —٥— . أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ؟ —٦— . إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ —٧— . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
طسم	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول.
والكتاب المبين	والقرآن المبين للأحكام الشرعية، الفاصل بين الحق والباطل .
لعلك باخع نفسك	أشفق على نفسك أن تقتلها حسرةً على ما فاتك من إسلام قومك .
ألا يكونوا مؤمنين	من أجل عدم إيمانهم بذلك الكتاب المبين.
آية	دلالة واضحة تلجئهم إلى الإيمان .
فظلت أعناقهم لها خاضعين	فتظل أعناقهم منقادة خاضعة لها ، وإذا ذلت أعناقهم ذلوا .
وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث	وما يأتيهم من موعظة مجددة من الله بمقتضى رحمته .
إلا كانوا عنه معرضين	إلا جددوا إعراضهم عما يأتيهم من المواعظ .
فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون	فسيأتيهم لا محالة من العقوبات ما يجعلهم يعرفون حقيقة القرآن الذى كانوا يستهزئون به .
أو لم يروا إلى الأرض	أفعلوا ما فعلوا من الإعراض والاستهزاء ، ولم ينظروا إلى عجائب قدرتنا فى الأرض ؟
كم أنبتنا فيها	كثرة ما أخرجنا فيها من صنوف النبات .
من كل زوج كريم	من كل صنف طيب نافع .
إن فى ذلك لآية	إن فى كثرة إنبات تلك الأصناف المتعددة من النباتات ، لدلالة واضحة على قدرة الله .

مجمل المعنى

١ — هذه الأحرف التى بدأنا بها هذه السورة، تتكون منها ومن غيرها آيات القرآن المعجز بأسلوبه ، الواضحة دلائله ، الفاصل بين الحق والباطل ، المبين للأحكام الشرعية ، الذى تعذر عليكم أن تأتوا بمثله ، وعجزتم أن تسيروا فى مضماره .

٢ — إنك يا محمد حريص على أن يؤمن بهذا الكتاب قومك ، وتكاد تقتل نفسك حزناً وغمّاً لتكذيبهم إياك، وعدم إيمانهم بما أنزل عليك من الآيات ، فأشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على عدم إيمانهم ، فلست مكلفاً أن يؤمنوا ، وما أنت إلا رسول تبلغ ما أنزل إليك من ربك .

٣ — إننا لو أردنا أن يؤمنوا بك جميعاً ، لأنزلنا عليهم من السماء آية عظيمة ، ودلالة قوية ملموسة ، تلجئهم إلى التصديق والإيمان بك ، فيظلون أمامها منقادين خاضعين ، ويلجئون إلى الإذعان إليها أذلاء صاغرين .

٤ — لكننا نعلم من دخائل نفوسهم ، وطبائع أحوالهم ، أنهم لا يتقبلون ما ننزل عليك من الآيات والذكر الحكيم ، بقلوب سليمة، وعقول مستعدة، فهم لذلك عن الآيات معرضون ، ولك مكذبون ، مهما حَرَصت على هداهم ، فما يأتيهم من موعظة مجدّدة من ربك ، ومن تذكير لهم بعد تذكير ، بمقتضى رحمته وواسع فضله ، إلا وهم مجددون الإعراض والتكذيب ، مستمرون فى الكفر والإنكار ، فلا رجاء فى هدايتهم ، ولا جَدْوى من حرصك على إسلامهم .

٥ — لقد بعثناك إليهم رسولا ، وأنزلنا ما أنزلنا من الآيات البينات ، والدلائل الواضحات ، فأعرضوا عنك ، وكذبوك واستهزءوا بك ، فلينتظروا ، فستأتيهم لا محالة

العقوبات العاجلة فى الدنيا ، والآجلة فى الآخرة ، وحينئذ يعرفون حقيقة أنباء الوعيد والتهديد التى جاءت فى القرآن ، وكانوا بها يستهزئون .

٦ — أفعلوا ما فعلوا من الإعراض عن الآيات ، والتكذيب بها ، دون أن ينظروا إلى آثار قدرتنا فى الأرض، الداعية إلى الإيمان ، الزاجرة عن الإعراض والتكذيب ؟ ! ودون أن يروا كثرة ما أنبتنا فيها ، من صنوف طيبة متنوعة من النباتات الحسنة النافعة ، التى يتخذون منها الكساء والغذاء والدواء .

٧ — إن ما أودعناه الأرض بقدرتنا من صلاحية لإنبات الصنوف الطيبة النافعة من النباتات ، لآية عظيمة موجبة للإيمان ، زاجرة عن الكفر ، ولكنهم لا يتدبرون قدرة الله فى خلقه ، وحكمته فى إبداعه ، فكان أكثرهم كافرين ، وقليل منهم مؤمنون ، لتماديهم فى الكفر والضلالة ، وانهماكهم فى الغىّ والجهالة .

٨ — وإن ربك لهو الغالب على أمره ، المتصرف فى ملكوته ، القادر على أن يعجل العذاب لهم ، الرحيم الذى يمهلهم ، ولا يأخذهم بغتة بالعقاب على كفرهم وتكذيبهم .

(٢)

من الآية ١٠ إلى الآية ٢٢ من سورة الشعراء

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى : أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ : قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ ؟ —١— قَالَ : رَبِّ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي ، فَأَرْسِلْ إِلَى هٰرُونَ ؛ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ ، فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ —٢— . قَالَ : كَلَّا ! فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ، إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ —٣— ، فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ ، فَقُولَا : إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ —٤— . قَالَ : أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ؟ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ —٥— قَالَ : فَعَلْتُهَا إِذَنْ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ، فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ، فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا ، وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ —٦— وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ —٧—

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وإذ نادى ربك موسى	واذكر يا محمد إذ دعا ربك موسى .
أن ائت القوم الظالمين	بأن اذهب إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وظلموا بنى إسرائيل بالاستعباد .
ألا يتقون	أما آن لهم أن يتقوا عاقبة الكفر والضلال ؟
ويضيق صدرى	وأخاف أن يضيق صدرى بتكذيبهم إياى .
ولا ينطلق لسانى	وأخاف أن يتلجلج لسانى ، ولا يكاد يبين عما يخطر ببالى من المعانى .
فأرسل إلى هرون	فأرسل جبريل إلى هرون بالوحى ، واجعله نبياً يعيننى على الرسالة .
ولهم علىّ ذنب	ولهم علىّ فى زعمهم عُقوبة ذنب على قتل القبطى .
كلا	لا تخف .
إنا معكم مستمعون	إننا سامعون ما يجرى بينكما وبينه ، فأعينكما عليه .
أن أرسل معنا بنى إسرائيل	أطلقهم يذهبوا معنا إلى فلسطين ، ولا تعذبهم .
ألم نربك فينا وليداً	لقد تعهدناك بالتربية فى حجرنا ومنازلنا وأنت طفل صغير ، فلم تَرْعَ حقوق التربية .
ولبثت فينا من عمرك سنين	وأقمت بيننا حتى بلغت الثلاثين من عمرك .
وفعلت فَعلتك	وارتكبت الذنب الذى ارتكبته بقتل القبطى .
وأنت من الكافرين	وأنت من الجاحدين للنعمة ، المنكرين لحقوق التربية .

الألفاظ	شرحها
من الضالين	من الجاهلين بأن الوكزة ستؤدى إلى القتل .
فوهب لى ربى حكماً	فمن علىّ الله بالنبوة والعلم ، وأزال عنى الضلالة والجهل .
وتلك نعمة تمنها علىّ أن عبدت بنى إسرائيل	أو تربيتك هذه نعمة تمنها علىّ ، وأنت قد استعبدت بنى إسرائيل وفتكت بهم ؟

قصة سيدنا موسى

تراجع قصة سيدنا موسى فى مواضع متفرقة من تفسير الجزء الأول ، وفى الصفحات التى من ١٢ — ٢١ من تفسير الجزء التاسع ، والصفحات التى من ١٠٣ — ١١٥ من تفسير الجزء الحادى عشر ، والصفحات التى من ٧٦ — ١١٩ من تفسير الجزء السادس عشر ، وسنفصل خبر ولادته فى تفسير الجزء التاسع عشر إن شاء الله .

مجمل المعنى

١ — لما نبه الله نبيه إلى ترك الأسف والحزن على عدم إيمان قريش ، وعلى تكذيبهم له ، ذكر قصة موسى ، وتكذيب فرعون وقومه له ، مَسْلاةً له ، وتبياناً لأن ما وقع له من قومه ، قد وقع لرسل غيره من قومهم ، فقال له : اذكر يا محمد إذا ساورك حزن وأسف لعدم إيمان قريش بك ، قصة موسى وقت أن أمره ربك أن يذهب إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وظلموا

بنى إسرائيل باستعبادهم وذبح أبنائهم ، وهم فرعون وقومه ، وأن يقول لهم : ألا تتقون الله وتخشون عقابه ، فلا تكفروا به ، ولا تظلموا عباده ؟

٢ — أجاب موسى ربه : يا إلهى ، إن فرعون علا فى الأرض ، واستقرت فى قلوب المصريين وبنى إسرائيل مهابته والخوف منه ، حتى قال لهم : أنا ربكم الأعلى ، وأخشى إذا أنا دعوتهم إلى عبادتك ، أن يدفعهم الخوف منه إلى تكذيبى ، فيمتلىء قلبى غمًّا وحزناً ، وإذا ضاق الصدر ، وحزن القلب ، انقطعت الحجة ، وانحبس الكلام ، فلا ينطلق به اللسان ؛ فأتوسل إليك يا إلهى أن تعيننى على تبليغ رسالتك ، وتنفيذ أمرك ، بمعاضدة أخى هارون ، ومعاونته لى ، وشد أزرى به ، فتصطفيه للنبوة ، وترسل إليه جبريل ليبلغه رسالتك ، وتكليفك إياه أن يكون لى معيناً ووزيراً ، هذا إلى أنى قتلت مصريًّا ، وللمصريين علىّ ثأر قتله ، والقصاص لدمه ، فأخاف أن يقتلونى به قَوَداً وقصاصاً ، فإن فعلوا أتَمَّ أخى الرسالة ، وأدى الأمانة .

٣ — أجاب الله موسى : لا تخف ، ولا تتوقع شيئاً من ذلك ، فإنك فى رعاية الله ، يحفظك من كل سوء ، وإنهم لو اجتمعوا على أن يضروك ما استطاعوا ، ما دام الله ناصرك وحاميك ، وقد استجبت لدعائك ، وجعلت أخاك رسولاً معك ، فاذهب أنت وأخوك مؤيداً بآياتى ومعجزاتى ، وسنكون أقرب إليك وإليهم من حبل الوريد ، نسمع ما يدور بينكما من الحوار ، وما يحصل من الكلام ، فنحفظك من شرّهم ، ونُمدك بالتأييد والنصر عليهم ..

٤ — فتوجَّهْ إلى مصر ، وقابل بها أخاك ، وستراه على علم بأمرك ، واذهبا معاً إلى فرعون ، وقولا له : إننا صاحبا الرسالة إليك من رب العالمين ، ربك

أنت ورب السموات والأرض ، فلا يليق بك أن تجترئ فتدعى الألوهية ، فعليك أن تثوب إلى الرشد ، وترجع إلى الحق ، وتؤمن بالله الواحد الأحد ، وأن تطلق سَراح بنى إسرائيل ، وتكف عن تعذيبهم ، وتدعهم ليخرجوا معنا إلى فلسطين .

٥ — أطاع موسى أمر ربه ، وقصد إلى مصر ، وذهب هو وأخوه إلى فرعون ، وقالا له ما أمرا به ، فاستخف بهما فرعون ، وسخر مما قالاه ، وضرب صفحاً عنه ، كأنه لا يعنيه ، ووجه إلى موسى كلاماً يَشوبه تحقير ، قائلا له : أليس لنا عليك حقوق ؟ وقد ربيناك فى بيتنا طفلاً ، ونشأت فى رعايتنا ، وأقمت بيننا سنين ، حتى ناهزت الثلاثين ، وصرت رجلاً أيِّداً قوياًّ ، فكفرت بنعمة التربية ، ثم جئت تنكر علينا الألوهية ، وتدعونا إلى عبادة ربك ، وقد ارتكبت تلك الفَعلة الشنيعة الفظيعة ، فقتلت فرداً من أفراد شعبنا ، وخادماً من خُدامنا ، وأنت من الكافرين لنعمة التربية ، الجاحدين للإحسان .

٦ — أجابه موسى عما يظهر أنه آثم فيه ، وهو قتله المصرى ، قائلاً : لقد وكزته فقضى عليه ، دفاعاً عن الإسرائيلى ، وانتصاراً له ، دون أن أقصد إلى قتله ، فعلت هذا وأنا ضالٌ جاهل ، لا يعرف أن هذه الوكزة ستؤدى إلى القتل ، ولو عرفت ما فعلت ، وقد خفت أن تأخذونى بقتل لم أرده ، وتقتلونى قصاصاً عنه ، فخرجت من مصر فراراً منكم ، وخوفاً من بطشكم ، إلى أرض مَدْين ، مكلوءاً برعاية الله ، محوطاً بلطفه ، فوهب لى سداد الرأى ، والقدرة على العمل ، والأمانة بين الناس ، واصطفانى لرسالته ، واجتبانى لنبوته .

٧ — وهل تربيتك لى وأنا طفل، كانت نعمة لك وفضلا ؟ وأنت قد استعبدت بنى إسرائيل، وقتلت أبناءهم، فكيف تذكر إحسانك إلىّ، وتنسى أنك قد سُمتَ قومى سوء العذاب ، وعاملتهم أقسى معاملة ، فإن كنت قد أسديت إلىّ نعمة ، فقد لاقى قومى منك الذل والهوان .

(٣)

من الآية ٢٣ إلى الآية ٣٣ من سورة الشعراء

قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ —١— قَالَ : رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ —٢— ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : أَلَا تَسْتَمِعُونَ ؟ —٣— قَالَ : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ —٤— ، قَالَ : إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ —٥— قَالَ : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ —٦— ، قَالَ : لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ —٧— ، قَالَ : أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُبِينٍ ؟ قَالَ : فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فَأَلْقَى عَصَاهُ ، فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ، وَنَزَعَ يَدَهُ ، فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إن كنتم موقنين	إن كنتم تعرفون الأشياء بالدليل والبرهان .
الأولين	السابقين من عهد آدم إلى الآن .
إن كنتم تعقلون	إن كنتم من العقلاء الذين متى عرفوا الحق أذعنوا له .
أوَ لوْ جئتك بشىء مبين	أتسجنُنى ولو جئتك بدليل ظاهر بيّن .
ثعبان مبين	ثعبان ظاهر ، فيه حركة وحياة .
ونزع يده	وأخرج يده من جيبه .

مجمل المعنى

١ — رأى فرعون أن المن والتهديد ، والتهكم والوعيد ، والإبراق والإرعاد ، لم يؤثر فى موسى ، وأدرك أنه لا يخشى قوته ، ولا ينثنى أمام سطوته ، ولم يشغله جبروته عن الأمر الذى جاء من أجله ، وهو دعوة فرعون إلى الإيمان ، وإنقاذ بنى إسرائيل من نير الجبروت والطغيان ، فأخذ يحدث موسى حديث الذى لا يبالى ، وقلبه قلب الحائر المنهزم ، فقال ، وأى شىء يكون ربّ العالمين ، وما علمت لكم من إله غيرى ؟

٢ — أجاب موسى : رب العالمين هو صاحب هذا الكون ، هو رب السموات والأرض ، ورب ما بين السموات والأرض ؛ وأىّ شىء تكون أنت ، ويكون ملكك وقومك فى ملكوت السموات والأرض ؟ فهو إلهك وإله الناس

أجمعين ، إن كنتم تجعلون لليقين والإيمان سبيلا إلى قلوبكم ، وإلى الحجة والبرهان طريقاً إلى عقولكم .

٣ — التفت فرعون إلى مَن حوله من أشراف قومه ، وقال لهم مستثيراً تعجبهم ، مستفزًّا غضبهم : ألا تستمعون ما يقوله لكم ، من أن للسموات والأرض ربًّا وخالقاً ؟

٤ — لم يَدعه موسى يغالطهم ، ويستهوى عقولهم ، فقال لهم : رب العالمين هو ربكم ، وصاحب الأمر فيكم ، لا فرعون الذى لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ، ورب آبائكم الأولين من عهد الخليقة ، قبل أن يوجد فرعون الذى يزعم الآن أنه إلهكم .

٥ — أُفحم فرعون ، وضاق ذرعاً بحجة موسى وصدق منطقه ، فلم يصبر على محاورته ، وخرج من المجادلة بالحجة والبرهان ، إلى رمى موسى بالجنون ، وافترى هذه الفِرْية ، ليصرف تفكيرهم عما يقوله موسى ، فقال : إن رسولكم الذى يزعم أنه رسول لكم من عند الله لمجنون ، حيث سوّلت له نفسه أن يدّعى أن لكم إلهاً غيرى .

٦ — أمعن موسى فى الإفحام ، واستمر فى عرض الحجة والبرهان ، فقال لهم : وهذا الشرق والغرب وما بينهما ، وما يطرأ عليهما من نور وظلام ، بسبب حركة الأرض والسموات على نمط بديع ، ووضع رصين ، لهما إله قادر حكيم ، أنشأهما وأبدعهما ، إن كنتم تعقلون ما أقوله لكم ، وتعرضونه على قياس الحجة والبرهان .

٧ — سُقط فى يد فرعون ، ورأى أن القوم كادوا يصدقون موسى ، ويؤمنون بالله ، ويُكذبون فرعون ، وينكرون أنه إله ، فأرغى وأزبد ، وأبرق وأرعد ، وتوعد وتهدد ، وقال : أقسم أنك إن اتخذت إلها غيرى ، وعبدت ربًّا سواى ،

لألقين بك فى السجن ، وأعذبك عذاباً شديداً ، كأحد المسجونين الذين سمعت بهم ، وعرفت حالهم .

٨ — سخر موسى من انقطاع حجة فرعون ، وبدا له ضعفه وانهزامه ، فأمعن فى الاستهزاء به ، والكشف عن حماقته وسفهه بين قومه ، فسأله : أوَ تسجننى إذا كفرت بك وآمنت بالله ، وعرضت عليك دليلاً واضحاً ظاهراً ، يدل على أنك مخلوق ضعيف ، وأن هناك إلهاً قويًّا حكيماً ، هو خالق المشرق والمغرب ، والأرض والسموات ؟ فاضطر فرعون أن يتخاذل ، وأعلن أنه ممن لا يرفضون الحجة ، ولا يأبون المعجزة ، وطمع فى أن يتحدى موسى ، وأن يظهر عَجزه ، فقال : فأت بهذا الشىء المبين ، وأحضر تلك الحجة البينة على أنك رسول رب العالمين ، إن كنت من الصادقين فيما تدعى ، وسرعان ما ألقى موسى عصاه على الأرض ، فإذا بها تنقلب ثعباناً بَيِّن الثعبانية ، فيه حياة الثعبان وحركته ، وسماته ولونه ، وخصائصه وَرَهبته ؛ قال فرعون : أو عندك آية أخرى ؟ قال موسى : نعم ، وأخرج يده ، وسأل فرعون : ما هذه ؟ قال : يَدك ، فأدخلها فى جيبه ونزعها ، فإذا هى بيضاء بياضاً مُشرقاً ، بَهرَ من اجتمع حول موسى وفرعون من الناظرين .

(٤)

من الآية ٣٤ إلى الآية ٥١ من سورة الشعراء

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ : إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ -١- يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ -٢- قَالُوا : أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ، وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ، فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وَقِيلَ لِلنَّاسِ : هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ؟ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ ، إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ -٣- فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ : أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ، إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَإِنَّكُمْ إِذَنْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ -٤- قَالَ لَهُمْ مُوسَى : أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ، فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ، وَقَالُوا : بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ -٥- فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ، فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ، قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ : رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ -٦- قَالَ : آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ؟ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ، فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ؛ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ، وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ

أَجْمَعِينَ —٧— قَالُوا : لَا ضَيْرَ ، إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ . إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ، أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ —٨—

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
للملأ حوله	لأشراف قومه المجتمعين حوله .
فماذا تأمرون	فبماذا تشيرون علىَّ فى أمر موسى ؟
أرجه وأخاه	أرجئه وأخاه ، ولا تسرع فى حبسهما أو قتلهما ، حتى لا تكون فتنة .
وابعث فى المدائن حاشرين	وأرسل فى المدائن شُرطتك ، يجمعون لك السحرة .
لميقات يوم معلوم	لوقت الضحا من يوم الزينة ، وهو يوم عيد وفاء النيل .
لمن المقربين	لمن المقربين عندك فى المرتبة والجاه .
بعزة فرعون	نقسم بعزة فرعون وقوّته .
تلقف ما يأفكون	تبتلع ما يزوّرونه بسحرهم ، ويمثلونه فى حبالهم وعصيّهم .
فألقى السحرة ساجدين	فخرَّ السحرة ساجدين خضوعاً لله .
آذن لكم	أمنحكم الإذن بالإيمان .
إنه لكبيركم	إن موسى لأستاذكم ومعلمكم .
لا ضير	لا ضرر علينا فى ذلك .
إنا إلى ربنا منقلبون	لأنا صائرون من التعذيب والقتل ، إلى ربنا .
أن كنا أول المؤمنين	لأننا كنا أول المؤمنين بإله موسى .

مجمل المعنى

١ — تحرج موقف فرعون ، وشعر أن سلطانه قد ضعف ، وحجته قد انقطعت أمام المعجزات الباهرات ، والآيات البينات ، التى فاجأه بها موسى بين المجتمعين حوله من أشراف قومه ، وأدرك أن هيبته كادت تضيع ، وأن عرشه الذى كان يتبوؤه ويقول لهم : أنا ربكم الأعلى ، قد زلزل زلزالا شديداً ، فأخذ يشككهم فى الحق الذى جاء به موسى ، والمعجزة التى لا مِرْية فيها ، فقال لهم : إن ما رأيتموه من موسى سحر ساحر عليم بفنه ، ماهر فى عرضه ، وليس بآية أو معجزة .

٢ — ثم أثار خوفهم على ملكهم وأبهتهم ، وحرك فيهم كوامن الإشفاق على وطنهم الذى نشئوا فيه ، وأرضهم التى تجود عليهم بالخيرات والثمرات ، فألقى فى رُوعهم أن موسى لم يأتهم رسولا من عند الله ، داعياً إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، لكنه جاءهم متذرعاً بالسحر ليستسلموا إليه ، ويذعنوا له ، ثم يستولى على أرضهم ، ويستعمر وطنهم بقومه بنى إسرائيل الأذلاء المستضعفين ، ثم قال لهم : وهأنذا قد نصحت لكم ، وكشفت عن حقيقة أمره بينكم ، فأشيروا علىّ بالرأى الذى ترون ، وسأنفذ لكم ما تأمرون فيه — وفى هذا ما يشعر بضعفه وخوفه — سبحان من جعل الطاغية المستبد ، من أهل الرأى والشورى ، فيستمد العون والرأى ، ويظهر الامتثال والخضوع لعبيده المستضعفين !

٣ — أشار عليه مَن حوله من أتباعه وشيعته ، بأن يرجئ الحكم على موسى وهارون ، ويؤخر قتلهما ، حتى يُطلع عامة الشعب على ما أتيا به من سحر وتَزوير ، فإن أمرهما قد شاع وذاع ، وظهر فى كل البقاع ، ومن الخير إبطال

سحرهما بسحر مثله ، ثم بعد ذلك يقتلهما ، ولهذا طلبوا إليه أن يبعث إلى المدائن رجال الشرطة ، ليجمعوا له منها مهرة السحرة فى وقت معلوم ، ليبطلوا سحر موسى ، فامتثل فرعون لأمرهم ، وأنفذ ما أشاروا به ، فانطلق الشرطة وأحضروا السحرة ، واجتمعوا فى وقت الضحا من يوم الزينة — وهو يوم عيد وفاء النيل — واستدعى الناس لهذا المجتمع من كل فج وصوب ، وحثهم أعوان فرعون على المبادرة إلى الاجتماع ، فقالوا لهم : هل أنتم مجتمعون ، ومسارعون إلى مشاهدة السحرة تأييداً لهم وتضامناً معهم ، وانتصاراً لفرعون على موسى ؟ وإنا لنرجو أن يكون النصر حليف سحرتنا ، وأن يكونوا هم الغالبين .

٤ — قبل أن يلتقى الجمعان ، وتبدأ المباراة ، ويحين وقت المنازلة ، استقبل فرعون السحرة ، وشجعهم ومناهم الأمانىّ ، فقالوا له : أتأجرنا إن غلبنا ، وتكافئنا إن انتصرنا ؟ فقال لهم فرعون : ليس هذا فحسب ، بل فوق ما أكافئكم به من المال ، سأرفع مقامكم بين رجال الدولة ، وأقربكم منى ، فأجعلكم أول الداخلين علىّ ، عند ما أستقبل الأمراء والأشراف والعظماء وعِلية القوم .

٥ — اجتمع فرعون والملأ من حوله ، وحضر السحرة صفًّا واحداً ، فى أيديهم حبالهم وعصيُّهم ، وجاء موسى وأخوه هارون ، فقال السحرة لموسى : إما أن تلقى ، وإما أن نكون نحن الملقين ، فأذن لهم موسى أن يلقوا ما لديهم من الحبال والعصى ، فألقوها واثقين بأنفسهم ، قائلين : نقسم بعزة فرعون إننا لنحن الغالبون لموسى ، بما أوتينا من مهارة فى السحر ، فألقوها ، وقد أبدعوا فيها من أنواع الدهاء والحيل والصناعة ، ما جعلها تظهر أمام النَّظَّارة كأنها تتحرك ، (تراجع الفقرة الرابعة من الصفحة ١٠٣ من تفسير الجزء السادس عشر .

٦ — وسُرعان ما ألقى موسى عصاه ، فانقلبت حية فيها جميع خصائص الحياة : روح وحركة وجسم ، فابتلعت جميع ما ألقاه السحرة من قبل ، من حبال وعصى قلبوها بسحرهم وتزويرهم عن حقيقتها ، وخيلوا أنها حيات تسعى ؛ حينئذ علموا أن ما أتى به موسى ليس سحراً ، وأنه آية من عند الله ظهرت على يد موسى ، ليؤمنوا به ويصدقوه ، فخروا من غير تردد ساجدين ، معلنين إيمانهم بربّ العالمين : رب موسى وهارون .

٧ — اشتد غيظ فرعون ، حيث هزمه مَنْ جمعهم لينتصر بهم ، وكفر به من أحضرهم ليثبتوا إيمان الناس به ، فذهب عقله ، وثار غضبه ، وانقلب يهددهم ويتوعدهم ، ويتهمهم بالتآمر والتواطؤ مع موسى عليه — وهكذا شأن الطغاة الجبارين ، يسرع إليهم الريبة والشك فى أخلص خلصائهم ، إذا خالفوا أمرهم ، أو أسدوا النصح إليهم — فقال منكراً عليهم ، مهدداً لهم : أآمنتم برب موسى وهارون قبل أن آذن لكم بذلك ؟ إن موسى كبيركم وأستاذكم فى السحر ، فأنتم تعلمتموه منه ، ولكنه أمهر منكم فيه ، فغلب سحره سحركم ، فأنتم مخدوعون لم تؤمنوا عن حق وبصيرة ، ولسوف تعلمون وبال ما فعلتم ، وعاقبة تآمركم وتواطئكم ، أقسم لأسومنكم سوء العذاب ، ولأنكلن بكم أشنع تنكيل ، ولأعذبن كل من يتبعكم أشد تعذيب ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم : يداً يمنى ورجلاً يُسرى ، لأمثل بكم تمثيلاً ، ثم لأصلبنكم جميعاً على جذوع النخل ، حتى تكونوا عظة وعبرة لمن يخالف أمرى ، ولا يذعن لألوهيتى .

٨ — هال فرعون أن القوم لم يَرُعهم تهديده ووعيده ، ولم يخشوا عقابه وتعذيبه ، لأن الإيمان ملأ قلوبهم ! — والإيمان قوة تعصم الإنسان من الخوف والضعف ، وتصرفه عن أوهام الباطل ، إلى التطلع إلى الحق — فقالوا لفرعون : افعل

ما بدا لك، فلا ضرر فيه علينا ، لأننا نريد أن نرجع إلى ربنا ، ونقابل وجهه الكريم فى الدار الآخرة ، فهذا المصير الذى تتوعدنا به ، من التعذيب والقتل، إنما هو غايتنا وأملنا فى الدنيا ، وكل ما نطمع فيه من كرم الله أن يغفر لنا ما ارتكبنا من خطايا ، فى الانتصار لك أول الأمر على موسى ، وفى فعل السحر الذى جمعتنا له ، وأكرهتنا عليه ، لأننا كنا أول من تبين الحق، وسبق إلى الإيمان والهدى، وصدّق ما جاء به موسى ، فلم نُصرّ على اتباعك ، ولم نبقَ على ضلالك .

(٥)

من الآية ٥٣ إلى الآية ٦٨ من سورة الشعراء

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى : أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ، إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ —١— فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ : إِنَّ هٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ، وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ —٢— فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، كَذٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِى إِسْرَائِيلَ ، فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ، فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ، قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى : إِنَّا لَمُدْرَكُونَ —٣— قَالَ : كَلَّا ! إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ، فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى : أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ ، فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ، وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ، وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ —٤— إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ —٥— .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
أرسلنا إليه جبريل بالوحى .	وأوحينا إلى موسى
أن سِرْ بعبادى بنى إسرائيل ليلاً ، حتى تنتهى إلى البحر .	أن أسر بعبادى
يتبعكم فرعون وجنوده .	متَّبَعون
جامعين للناس بعنف .	حاشرين
لطائفة قليلة لا نبالى بها لقلّتها .	لشرذمة
يفعلون أفعالا تغيظنا	لغائظون
دائمو التيقظ ، واستعمال الحزم فى الأمور .	حاذرون
من بساتين وأنهار جارية .	من جنات وعيون
أموال مكنوزة من الذهب والفضة .	وكنوز
ومنزل بهىّ بهيج .	ومقام كريم
مثل ذلك الإخراج الذى وصفناه .	كذلك
فلحقوهم وهم فى وقت شروق الشمس .	فأتبعوهم مشرقين
رأى أحدهما الآخر .	فلما تراءى الجمعان
قارب عدونا أن يدركنا ويلحق بنا .	إنا لمدركون
لا تخافوا .	كلاّ
إن ربى مطلع علينا وعليهم ، وهو معنا بنصره وتأييده ، وسيدلنى على سبيل النجاة منهم .	إن معى ربى سيهدين
فضرب البحر بعصاه فانشق أجزاء .	فانفلق
كل جزء كالجبل العظيم .	كل فرق كالطود العظيم

الألفاظ	شرحها
وأزلفنا ثم الآخرين .	وقربنا هناك الفريق الآخر من البحر .
أغرقنا الآخرين	أغرقنا فرعون وقومه .
إن فى ذلك لآية	إن فى انفلاق البحر ونجاة موسى وقومه ، وغرق فرعون وقومه ، لعبرة عجيبة .
أكثرهم	أكثر من سمعوا قصص الأمم المكذّبة .
العزيز	الغالب على كل ما يريده من الأمور ، ومن جملتها الانتقام من المكذبين .
الرحيم	الواسع الرحمة ، وكذلك يمهلهم ولا يعجل عقوبتهم .

مجمل المعنى

١ — شاع أمر موسى والسحرة الذين خرّوا لله ساجدين بين المصريين ، وضعفت الثقة بفرعون ، وقل الخوف الذى كان يملأ القلوب منه ، وخاف على ملكه أن يذهب ، فنشط إلى إحباط دعوة موسى ، بما لديه من قوّة وجبروت ، وإغراء وتضليل ، وأخذ موسى يدعو الناس إلى الحق سنين ، فاتبعه الأقلون ، وبقى على الكفر والضلال الأكثرون ، فأخذهم الله بعذاب من عنده ، بأن نشر فيهم الوباء والآفات والحشرات ، فأكلت الأموال والثمرات ، ثم أرسل الله جبريل إلى موسى ، فأوحى إليه أن يهاجر بقومه من مصر إلى فلسطين ، ويخرج بهم ليلا ، حتى إذا عرف فرعون وجنوده أمر خروجهم ، فاتبعوهم ولحقوا بهم ، كان لهم سبقٌ وتقدم عليهم ، بحيث لا يدركونهم قبل وصولهم إلى البحر ، بل يكونون على أثرهم حين يَلجون البحر ، فيدخلون وراءهم ، فيغرقون .

٢ — فلما وصل إلى علم فرعون أمر مَسراهم ، أرسل أعوانه وشرطته فى المدائن والأقاليم ، يجمعون الناس بالقوة ، ويسوقونهم وراء موسى وقومه ، ليدركوهم قبل أن يهربوا إلى فلسطين ، ولم يرد أن يظهر الخوف والفزع من موسى وبنى إسرائيل ، فأذاع فى مصر أن الفارين شرذمة ضئيلة ، وطائفة قليلة ، لا يُخشى شرها ، ولا يتوقع خطرها ، ولكنهم قد فَعلوا ما يغيظنا ، لهربهم من بلادنا — وقد كنا نسخرهم فى أعمالنا ، ونستذلهم — ولأخذهم أموالنا وحلينا . وإننا جميعاً لمتيقظون لهم ، دائمو الحذر منهم ، نتتبع حركاتهم ، ونرتقب ما يحدث منهم ، لا خشية من قوّتهم ، ولا توقعاً لغلبتهم ، ولكن من عادتنا التيقظ والحذر ، والمسارعة إلى إطفاء نار الفتنة قبل أن تستشري ، فلا يظن ظان أن شوكتنا قد كسرت ، وسلطاننا قد ضعف ، إلى حد الخوف من موسى وبنى إسرائيل .

٣ — وقد أوجد الله فى نفوس فرعون وقومه باعث الخروج فى إثر بنى إسرائيل ، وزّينه فى قلوبهم ، فخرجوا وراءهم يتبعونهم فى صحراء سيناء ، وتركوا وراءهم ما كانوا يتمتعون به من بساتين وجنات ، وعيون وأنهار ، وكنوز من الذهب ، ومقام كريم فى المساكن الحسنة ؛ فَعلنا مثل ذلك بفرعون وقومه انتقاماً منهم ، وعبرة لغيرهم ، وجعلنا كل ما يتمتعون به ميراثاً لبنى إسرائيل فى أرض فلسطين ، فجعلناهم يستقرون فيها ويعمرونها ، ويتمتعون بخيراتها وكنوزها ؛ فلحق فرعون وقومه عند البحر بنى إسرائيل وقت طلوع الشمس ؛ ولما تقارب الفريقان ، ورأى كل منهما الآخر ، استولى الذعر والخوف على بنى إسرائيل ، وقالوا لموسى : لقد لحق بنا العدو وأدركنا ، ولا طاقة لنا به ، فماذا نفعل ، والبحر الخضم أمامنا ، والعدو القوى خلفنا ؟

٤ — قال لهم موسى كلاّ ، لا تخافوا واثبتوا ، إن ربى معى ومعكم ، يحفظنا

بعونه ، ويُمدنا بنصره ، ويحفظنا من عدوّه ، وسيدُلنى على طريق النجاة والسلامة ؛ فلما اشتد الكرب ببنى إسرائيل ، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه ، ليَمـُدّه بمعجزة جديدة تقوّى إيمان بنى إسرائيل به ، وينجيهم من فرعون وجنوده ، فضرب البحر ، فانشق وانفلق الماء ، وصار فيه اثنا عشر طريقاً يَبَساً ، على عدد أسباط بنى إسرائيل ، ووقف الماء بينها كالجبل العالى ، والطود العظيم ؛ وسار بنو إسرائيل حتى تكاملوا فى الطرق المفتحة لهم فى البحر ، وقد أغرى الله فرعون وقومه أن يقتربوا من بنى إسرائيل ، ويسيروا وراءهم ، فجاءهم الماء من كل مكان ، وأغرقوا جميعاً ، وأنجى الله موسى ومن معه من بنى إسرائيل أجمعين .

٥ — إن فيما فعل الله بفرعون وقومه ، لآية بينة ، وعلامة ظاهرة على قدرة الله ، وما كان أكثرهم مؤمنين على كثرة ما أظهر الله لهم من الآيات ، فلم يؤمن بموسى من آل فرعون إلا نفر قليل ، وإن ربك لعزيز غالب على أمره ، يمهل الناس ولا يعجل لهم العذاب ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

(٦)

من الآية ٦٩ إلى الآية ١٠٤ من سورة الشعراء

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَا تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ أَصْنَامًا ، فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ، قَالَ : هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ؟ قَالُوا : بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ —١— . قَالَ : أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ؟ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ : الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ —٢— . رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ، وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ، وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ، وَاغْفِرْ لِأَبِي ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ —٣— . وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ : يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ، وَقِيلَ لَهُمْ : أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ

أَوْ يَنْتَصِرُونَ ؟ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ . وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ —٣— . قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ : تَاللهِ ، إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ —٤— . فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ —٥— . فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ —٦— . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
واتل عليهم	واقرأ على المشركين واقصص عليهم .
نبأ إبراهيم	خبره وقصته .
فنظل لها عاكفين	فنقيم على عبادتها دائماً .
عدو	أعداء ، الواحد والجمع سواء .
أطمع	أرجو .
يوم الدين	يوم القيامة والجزاء .
هب لى حكماً	هب لى معرفة بك ، وفهماً وعلماً لحدودك وأحكامك .
وألحقنى بالصالحين	واجعلنى فى زمرة الأنبياء السابقين .
لسان صدق	ذكراً حسناً ، وسيرة طيبة .

الألفاظ	شرحها
فى الآخرين	فى الأمم التى تجىء بعدى .
ولا تخزنى	ولا تفضحنى على رءوس الأشهاد .
من الضالّين	من الكافرين .
بقلب سليم	بقلب خالص من كل ذنب ، سليم من كل عيب .
وأزلفت	قرّبت وأدنيت ليدخلوها .
وبرزت الجحيم	وأظهرت نار جهنم ، حتى يكاد يأخذهم لهيبها .
للغاوين	للكافرين .
أو ينتصرون	أو ينتصرون لأنفسهم .
فَكُبْكِبُوا فيها	فأسقطوا على رءوسهم ، وألقى بعضهم فوق بعض .
وجنود إبليس	شياطينه ومتبعوه من العصاة والكافرين .
يختصمون	يقع الخصام بين الأصنام وعبّادهم .
إن كنا لفى ضلال مبين	إننا كنا فى ضلال شنيع ظاهر .
نُسوّيكم برب العالمين	نسويكم أيها الأصنام فى استحقاق العبادة برب العالمين .
صديق حميم	صديق مشفق .
كرّة	رجعة إلى الدنيا .
فى ذلك	فيما ذكر من نبأ إبراهيم وحال الكفار يوم القيامة .
لآية	لعظة وعبرة .

قصة سيدنا إبراهيم

تراجع قصة سيدنا إبراهيم فى الصفحات التى من ١٢ — ١٩ من تفسير الجزء الثالث ، والصفحات التى من ١٠٢ — ١١١ من تفسير الجزء السابع ، والصفحات التى من ١٠٨ — ١١٢ من تفسير الجزء الثالث عشر ، والصفحات التى من ٢٧ — ٣٣ من تفسير الجزء السابع عشر

مجمل المعنى

١ — واقصص على المشركين يا محمد حديث إبراهيم وخبره ، إذ رأى أباه آزر وقومه يعبدون الأصنام ، ويتخذونها آلهة من دون الله ، فسألهم : أى شىء تعبدون ؟ — وهو يعلم حقيقة ما يعبدون، ويعرف أنها أصنام لا تضر ولا تنفع ، ولا تعقل ولا تسمع ، لينبه بسؤاله عقولهم إلى ما هم فيه من ضلال ، وليلفت أذهانهم إلى حالهم من الغىّ والجهل ، لكنهم ضلّوا الرشاد ، وعَموا عن المراد ، وأمعنوا فى العناد — فقالوا : نعبد أصناماً من حجر وحديد وخشب ، وفضة وذهب ، فنقيم دائماً على عبادتها ، وليس لنا معبود سواها ؛ فانتقل بهم إبراهيم إلى السؤال عن صفاتها ومزاياها ، لعلهم يدركونُ أنها فى أحط مراتب الكائنات ، وأنها دونهم فى المزايا والصفات ، فقال : هل تسمع هذه الأحجار الصمّ دعاءكم إذا دعوتموها ؟ وهل تنفعكم عبادتها إذا عبدتموها ؟ وهل تضركم إذا لم تعبدوها ؟ فأجابوا إبراهيم إجابة تدل على عمى البصيرة ، وَخبل العقل ، وأنهم مقلّدون فيما يفعلون ، قالوا : بأنهم يعبدون الأصنام لأنهم وجدوا آباءهم هكذا يفعلون ؛ أيقلدون آباءهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون ؟

٢ — ثم صور إبراهيم أمرهم فى نفسه ، ليصل إلى ذكر الله ، بأن يعظّم شأنه ، ويعدد نعمه فقال : أفرأيتم الأصنام التى تعبدونها أنتم ، وورثتم عبادتها عن آبائكم الأقدمين ؟ إننى لو عبدتها وعظمتها لكانت أعداء لى ، وجاءت يوم القيامة فتبرأت منى ، وكانت خصما لى ، لكنّى أعبد رب العالمين ، صاحب النعم علىّ من يومَ ولدت إلى أن أموت ، مع ما يرجى من رحمته فى الآخرة ، فهو الذى أوجدنى وخلقنى وصوّرنى ، وهو الذى أرشدنى إلى الخير والحق ، وهدانى إلى مناهج الدنيا ومصالح الدين ، وهو الذى تكفل برزقى من طعام وشراب ، وإذا أصابنى مرض تلطف بى ، وأدركنى برحمته ، فشفانى من المرض ، ووهب لى نعمة الصحة والعافية ، وهو الذى بيده الموت والحياة ، يميتنى إذا استوفيت أجلى ، ويُعيد إلىّ الحياة يوم البعث ؛ لقد أنعم الله علىّ بهذه النعم ، فوجب أن يُعبد ويطاع ، وهو الذى أرجو وأطمع أن يصفح عنى ، ويغفر لى يوم الحساب والجزاء ، ما أظن أننى وقعت فيه من خطايا ، حينما قلت : إنى سقيم ، وحين سئلت عن تكسيرى الأصنام ، فقلت : بل فعله كبيرهم هذا ، وقلت لفرعون مصر : إن سارة أختى وهى زوجى — وتلك الخطايا التى يرجو إبراهيم منها المغفرة ، على تسليم أنها خطايا ، مع كونه فى الغاية القصوى من عبادة الله وطاعته ، قد أراد أن ينبه بها أباه وقومه على أن يتأملوا فى أمرهم ، ليقفوا على سوء حالهم ، وينتهوا عن ضلالهم .

٣ — وبعد أن عدّد إبراهيم فنون النعم التى أسبغها الله عليه من مبدإ خلقه إلى يوم بعثه ، حمله ذلك على مناجاته والتوسل إليه ، قائلا : يارب ، هب لى حكمة وحكماً ، ومعرفة بك وفهماً ، وكمالاً فى العلم والعمل ، واجمع فى الجنة بينى وبين الصالحين المنزهين عن صغائر الذنوب وكبائرها من الأنبياء

السابقين ، واجعل لى فى كل جيل وكل أمة تجىء بعدى ذكراً حسناً ، وثناء جميلا ، واجعلنى ممن ينالون رضاك فى الآخرة ، فيرثون جنات النعيم ! وأسألك يا ربى أن تهدى أبى إلى ما وعدنى به من الإيمان ، وأن تغفر له ما كان عليه من كفر وضلال ، إذا كتبت له التوفيق ، وجعلته من أهل الحق والهدى .

٣ — وأتوسل إليك يا رب ألا تفضحنى بإظهار ما يخزينى على رءوس الأشهاد ، يوم يُبعث الناس ، ويقفون بين يديك للحساب ، حين لا ينفع الإنسانَ ما كان يباهى به فى الدنيا من مال وبنين ، إلا إذا وقف بين يديك وقلبه سليم من كل ذنب ، خالص من كل عيب ، وقد قربت الجنة وفتحت أبوابها للمتقين ، ليدخلوها بسلام آمنين ، وعُرِض الغاوون الكفار على جهنم ، وقد اندلعت منها ألسنة اللهب ، فيتحسرون وهم فى الموقف حين يساقون إليها ، وقيل لهم على سبيل التوبيخ والتقريع : أين الأصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله ؟ وأين آلهتكم الذين كنتم تزعمون أنهم شفعاؤكم ؟ هل ينصرونكم فينجوكم من عذاب الله ؟ أو ينتصرون لأنفسهم بدفع العذاب ؟ إنهم لا ينصرونكم ولا ينتصرون لأنفسهم ، فستلقون فيها جميعاً على رءوسكم ، وسيطرح بعضكم فوق بعض ، وأنتم ومَن كانوا يغوونكم ويضلونكم من سادتكم وكبرائكم ، وجنود إبليس وشياطينه الذين كانوا يزينون لكم زخرف القول غروراً .

٤ — ومن شقاء أهل النار ، أنهم فى جهنم يكون بعضهم لبعض عدوّا ، فيقع الاختصام بين من فيها من المشركين والأصنام ، وإبليس وجنوده ، والعصاة والمضللين ، ويحلفون بالله قائلين : إننا كنا ونحن فى الدنيا فى ضلال بيِّن ، وعمى ظاهر ، وميل واضح عن طريق الحق ، إذ كنا

نسويكم أيها الأصنام — وأنتم لا تستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسكم — فى العبادة برب العالمين ، وما أوقعنا فى هذا الضلال إلا مجرمون من سادتنا وكبرائنا الذين أضلونا السبيل ، وقادونا إلى الجحيم .

٥ — فليس لنا اليوم من شفعاء يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، ولا من أصدقاء يُشفقون علينا ، ويهتمون بأمرنا ، كما لأهل الجنة من أصدقاء وشفعاء ، لأن بعضنا عدو لبعض .

٦ — إننا نتمنى — ولن يحصل ما نتمنى — أن لو تكون لنا رجعة إلى الدنيا ، فنكون من المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ونعمل صالحاً .

٧ — إن فيما قصصنا من نبأ إبراهيم ، المشتمل على مثل ما كان عليه أهل مكة من باطل وضلال فى عبادة الأصنام ، وفى تفصيل ما يئول إليه أمر عبدتها يوم القيامة من ندم وهوانٍ ، لآية عظيمة ، توجب عليهم أن يجتنبوا عبادتها ، خوف أن يحيق بهم مثل ما حاق بهؤلاء من العذاب ، وما أكثر هؤلاء الذين نتلو عليهم أنباء من سبقوهم من الكفار ، وهم مع هذا مصرون على الكفر والضلال ! وإن ربك لهو العزيز ، القادر على تعجيل العقوبة للمشركين ، ولكن يمهلهم بواسع رحمته ، وفيض لطفه .

(٧)

من الآية ١٠٥ إلى الآية ١٢٢ من سورة الشعراء

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ —١— . قَالُوا : أَنُؤْمِنُ لَكَ ، وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ؟ —٢— . قَالَ : وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ —٣— . قَالُوا : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ —٤— . قَالَ : رَبِّ ، إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ، فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ، وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ —٥— . فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ —٦— . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
كذبت قوم نوح المرسلين	أنكرت أمة نوح بعث الرسل .
أخوهم	أخوهم نسباً لا ديناً .
ألا تتقون	ألا تخافون الله فتعبدوه ، وتتركوا عبادة الأصنام ؟ .
وما أسألكم عليه من أجر	وما أطلب منكم على تقواكم وطاعتكم وهدايتكم جزاء .
أنؤمن لك	أنصدقك ؟ .
الأرذلون	السفلة الأقلون جاهاً ومالا .
وما علمى بما كانوا يعملون	ليس من شأنى أن أعلم ما يعملون ، وإنما أنا مكلف أن أدعوهم إلى الإيمان .
لئن لم تنته يا نوح	لئن لم تكف عن دعوتنا إلى دينك ، وعن سب آلهتنا ، وعيب ديننا .
من المرجومين	ممن نقتلهم رجماً بالحجارة .
فافتح بينى وبينهم فتحاً.	احكم بينى وبينهم حكماً
الفلك	السفينة .
المشحون	المحمل بالزاد والمتاع ، والناس والحيوان .
أغرقنا بعدُ الباقين	أغرقنا بعد إنجاء نوح ومن آمن معه من بقى من قومه .

قصة سيدنا نوح

تراجع الصفحات التى من ١٠١–١٠٤ من تفسير الجزء الثامن ، والصفحات التى من ٩٩–١٠٢ من تفسير الجزء الحادى عشر ، والصفحات التى من ٢٣–٤٠ من الجزء الثانى عشر .

مجمل المعنى

١ — أنكرت أمة نوح وقومه رسالته ، لما أرسله الله إليهم ، وهو أخوهم نسباً وقرابة وعُصبة لا ديناً ، فنهاهم عن عبادة الأصنام ، وحثهم على تقوى الله واتباع رسالته ، وألا يعبدوا أحداً إلا الله ، وقال لهم : إنى رسول لكم من عند الله أدعوكم إلى الحق ، أمين على أداء هذه الرسالة ، لا أخونكم ولا أخدعكم ، وما دمتم تعرفون عنى الأمانة والصدق ، فعليكم أن تصدّقونى ، وتتقوا الله وتخافوا عقابه ، وتطيعونى فيما أدعوكم إليه من عبادة الله ، ونبذ عبادة الأصنام ، وليس لى غاية فيما أتحمل من مشقة الدعوة والنصح لكم ، ولا أطلب منكم على ذلك مالا ، أو أسألكم عليه جزاء وأجراً ، فإن جزائى وأجرى فى القيام بالدعوة وتبليغ الرسالة ، على الله رب العالمين ، فعليكم إذنْ أن تطمئنوا إلى تلك الدعوة الصادقة البريئة ، فتتبعوا الدين الحق ، وتطيعونى فيما أدعوكم إليه .

٢ — قالوا : يا نوح ، إنا لن نؤمن لك ، ولن نصدق برسالتك ، لأننا رأينا أن الذين اتبعوك الأراذل السفلة ، قليلو الجاه والمال ، الذين يأخذون بظاهر الرأى من غير تدبر ولا تفكير ، ولسنا نراهم صادقين فى اتباعك ، مخلصين فى الإيمان بدينك .

٣ — قال لهم نوح : ليس من شأنى أن أعلم بسرائرهم ، وأن أعرف ما يُكنُّون فى أنفسهم ، وما يخفون فى صدورهم ، فما أنا إلا نذير بشير ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ؛ أما حسابهم على أعمالهم ، والوقوف على ما فى صدورهم ، فهو على الله وحده ، فإنه هو المطلع عليها ، ولو كنتم من أهل الشعور ، لعرفتم أن الله وحده هو الذى يعلم أسرار القلوب ! وكيف تنأون عن الإيمان ، لأن الضعفاء والفقراء وذوى الحرف والصناعات من عامة الناس قد بادروا إليه؟ وكيف تريدون منى أن أطردهم لتنفردوا بالإيمان وحدكم؟ والإيمان لا يعترف بجاه ولا مال ، وإنما هو تبصرة إلى الحقّ ، ونور إلى القلب يهدى به الله من يشاء ، فما أنا بطارد أحداً من المؤمنين ، مهما اتضع نسبه ، وقل حَسبه ، طمعاً فى إيمانكم ؛ وليس علىّ استرضاء الأغنياء بطرد الفقراء ، وإنما علىّ أن أنذركم إنذاراً بيِّناً واضحاً ، بالبرهان الصحيح ، الذى يتميز به الحق من الباطل ! ولقد طلب رؤساء قريش أيضاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرد من آمن من الضعفاء ، كبلال وعَمار وصُهيب ، فنزل قوله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ » تراجع الصفحة ٨٠ من تفسير الجزء السابع .

٤ — ولما اعتلُّوا فى ترك الإيمان بإيمان من هم دونهم ، دل ذلك على أن صدورهم لم تنشرح للإيمان ، إذ اتباع الحق لا يمنع من الشركة فيه ، فأخذوا فى التهديد والوعيد ، وقالوا : لئن لم تكف يا نوح عن سبّ آلهتنا ، وادعائك الرسالة ، ودعوتك إيانا إلى اتباع دينك ، لنقتلنك رجماً بالحجارة .

٥ — فلما يئس نوح من إيمانهم ، دعا ربه ، فقال : يا رب ، إن قومى كذبونى ، وما دَعوتك لأنهم آذونى ، ولكن لأجل تكذيبهم دينك ، فاحكم بينى وبينهم حكماً رادعاً لهم ، ونجنى ومن آمن معى مما يحل بهم .

٦ — فاستجاب الله دعاءه، وأنجاه ومن معه فى سفينة مملوءة بالزاد والشراب، والمتاع والدوابّ، وبعد أن اطمأن نوح ومن آمن معه إلى النجاة، أغرق الباقين الذين عَصَوْه، وأصرّوا على الكفر.

٧ — إن فيما ذكر من أمر نوح ونجاة من اتبعه، وإغراق من عصاه، لعظة وعبرة لكفار قريش، ولكن أكثرهم كافرون برغم هذه الآيات البيِّنات، والدلائل الواضحات، وإن ربك لهو العزيز الغالب على أمره، فينتقم ممن كفر به، الواسع الرحمة، فيمهل العصاة، حتى إذا أخذهم لم يُفلتهم.

(٨)

من الآية ١٢٣ إلى الآية ١٤٠ من سورة الشعراء

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ —١— أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ؟ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ : أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ —٢— . قَالُوا : سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ؟ إِنْ هٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ —٣— . فَكَذَّبُوهُ ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ ، إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
عاد	قبيلة عاد ، وكانت منازلها ما بين عُمان إلى حضرموت .
أتبنون بكل ريع	أتنشئون بكل نشز مرتفع من الأرض ؟
آية تعبثون	علامات تلهون بينها وتلعبون .
وتتخذون مصانع	وتقيمون القصور المحكمة المشيدة .
لعلكم تخلدون	عاملين عمل من يرجون الخلود فى الدنيا .
بطشتم جبارين	ضربتم بسطوة وعنف ، متسلطين غاشمين بلا رأفة .
أمدكم بأنعام وبنين	أعطاكم ما يحصل به الغنى والجاه والعون ، من دواب وأبناء .
إن هذا إلا خلق الأولين	ما هذا الذى نحن عليه من الدين والأخلاق ، إلا عادة نشأ عليها آباؤنا الأقدمون .

قصة سيدنا هود

تراجع الصفحات التى من ١٠٥—١١١ من تفسير الجزء الثامن ، والصفحات التى من ٤١ — ٤٧ من تفسير الجزء الثانى عشر .

مجمل المعنى

١ — أنكرت قبيلة عاد رسالة الرسل ، وكذبوا بما أمرهم به نبىّ منهم ، وهو هود عليه السلام ، من تقوى الله تعالى وطاعته ، لأنه رسول الله إليهم ، وقد

اختاره ليهديهم إلى الحق ، وهو أمين فى أداء الرسالة التى كلفه الله أن يبلغهم إياها ، فعليهم أن يتقوا الله فيعبدوه وحده ، ويخشوا عذابه دون غيره ، وأن يطيعوا هوداً فيما دعاهم إليه من الإيمان ، وعمل الصالحات ، وترك السيئات . إذ لا مصلحة له فيما يدعوهم إليه من الإيمان بالله ، ومن نبذ عبادة الأصنام ، وإرشادهم إلى خيرى الدنيا والآخرة ، ولا يطلب منهم على ذلك جزاء أو شكوراً ، ولا يسألهم عليه مالا أو أجراً ، لأنه يطلب أجره وثوابه من الله إله العالمين ، ورب الناس أجمعين .

٢ — وقد نعى الله على قوم هود إغراقهم فى اللذات واللهو والعبث ، وقد كانوا ذوى حذق فى الصناعة والفنون ، وميل إلى الاستكبار فى الأرض ، وحب البقاء ، والتفرد والبطش ، فقال لهم : مالكم تقيمون فوق كل رَبوَة ، وفى كل نشز ومرتفع من الأرض ، علامات ونُصبا ومعالم ، تلعبون عندها وتمرحون ، وتلهون وتعبثون ؟ ، وتنشئون القصور المشيدة ، والمبانى المحكمة ، شأن من يرجون الخلود فى الدنيا ، ولا يتوقعون الموت والفناء ، وفيكم قسوة وجبروت ، وعسف وعُنف ، لا تتثبتون حين تعاقبون ، ولا ترحمون حين تغضبون ، تفعلون ذلك بغلظة المستكبرين المتسلطين ، وسفه الغاشمين ، فكفوا عن السطوة والعسف والجبروت ، واتقوا الله وخافوا عقابه ، وأطيعونى فيما أدعوكم إليه من الإيمان ، واللين والرحمة وكف الأذى ، اتقوا الله الذى أعطاكم النعم الجليلة التى تعلمونها ، وتتمتعون بها ، والتى جعلتموها وسيلة للعبث واللهو ، والبطش والجبروت ، اتقوا الله الذى أعطاكم الأنعام والدواب والماشية ، التى اتخذتموها مظهراً من مظاهر الجاه والغنى ، والبنين الذين تنالون بهم العون والتكاثر والقوة ، وأعطاكم ما يحصل به النعيم والرفاهية من بساتين ، وجنات وزروع ، وعيون وأنهار ؛ وإن الذى تفضل عليكم بهذه

النعم ، فقابلتموها بالكفر والبطر ، والبطش والجبروت ، لقادر على أن يسلبكم نعمه ، ويُهلككم بعذابه ، ولذلك فإنى متوقع أن ينزل الله عليكم غضبه ، وخائف عليكم من يوم شديد يصيبكم فيه عذاب عظيم .

٣ — لم ينفع مع عاد ما ذُكِّروا به من نعم الله ، وما نُهوا عليه من قبيح الصفات ، وما أُنذروا به من شديد العقاب ، وأصرّوا على ما هم فيه من كفر وجبروت وطغيان ، وجحدوا نعم الله عليهم ، وأعرضوا عن الإيمان ، وقالوا لهود عليه السلام : لا تحاول أن تغير من ديننا وطبعنا وعادتنا ، وإن وعظك إيانا ، وعدم وعظك لنا ، لَسواءٌ علينا ، فلا نعتدّ بما تقوله ، وليس ما نحن فيه من عبادة الأصنام ، ومن نعيم وجبروت وطغيان ، إلا ديناً وعادة وجدنا عليها آباءنا الأولين ، وإنا على آثارهم مقتدون ، ولم نر أنهم عُذبوا بكفرهم ، أو عوقبوا لعصيانهم وبطشهم ، ولسنا كما تنذرنا وتهددنا بمعذبين على ديننا الذى نعتقده ، وحياتنا التى نحياها ؛ فكان عاقبة تكذيبهم ، وإصرارهم على ما هم عليه ، أن أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية فأهلكتهم ؛ إن فى ذلك الإصرار على الكفر ، والانصراف عن الهدى ، وفى العذاب الذى حل بعاد جزاء تكذيبهم وعنادهم ، لعظة وعبرة للمشركين الذين كذبوك يا محمد ، وإن أكثرهم لا يؤمنون بك مهما دعوتهم ، وحرَصت على إيمانهم ، وإن ربك لعزيز غالب عليهم ، قادر على الانتقام منهم ، لكن رحمته قضت أن يمهلهم ، ولا يعجل لهم العذاب .

(٩)

من الآية ١٤١ إلى الآية ١٥٩ من سورة الشعراء

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ :
أَلَا تَتَّقُونَ ؟ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُونِ ،
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .
أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَا هُنَا آمِنِينَ : فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ ، وَنَخْلٍ
طَلْعُهَا هَضِيمٌ ، وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ؟ فَاتَّقُوا اللّٰهَ
وَأَطِيعُونِ ، وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ : الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى
الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ —٢— . قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ،
مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ —٣— .
قَالَ : هٰذِهِ نَاقَةٌ ، لَهَا شِرْبٌ ، وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ،
وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ، فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، فَعَقَرُوهَا ،
فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ، إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً ،
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ثمود	قبيلة ثمود .
أتتركون فيما ها هنا آمنين	أتطمعون أن يترككم ربكم فيما أنتم عليه فى الدنيا من النعيم آمنين مطمئنين ، دون أن يأخذكم بعذاب على كفركم ؟ .
طلعها هضيم	ثمرها لين ناضج .
فارهين	ناعمين فرحين .
إنما أنت من المسحَّرين	إنما أنت من الذين غلب السحر على عقولهم .
لها شرب	نصيب من الماء .
ولا تمسوها بسوء	ولا تصيبوها بضرب أو عَقر .
فيأخذكم عذاب يوم عظيم	فيحل بكم عذاب هائل شديد .
فعقروها	فقتلوها .
فأصبحوا نادمين	فأصبحوا خائفين أن يحل بهم العذاب الذي أنذرهم به صالح
فأخذهم العذاب	فوقع عليهم العذاب بغتة .

قصة سيدنا صالح

تراجع الصفحات التى من ١١٢ — ١١٩ من تفسير الجزء الثامن ، والصفحات التى من ٤٨ — ٥٣ من تفسير الجزء الثانى عشر ، والصفحة ٣٠ من تفسير الجزء الرابع عشر .

مجمل المعنى

١ — أنكرت قبيلة ثمود رسالة الرسل ، وكذبوا صالحاً وهو واحد منهم ، ومن بنى قومهم ، لما دعاهم إلى عبادة الله ، وأمرهم بتقواه ، وخوفهم عذابه ، وحثهم على أن يطيعوه لأنه رسول الله ، أمين فيما يبلغه إليهم ، وقال لهم : إنه لا يطلب منهم أجراً وجزاء على ما يدعوهم إليه من هدى وخير ، لأنه إنما يطلب أجره وجزاءه من إله العالمين ، وخالق الناس أجمعين .

٢ — وكان من عادة قوم صالح الإغراق فى اللذات الحسية من المأكول والمشروب ، والمساكن الطيبة الحصينة ، والانصراف إلى الشهوات ، وكانت أرض ثمود كثيرة البساتين والماء والنخل ، فنعى عليهم صالح كثرة الرفاهية ، والإمعان فى لذائذ الحياة الدنيا ، وقال لهم : هل تظنون أن الله سيترككم فيما أنتم تتمتعون به فى هذه الأمكنة ، غارقين فى نعيم الدنيا ، آمنين مستقرين مطمئنين ، وتنعمون كما تشاءون بجنات وعيون ، وزروع ونخل

ثمرها حلو ناضج لين ، وتنحتون من الجبال بيوتاً ومساكن ، حاذقين فى نحتها ، ماهرين فى بنائها ، ثم تقيمون فيها ناعمين مَرحين ، ولا تشكرون الله على ما أعطاكم ؟ فاتقوا الله وأطيعونى فيما أرشدكم إليه ، ولا تطيعوا ما يحثكم عليه المسرفون فى الكفر والمعصية من عدم طاعتى ، ورفض نصيحتى ، فإن كل ما يقولونه أو يفعلونه مؤد إلى الفساد ، ولا يصدر عنهم شىء من الخير أو الإصلاح .

٣ — فقالوا له : يا صالح ، يظهر أن السحر قد غلب على عقلك ، فسوّل إليك أنك رسول من عند الله يوحى إليه ، وما أنت إلا إنسان مثلنا ، وفيك كل الصفات التى فينا ، تأكل وتشرب وتنام وتصحو مثلنا ، فلم كنت أنت نبيًّا دوننا ؟ فإن كنت صادقاً فيما تزعم ، فهات لنا آية ومعجزة تدل على صحة دعواك ، فى أنك نبى من عند الله .

٤ — قال لهم صالح : أنا مستعد أن آتيكم بالآية التى تقترحونها ، فاقترحوا عليه ناقة حمراء عُشَراء ، — مضى على حملها عشرة أشهر — تخرج من الصخرة فتلد سَقباً — والسقب : ولد الناقة — فأجاب الله ما طلبوا ، وخرجت الناقة كما أرادوها ، وقال لهم صالح : هذه الناقة هى آية الله لكم ، لها نصيب من الماء فى يوم معلوم ، ولكم نصيب من الماء فى يوم معلوم ، لا تقربوا الماء فى يومها ، وإن تقربَه فى يومكم ، فدَعوها تأكل فى أرض الله ، ولا تصيبوها بأذى ، فإنكم إن آذيتموها انتقم الله منكم ، وأصابكم عذاب شديد فى يوم عظيم الهول ، فعصت ثمود أمر ربها ، وائتمروا على قتل الناقة ، وقتلها أشقياؤهم ، فأصبحوا وقد تغيرت ألوانهم كما أخبرهم صالح ، واستولى عليهم الندم ، والخوف من أن يحل بهم العذاب الذى ظهرت مقدماته عليهم ، فأرسل

الله عليهم صاعقة أخمدت أنفاسهم ، واستأصلت شأفتهم ، فماتوا عن آخرهم ، وانطمروا بين التراب والحجارة ؛ وإن فيما وقع لثمود لعظة بالغة ، ينبغى أن تردع المشركين من قريش ، ولكنهم على الكفر مصرون ، وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لعزيز منتقم قهار ، ولكنه رحيم ، يمهل الكافرين ، لعلهم يعتبرون .

(١٠)

من الآية ١٦٠ إلى الآية ١٧٥ من سورة الشعراء

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ —١— . أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ —٢— . قَالُوا : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ —٣— . قَالَ : إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ، رَبِّ ، نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ، فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ ، ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ! إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ —٤— .

شرح الألفاظ

الالفاظ	شرحها
وتذرون	وتتركون .
من العالمين	من الناس .
قوم عادون	قوم معتدون ، متجاوزن لحدود الله ، مفرطون فى المعاصى .
لئن لم تنته	لئن لم تكف عن دعوتك لنا ، وزجرك إيانا عما نحن فيه .
من المخرجين	من المطرودين من أرضنا .
من القالين	من المبغضين .
فى الغابرين	فى المقدّر بقاؤهم فى العذاب من العصاة .
ثم دمرنا الآخرين	أهلكنا الآخرين الذين بَقوا فى الكفر والمعاصى .
فساء مطر المنذرين	فبئس مطر الحجارة : مَطر من أنذرهم الله بعذاب !

قصة سيدنا لوط

تراجع الصفحات التى من ١١٩ — ١٢٢ من تفسير الجزء الثامن ، والصفحات التى من ٥٩ — ٦٤ من تفسير الجزء الثانى عشر ، والصفحات التى من ٢٧ — ٢٩ من تفسير الجزء الرابع عشر ، والصفحات التى من ٣٤ — ٣٥ من تفسير الجزء السابع عشر

مجمل المعنى

١ — أنكرت أمة لوط رسالة الرسل ، حينما دعاهم إلى الإيمان بالله ، وخوّفهم من عذابه ، وحثهم على ترك ما هم فيه من المعاصى والمنكرات ، وقال لهم : إنى رسول الله إليكم ، أمين على أداء رسالته ، لا أكذبكم ولا أخدعكم ، فعليكم أن تؤمنوا به وتصدّقوه ، وأن تطيعونى فيما دعوتكم إليه ، ولا أطلب منكم على نصحكم وهدايتكم أجراً ، وليس لى من وراء ذلك غاية أو مصلحة ، فإنما أجرى وجزائى عند الله ، (وقد قدمنا معنى هذه الآيات المكررة ببسط وتوضيح فى القصص السابقة) .

٢ — فلا ينبغى لكم أن تفسدوا طبائعكم ، وتخالفوا نظام الحياة الطبيعى ، فتفعلوا الفاحشة بالذكور من الناس ، وتتركوا ما خلق الله لكم من النساء أزواجكم ، لأن الطبيعة تقضى بأن يتصل الذكر بالأنثى ، وقد فُطرت الحيوانات على ذلك ، فلا يأتى الذكر منها ذكراً ، فكيف فسدت أمزجتكم ، واختلت غرائزكم ، ففعلتم ذلك ؟ إنكم قوم مخالفون لسنن الطبيعة ، متجاوزون الحدود فى المعاصى ، فإن غيركم من الناس قد يرتكبون المعاصى ، ولكنهم لم يتعدوها إلى فعل هذه الجريمة المنكرة التى تفعلونها .

٣ — قالوا له : يا لوط ، إن لم تكفّ عن مطالبتك إيانا بالإيمان بك ، وباتباعك فى دعوتك ، وعن تقبيح ما نفعل من إتيان الذكران وترك النساء ، لتكونن من المنفيين من قريتنا ، المطرودين من أرضنا ، ولا نقبل أن تقيم بيننا وأنت على غير ملتنا ، أو مخالف لعادتنا .

٤ — قال لهم لوط : — إنى منكر لما تفعلون ، مُبغض لما تعملون ، ولن أكفّ عن تقبيحه ، وعن دعوتكم إلى تركه ، وإنى لا أرضى أن أقيم فيكم وأنتم

على هذه الحال المنكرة ، وإنى لأسأل الله أن ينجينى وأهلى من غائلة أفعالكم الذميمة ، وقبيح ما تعملون من المنكرات ؛ فاستجاب الله دعاءه ، وخلصه هو ومن اتبع سبيله من شرهم ، وأنقذه من فجورهم ، وأخرجه من أرضهم ، إلا امرأته التى كان هواها معهم ، وكانت راضية بفعلهم ، فقدّر الله عليها أن تكون فى الغابرين الباقين فى العذاب والهلاك ! ثم أهلك الله معها الآخرين الذين بقوا على المنكر ، بأن خسف بهم الأرض ، وأنزل عليهم مطراً شديداً ، ورماهم بحجارة أهلكتهم ؛ ولقد جعل الله المطر غيثاً ورحمة للناس ، ولكن جعله عليهم عذاباً ونقمة ، فبئس المطر مطر من يُنذرهم الله بعذابه ، ويتوعدهم بعقابه ! أفليس هذا نذيراً لكفار قريش؟

(١١)

من الآية ١٧٦ إلى الآية ١٩١ من سورة الشعراء

كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَوْفُوا الْكَيْلَ ، وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ -١- . قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ، وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ، فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ -٢- . قَالَ : رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ -٣- . فَكَذَّبُوهُ ، فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ -٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أصحاب الأيكة	الأيكة: الشجرة الملتفة الأغصان ؛ وأصحاب الأيكة: قوم بقرب مَدْين ، أُرسل إليهم أيضاً شعيب .
أوفوا الكيل	أتِموه ، ولا تنقصوا الناس حقوقهم .
من المخسرين	ممن ينقصون الكيل والوزن .
وزنوا بالقسطاس المستقيم	وزنوا الأشياء بالميزان العدل المضبوط .
ولا تبخسوا الناس أشياءهم	ولا تنقصوا الناس حقوقهم .
ولا تعثوا فى الأرض	ولا تبالغوا فى الإفساد فى الأرض .
والجبلة الأولين	الخلائق الذين تقدموكم .
فأسقط علينا كسفاً	فادع الله أن يسقط علينا من السماء قطعاً هائلة من العذاب .
الظُّلَّة	السحابة التى هُرعوا إليها ، ليستظلوا بها .

قصة سيدنا شعيب

تراجع الصفحات التى من ١١٣ — ١٢٧ من تفسير الجزء الثامن ، والصفحات التى من ٣ — ٦ من تفسير الجزء التاسع ، والصفحات التى من ٦٥ — ٧٣ من تفسير الجزء الثانى عشر ، والصفحة ٢٩ من تفسير الجزء الرابع عشر .

مجمل المعنى

١ – كان أصحاب الأيكة يسكنون مدْين ، وقد أرسل إليهم أيضاً شعيباً ، فكذبوه كما كذبه قومه أهل مدين من قبل ، وكانوا قد فسدت بينهم الأخلاق ، وساءت المعاملة ، وخربت الذمم ، فكانوا ينقصون الكيل ، ويروّعون من يمر بهم ، ويشيعون الاضطراب بالقتل والسلب والغارة ، فأمرهم شعيب أن يعبدوا الله ويخافوه ، وأن يُتموا الكيل ويوفوه إذا باعوا للناس مَكيلا ، وأن يُحسنوا المعاملة ولاينقصوا من حقوق الناس شيئاً ، فلا يأخذوا أكثر مما يستحقون إذا اشتروا ، ولا يُعطوا أقل مما اتفقوا عليه إذا باعوا ، ولايسعَوْا الأرض بالفساد : فلا يقتلوا ولايسلبوا ، ولا يسيئوا إلى أحد من الناس ، وأن يتقوا الله ويخافوه ويطيعوه ، لأنه هو الذي خلقهم ، وخلق آباءهم الذين كانوا من قبلهم .

٢ – قالوا : يا شعيب كيف تأمرنا أن نتبعك ، وأن نؤمن بك ؟ وكيف تزعم أن الوحى ينزل من السماء عليك ، ورأينا أنك واقع تحت تأثير السحر ، وأنك بشر مثلنا تَصح وتمرض ، وتأكل وتشرب ، فلماذا ينزل عليك الوحى دوننا؟ ما نظنك إلا كاذباً فيما ادعيت ، غير صادق فيما دعوتنا إليه ؛ فإن كنت صادقاً فيما تدعونا إليه ، فادع الله أن يسقط علينا قطعاً كبيرة من العذاب فتهلكنا ، ولن يحصل ذلك لأنك كاذب فى دعوتك ، ونحن مصرون على عدم طاعتك ، عاكفون على ما نحن فيه .

٣ – قال لهم شعيب : إن ربى هو الذى أرسلنى إليكم ، وهو الذى أمرنى أن أدعوكم إلى طاعته ، وأن أحذركم أن تخالفوه ، وهو الذى يعلم ما تعملون

من السيئات ، وما ترتكبون من المعاصى ، وما تستحقون من العذاب ، فينزله عليكم فى الوقت الذى قدره .

٤ — فأصروا على تكذيبه ، فأرسل الله إليهم العذاب ، بأن اشتدّ عليهم الحر ، وضاقت به أنفاسهم ، وأخذ منهم الظمأ كلّ مأخذ ، فخرجوا إلى البرِّيَّة ، فأظلتهم سحابة ، فوجدوا لها برداً ونسيماً ، فاجتمعوا تحتها ، فأمطرت عليهم حجارة وناراً وصواعق ، فأحترقوا جميعاً ، قيل : إن شعيباً بُعث إلى مَدْين وأصحاب الأيكة ، فأُهلكت مدين بالصيحة والرجفة ، وأهلك أصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة ، ولقد كان عذاباً غاية فى الشدة والهول ، لِفظاعة ما وقع فيه .

(١٢)

من الآية ١٩٢ إلى الآية ٢٠٩ من سورة الشعراء

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ، لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ –١– . وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ، أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ –٢– . وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ، مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ، كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ، فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، فَيَقُولُوا : هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ؟ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ؟ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ؟ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ؟ –٤– . وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ، ذِكْرَى ، وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ –٥– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وإنه	وإن القرآن .
لتنزيل رب العالمين	الكتاب منزل من ربّ العالمين ، وليس بكهانة ولا سحر .
الروح الأمين	جبريل عليه السلام ، وهو أمين على الوحى الذى ينزل به .
على قلبك	لتحفظه وتعيه ، وتثبت معانيه فى قلبك .
من المنذرين	من الذين ينذرون الكفار بالعقوبات التى استحقوها .
بلسان عربى مبين	بلغة عربية فصيحة بينة
وإنه لفى زبُر الأولين	وإن القرآن المذكور لفى الكتب السماوية التى نزلت على الأنبياء السابقين .
أوَ لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل	أوَ ليسَ علم علماء بنى إسرائيل — كعبد الله بن سَلام ، بأنّ ذكرَ القرآن قد ورَد فى كتبهم — آية لهم على صدقه وصحته .
على بعض الأعجمين	على رجل ليس بعربى اللسان .
سلكناه فى قلوب المجرمين	أدْخلنا عدم الإيمان بالقرآن فى قلوب الكافرين .
حتى يروا العذاب الأليم	حتى يعاينوا ما أنذرناهم به من عذاب أليم على كفرهم عند الموت ، حيث لا ينفع الإيمان .
فيأتيهم بغتة	فيأتيهم العذاب فجأة .
فيقولوا : هل نحن مُنظرون	فيقولوا على سبيل التمنى : هل لنا مُهلة ونَظِرة ، حتى نؤمن ؟ حيث لا ينفع الإيمان .

الألفاظ	شرحها
أفبعذابنا يستعجلون	هل يستعجلون عذابنا تحدياً وجحوداً ، اعتقاداً منهم أنه لا يقع بهم عذاب ؟
إن متعناهم سنين	إن متعناهم مدة حياتهم فى الدنيا ، وهم باقون على الكفر والضلال .
ثم جاءهم ما كانوا يوعدون	ثم جاءهم العذاب الذى أنذرناهم إياه .
ما أغنى عنهم	أى شىء أغنى عنهم ما كانوا يمتعون به فى الدنيا ؟
لها منذرون	لأهلها رُسُل ينذرونهم ، ويبلغونهم رسالة ربهم .
ذكرى	لأجل أن يتذكروا ويتعظوا .
وما كنا ظالمين	وما أهلكناهم ظلماً .

مجمل المعنى

١ — وإن هذا القرآن الذى من جملته القصص التى ذكرت للعظة والاعتبار ، لكتاب سماوى ، منزل من رب العالمين ، الذى خلقهم وربّاهم ، وحَباهم برحمته ولطفه ، وليس بكهانة ولا سحر كما زعمت قريش ، نزل به جبريل ، وهو الأمين على الوحى الذى ينزل به من عند الله ، يدخله فى قلبك لتعيه وتفهمه ، ويثبت فيه فلا ينسى ، ولا يتبدل ولا يتغير ، لتنذر به وبما تضمنه من الوعيد والعقاب ، وقد نزل بلسان عربى واضح ، بلغتك ولغة قومك ، حتى تدخل معانيه فى قلبك حينما يلقى إليك ، لأنه باللغة التى ألفها سمعُك ، وحُدِّدت معانى ألفاظها فى ذهنك وأذهان قومك ، فلا يجادلونك فى معناه ، ولا يختلفون فى مؤداه .

٢ — وإن هذا القرآن الذى يُمارونك فيه ، وينكرونه عناداً ومكابرة ، ايعلمون أنه مذكور فى الكتب السماوية التى نزلت على الأنبياء السابقين ، وإن اليهود والعرب الذين تهوَّدوا ، يَعلمون ذلك ، فكيف يطعنون فى صحته ؟ وأى دليل أصحّ وأبين من علم بنى إسرائيل بذكر هذا القرآن فى كتبهم ؟ وأنهم يَعلمون ذلك : مَن أسلم منهم ومن لم يُسلم ، ومن كان يهودياًّ أو تهوّد ؟ وقد أخبروكم يا معشر قريش بذلك ، حينما استفهمتموهم عنه ، فأى دليل تطلبون على صحته بعد ذلك ؟

٣ — ولو نزلنا هذا القرآن على قوم أعاجم لا يفهمون اللغة العربية ، فقرأه محمد عليهم ، لما آمنوا به ، لأنهم لا يفهمونه ، ولا يَعون معانيه ، فما عذركم أنتم ، وقد أُنزل عليكم باللغة التى تفهمونها ، وتَعون معانى ألفاظها ؟ إنكم فى عدم إيمانكم معاندون جاحدون ، ومثل ما أنتم عليه من عدم الإيمان لمجرد العناد والجحود ، أمرُ غيركم من الكافرين ، فإن الجحود والكفر دخل فى قلوبهم ، وقد حجبها عن الإيمان ، وحال بَينها وبين أن تنشرح صدورهم إلى الإسلام ، وتستنير بنور الله ، وستظل على الكفر حتى يموتوا عليه ، وحينئذ يرون العذاب الأليم عياناً ، وقد أتاهم فجأة دون أن يشعروا بإتيانه ، فيجدون أنفسهم وقد أطبق عليهم العذاب ، فيقولون فى تمنٍّ وحسرة : ليتنا نؤخر فى الدنيا إلى أجل قريب ، فنؤمنَ ونتوب ، ونقدم الطاعات ، ونكفِّر عن السيئات ، وهيهات هيهات !

٤ — ما لهم يستعجلون عذابنا ، ويطلبونه منكرين غير مبالين ؟ أمتوقعون أننا لا نعذبهم ؟ فيقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ، ويقولون : فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ؛ أخبرنى عن أمرهم إن لم نعجِّل لهم العذاب ،

وتركناهم طيلة حياتهم فى الدنيا ، يتمتعون فيها بطيب الحياة ولذائذ العيش ، ثم جاءهم العذاب الذى انذرناهم وتوعدناهم به — فأى شىء أغنى عنهم تمتعهم طِوال عمرهم فى الدنيا ، حين جاءهم قَدَر الله؟ هل حماهم من العذاب ، ومنعهم من العقاب ؟

٥ — إننا نبعث الرسل لينذروا الناس حتى تنقطع حجتهم إذا قالوا : إننا لم نبعث إليهم رسلا ليبشِّروهم وينذروهم ، تلك سنتنا فى خلقنا ، وما أنزلنا العذاب بأمة عاصية ، وما أهلكنا أهل قرية ظالمة كافرة ، إلا بعد أن أرسلنا إليهم منذرين من الأنبياء لإدحاض حجتهم ، ولتذكيرهم ووعظهم ، حتى يستحقوا العذاب الذى يحل بهم ، وما كنا ظالمين لهم ، فنهلك غير الكفار والعصاة ، وقبل الإنذار ، تحقيقاً لمطلق العدل ، وواسع الرحمة ، ليهلك من هلك عن بيِّنة ، ويحيا من حَىّ عن بَينة .

(١٣)

من الآية ٢١٠ من سورة الشعراء إلى آخر السورة

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ، وَمَا يَنْبَغِى لَهُمْ ، وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ، إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ -١- . فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلٰهًا آخَرَ ، فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ -٢- . وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ -٣- . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ : إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ، الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ، وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ -٤- . هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ؟ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ، يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ -٥- . وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ؟ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ، وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا -٦- . وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ -٧- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وما تنزلت به الشياطين	وما نزلت الشياطين بالقرآن على محمد كما زعمت قريش .
وما ينبغى لهم	وما يصلحون لذلك ، لأن بصائرهم مظلمة .
وما يستطيعون	وما يقدرون على أن ينزلوا بالقرآن
إنهم عن السمع لمعزولون	إنهم لمحجوبون وممنوعون من أن يصل إلى سمعهم خبر من السماء .
عشيرتك الأقربين	أقرب الناس إليك ، من أعمامك وعماتك وبنى عمك .
واخفض جناحك	وألن جانبك وتواضع .
وتوكل على العزيز الرحيم	وفوض أمورك للذى يقهر أعداءك بعزته ، وينصرك عليهم برحمته .
حين تقوم	حين تقوم بالليل متهجداً .
وتقلُّبك فى الساجدين	تصرفك بين المصلين من قيام وركوع وسجود، وأنت إمامهم فى الصلاة .
تنزل على كل أفاك أثيم	تتنزل على كل كثير الكذب ، والأفاك : كثير الارتكاب للآثام ، من الكهنة والمتنبئين .
يُلقون السمع	ينصتون ويستمعون لما تتكلم به الملائكة .
الغاوون	السفهاء الضالون .

الألفاظ	شرحها
فى كل واد يهيمون	فى كل ناحية من القول ، وفى كل فن من الكذب واللغو الباطل ، يخوضون من غير تحرٍّ للصدق .
وذكروا الله كثيراً	كان ذكر الله وتلاوة القرآن أغلب عليهم من الشعر .
وانتصروا من بعد ماظلموا	وهجوْا من هجاهم ، أو هجا رسول الله والمسلمين .
أىّ منقلب ينقلبون	أى عاقبة سيئة يصيرون إليها .

مجمل المعنى

١ — كان مشركو قريش يقولون : إن لمحمد تابعاً من الجن ، يخبره بالقرآن كما يُخبر الكهنة ، فرد الله عليهم هذا الزعم الباطل ، بأن القرآن لم ينزل به الشياطين على محمد كما ادعيتم ، وهم لا يصلحون لتحمل رسالات الوحى ، ولا يقدرون عليها ، لأن النزول بالوحى من خواص الملائكة فقط ، لصفاء ذواتهم ، وكمال استعدادهم لقبول أنوار الحق ، والنزول بالقرآن ينطوى على حقائق الغيب ؛ ونفوسُ الشياطين مظلمة ، وليست مستعدة إلا لقبول الشرّ ، أو ما لا خير فيه أصلا ، وهم ممنوعون من سماع أخبار السماء ، وبينهم وبين الغيب حجاب .

٢ — فقل لمن زعم هذا الزعم الباطل ، وكفر بالله ، وافترى عليك الكذب : لا تدع مع الله إلهاً آخر ، ولا تشرك به شيئاً ، ولا تتبع الضلال ، فتكون ممن حقت عليه كلمة العذاب .

٣ — ولا تحابِ عشيرتك وأقاربك فى الإنذار والتخويف من عذاب الله ، فادعهم أولا إلى اتباعك ، وابدأ بإنذارهم وتخويفهم من البقاء على الكفر ،

وهم أحق أن تبدأ بهم فى الإرشاد والهداية ، وتصبر على مجادلتهم أكثر من غيرهم ، وقد امتثل صلى الله عليه وسلم ما أمره به ربه من إنذار عشيرته ، ودعا منها الأقرب فالأقرب ، فصعد فى الصّفا ، وناداهم فخذاً فخذاً ، وقال : « لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً ، أكنتم مصدقىّ ؟ » قالوا : نعم ، ما جرّبنا عليك كذباً . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » ، وقال : « يا بنى عبد المطلب ، يا بنى هاشم ، يا بنى عبد مناف ، يا عباسُ عم النبى ، يا صفيةُ عمةَ رسول الله : افتدوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً » ؛ هذا الخطاب الموجه إلى النبى ، يتضمن أن علىَ أصحاب الدعوة والمذاهب ، ومن يتصدون إلى القيادة والزعامة ، أن يبدءوا بدعوة الأقربين إليهم ، وإلقاء عبء تبِعَتها أولاً عليهم ، لأنهم أقرب الناس إلى فهمهم ، والتفاهم معهم ، وهم أحق أن يعينوه على النهوض بكل مُهمّ من الأمر ، وأولى بخير الدعوة والانتفاع بها ، وأدعى إلى تكوين الجماعة ، واستحكام القوة ؛ ثم أمر الله رسوله أن يلين جانبه لمن اتبعه من المؤمنين ، وأن يتواضع معهم ، سواء أكانوا من عشيرته أم من غيرهم .

٤ — فإن اتبعوك وأطاعوك ، فقد استحقوا برك وعطفك ، وكانوا أهلا للينك وتواضعك ، وإن عصوك ولم يتبعوك ، فاقطع بينك وبينهم كل الروابط ، لأن عصيانهم لك عصيان لله ، وتبرأ منهم ومن أعمالهم التى يعملونها ، من الشرك بالله ، والإثم والبغى ، ولا تخش مخالفتهم وأذاهم ، وفوض أمرك لله العزيز الرحيم ، فإنه سيقهر أعداءك بعزته ، وينصرك عليهم برحمته ، فهو مطلع عليك ، عليم بحالك ، فيرى قيامك للصلاة بالناس جماعة ، وتصرفك بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود ، وهو السميع لكل ما تقوله ، العليم بكل ما تنويه وتفعله .

٥ — ليس محمد كما زعمتموه ، يتلقى من الشياطين ما يخبركم به ؛ هل أُخبركم عن الشخص الذى تنزل عليه الشياطين بالأخبار المفتراة المكذوبة ؟ إنها تتنزل على كل شخص كثير الإفك والكذب ، كثير الإثم والذنب ، ممن يُلقون إلى الشياطين أسماعهم ، فيتلقفون منها كلمات يزعمون لهم أنها من أخبار السماء ، ثم يزيدون عليها ما شاءوا ، مما تسول إليهم به نفوسهم ، وأكثرهم كاذبون فيما يقولون ، بل هم يفترون على الشياطين ما لا يقولون ؛ ومحمد ليس من هؤلاء كما تدّعون ، لأنكم قد جربتم عليه الصدق ، وعرفتم عنه الأمانة ، فهو يتلقى الوحى من ربه ، وينزل به جبريل عليه ، ويبلغه إليكم بصدق وأمانة .

٦ — وقال بعض المشركين : إن القرآن شعر ، وإن محمداً شاعر ، فأبطل الله أقوالهم هذه ، ورد عليهم ببيان حال الشعراء المنافية لحاله ، بأن الشعراء يتبعهم ويجاريهم ، ويسلك مسلكهم فى الاختلاق والكذب ، الغاوون الضالون ، والسفهاء الحائرون المترددون ، الذين لا يثبتون على ما يقولون ، ولا يستمرون على رأى ولا عقيدة ؛ ألم تر أنهم فى كل واد من أودية القول ، وفى كل فن من فنون الكذب ، وفى كل شِعب من شعاب الأوهام والخيال ، وفى كل مسلك من مسالك الغى والضلال ، يهيمون ويخوضون ، لا مقصد لهم ، ولا يؤمون سبيلا معيناً من السُّبل ، بل يخبطون فى فيافى الغواية ، ويتيهون فى تيه المجُون والسفاهة ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، فيمدحون الكرم وهم بخلاء ، ويُطرون الشجاعة وهم جُبناء ، ويثنون على الصدق وهم كاذبون ، فكيف ينظم المشركون محمداً فى سلك هؤلاء ، وقد تنزهت ساحته من أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بخلق من أخلاقهم ، أو عمل من أعمالهم ، بل اتّصف بمكارم الأخلاق ، وتأدب بأحسن الآداب ، وسار

على المنهاج القويم ، واتبع الصراط المستقيم ؟ ولم يذم الله الشعر ، ولم يَنعَ عليه لذاته ، ولكن لما تضمنه من قبيح القول ، وثلب الأعراض ، وإثارة الفتن ، والذم والهجاء بغير حق ، فالشعر كما قال الشافعىّ : نوع من الكلام ، فحسنه حَسن وقبيحه قبيح ، ولذلك استثنى الله من الشعراء المذمومين الشعراء المؤمنين الصالحين ، ومَن كان ذكرُ الله الصادر من القلب أغلبَ عليهم من الشعر المنبعث من العاطفة والخيال ، وشعرهم أكثر ما ينظمونه فى الحث على الخير ، وإطراء الفضائل ، وتهذيب النفس ، وتمجيد أهل البر والخير ، والتضحية والمروءة ، والتنويه بالآداب والأخلاق العالية ، ولا يقولون هجاء إلا على سبيل الردّ على من هجاهم انتصاراً عليهم ، ودفاعاً عن الحق ، كما كان يفعل عبد الله بن رَوَاحة ، وحسان بن ثابت ، وكعبُ بن زُهير ، وغيرهم ممن كانوا يُنافحون عن رسول الله ، ويردون على شعراء قريش فى هجائهم للمسلمين ؛ ومن هنا نعلم أنه كما يكون السيف والمدفع والطائرة من أدوات الدفاع والقتال ، فإنه يكون بالشعر والخطابة والكتابة ؛ قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن يجاهد بنفسه ، وسيفه ولسانه » .

٧ — وسيعلم الذين ظَلموا بالانتصار بالظلم ، وبالتغلب بالبغى والإفك والضلال ، أى مصير يصيرون ، وأى مرجع يرجعون ، وأى تدهور يتدهورون ؟ لأن مصيرهم إلى النار ، وهو أقبح مصير ، ومرجعهم إلى العقاب ، وهو شرُّ مرْجع .

سورة النمل

نزلت بمكة ، وهى ثلاث وتسعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية السادسة

طس ، تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ، هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ —١— . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ، فَهُمْ يَعْمَهُونَ —٢— . أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ —٣— . وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
طس	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
مبين	يُبين الحلال والحرام ، والوعد والوعيد .
يقيمون الصلاة	يُديمون أداء فروضها وسننها على خير الوجوه .
ويؤتون الزكاة	يؤدون جميع أنواع الزكاة لمستحقيها .
يوقنون	يؤمنون ويعتقدون ويعلمون .
لا يؤمنون بالآخرة	لا يصدقون بالبعث .
زيَّنا لهم أعمالهم	جعلنا أعمالهم السيئة حسنة فى رأيهم ونظرهم ، جزاء لهم على كفرهم .
يَعمهون	يترددون فى ضلالتهم ، ويتحيرون .
سوء العذاب	القتل والأسر ، والاسترقاق الذى حل بهم فى الدنيا .
الأخسرون	أشد خسراناً للنجاة وثواب الله ، وأكثر استحقاقاً للعذاب المؤبد .
لتلقى القرآن	يُلقى عَليك فتلقنه وتفهمه وتحفظه .
من لدن	من عند .

مجمل المعنى

١ — هذان الحرفان يتكون منهما ومن غيرهما من الحروف الهجائية آيات القرآن الحكيم ، وهو كتاب منزل من عند الله على نبيه محمد ، مبيّن للحلال والحرام ، والحق والباطل ، والوعد والوعيد ، وأحكام الشريعة وحدود الله ،

وهو كتابُ هدى للخلق من الضلال ، وبُشرى بالجنة للمؤمنين المصدقين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، الذين يؤدون الصلاة خير أداء ، ويقيمون فروضها وسننها فى أوقاتها ، خاشعين لله ، فتحثهم على فعل الخير ، وتنهاهم عن الفحشاء والمنكر ، ويُعطون الزكاة لمستحقيها من خير ما لِهم عن رضا نفس ، وسَخاء يد ، وهم عالمون معتقدون بالبعث ، ليوَفّوا حسابهم على أعمالهم بين يدى الله ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً ، يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً ، يره .

٢ - ولا يمكن أن يتحقق الإيمانُ إلا بالكمال الإنسانىّ فى الدنيا ، وقِوامه عبادة الله المتمثلة فى إقامة الصلاة ، والتعاون والبر بالمحتاجين من الناس المتمثلَين فى إعطاء الزكاة ؛ وبالاعتقاد بالحياة الآخرة ، واستيقان البعث ، والانتهاء إلى حياة أخرى باقية لا تفنى ؛ ولا يمكن أن يتحقق الكمال الإنسانى فى الدنيا ، إلا إذا صحبه الاعتقاد بالآخرة ، والذين لا يؤمنون بالآخرة يفقدون فى الدنيا الكمال الإنسانىّ ، ولا يوفقون فيها للأعمال الصالحة ، بل تتغير فى نظرهم وفى رأيهم حقائق الأشياء ، فيأتون ما يشتهون من السيئات ، وتسوّل لهم نفوسهم أنها حسنات ، ويعملون الشر ظانين أنه خير ، بلا خوف من لقاء الله ، ولا وازع من بعث أو حساب ، فيترددون فى الضلال ، ويتمادون فى الغى ، والأعمال الخبيثة ، ويحسبون أنهم محسنون .

٣ - هؤلاء سيجزون شر الجزاء فى الدنيا ، فيلاقون فيها لسوء أعمالهم الهوان والأسر والقتل والضنك ، لأن من يتردّون فى مهاوى الكفر والضلال ، لا بد أن يحيق بهم الذل والنكال ، وسوء الحال ، وهم فى الآخرة أشد

خسراناً ، حيث فاتهم الثواب ، واستحقوا العقاب .

٤ — وإن القرآن لينزل عليك ، ويُلقى إليك ، فيعيه قلبك ، وتحفظ منه خير فنون العلم والحكمة ، والشرائع والعقائد والقَصَص ، لأنك تلقيته من عند حكيم ليس كمثله حكيم ، وعليم ليس كمثله عليم .

(٢)

من الآية ٧ إلى الآية ١٤ من سورة النمل

إذْ قالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ : إنِّى آنَسْتُ نارًا ، سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ، أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ، لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ -١- . فَلَمَّا جاءَهَا نُودِىَ : أَنْ بُورِكَ مَنْ فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ -٢- . يَا مُوسَى ، إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعزِيزُ الْحَكِيمُ -٣- . وَأَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى ، لَا تَخَفْ ، إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ -٤- . إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ ، فَإِنِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ -٥- . وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، فِى تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ -٦- . فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ، قَالُوا : هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَجَحَدُوا بِهَا ، وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ -٦- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لأهله	لزوجته وولده عند مَسيره من مَدْين إلى مصر .
آنست ناراً	أبصرتها من بعد .
سآتيكم منها بخبر	سآتيكم منها بخبر ودليل يدلنا على الطريق الذى ضللناه .
بِشهاب قبس	بشعلة مضيئة أقتبسها من النار ، فى رأس عود متقد ، أو فتيل .
لعلكم تصطلون	لتستدفئوا بالنار من البرد الذى أصابكم .
نودى : أن بورك من فى النار ومن حولها	سَمع موسى نداء بأن الله قدّس وجعل الخير والبركة للملائكة الذين هم فى مكان النار ، وبورك مَنْ حول مكان النار ، وهو موسى .
وسبحان الله	وتنزه الله عما لا يليق به ! .
جانّ	لها شكل الحية ، وخفة الجانّ .
ولّى مدبراً	جعل ظهره للحية ، وجرى خائفاً .
ولم يعقّبْ	ولم يرجع ، ولم يلتفت وراءه .
بدّل حسناً بعد سوء	أتبع السيئة الحسنة .
من غير سوء	من غير مرض أو قبح .
فى تسع آيات	اذهب مؤيداً بتسع معجزات .
فاسقين	خارجين عن أمر الله ، كافرين .
جاءتهم آياتنا	جاءتهم معجزاتنا .
مُبصرة	بينة ظاهرة .

الألفاظ	شرحها
سحر مبين	سحر ظاهر .
وجحدوا بها	أنكروها بألسنتهم .
واستيقنتها أنفسهم	وتحققتها أنفسهم وضمائرهم .
ظلماً وعلُوًّا	ظالمين لأنفسهم بعدم الإيمان، وترفعاً عن قبول ما جاء به موسى .

مجمل المعنى

١ — واذكر حين استأذن موسى شعيباً أن يعود إلى أمه وأخيه بمصر ، فسلك سبيل الصحراء ، وضل الطريق ، وأظلم الليل ، واشتد البرد ، فقال لمن معه من أهله : زوجه وولده ، انتظروا فى هذا المكان ، لا تبرحوه حتى أعود إليكم ، فإنى أرى على بعد ناراً ، وسأذهب إليها ، لعلى أعود إليكم بخبر ممن يقيمون حولها ، يهدينا إلى الطريق فنسلكه ، أو آتيكم من النار بشعلة مضيئة فى رأس عود أو فتيل ، لتستدفئوا بها من البرد الشديد، وتستضيئوا بها فى هذا الظلام الدامس المطبق .

٢ — اتجه موسى نحو النار ، فلما دنا منها، سمع نداء ربه يقول : يا موسى ، بارك الله وطهّر وقدّس الملائكة الذين هم فى المكان الذى فيه النار ، وبارك الله وطهّر وقدّس من هم فى المكان الذى حول النار ، وبالقرب منها ، وهو أنت يا موسى ، فقد اصطفاك الله عندها لأمر عظيم ، وهو تكليم الله إياك ، وبعثك رسولا من عنده ، وإظهار المعجزات على يديك ، وتنزه الله وتقدس وبرئ مما لا يليق به من صفات الخلق، لأنه رب العالمين

ومنشئهم ؛ يا موسى ، إن حالى وشأنى هو أننى أنا الله ، لا معبود سواى ، العزيز الحكيم ، القادر القوى على إظهار ما لا تناله الأوهام ، من الأمور العظام ، بحكمة بالغة ، وإبداع وتدبير حسن ، فخذ ما آتيناك من ذلك من المعجزات .

٣ – ونودى أيضاً : أن ألق يا موسى عصاك التى فى يدك ، لترى قدرة الله ماثلة فيها أمامك ؛ فامتثل موسى وألقى العصا ، فرآها قد صارت حية حقيقية ، تتحرك حركات سريعة خفيفة ، كأنها جنى ّ فى خفة حركاته ، فاستولى عليه الرعب ، واضطرب وفزع ، واستدار على عقبه ، وأعطاها ظهره ، وولى خائفاً ، ولم يرجع ولم يتوقف ؛ فناداه ربه : يا موسى ، لا تخف من مخلوق كائن ما كان ، ولا تخش منه سوءاً ، فإنك فى حضرتى ، وإنى أحفظ الأنبياء الذين أصطفيتهم وحفظتهم من الزلل ، فلا يخافون أن يصيبهم أذى فى الدنيا أو فى الآخرة .

٤ – لكن من ظلم نفسه من النبيين قبل أنْ يُبعث ، بما فعل من صغائر الذنوب – كما حدث من وكز موسى القبطى ّ، وإقراره على نفسه بالظلم ، وندمه على ما فرط منه ، وفعل بعد ذلك الحسنات – فإنى أقبل توبته ، وأغفر له ، وأسَعهُ برحمتى ، لأنى أنا الغفور الرحيم ، فلا يتوقع عقابى ، وإن كان أثر الخوف سيظل باقياً فى نفسه ، يذكره بسابق ما حدث ، فيحمد الله على ما أولاه من نعمة المغفرة والرحمة .

٥ – ونودى موسى : أن أدخل يدك فى جيب قميصك تحت عَضُدك ، ثم أخرجها ترها بيضاء بياضاً ذا حُسن وإشراق ، لا بياضاً منفرِّاً من مرض أو قبح ، وهذا الذى طلبنا إليك أن تجربه وتفعله أمامنا ، من إلقاء العصا وإخراج اليد ، لتطمئن إلى ما أيدك الله به من المعجزات ، ضمن تسع

آيات سنرسلك بها إلى فرعون وقومه ، (تراجع الصفحة ٧١–٧٣ من تفسير الجزء الخامس عشر ، عند قوله : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ») ، وقد أيدناك بكل هذه الآيات ، لما نعلم من أن فرعون وقومه خارجون عن الحدود فى الكفر والعدوان والطغيان .

٦ — فلما رجع موسى إلى أهله ، وذهب إلى مصر ، وتوجه هو وأخوه إلى فرعون ، وأبلغاه رسالة ربهما ، وأظهر موسى إلى فرعون وقومه ما لديه من آيات ظاهرة ، ومعجزات واضحة ، تدل دلالة قاطعة أنهما رسولا رب العالمين ، جَرَوْا على عادتهم فى التكذيب والإنكار ، وقالوا : ليست هذه معجزات ، أو آيات من عند الله ، ولكنها سحر مُتْقَن ، يظهر كأنه حقيقة ، جاءنا على يد سحّار عليم ، ولم يُقروا بمعجزات موسى ، وأنكروها بألسنتهم ، وإن كانوا فى أنفسهم يعلمون علم اليقين أن ما جاءهم إنما هو من المعجزات التى لا يقدر أن يأتى بها بشر من عند نفسه ، مهما أوتى من المهارة والحذق ؛ وإنما أصروا على الجحود والإنكار ، مع علمهم بحقيقة هذه الآيات ، ظلماً لأنفسهم ، وعلواً واستكباراً أن ينقادوا لرسالة شخص كموسى ، نشأ بينهم فرداً عادياً ، فكيف يكون له شرف النبوّة والرسالة ؟ فانظر يا محمد كيف صار أمر هؤلاء المفسدين ، وكيف انتهى أمر هؤلاء المعاندين المتكبرين ، والطغاة الكافرين ؟ لقد أرسل الله عليهم ألواناً من العذاب ، وأهلكهم غَرَقاً وهم يتبعون بنى إسرائيل ، ليعيدوهم للذل والاستعباد .

(٣)

من الآية ١٥ إلى الآية ١٩ من سورة النمل

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ، وقَالَا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ —١— . وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وقَالَ : يٰأَيُّهَا النَّاسُ ، عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ، وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ ، إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ، وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ ، فَهُمْ يُوزَعُونَ ، حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِى النَّمْلِ ، قَالَتْ نَمْلَةٌ : يٰأَيُّهَا النَّمْلُ ، ادْخُلوا مَسَاكِنَكُمْ ، لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ —٢—. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا ، وَقَالَ : رَبِّ ، أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
علماً	فهماً للدين والحكم والصناعة ولغة الطير .
فضلنا على كثير من عباده	آتيناهما علماً فعملا به وعلّماه ، وعرفا حق النعمة فيه ، وشكرا عليه ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير ممن لم يعلم مثل علمنا .
وورث سليمان داود	ورث سليمان من داود الملك والنبوة .
علِّمنا منطق الطير	فُهِّمنا من أصوات الطير المعانى التى فى نفوسها ، ونتفاهم بها .
وأوتينا من كل شىء	وأغدقت علينا النعم ، وأفيضت علينا المنن .
الفضل المبين	الإحسان من الله الواضح ، الذى يستحق كل حمد وشكر .
وحُشِر لسليمان جنوده	وجمع له عساكره .
يوزعون	لكل صنف وزَعة ، هم حفظة للنظام ، يكفُّونهم عن الإخلال به ، يقال : وزعتُه أزَعه : أى كففته .
وادى النمل	واد بأرض النمل ، بين جَيْرون وعَسْقلان .
لا يحطمنكم	فإن تدخلوا مساكنكم لا يكسرنكم ، ولا يسحقنكم .
وهم لا يشعرون	لا يحصل ذلك منهم عن قصد وشعور .
فتبسم ضاحكاً من قولها	فتبسم تبسم سرور ، لاعترافها بعدله ، والاعتذار عما يصيبها من جنده .

الألفاظ	شرحها
أوزعنى أن أشكر	ألهمنى شكرك .
وأن أعمل صالحاً ترضاه	ووفقنى أن أعمل الأعمال الصالحة التى تكسبنى رضاك .
فى عبادك الصالحين	مع عبادك الصالحين ، الذين وفقتهم للطاعة ، وأنعمت عليهم بالرضا .

قصة سليمان

يراجع ما سبق من قصة سليمان فى الصفحة ٣٨ من تفسير الجزء السابع عشر ، وفى صفحات أخرى من الأجزاء التى أصدرناها .

مجمل المعنى

١ — سليمان والنملة

١ — تفضل الله على داود وسليمان ، فآتاهما علماً بالدين ، وأحكام شريعة موسى ، وسياسة الحكم الرشيدة ، وآثر داود بالحذق فى صناعة الدروع ، وخص سليمان بإدراك المعانى التى يتضمنها منطق الطير ؛ والعلم أفضل النعم التى تستوجب حمد الله وشكره ، ومن أوتيه فقد أوتى فضلاً عظيماً ، ومن أجل هذا عرف داود وسليمان مقدار ما أسبغ الله عليهما من نعمة العلم الجليلة ، فشكرا الله عليها ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده

المؤمنين ، الذين لم يؤتَوْا مثل ما أوتينا من العلم ؛ وقد رفع الله منزلة العلم والعلماء ، فجعلهم ورثة الأنبياء .

٢ — ولما مات داود ورثه ابنه سليمان ، دون سائر أبنائه الثمانية عشر ، فى النبوة والملك ، فلما استولى على الملك ، دعا الناس ، وقال لهم تنويهاً بجليل نعم الله عليه ، واعترافاً بفضله : لقد تفضل الله علىَّ ، فعلمنى لغة الحيوان الصامت ، والطير الباغم ، وجعلنى أفهم مما يسمع من أصواتها المعانى التى يفهمها بعضها من بعض ، هذا إلى كثرة ما أوتينا من كل شىء نريده ، مما يصلح لنا ونتمناه ، من خيرى الدنيا والآخرة ، من النبوة والملك ، وتسخير الجن والإنس والشياطين والريح لخدمتى وطاعتى ؛ وإن هذه النعم الجليلة ، لهى الفضل والإحسان الواضح البين ، الذى يستوجب كل حمد وشكر ؛ وقد أمر سليمان قوّاده فجمعوا له جنوده من الجن والإنس والطير ، وساروا كتلة واحدة ، وقام وَزَعتهم ، والقائمون على ضبطهم وجمعهم ، وكفهم عن التخلف ، وردهم إلى النظام ، فأمروهم بالسير فى أمكنتهم من الصفوف ، كما يفعل الضباط ، ومضى بهم فى مملكته التى كانت تمتد فى فلسطين وشرق الأردنّ ولُبنان وسورية إلى شط الفرات ، حتى وصل إلى وادى النمل ، الذى قيل : إنه بين جَيْرُون وعسقلان من أرض الشام ، فسمع نملة تقول للنمل : يأيها النمل ، هذا سليمان وجنوده يزحفون نحوكم ، فأسرعوا واختبئوا فى جحوركم ، ولا تنتظروا على ظهر الأرض ، ولا تكونوا حيث أنتم ، فيحطموكم ويبيدوكم بوطئهم وهم لا يعلمون بكم ، ودون أن يشعروا بوجودكم ، لصغر أجسامكم ، لأن سليمان نبى ذو عدل ورأفة ودين ، فهو لا يرضى أن يحطمنا أو يؤذينا .

٣ — فلما سمع سليمان ما قالته النملة لأصحابها ، من حثها إياهم على الهرب من

طريق الجنود ، ومن إنصافها إياه بقولها : وعلى فرض أنهم حطَّموتا فلا يكونن ذلك عن قصد منهم إلى الإساءة إلينا ، فهم رحماء مؤمنون — سُرَّ بذلك واغتبط به ، وتبسم تبسماً فيه اغتباط ومسرّة ، لإلهام النملة أن تذكر ما وهب الله له من النبوة والرحمة والعدل ، وقال : يارب ، وفقني وألهمني أن أقوم بالشكر على نعمك الجليلة ، التي أسبغتها عليّ وعلى والديّ من قبل ، وأعنِّي على أن أعمل الأعمال الصالحة التي تكون في حدود شريعتك وترضى عنها ، حتى أستحق رضاك ، وأدخلني بالعمل الصالح ، وبرضاك عني ، في الجنة التي هي دار عبادك الصالحين .

(٤)

من الآية ٢٠ إلى الآية ٢٨ من سورة النمل

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ، فَقَالَ : مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ؟ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ؟ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ، أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ، أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ -١- . فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَقَالَ : أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ -٢- . إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ -٣- . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، اللهُ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ -٤- . قَالَ : سَنَنْظُرُ : أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ؟ اِذْهَبْ بِكِتَابِي هٰذَا ، فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ، فَانْظُرْ : مَاذَا يَرْجِعُونَ ؟ -٥- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وتفقد الطير	بحث أحوالها ، وتعرف ما غاب عنه منها .
ما لى لا أرى الهدهد	أى شىء حدث ، تسبب عنه أنى لا أرى الهدهد بين الطيور ؟
أم كان من الغائبين	بل كان من الغائبين .
ليأتينى بسلطان مبين	ليقيمن لى حجة واضحة ، وعذراً بيناً ، يبرر تغيبه .
فمكث غير بعيد	فأقام فى غيبته وقتاً غير طويل ، ثم رجع .
أحطت بما لم تحط به	علمت ما لم تعلمه من الأمر .
وجئتك من سبأ	وعدت إليك من مملكة سبأ .
بنبأ يقين	بخبر محقق له شأن عظيم .
امرأة	هى بلقيس ، كان أبوها ملكاً على أرض اليمن فورثت ملكه ، وأقامت حاضرته مأرب فى سبأ .
تملكهم	تملك أهل سبأ .
وأوتيت من كل شىء	كثرت النعم عليها ، وأعطيت كل ما تريد لنفسها وملكها .
ولها عرش عظيم	ولها ملك واسع ، وكرسى مملكتها رائع ، محلى باللآلىء والجواهر .
وزين لهم الشيطان أعمالهم	وأغواهم الشيطان ، وحبب إليهم عبادة الشمس ، والكفر بالله .

الألفاظ	شرحها
فصدهم عن السبيل	فحال بينهم وبين التوحيد والإيمان بالله .
ألاّ يسجدوا لله	وزين لهم الشيطان أن يسجدوا للشمس، ولا يسجدوا لله .
يخرج الخبء	يظهر ما خفى فى السموات والأرض ، المخبوء فيها .
سننظر	سنتأمل ونفكر فيما قلت .
فألقِه إليهم	فارم الكتاب إليهم .
تولّ عنهم	انصرف وتنح بعيداً عنهم .
فانظر : ماذا يرجعون	ثم اعلم بماذا يجيبون ، وبماذا يردّون .

مجمل المعنى

٢ — سليمان والهدهد

١ — خرج سليمان ليفتش جنده ، ويستطلع أموره ، ويتعرف أحواله ، وبحث عن الهدهد بين الطير ، ، فلم يظهر له الهدهد ، فسأل : — أين الهدهد ؟ لماذا لا أراه بين الطيور ؟ ثم أمعن فى النظر ، وأدام البحث حتى تحقق عدم وجوده ، فقال ، بل إنه من الغائبين ، لقد أخل بواجبه ، فتغيب بدون إذن منى ، كيف يخرج على طاعتى ، ويغيب بدون علمى ؟ وبدا منه الغضب ، وتهدد الهدهد ، وقال : — لأعاقبنه عقاباً شديداً على عصيانه : بنتف ريشه أو بحبسه ، أو بطرده من مملكتى ، أو بحرمانه شرف الانتساب إلى جندى ، أو لأذبحنه ، على حسب ما أتبين من ذنبه ، ولأصفحن عنه

إذا جاءنى بحجة واضحة ، وبرهان بين ، يدل على أنه كان له عذر فى تغيبه .

٢ — فأقام الهدهد فى غيابه وقتاً غير طويل ، ورَجع إلى سليمان بعد مدة قصيرة ، وقال له : لا تغضب علىّ ولا تعذبنى ، فقد كنت غائباً فى أمر هام ؛ وإنى علمت من أمور الدنيا وأنا طائر ضعيف صغير ، ما لم تعلمه وأنت ملك قوى كبير ، ونبى يوحى إليه ، ولقد عدت إليك من مملكة سبأ بخبر عظيم الشأن ، ونبأ محقق لا مرية فيه .

٣ — قال سليمان : قل : بماذا أحطت ، وبماذا جئتنا من الأمر ؟ قال الهدهد : — إنى طرت إلى الجنوب ، حتى وصلت إلى مملكة سبأ ، فوجدت امرأة مُمَلَّكة على أهلها ، هى بَلقيس بنت شراحيل ، ووجدت لها ملكاً كبيراً ، وعرشاً عظيماً ، محلًّى باللآلىء والجواهر ، وقد أوتيت كل ما تريد من أسباب القوة وألوان النعم ، وما تحتاج إليه لملكها ولنفسها .

٤ — ومع ما أفاض الله من نعمه على أهل هذه المملكة ، فإنهم لا يعترفون بنعم الله عليهم ، ولا يؤمنون به ولا يعبدونه ، لقد وجدتهم صابئة : يعبدون الأفلاك والكواكب ، ويسجدون للشمس ولا يسجدون لله ، وقد أغواهم الشيطان ، فزين لهم أعمال الكفر وعبادة الشمس ، وحول قلوبهم عن عبادة الله وتوحيده ، فهم لا يهتدون إلى عبادته والإيمان به ، لأنهم لا يسجدون له ، وهو الذى يخرج ما تخبؤه الأرض والسموات ، ويحيط بكل صغيرة وكبيرة فيهما ، ويعلم ما تخفون فى صدوركم ، وما تظهرون من أعمالكم ، يعلم إشراق الكواكب بعد استتارها ، ونزول الأمطار وإنبات النبات ، ويعلم خبايا الإنسان ونياته ، فهو المستحق للألوهية ، المتفرد بالوحدانية ، هو الله الذى لا إله إلا هو

فى الأرض وفى السماء ، هو صاحب الملك ، ورب العرش العظيم .

٥ – لما قال الهدهد ذلك ، وذكر ما عليه قوم بلقيس من الكفر والضلال ، قال له سليمان : سنتأمل فيما قلت ، ونعرف حقيقته ، لنتبين : أأنت صادق فيه أم أنت كاذب ؟ وحينئذ سنحكم عليك بما يظهر من الأمر الذى جئتنا به ؛ فخذ كتابى هذا ، واذهب به إليهم ، وألقه من الجو بين يدى بلقيس ، ثم تنح بعيداً عن القوم ، واستمع ما يقولون ، ثم ارجع إلينا ، ونبئنا بما قالوا ، وأخبرنا بما أجابوا .

(٥)

من الآية ٢٩ إلى الآية ٤٠ من سورة النمل

قَالَتْ : يٰأَيُّهَا الْمَلَأُ ، إِنِّى أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ، وَإِنَّهُ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ ، وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ -١- . قَالَتْ : يٰأَيُّها الْمَلَأُ ، أَفْتُونِى فِى أَمْرِى ، مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ -٢- . قَالُوا : نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ ، وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ ، فَانْظُرِى : مَاذَا تَأْمُرِينَ ؟ -٣- . قَالَتْ : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ، وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ -٤- . وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ، فَنَاظِرَةٌ : بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ؟ -٥- . فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ ، قَالَ : أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ؟ فَمَا آتَانِىَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ -٦- . ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ، فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً ، وَهُمْ صَاغِرُونَ -٧- . قَالَ : يٰأَيُّهَا الْمَلَأُ ، أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا ، قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ؟ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ، قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ

عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ، قَالَ : هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى ، لِيَبْلُوَنِى : أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ؟ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الملأ	القوم والأشراف .
إنى ألقى إلىّ كتاب كريم	إنى قد جاءنى كتاب مضمونه كريم ، من ملك كريم .
ألا تعلوا علىّ	ألا تتكبروا ولا تتعالَوا علىّ ، ولا تأخذنكم عزة الملوك ، فتأبَوْا طاعتى والانقياد إلىّ .
وأتونى مسلمين	وتعالَوا إلىّ مؤمنين منقادين .
أفتونى فى أمرى	أشيروا علىّ فى الأمر الذى نزل بى .
ما كنت قاطعة أمراً	لا أنفذ حكماً ، ولا أبرم أمراً .
حتى تشهدون	حتى تحضرُونى ، أى لا أبت أمراً إلا بحضوركم .
نحن أولو قوة	نحن أصحاب قوة فى الأجساد والعَدد والعتاد .
وأولو بأس شديد	وأصحاب نجدة وشجاعة وبلاء فى الحرب .
فانظرى : ماذا تأمرين	نحن أبناء حرب ، لا أبناء مشورة ورأى ، فمرينا بما تشائين ، نكن فى طاعتك وخدمتك .

الألفاظ	شرحها
إذا دخلوا قرية أفسدوها	إذا احتلوا بلداً عاثوا به فسادا .
فناظرة بم يرجع المرسلون	فمنتظرة : بماذا يرجع الرسل؟ هل يقبلون الهدية أو يردونها ؟ وماذا يكون موقع ذلك من نفوسهم ؟
فلما جاء سليمان	فلما جاء الوفد سليمان بالهدية .
فما آتانى الله خير مما آتاكم	فما أعطانى الله من الملك والنبوة والنعمة، خير مما آتاكم من المال وزخارف الدنيا .
لا قبل لهم بها	لا طاقة لهم بها .
وهم صاغرون	وهم أسرى مستعبدون .
عفريت من الجن	شيطان مارد قوى .
قبل أن تقوم من مقامك	قبل أن تنصرف من مجلسك .
عنده علم من الكتاب	ملك ألهمه الله بما سُجل فى اللوح المحفوظ من الغيب .
قبل أن يرتد إليك طرفك	أسرع من غمضة عينك .
مستقراً عنده	ثابتاً عنده، ومستقراً أمامه .
ليبلونى	ليختبرنى ويمتحننى .

مجمل المعنى

٣ — كتاب سليمان إلى بلقيس ، ونتائجه

١ — طار الهدهد بالكتاب إلى مملكة سبأ كما أمره سليمان ، وألقاه إلى بلقيس ، وكان القادة والجنود وأشراف المملكة حواليها ، فلما تناولته وعرفت أنه من سليمان ، فضته وقرأته ، وقالت لمن حولها : يأيها القوم ، إنى قد جاءنى

هذا الكتاب الكريم ، المتضمن لأشرف القول ، وأسنى المعانى ، من الملك الكريم ، سليمان الحكيم ، ومضمونه هو : بسم الله الرحمن الرحيم ، أدعوكم إلى الإيمان بالله وطاعتى ، لا تتكبروا علىّ ، ولا تأخذكم عزة فتصدوا عن سبيل الله ، كما يفعل جبابرة الملوك ، وتعالوْا إلىّ مسلمين ، مؤمنين ، منقادين ، طائعين .

٢ — ثم بدا عليها الاهتمام بالأمر ، والتفكير فيما تفعل ، فقالت : يأيها الملأ ، أفتونى فى هذا الأمر الذى أهمنى وَحزننى ، وأشيروا علىّ فيه ، وسآخذ برأيكم ، وأعمل بمشورتكم ؛ وثقوا بأنى لا أنفذ أمراً ، ولا أقضى بحكم ، ولا أفعل شيئاً متعلقاً بالملك ، إلا بموجب رأيكم ، وبحضوركم وموافقتكم ، وكانت بلقيس فى حيرة َحقيقية ، فأرادت استعطاف قومها حتى لا يخرجوا عن طاعتها ، أو يخالفوها فى التدبير لهذا الأمر الهام ، فجعلت خطابها مشوباً بالتلطف معهم ، والإكبار من شأنهم .

٣ — قالوا : َيأيتها الملكة ، لا ترهبى أحداً ، ولا تخافى شيئاً ، فنحن قوم مزودون بالسيوف والرماح والدروع وآلات الحرب ، مدربون على القتال ، أجسامنا قوية ، وصولتنا عظيمة ، وفينا نجدة وشجاعة وبلاء فى الحروب ، ونحن على أتم استعداد للقتال ، وقد أُعْددنا للصيال والنزال ، ونحن رهن إشارتك ، وطوع أمرك ، وقد فوضنا الأمر إليك ، فانظرى : ماذا تأمرين ؟ نكن فى الخدمة والطاعة .

٤ — أحست بِلقيس فيما سمعت من قومها أنهم يميلون إلى الحرب ، وكانت عاقلة مفكرة ، تقدر عواقب الأمور ، فأرادت أن تثنيهم عن هذه الوجهة ، بكلام ليس فيه منع صريح ، ولكن فيه بيان لعواقب الحرب الوخيمة ، فقالت لهم : — إن من عادة الملوك أنهم إذا دخلوا قرية أو مملكة مقاتلين محاربين ، لم يأتوا على شىء إلا أفسدوه ، وتناولوا بالتخريب والإتلاف

العمارات والقصور ، والمصانع والزروع والأموال ، وأهانوا أهلها بعد كرامة ، وأذلُّوهم بعد عزَّة ، فوقعوا فيهم أسراً وقتلاً وإجلاء ، ومثل ذلك يفعلون بنا ، كما هى عادتهم التى لا تتغير على حسب ما رأيت ، وما سمعت من آبائى الذين نشئوا فى السياسة والحكم والملك من زمن قديم .

٥ — وقد اعتزمت أن أرسل إليهم رسلى وسفرائى مع هدية عظيمة ، وسأنظر : ماذا يكون موقعها فى نفوسهم ؟ وسأعرف : بماذا يعودون إلىّ من عندهم ؟ فإن من عادة الملوك أن الهدايا العظيمة تقع فى نفوسهم موقعاً حسناً ، فيهادنون من أجلها الأمة المُهدية ، فإن قبلوها عرفت أن سليمان ملك ، يرضيه ما يرضى الملوك ، وإن كان نبيًّا أبَى إلا أن نتبع دينه ، ونؤمن به .

٦ — حضر الوفد إلى فلسطين ، يحمل الهدايا والطُّرَف إلى سليمان ، فرأى الوفد ملكاً كبيراً ، وسلطاناً عظيماً ، ورأى قصوراً وجنداً ، ونعيماً وقوة ، ليست مأرِب ومملكة سبأ إلى جانبها شيئاً يذكر ، فلما مَثل بين يدى سليمان ، وقدم إليه هدية بَلْقيس ، أنكر ذلك ، لأنه لم يكتب إليها طمعاً فى مال أو هدية ، ولكنه كان يطلب منها أن تأتى إليه لتؤمن بالله ، وتتبع شريعته ، وتترك عبادة الشمس ، فنظر إلى الوفد ، بوجه سَمْح طَلْق ، وقال : أتهدوننى مالا ، وأنتم ترون مظاهر الثروة والجاه والغنى ؟ أتظنون أنى أطلب الدنيا ، وقد آتانى الله خيراً مما آتاكم ؟ فأعطانى مُلكاً أوسع وأعظم من مُلككم ، وقوة أشد من قوتكم ، وسخر لى الجن والإنس والريح والطير ، وجعلها كلها فى خدمتى ، ورهن إشارتى ، ووهب لى من أسباب النعيم ما ليس لأحد غيرى ، وآتانى النبوَّة والحكمة ، فلست أطمع فى مال ، ولا أنتظر من أمثالكم هديَّة ، ولكنى أرجو لكم الهداية والإيمان ، ومثلكم من يفرح بالمال ، ويُسَرّ للهدية ، وينشرح صدره لزخارف الدنيا ؛ ثم

صرف الوفد ، وردّ الهدية ولم يقبلها ؛ ومع أن التهادى من وسائل التودد والتحبب والتواصل بين الناس ، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم والأنبياء يقبلون الهدية لذلك ، لكن سليمان لم يقبلها ، لأن بلقيس لم تقصد معناها ، وإنما جعلت قبول الهدية أو ردّها علامة على شيء فى نفسها ، وأرادت بها أن تعرف : إن كان سليمان ملكاً أو نبيًّا .

٧ - قال سليمان لأمير الوفد : ارجع إليهم بهديتهم ، وأخبرهم بما شاهدت من ملكنا وقوتنا ، وعرِّفهم أنه لا طمع لنا فى المال ، وإنما نريد لهم الطاعة والإيمان ، فإن أطاعوا وآمنوا نجوا ، وإن بقوا على الكفر ، فلنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بها ، ولا قدرة لهم على الوقوف أمامها ، ولنخرجهم من أرضهم ومملكتهم مُهانين صاغرين ، أذلاء مستعبَدين ؛ فرجع إليها وفدها ، وأخبرها بما رأى وما سمع ، فعرفت أنه ليس بملك ، وأنها لا طاقة لها بقتال نبى من أنبياء الله ، واعتزمت أن تستجيب إلى دعوة سليمان ، وأن تتوجه إليه مع عظماء قومها ، وأن تؤمن به ، وتتبع دعوته .

٨ - وقبل أن تصل إلى مملكة سليمان ، أراد أن يُريها بعض ما خصّه الله به من معجزات ، وأن يكون ذلك أيضاً دليلاً على نبوّته ، فطلب أن ينقل إليه عرشها الذى قد غلّقت عليه الأبواب ، وأحكمت الأقفال ، لتراه أمامها فى قصر سليمان ، فقال لمن حوله : أيكم يأتينى بعرش بلقيس ، قبل أن تأتى إلىّ هى وقومها مؤمنين ، ليروا قدرة الله الذى دعوتُهم إلى عبادته ماثلة أمامهم ؟ قال عفريت من الجن ، وشيطان قوى مارد منهم : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، وإنى لقوى على حمله ، أمين على ما فيه من الجواهر واللآلئ والنفائس ؛ قال سليمان ، أريد أسرع من ذلك ، فأرسل الله إليه جبريل الذى عنده علم الكتب السماوية ، التى

ينزل بها على الرسل . فقال له : أنا آتيك به أسرع من ردّ الطرف ، وغمضة العين ؛ فقال سليمان : افعل ، فأتى به ، ورآه فى قصره مُنضداً ثابتاً مستقرًّا عنده ، فقال : هذا النصر والتمكين من فضل ربى ، ليرى : أأزيد فى شكره على نعمه ، أم أجحدها وأكفر بها ؟ وإنى لشاكر لربى نعمه ، مقرّ دائماً بفضله ، وليس مرجع نفع الشكر إلا للشاكر ، لأن الشكر يستوجب تمام النعمة ودوامها ، والمزيد منها ، . ومن كفر بترك شكر الله على نعمه ، فإن الله غَنى عن هذا الشكر ، كريم بالإنعام على من أنكر منته ، وجحد نعمته .

(٦)

من الآية ٤١ إلى الآية ٤٤ من سورة النمل

قَالَ : نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ : أَتَهْتَدِي ؟ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ؟ —١— . فَلَمَّا جَاءَتْ ، قِيلَ : أَهٰكَذَا عَرْشُكِ ؟ قَالَتْ : كَأَنَّهُ هُوَ ، وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا ، وَكُنَّا مُسْلِمِينَ —٢— . وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ —٣— . قِيلَ لَهَا : ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ، وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ، قَالَ : إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ —٤— . قَالَتْ : رَبِّ ، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
نكروا لها عرشها	غيّروا من شكله وهيئته ، وأخفوا بعض معالمه .
أهكذا عرشك	أمثل هذا عرشك ؟
وأوتينا العلم من قبلها	وقالت بلقيس : آتانا الله العلم بنبوّتك ، من يوم أن أرسلت إلينا الهدهد ، قبل معجزة نقل العرش .

شرحها	الألفاظ
وكنا مؤمنين بك ، منقادين إلى طاعتك .	وكنا مسلمين
منعها من الإيمان بالله .	صدها
القصر ، أو صحن الدار الذى يجرى تحته الماء .	الصرح
ظنته وخيل إليها أنه ماء عظيم .	حسبته لجة
مستو مملس ، مصقول من الزجاج .	ممرد من قوارير
ظلمت نفسى بعبادة الشمس .	ظلمت نفسى

مجمل المعنى

٤ — بلقيس فى قصر سليمان

١ — أمر سليمان أن تغير هيئة العرش بعض الشىء ، حتى تخفى بعض معالمه ، وأن يعرض على بلقيس ، ليعرف ما إذا كانت تهتدى إليه بعد التأمل وإنعام النظر ، أو أنها لا تعرف أن هذا عرشها ، وكرسىّ ملكها .

٢ — فلما جاءت بلقيس ، عُرض عليها عرشها ، فوقفت أمامه فى حيرة وتردد ، لأن فيه من السمات والعلامات ما يجعلها تحكم بأنه سريرها وعرشها ، فقيل لها : لم تنظرين وتتأملين ؟ أهذا العرش مثل عرشك ؟ قالت : نعم ، كأنه هو ، بل لعله هو ، وليس ببعيد أن يكون هو عرشى بالذات ، ثم قالت : لقد أقام سليمان الدليل القاطع على نبوته ، وأوتينا العلم على صدق رسالته ، من قبل أن نجىء إليه ، ومن وقت أن أرسل إلينا الهدهد بكتابه ، وأرسلنا إليه الهدية فرفضها ، فحينئذ آمنا به ، وصدقنا برسالته ، وكنا مُسلمين منقادين لأمره .

٣ — وإذا كانت بلقيس قد عبدت الكواكب من دون الله ، وصدّتها هذه العبادة عن الإيمان بالله ، واعتقاد وحدانيته ، فلأنها نشأت بين قوم كافرين ، فعبدت ما يعبدونه .

٤ — أمر سليمان بما لديه من مهرة الصناع ، ومردة الجن ، وضخامة الثروة ، ومظاهر البذخ ، أن يشاد قصر عال ، وأن يُصنع أرض بهوه من زجاج شفيف مستو أملس ، وأن يرسل الماء تحت الزجاج ، ويطلق فيه السمك ، فبدا البهو يتلألأ ، ويتموج ما تحته من الماء ، وقيل لبلقيس : ادخلى القصر لتقابلى فيه سليمان ، فلما دخلته فزعت ، وعجبت من وجود عرش سليمان على الماء ، ورأت ما هالها ، من احتشاد حاشية سليمان من صنوف الخلق ، ولم يكن بد من تنفيذ الأمر ، فرفعت ثيابها حتى لا تبتلّ ، وكشفت عن ساقيها ، فقال لها سليمان : لا بأس عليك يا بلقيس ، ولا تفزعى ، فهذا بناء صنع أرض بهوه من زجاج ، وأرسل تحته الماء ، فلا يهولنك ما ترين ؟

٥ — استشعرت بلقيس الندم على أنها ظلمت نفسها بالشرك الذى كانت عليه ، وعكوفها على عبادة الكواكب من دون الله ، وشكرت الله على أن وفقها إلى اعتناق دين سليمان : دين توحيد الله رب العالمين

ويتبين من قصة بلقيس أن مبدأ الشورى كان مقرراً عند العرب منذ عهد بعيد ، حين كان العالم غارقاً فى بحار الاستبداد والجهالة .

(٧)

من الآية ٤٥ إلى الآية ٥٣ من سورة النمل

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا : أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ ، فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ —١— . قَالَ : يَا قَوْمِ ، لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ؟ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللّٰهَ ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ! —٢— . قَالُوا : اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَك ، قَالَ : طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ —٣— . وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ —٤— . قَالُوا : تَقَاسَمُوا بِاللّٰهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ، ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ : مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ —٥— . وَمَكَرُوا مَكْرًا ، وَمَكَرْنَا مَكْرًا ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ —٦— . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ : أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ —٧— . فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ —٨— . وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ —٩— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فَريقان يَختَصِمُون	جماعتان مختلفتان فى أمره : جماعة مؤمنة به ، وجماعة كافرة به .
لولا تستغفرون اللهَ	هلا تطلبون المغفرة من الله بعد الإيمان والتوبة ! .
اطيَّرْنا بك	تشاءم منا بك .
طائركم عند الله	ما يصيبكم من خير أو شر عند الله ، قدّره لكم ، وكتبه عليكم .
تُفتَنُون	تعذبون بذنوبكم ، وبما ارتكبتم من سيئات .
تسعةُ رهط	تسعة رجال من أبناء أشرافهم ، يتبع كلا منهم رهط ، وجماعة من قومه .
قالوا : تقاسموا بالله	قال بعضهم لبعض : احلفوا بالله .
لَنُبَيِّتَنَّهُ	لنقتلنَّهُ بَيَاتاً ، أى ليلاً .
لوليه	لوَلِىّ دمه .
ما شهدنا مَهْلِك أهله .	ما حضرنا وقت إهلاكه ، ولا ندرى من قتله وقتل أهله ؟ .
ومكروا مكراً	ودبروا وأخفوا الفتك بصالح وأهله .
ومكرنا مكراً	ودبرنا إهلاكهم وهم لا يعلمون .
دمرناهم	أهلكناهم بالصاعقة .
خاويةً	ساقطة متهدمة .
بما ظلموا	بسبب ظلمهم وكفرهم وعصيانهم .

قصة سيدنا صالح

ذكرنا حلْقة من حَلقات قصة صالح مع ثمود فى الصفحة ٧٥ من تفسير هذا الجزء ، وبينا المراجع التى يمكن الرجوع إليها فيما تقدم من تفسير الأجزاء الأخرى ، للإحاطة بهذه القصة .

مجمل المعنى

١ — ومن جملة القرآن الذى أنزلناه على محمد، ليقصه على قومه للعظة والاعتبار ، قصة ثمود ، فقد أرسلنا إليهم أخاهم نَسباً، لأنه فردٌ من قبيلتهم، وبنى قومهم ، وهو صالح عليه السلام، ليطلب إليهم أن يتركوا عبادة الأصنام، ويعبدوا الله الذى لا إله غيره ، فآمن به فريق، وكفر به فريق، وانقسموا فى دعوته جماعتين : جماعة آمنت به، وقالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون ، وجماعة كفرت به ، وقالوا : إنا بالذى آمنتم به كافرون .

٢ — فقال صالح عليه السلام للذين كفروا به ، وأصروا على الكفر والعناد ، وقالوا له : أتنا بما تَعدُنا إن كنت من الصادقين ، فإن حققت ذلك ، ووقّعت علينا العقوبات التى تهددنا بها ، آمنا بك بعد ذلك ، قال : لهم صالح : يا قوم ، لم تستعجلون على أنفسكم بالعقوبة السيئة ، والتى لا تنفع عندها التوبة ، ولا تجدى العقوبة ، قبل الحسنة التى تكون عاقبتها النجاة والسلامة ، وهى التوبة عن المعاصى ، والإيمان بالله ؟ هلا تطلبون من الله أن يغفر لكم خطاياكم ، ويوفقكم إلى الإيمان ، ليرحمكم من أجل ذلك .

٣ - ولما لجّوا فى العناد ، واستمروا فى الكفر والضلال ، أصابهم القحط ، ووقع بهم الجدب ،عقاباً لهم ، فقالوا لصالح : إن مبعثك شؤم علينا ، وإننا مُتطيرون ومتشائمون بك و بمن آمن معك ، فقال لهم صالح : ليس هناك شىء يُتشاءَم منه ، أو يكون سبباً للخير أو الشر ، ولكن الخير والشر امتحان من الله لعباده ، ومتوقف على إرادته هو ، وقد نزل بكم ما نزل عقوبة قدرها الله لكم للكفر والعصيان ، وأنتم إنما تفتنون وتعذبون بذنوبكم ، لا بالتشاؤم والتطير ؛ وهنا يجب أن نشير إلى أنه من الحماقة ومن خبل العقل ، بل من الانحراف عن الدين ، تشاؤم بعض الناس من عَدَد أو من إنسان أو أداة ، فيظنون أن الشر سيصيبهم إذا قابلوا شخصاً ، أو صادفتهم أداة من الأدوات ، أو سمعوا كلمة خاصة من الكلمات ، أو نعيق غراب ، وتلك عادة موروثة عن العرب ، شائعة بين بعض الأمم ؛ وقد كان العرب أكثر الأمم طيرَة ، فكانوا إذا أرادوا سفراً نفّروا طَيراً ، فإن طار يَمنة تيمنوا وأخذوا فى السفر ، وإن طار يَسرة تشاءموا وأضربوا عن السفر ، ولا شىء أفسد للرأى ، ولا أضر بالتدبير ، من اعتقاد الطيرَة ، وقد نهى عنها النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أقروا الطير على وُكُناتها » ، أى : عشوشها .

٤ - وكان فى مدينة ثمود - وهى الحِجر - تسعة أشخاص من أبناء الأشراف ، ليس لهم همّ إلا الإفساد فى الأرض ، وتحريض الناس على الشر ، ولا يصدر منهم إصلاح أو حث على خير ، بل دأبهم الشر المحض ، والإفساد الصرف ، ولكل منهم أتباع .

٥ - وكانوا يفعلون الفساد عن قصد وإصرار ، بل كانوا يتعاهدون على ارتكابه ، ويتواصون عليه ، ومن ذلك أنهم لم يكتفوا بمعارضة صالح ومخالفته ، بل

اجتمعوا، وقال بعضهم لبعض: احلفوا جميعاً على أن نغتاله هو وأهله، ومن اتبعه ليلا ، ونفتك بهم فى الظلام فتكاً ذريعاً ، فإذا جاء رهط صالح الذى هو ولى دمه يطالب بدمه، والقصاص من قتلته ، أنكرنا تهمة قتله ، وأكدنا له القول بأننا لم نحضر وقت قتله ، ولم نشترك فيه ، وإنا لنقول لك ذلك صادقين .

٦ — ودبروا قتل صالح اغتيالاً ، وأحكموا لذلك الخطة ، كما دبرت قريش قتل محمد، وأحكمت له الخطة، ولكن الله من ورائهم محيط، فدبّر أمر إهلاكهم ، قبل تنفيذ خطتهم، فأخذهم العذاب، وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل ، من حيث لا يحتسبون ولا يعلمون ولا يشعرون .

٧ — فانظر وتفكر فيما حصل لهم ، وكيف كانت عاقبة مكرهم السيئ ، ونتيجة تدبيرهم الشرّير ، وتأمل على أى وجه حدث إهلاكنا إياهم ، وتدميرنا لهم هم وقومهم الذين لم يكونوا معهم فى تدبير المؤامرة ، ولكنهم كانوا مثلهم فى الكفر والعصيان، فأهلكناهم أجمعين، لم ينج منهم أحد ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله .

٨ — فهذه بيوتهم الساقطة المتهدمة، تنطق بعقاب الله لهم، بسبب ظلمهم وكفرهم؛ إن فيما ذكر من الاقتصاص من أهل الكفر والضلال وسوء التدبير ، لعظة وعبرة لمن يتصفون بالعلم ، ويتبعون الحق ، وينأون عن الجهل ، ويجتنبون الباطل .

٩ — ولم نمكن أعداء صالح وأهله من أن ينفذوا ما بيتوه من قتلهم ، وأنجيناه هو ومن آمن معه من شرهم ، وكان حقاً علينا أن ننجيهم ، لأنهم مؤمنون بالله ، يجتنبون المعاصى ، ويتقون الله ، ويخافون عذابه .

(٨)

من الآية ٥٤ إلى الآية ٥٥ من سورة النمل

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟ -١- . أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وأنتم تبصرون	وأنتم تعلمون أنها فاحشة ، وترتكبونها مجاهرين بها ، ينظر بعضكم إلى بعض ، مَجَانة وانهماكا فى المعصية .
أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ؟	أترتكبون الفاحشة فى الرجال للشهوة ، وتتركون النساء اللائى خلقن لذلك ؟
تجهلون	تفعلون فعل الجهلاء الماجنين السفهاء .

قصة سيدنا لوط

ذكرنا نبذة من قصة لوط على قومه فى الصفحة ٧٩ من تفسير هذا الجزء ، وبينا المراجع التى يمكن الرجوع إليها فى تفسير الأجزاء الأخرى ، لاستيعاب هذه القصة .

مجمل المعنى

١ — واذكر قصة لوط ، إذ أرسلناه إلى قومه ، فقال لهم : ما ينبغى لكم أن تفعلوا الفاحشة ، وأن ترتكبوا تلك الفعلة المتناهية فى القبح والاستهتار ، وأنتم تعلمون مقدار قبحها وشناعتها ، وترتكبونها على مرأى ومشهد من الناس ، إمعاناً فى الاستهتار ، وانهماكاً فى العصيان .

٢ — ألا ترتدعون عن الاستمتاع بالرجال استمتاع شهوة ولذة ، وهم لم يخلقوا لذلك ؟ فالطبيعة تقضى بأن يستمتع الذكر بالأنثى ، سنة الله فى خلقه ، فكيف تخالفون ذلك ، وتأتون الرجال ، وتتركون النساء ؟ إنكم تفعلون فعل الجاهلين الضالين ، والحمقى الماجنين .

وسنذكر بقية قصة سيدنا لوط فى أول الجزء العشرين .

فهرس الجزء التاسع عشر من تفسير القرآن الكريم

تفسير القرآن الكريم

الجزء العشرون

تأليف

محمود محمد حمزة

المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان

المراقب بوزارة التربية والتعليم

محمد أحمد برانق

المفتش العام بالتعليم الإعدادى



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ، وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

(١)

من الآية ٥٦ إلى الآية ٦٦ من سورة النمل

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ -١- . فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ، إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ -٢- . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ! -٣- . قُلِ : الْحَمْدُ لِلهِ ، وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ؛ آللهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ ؟ -٤- أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؟ أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ -٥- . أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً ، وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً ، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ، وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ؟ أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ -٦- . أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ؟ أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ ؟ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ -٧- . أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ

فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؟ أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ ؟ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ -٨- . أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ ؟ قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ -٩- . قُلْ : لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ -١٠- . بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ، بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ -١١- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يتطهَّرون	يتنزهون عما نرتكب من المنكر ، وما نأتى من الفاحشة .
قدَّرناها من الغابرين	قضينا عليها أن تكون من الباقين فى العذاب .
فساء مطرُ المنذَرين	فبئس المطر مطر من أنذرناهم ! لقد كان يقع عليهم صواعق وأحجاراً تدمرهم .
اصطفى	اختارهم للإيمان .
ذاتَ بهجة	ذات حسن .
ما كان لكم	لا ينبغى لكم ، وهو مستحيل عليكم .
يَعدِلون	يميلون عن الحق والتوحيد الذى وضحت محجَّته ، إلى الضلال والكفر .

الألفاظ	شرحها
جعل الأرض قَراراً	كورها وسوّاها، وجعلها مستقراً وسكنا لكم .
رَواسى	جبالا راسية راسخة ، تحفظ توازن الأرض فى سرعة حركتها ودورانها .
وجعل بين البحرين حاجزاً	جعل بين النهر العذب والبحر الملح مانعاً، بإبداع خلقه وعظيم قدرته .
ويكشفُ السوء	ويزيل الخوف والجوع والمرض ، والضرر والظلم .
خلفاء الأرض	متسلطين ومتصرفين فى الأرض ، جيلا بعد جيل .
قليلا ما تذكّرون	تتذكرون ما يمر بكم من الآيات والمواعظ تذكراً قليلا ، لا يجديكم فى الهداية .
بشراً بين يدى رحمته	مبشرات تتقدم تجمع السحاب ونزول الغيث ، وهو رحمة الله إلى عباده .
تعالى الله	تنزه وتبرأ .
هاتوا برهانكم	قدموا الدليل على جواز كفركم وإشراككم .
أيّان يبعثون	متى يخرجون من قبورهم ، وتعود إليهم الحياة ، ليحاسبوا على أعمالهم .
ادّارك علمهم فى الآخرة	تدارك وتتابع سبب علمهم بشأن الآخرة وحقيقتها ، بما قدم لهم من براهين قاطعة .
بل هم منها عَمون	بل هم مع تكامل العلم بالآخرة لهم فى عمى عنها ، لأن قلوبهم مقفلة .

قصة سيدنا لوط

ها هى ذى بقية قصة سيدنا لوط ،التى ذكرنا شطراً منها فى آخر تفسير الجزء التاسع عشر .

مجمل المعنى

١ — لما وبخ لوط قومه على إتيان الفواحش ، وارتكاب أقبح المنكرات ، والعدول عما أحل لهم الله من التمتع بالنساء حلائل طيبات ، يلدن النسل ، ويعمرن البيت ، إلى الاستمتاع بالرجال ،وهم بطبيعة خلقتهم ، وأصل تكوينهم ، لم يُعَدّوا لذلك ،وذكّرهم بأنه لا يقدم على مثل هذا الفعل الشنيع إلا السفهاء ، المسرفون فى الجهل والمجانة والفسق ، لم تكن لهم حجة يبررون بها شناعة ما يرتكبون ، وسوء ما يفعلون ، فلجئوا إلى المغالبة والإيذاء ، وهددوه بالزجر والطرد من قريتهم سدوم ، مستهترين متهكمين ، معلنين بأنه يستحق أن يُقصى ،وأن يُنفى من بلاده هو ومن آمن معه ،لأنهم يتنزهون عن فعل المقابح التى يفعلونها ، وإتيان المنكرات التى يأتونها ، فلا يستحق أن يعيش معهم ، أو أن يقيم بينهم .

٢ — فنجى الله لوطاً ومن آمن به من شرهم ، وخلّصهم من العذاب الذى سينزل على العصاة الآثمين ، وأمرهم أن يخرجوا ليلا من هذه القرية الظالم أهلها ، وكتب لهم السلامة ، ما عدا امرأتَه ،فقد حق عليها أن تبقى فى العذاب ، وأن يصيبها ما أصابهم .

٣ — وسلط الله عليهم الطبيعة ، فانفجرت الأرض ، وقذفت بالحمم والحجارة ، والمعادن المصهورة ، إلى عَنان السماء ، ثم سقطت عليهم مطراً وقع عليهم ،

فأحرقهم وطواهم ؛ وهكذا أراد ربك أن يكون المطر — وهم يتوقعون منه القوت والرى والخصب — أشد عذاب ، وأقسى عقاب يقع عليهم ، ويجعله أسوأ شىء يصيب به من يُنذرهم الله انتقامه ، أولئك الذين فسدت عقائدهم فكفروا بالله ، وفسدت طبائعهم فعبثوا بالأخلاق والآداب .

٤ — أمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بعد ما ساق إليه من أنواع المواعظ والعبر ، بقصص من سبق من الأمم المخالفة ، أن يحمد الله على ما أفاض عليه من ألوان التسلية ، لكيلا يأسى لما يلقى من عناد قريش وكفرهم ، وأن يسلم على إخوانه من الأنبياء الذين اصطفاهم الله لرسالته ، وإبلاغ دينه لخلقه ، فلقوا العنت والأذى والتكذيب مثل ما لقى . وأن يقول لقريش سائلا ومبكتاً ، لينبههم على الجهل المفرط : ماذا فى هذه الأصنام من خير حتى تعبدوها ؟ آلله الذى خلقكم ورزقكم ، وهو مصدر الخير لكم أحق أن تعبدوه ، أم هذه الأصنام وليس فيها خير ولا شر ، ولا ضرر ولا نفع فتشركوها بعبادة الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ؟

٥ — بل الله جلت قدرته هو المنفردُ بالألوهية ، الحقيقُ بالعبادة ، لأن آثار قدرته ظاهرة ، ودلائل وحدانيته باهرة ، فهو رب هذا الكون ، وخالق السموات والأرض ، وخلقكم أنتم أيها الجاحدون من هذه الأرض ، وأنزل لأجلكم من السماء مطرا ، بما هيأ فى الكون من حرارة تصعِّد البخار من البحار ، ثم يصير فى طبقات الجو سحاباً ، يرسله الله إلى من يشاء ، ثم يتكاثف ويسّاقط ماء يسيل أنهاراً ، تجرى فيها السفن ، ويسقى الأرض فتخصب ، وتنبت به بقدرة الله — لا بقدرة أحد غيره — حدائق ذات حسن وبهجة ، تقرّ أنظاركم ، وتسر نفوسكم ، وتعطيكم بديع الزهر ، ويانع الثمر ، وما كان لكم ، ولا تستطيعون أنتم ولا آلهتكم التى تعبدونها من دون الله ، أن تنبتوا شجرها ،

فضلا عن أزهارها وأثمارها ، واختلاف أصنافها وأوصافها ، وطعومها وروائحها ، وأشكالها وحُجومها ، مع ما لها من الحسن البارع الرائع ؛ أينبغى لهؤلاء أن يعبدوا إلهاً آخر ، مع الله الذى هذه بعضُ أفعاله؟ إنهم قوم لا يهتدون إلى الحق الواضح ، ولا ينظُرون فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، بل يَميلون عنه إلى الضلال والكفر ، وينحرِفون عن التوحيد ، ويعكفون على الباطل والشرك .

٦ — بل من الذى كوّر الأرض وبسطها ، ومدها وسوّاها ، وهيّأها بالسهول والوديان ، والهواء والضوء والحرارة ، حتى جعلها مُستقرا لكم ، ومكانا صالحاً لسكنكم ومعيشتكم ، وأجرى فى وسطها أنهاراً تنتفعون بها ، وتقوم الحضارات على شواطئها ، وجعل لها الجبال أوتاداً رواسى ثوابت ، تمنعها أن تميل أو تميد وهى تدور وتتحرك ، وأودع فيها من المعادن والمنافع ما لا يحصى ، وجعل بقدرته الأنهار العذبة فى وضع مرتفع منحدر إلى البحار الملحة ، فبقى كل منهما منفصلا عن الآخر ، كأن بينهما حاجزاً ، حتى يتم الانتفاع بكل منهما بجميع وجوه المنافع ؟ أينبغى أن تعبدوا إلها آخر غير الذى خلق هذه الأرض على هذا الإبداع والإتقان ؟ كيف خفى عليهم أن الأصنام التى يعبدونها لا يتصور أن تخلق شيئاً ، ولا يصح أن تعبد ؟ إنهم بهذا الشرك قد جردوا أنفسهم من موهبة العقل ، ونفوا عنها صفة العلم ، ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك ، مع وضوحه وظهوره .

٧ — بل من يسمع دعاء المظلوم ، واستغاثة المستغيث ، وتلهف الخائف ، فيستجيب لدعائهم ، ويزيل السوء والأذى ، ويُذهب الخوف والفزعَ عنهم؟ ومن يجعلكم خلفاء فى الأرض ، متعاقبين على امتلاكها وعمرانها ، تُذللونها لمنافعكم ، وتُسخرونها لخدمتكم ، وتجعلون كل ما فيها من قُوًى صامتةٍ

وباغمة فى البر والجو والبحر خاضعاً لإرادتكم ، ورهن مشيئتكم ؟ أينبغى أن يُعبد — مع مَن هذا فضلُه ، وتلك قدرتُه — صنم لا يجيب إذا دعوتموه ، ولا يكشف ضراً إذا استصرختموه ، ولا يستطيع أن يمكن لكم فى الأرض ؟ إن آيات الله فى خلقه لناطقة بوحدانيته ، ولكنكم تتذكرون تذكراً قليلا ، لا يبلغ بكم حد الإيمان ، ولا يمنعكم من الضلال والكفر .

٨ — بل من يُلهمكم الطريق الصحيح ، ويهديكم المسلك الذى يوصلكم إلى غايتكم ، بالنجوم والمعالم التى تترسمونها فى ظلمات الليالى فى البحر والبر ؟ ومن يُرشدكم بوسائل العلم التى وفقتم إلى ابتداعها ، كالمنارات وآلات الرصد ، والإبرة الممغنطة ، إلى أن تسيروا فى اتجاهها فى ظلمات بحر لُجِّىٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، وأن تجوبوا مفاوز البر حيث لا معالم تهديكم ، ولا رائد يصدقكم ؟ بل من يسوق إليكم الرياح لتبشركم بتجمُّع السحاب ، ونزول الغيث ، وهو رحمة من الله لكم ، تجرى بها الأنهار ، وتسيل الوديان ، فتنبت الأرض ، ويخرج الثمر ؟ أينبغى أن يعبد مع الله — وهذه قدرته وتلك نعمته — أصنام وأوثان ، لا تقدم خيراً ، ولا تهدى من ضلال ؛ تنزه الله وتعالى بذاته المنفردة بالألوهية ، المتصفة بجميع صفات الجلال والكمال ، عن أن يكون له شريك فى ملكه أو ألوهيته ! .

٩ — بل من أنشأ البشر من العدم ، وأوجد هذا الخلق ولم يكن ، وتكفل برزقه وأسباب حياته ، ومن يعيده إلى الحياة بعد الموت ؟ لا شك أنه الله الذى قدر أن يوجده من العدم ، أقدر على أن يرده إلى الحياة بعد الموت ، وذلك أهون عليه ! هذه براهين ناطقة صادقة على أنه الواحد لا شريك له ، يُحيي ويُميت ، ويبدئ ويعيد ، فهاتوا برهانكم ، وأظهروا حجتكم على أن هذه المعبودات التى تعبدونها من دون الله ، لها بعض صفات

الألوهية ، أو تستحقّ العبادة ، إن كنتم صادقين فيما تدّعونه ، ولستم صادقين ، بل أنتم كاذبون ضالّون مُضلون ، لأن هذه الآلهة لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة، فكيف جعلتموها آلهة ، وعبدتموها من دون الله ؟ إنكم لفى ضلال مبين .

١٠ — لقد تحقق فى سابق الآيات تفرّدُ الله تعالى بالوحدانية ، بما ذكر من اختصاصه هو بالقدرة التامة ، والرحمة العامة ، فمن كانت هذه صفاته ، فلا يعلم الغيب إلاهو ، والغيب مما انفرد بعلمه وحده دون من فى السموات والأرض ،من ملائكة وإنس وجن ، فلا يعلم أحدٌ منهم متى ينشر من قبره ، أو يحيا بعد موته ، أو يبعث ليوفى حسابه بين يدى عالم الغيب والشهادة .

١١ — ليس للمشركين عذر فى شركهم ، بل ليس لهم حجةٌ يبررون بها البقاء على ضلالهم ، فقد تتابعت لديهم أسبابُ العلم ، وتكاملت لهم البراهينُ على أن البعث حق ، وأنّ الحساب حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، لكنهم كلما زدناهم براهين وحججاً على حقيقة الآخرة وصدقها،زادوا شكًّا فيها، وتكذيباً بها، وما حاولوا أن يرجعوا إلى الحق، ويديروا عقولهم نحو محجة الهدى والصواب ، بل طمس الله على بصيرتهم فعَموا عن الهدى ، وضلوا طريق الحق .

(٢)

من الآية ٦٧ إلى الآية ٧٥ من سورة النمل

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : أَئِذَا كُنَّا تُرابًا وآباؤُنا ، أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ؟ -١- . لَقَدْ وُعِدْنَا هٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ، إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ -٢- . قُلْ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانْظُرُوا : كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ؟ -٣- . وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ -٤- . وَيَقُولُونَ : مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ -٥- . قُلْ : عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُون -٦- . وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ -٧- . وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ، وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ -٨- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أئذا كُنّا تراباً	أئذا متنا وطوتنا القبور ، واستحالت أجسامنا إلى تراب ؟ .
أئنّا لمُخْرَجون	هل تجتمع عناصر أجسامنا ، وتعود إليها الحياة ، ونخرج من القبور كما كنا فى الدنيا ؟.
لقد وُعِدْنا هذا نحن وآباؤنا من قبل	هذا كلام قيل لنا ، كما قيل لآبائنا من قبل ، ولم يظهر له أثر .
إنْ هذا إلا أساطير الأولين	ما هذا الوعد إلا خرافات وأكاذيب من محمد ، كالأكاذيب التى وعد بها الأنبياء آباءنا الأقدمين .
سيروا فى الأرض	تنقلوا فى الأرض ، وشاهدوا آثار الهلاك والعذاب .
عاقبةُ المجرمين	آخر أمر الكافرين المكذبين .
ولا تكن فى ضَيْقٍ مما يمكرون	ولا تجعل الحرجَ والغمّ يستولى على نفسك ، ويملأ صدرك ، من سوء تدبيرهم وكيدهم لك .
ردف لكم بعضُ الذى تستعجلون	لحقكم وتبعكم بعض ما تستعجلون من العذاب .
ما تُكِنّ صدورُهم	ما تخفى صدورهم من الكفر والكيد لمحمد .
فى كتاب مبين	مثبت إثباتاً بيناً واضحاً فى صحائفكم التى تؤتَوْنها يوم القيامة .

مجمل المعنى

١ – لما أورد الله فى الآيات السابقة تفردَه بعلم الغيب ، وقيامِ الساعة ، وأن الكفار ينكرون ذلك ، ولا تشعر قلوبهم بحقيقته ، وأن الله طمَس على بصائرهم ، وأعماهم عن الإيمان بالآخرة ، برغم تتابع الأدلة القائمة على حقيقتها – ذكر ما يعرضونه من القول فى استبعاد قيام الساعة ، وإنكار إخراجهم من القُبور ، وتكوين أجسامهم بعد أن استحالت تراباً ، وعودتهم وآبائهم إلى الحياة بعد أن طوتهم الأرض من آلاف السنين .

٢ – وقالوا مؤكدين إنكارهم : لقد وعدنا محمد بأننا سنبعثُ من قبورنا ، ونردُّ أحياء بعد الموت ، كما وعد الأنبياء السابقون آباءنا بذلك من قبل ، ونحن لا نصدق أن هناك بعثاً من القبور ، أو أن القيامة آتية ، أو أننا سنحيا بعد الموت ، ولا نرى هذا الذى وَعدنا به محمدٌ إلا من خرافات السابقين ، وأكاذيبِ الأقدمين .

٣ – قل لهم يا محمد : إن الله قد خلق لكم العيون لتروا ، فتنقَّلوا فى جهات الأرض ، وانظروا فيها بعيونكم ، فسترون الآثارَ بينة ناطقة بما انتهى إليه أمر الكفار المكذبين أمثالكم ، لقد كفروا وأصروا على الكفر ، وكذبوا وأصروا على التكذيب ، فخسف الله بهم وبديارهم الأرض ، وأصبحوا أثراً بعد عين .

٤ – يا محمد ، لا تحزن عليهم لعدم إيمانهم ، فما عليك إلا البلاغ ، ولا تُحرج صدرك ، ولا تجعل الهم والغم يستوليان على نفسك مما يمكرون بك ، ويكيدون لك ، فإن الله يحفظك من شرهم ، ويعصمك من كيدهم .

٥ – وإنهم يمعنون فى التكذيب ، ويسألون مستهزئين : متى يجىء البعث ، ويتحقق الوعد بقيام الساعة ؟ حددوه لنا ، ودلونا عليه إن كنتم يا محمد أنت

ومن اتبعك صادقين فيما اعتقدتم ، وفيما وعدتمونا به من الآخرة والبعث والحساب والعذاب !.

٦ — قل لهم : قريباً جداً سيلحقكم ويتبعكم فى الدنيا بعض العذاب الذى تنكرون وقوعه فى الآخرة، وتستعجلون حلوله بكم ! وقد وقع ما استعجلوه عياناً، فحل بهم من القتل والأسر والهزيمة ما حل فى يوم بدر . وتحققت قدرة الله فى انتصار فئة قليلة ، على فئة كثيرة ، بإذن الله .

٧ — وإن الله جل وعلا ، إنما يؤجل عقاب الكفار والعصاة إفضالا عليهم ، ولكن كثيراً منهم لا يعرفون حق نعمة الله عليهم ، فلا يشكرونه عليها ، بل يكفرون بها ويجحدونها .

٨ — وإن ربك ليعلم ما يخفى هؤلاء الكفار فى صدورهم ، وما تستره نفوسهم ، من عداوة الرسول وتدبير الكيد له ، وما يظهرونه من تكذيبه ومعارضته ، بل إنه يرى كل خافية فى الأرض وفى السماء ، ويعلم كل غائبة فى الكون ، ويثبتها فى صحائف إثباتاً بيناً واضحاً ، وستعرض يوم القيامة ، ليجازى كل على عمله ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

(٣)

من الآية ٧٦ إلى الآية ٨٥ من سورة النمل

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ —١—. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ، فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ —٢—. إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ، وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ، وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ، فَهُمْ مُسْلِمُونَ —٣—. وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ : أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ —٤—. وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ، فَهُمْ يُوزَعُونَ ، حَتَّى إِذَا جَاءُوا ، قَالَ : أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا ؟ أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ —٥—. وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا ، فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ —٦—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يَقُصُّ على بنى إسرائيل أكثرَ الذى هم فيه يختلفون	يبين لبنى إسرائيل ، ما اختلفوا فيه مع النصارى فى أمر عيسى .
يَقضى بينهم بحُكمه	يقضى بين بنى إسرائيل فيما اختلفوا فيه بعدله وحكمته .
الحقِّ المبين	الدين البيِّن الصحيح .
وَلَّوْا مدبرين	أعرضوا عن الدعاء، وانصرفوا عن قبول الحق، كأنهم لا يسمعون .
وما أنت بهادى العُمْىِ عن ضَلالتهم	وليس بواجب عليك أن تهدى من الضلالة والكفر، مَن عموا عن الحق ، وضلوا طريق الهدى .
إن تُسمع إلا من يؤمن بآياتنا	وليس عليك إلا أن تبلِّغ الرسالة ، فيسمعها ويؤمن بها المستعدون إلى الإيمان .
فهم مسلمون	فهم مُخلِصون لله ، منقادون إلى الحق .
وإذا وقع القولُ عليهم	وإذا حقت عليهم كلمة العذاب ، ووجب عليهم العقاب ، وجاء يوم القيامة .
أخرجنا لهم دابّةً من الأرض	أخرجنا لهم الناسَ من قبورهم أحياء يدبون على الأرض ، كما كانوا فى الدنيا .
تُكلِّمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يُوقنون	تخبرهم بلسان الحال أن الكفار كانوا بآيات الله التى من جملتها قيام الساعة ، لا يؤمنون ولا يصدقون .

الألفاظ	شرحها
ويوم نحشر من كل أمة فوجاً	واذكر لهم يوم القيامة ، إذ نجمع من كل أمة من الأمم جماعة كثيرة .
ممن يكذّب بآياتنا	وهذه الجماعة التى نجمعها للعذاب يوم القيامة ، هى التى كذبت بآياتنا .
فهم يوزَعون	فهم يُدفعون ويساقون ، ويرد أولهم على آخرهم ، حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى الموقف للحساب .
حتى إذا جاءوا	حتى إذا جاءوا واجتمعوا فى موقف النقاش والحساب .
أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علماً	أوقع تكذيبكم بآياتى التى أنزلتها على رسلى ، وأقمتها دلالة على توحيدى ، غير متدبرين لها ، ولا محيطين علما بها ؟ .
أم ماذا كنتم تعملون	أم أي شىء كنتم تعملونه ، حين لم تبحثوا آياتى ، ولم تفكروا فيها ؟
بما ظلموا	بسبب ظلمهم وشركهم .
فهم لا ينطقون	فهم لا يجدون حجةً يقيمونها ، فيسكتون ولا يتكلمون .

مجمل المعنى

١ — إن هذا القرآن الذى يكذب به المشركون آيةُ صدق ، وكتابُ حق من عند الله ، لأنه نزل على رجل أمىّ ، وهو يقص على بنى إسرائيل ، ويبينُ لهم وجه الحق فيما اختلفوا فيه مع النصارى فى أمر المسيح عليه السلام ، فالنصارى أفرطوا

وغلَوا ، واليهود فرَّطوا ، وبلغت المشاقّة بينهم أن لعن بعضهم بعضاً ، وإنه مع ذلك لكتاب يهدى المؤمنين به إلى الحق ، وإلى طريق السعادة والخير ، بما تضمن من شرائعَ وأحكام ، وما نظم من حياة الأفراد والجماعات ، وهو رحمة لهم ، يوصى بالبر والتعاون بينهم ، ويحثهم على التراحم والصفح والتسامح .

٢ — وإن ربك الذى أنزل هذا القرآن عليك ، هو الذى يقضى بين بنى إسرائيل من يهود ونصارى ، فيما حرّفوه من التوراة والإنجيل ، وما اختلفوا فيه على حسب أهوائهم — يقضى بينهم بالعدل والحكمة ، فيظهره على حقيقته فى القرآن ، وهو العزيز الغالب ، الذى لا يخالَف قضاؤه ، ولا يرد أمرُه ، العليم الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ففوض إليه أمرك يا محمد ، واعتمد عليه ، فإنه ناصرك ، لأنك على الدين الحق الواضح ، المظهرُ لمن تدبر وجه الصواب ، وكل من كان على الحق يجب أن يثقَ بالله ، ويعتمدَ عليه ، فإنه ينصره ولا يخذله .

٣ — إن هؤلاء قوم ماتت قلوبهم فلا تشعر بالحق ، ولا تتحرك للإيمان ، وأنت مهما دعوتهم ، وحرَصت على إيمانهم ، فلا يسمعون دعاءك ، ولا يميلون إلى اتباعك ، ومن حُرم الاستعداد للسمع ، فهو وميتُ القبر سواء ، وما أنت بمسمع من فى القبور ؛ ومن لا يصل الدعاء إلى قلبه ، فهو والأصم سواء ، ولا تستطيع أن تسمع الصمّ الدعاء ، وعلى الأخص إذا انصرفوا عنك ، وأعرضوا عن الاستماع إليك ، وولّوا متباعدين مدبرين ؛ إن من أراد الله له الضلال صرفه عن الإيمان ، وحال بينه وبين العلم والمعرفة ، فجعل فى صدره قلباً ، لكنه لا يفقه قولا ، وجعل فى رأسه أذنين ، لكنه لا يسمع الحق بهما ، وعينين لكنه لا يرى مشاهد قدرة الله بهما ! ومن

كان ميتَ القلب ، أعمى ، أصمّ ، لا يستطيع أحد أن يجعله مهتدياً بصيراً .
وما أنت بقادر أن تدخل الهدى فى قلب من عمى عن الحق ، ولم ينظر إليه بعين البصيرة ، ولا تُسمع إلا الذين شرح الله صدورهم للإسلام ، وعلم أنهم يصدقون بآياته ، فهؤلاء مسلمون مخلصون لله ، منقادون إلى الحق .

٤ — وإذا جاء وعد الآخرة ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين ، أخرج الله الناس من بطن الأرض أحياء يدبون و يتحركون ، كما تدب وتتحرك الدابةُ ، فيكلم الناس المؤمنون ، العصاةَ الكافرين ، الذين كانوا لا يصدقون بآيات الله الناطقة بمجىء الساعة ، والذين أكبوا على المنافع المادية الدنيوية ، وفقدوا كل إحساس بالقيم العليا للحياة ، قائلين لهم بلسان الحال : لقد تحققت فينا آيات الله التى كنتم بها لا توقنون ولا تصدقون ، فخرجنا من القبور ، ووجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا من البعث والنشور ؛ ولقد ذهب بعض المفسرين فى تفسير هذه الآية مذاهب مضطربة ، ومنهم من قال : إن الأرض تنشق عن دابة جمعت من خَلْق كل حيوان ، فرأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيْل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصل ومفصل اثنتا عشرة ذراعاً ، إلى آخر ما قيل ؛ وهو كلام لا يعتمد على نقل أو عقل ، ونرى أن قدرة الله تتجلى فى أن يجمع العظام النخرة ، والتراب المفتت ، فيكسوه لحماً ، ويعيده دابة حية تتحرك وتتكلم ، أكثر من أن يخرج من الأرض دابة على هذا الوضع الغريب ؛ ولقد سئل علىّ رضى الله عنه عن معنى الدابة فى الآية ، فقال : أما والله ما لها ذنب ، وإن لها َلِحْيَة ، قال الماوردى : وفى هذا القول منه إشارة إلى أنها من الإنس ، وهذا ما رأيناه وارتضيناه ، ويؤيده قوله تعالى فى سورة النور ، فى الصفحة ٩٦ من تفسير الجزء الثامن عشر :

« والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه . . . » ، قال صاحب معجم العرب : والدّابة : اسم لما دبّ من الحيوان : مميزة وغير مميزة ، ولما كان لما يعقل ولما لا يعقل ، قيل : « فمنهم » ، ولو كان لما لا يعقل (فقط) ، لقيل : فمنها ، أو فمنهن . اهـ ، فقصر الدابة على الحيوان غير صحيح إذن .

٥ — واذكر يا محمد يوم أن يبعثَ الله الناسَ من قبورهم ، ويَحشُر من كل أمة جماعة كثيرة ، وزمراً كبيرة ، وهم الكفار المكذبون بآيات الله ، فيجمع أولهم إلى آخرهم كتلا متزاحمة فى الموقف ، ويدفعون ويساقون إلى الحساب ، حتى إذا جاء هؤلاء المكذبون إلى موقف السؤال والجواب ، والمناقشة والحساب ، قال لهم الله عز وجل مُوَبِّخاً لهم على التكذيب : أكذبتم بآياتى ، وما أنزلتُ لكم فى القرآن من البينات الناطقة بلقاء يومكم هذا ، غير ناظرين فيها نظراً يؤدى إلى العلم بها ، والإحاطة بكنهها ، أم أى شىء كنتم تفعلون حين لم تبحثوا عنها ، ولم تفكروا فيما أنزلنا من آيات بينات؟ كأنكم لم تخلقوا إلا للكفر والعصيان ، ولم تحاولوا أن تتجهوا نحو الهدى والإيمان ، وهذا دليل آخر يؤيد ما ذهبنا إليه فى أمر الدابة .

٦ — ووقع عليهم القولُ ، وحَل بهم العذاب بكفرهم ، وظلمهم أنفسَهم ، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، فهم سكوت لا يتكلمون ، لأنهم لا يجدون لديهم حجة يوردونها ، أو معذرة يقدمونها .

(٤)

من الآية ٨٦ من سورة النمل إلى آخر السورة

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ، وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ —١— . وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ —٢— . وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ، وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ —٣— . مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ —٤— . إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ، وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ —٥— . وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ : إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ —٦— . وَقُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ليسكنوا فيه	ليستريحوا فيه ، ويستقروا من عناء العمل والكد .
مبصراً	ليبصر الناسُ فيه الطريق إلى السعى ، والتقلب فى طلب العيش .
الصُّور	البوق ينفخ فيه لبعث الأموات من قبورهم ، والمراد : إعلام الناس بيوم البعث .
ففزع من فى السموات ومن فى الأرض	فقام الخلق جميعاً من قبورهم ، ونهضوا للبعث فزعين مرعوبين من هول الصيحة .
وكلٌّ أتَوه داخرين	وكل من بعثوا من الموت ، جاءوا فى موقف الحساب صاغرين بين يديِ الله .
تحسبها جامدةً	تظنها فيما ترى العينُ ثابتة فى أماكنها ، لا تدور ولا تتحرك .
وهى تمرّ مرّ السحاب	وهى تدور مع الارض فى حركتها السريعة فى سرعة السحاب .
من جاء بالحسنة	من قدم عملا حسنا فى دنياه .
فله خيرٌ منها	فله جزاء خير منها فى أخراه .
وهم من فزع يومئذ آمنون	أى الذين جاءوا بالحسنات هم آمنون من هول يوم القيامة .
فكبت وجوههم فى النار	فكُبوا وألقوا فى النار على وجوههم منكوسين .
هل تجزون	لا تجزون .

الألفاظ	شرحها
البَلدة	مكة .
الذى حَرمها	الذى عظمها ، فحرَّم قطع شجرها ، وتنفير صيدها .
وله كُل شيء	وهو المنفرد بملك السموات والأرض ، وبخلقه ، والتصرف فيه .
المنذرين	المبلِّغين للدعوة ، والمخوفين من عقاب الله .
سيريكم آياته	سيريكم فى الآخرة جميع آياته التى كذبتم بها ، كالبعث والحساب .
وما ربُّك بغافل عما تعملون	وما ربك بغافل عما تعملون أيها الكفار من السيئات ، وسيجازيكم عليها .

مجمل المعنى

١ — لما ذكر الله فى الآيات السابقة بعض أحوال الناس ، وما يصيبهم من الهول والفزع يوم القيامة ، أردف ذلك بالتنبيه إلى دلائل وحدانية الله ، وبيان قدرته فى خلقه ، ليحثهم على استعمال النظر والتأمل ، والتفكير قبل الحكم على أمر من الأمور ، فقال : ألم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، ويروا أنا خلقنا هذا الكون الذى يعيشون فيه على وضع ثابت ، ونظام محكم ، يلائم مصلحتهم ، وتترتب عليه منافعهم فى حياتهم ؟ فجعلنا الليل مظلماً لتستريح فيه أبصارهم وأعصابهم وأجسامهم ، ويسكنوا فيه من عناء الحركة ، ومشقة السعى ، والكد والعمل ، وجعلنا النهار مضيئاً ليبصروا فيه مناكب الأرض ، فيسعوا فى جلب الرزق ، وكسب العيش ،

والتصرف فى مرافق الحياة ! وإن فى ذلك الخلق البديع ، والتنظيم المحكم ، لدلائل واضحة ، وآيات ناطقة بوحدانية الله وقدرته ، وتفرده بالألوهية لقوم يؤمنون ، لأنه لا ينتفع بالتأمل والفكر فى هذه الآيات البينات إلا المؤمنون ، الذين هداهم الله إلى الإيمان عن طريق النظر والفكر .

٢ — واذكر يا محمد لهؤلاء المكذبين يوم يريد الله أن يبعث الناس للحساب ، والسؤال والجواب ، ويرد إليهم الحياة ، فيرسل فى أرجاء الكون صيحة مدوّية ، كصيحة البوق لإيقاظ الجنود ، فيهب الناس من رقدتهم ، وينهضون فزعين خائفين من قوة الصيحة ، إلا من شاء الله أن يثبّت قلوبهم بالإيمان ، ويؤمّنهم من الخوف ، لاطمئنانهم إلى مصيرهم فى الآخرة ، بما قدموا فى الدنيا من عمل صالح ، فهؤلاء يقومون هادئين مطمئنين مغتبطين ، لأنهم سيلقون وجه ربهم ؛ وكل هؤلاء وهؤلاء يحضرون إلى الموقف بين يدى الله أذلاء صاغرين ، ويقفون وقوف المحاكمين أمام قاض عادل ، ليسمعوا منه الحكم عليهم ، وتقرير مصيرهم ، إما إلى جنة وإما إلى نار ..

٣ — ومن بدائع قدرة الله ، وأحكم الدلائل على وحدانيته ، إنشاء هذا الكون فى وضع دقيق ، وصنعة محكمة ، يسلخ الله النهار من الليل ، فيكون النور والظلام ، وقد جعل الشمس والقمر والأرض فى دورة منتظمة ، وحركة مستمرة ، « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » ، وجعل هذه الجبال الشامخة الراسخة تتحرك بحركة الأرض ، وتدور بدورتها ، واقتضت رحمته بعباده أن يروها فى نظرهم ثابتة غير متحركة ، والحقيقة أنها تمر مروراً سريعاً كمرور السحاب ، وقد تتغير أوضاعها بالنسبة للشمس ، فيكون الليل والنهار ، ويكون الصيف والخريف والشتاء والربيع ! وفى هذا تقرير لإثبات حركتى الأرض اليومية والسنوية .

الأولى حول نفسها أمام الشمس ، وينشأ عنها الليل والنهار ، والأخرى حول الشمس ، وتنشأ عنها الفصول الأربعة ! قرر القرآن هذا من نحو أربعة عشر قرناً ! فانظروا أيها الناس صنع الله الواحد القهار ، المبدع الذى أتقن كل شىء خلقه ، وظهرت واحدانيته وقدرته فيما خلق وأبدع ، خلق ما ترون وما لا ترون ، وما جعله متحركاً وأنتم ترونه جامداً ثابتاً ، إنه خبير بما تفعلون فى السر والعلن ، عليم بما ظهر منه وما بطن ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، فيكافئ كلاً على أفعاله ، ويجازيه على أعماله .

٤ ــ وما دام الله خبيراً بأفعال العباد ، فسيحاسبهم عليها يوم المعاد ، فمن عمل فى دنياه حسنة وجاء بها يوم القيامة ، فإنه سيجزى عليها حسنات خيراً منها ، وأضعافاً مضاعفة لها ، وسيجىء يومَ القيامة وقد أذهب الله عنه الفزع والخوف من النار ، ومن عمل فى دنياه إثماً عظيما كالشرك والكفر ، جاء يوم القيامة فأُلقىَ فى النار على وجهه ، تنكيلا به واحتقاراً له ، ثم يستهزأ به عند تنفيذ العذاب ، فيقال له : هل ذلك العذاب إلا جزاء لأعمالك السيئة ، وما كنت عليه فى الدنيا من كفر ، وما ارتكبت من معاص وآثام ؟

٥ ــ وقد أمر الله نبيه بعد أن بلغ ما أنزل إليه من ربه إلى الناس ، وبيَّن لهم الهدى والضلال ، ورسم لهم الأحكام والحدود ، أن يقول لهم : إنه ليس مسئولا عنهم ، وأنه يجب عليهم أن يهتموا بأمور أنفسهم ، وأن أوزارهم ستلقى على كواهلهم هم ، وأن عليه أن يعبد الله رب هذه البلدة المعظمة ، وهى مكة المكرمة ، التى حرم الله أن تهتك حرمتها ، فلا يقطع شجرها ، ولا ينفَّر صيدها ، ولا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ، ولا يذكر

غير اسم الله بها ، وله جلت قدرته فوق ذلك كل شيء خلقاً وملكاً وتصرفاً ، من غير أن يشاركه أحد في شيء من ذلك ، وإنه مأمور أن يكون من المسلمين المنقادين لله ، الذين يؤمنون به إيماناً خالصاً لوجهه الكريم .

٦ — كما أُمر عليه السلام أن يواظب على تلاوة القرآن ، ليعرف الحلال والحرام ، ويتفقه في الدين ، ويقف على الأحكام ، وما يقتضيه الإسلام ؛ وسواء عليه بعد تبليغ رسالة الله إليكم بأمانة وإخلاص وصدق ، أآمن الناس أم كفروا ، فمن اهتدى واتبعه فيما دعا إليه من توحيد الله وعبادته ، واتباع ما جاء به القرآن ، وما أمر الله به من أحكام ، فإن منفعة اهتدائه راجعة إليه لا إلى النبيّ ، ومن ضل عن الهدى ولم يتبعه ، فإن عاقبة ضلاله وكفره واقعة عليه هو ، فما محمد إلا رسول منذر ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين .

٧ — وقد ذكر الله ذلك لنبيه ليغتبط ويرضى ، ويدع الأسف على بقاء صناديد قريش على الكفر ، فقد منّ عليه بنعمة النبوة ، وطلب إليه أن يحمده عليها ، فإنها نعمة لا توازيها نعمة ، وأن يهدد الكفار بأنه سيريهم عياناً آياته في البعث والحساب ، فيعرفونها ويستيقنونها ، حين لا تجدي المعرفة ، ولا ينفع اليقين ، كما أراهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم فأعرضوا عنها ، وسُدت قلوبهم وآذانهم وأبصارهم عن التفكير والتأمل والنظر ! وكل عمل يعملونه ، فإن الله عالم به غير غافل عنه .

سورة القَصَص

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

نزلت بمكة، ماعدا الآيات التى من ٥٢ — ٥٥ فإنها نزلت بالمدينة ، والآية ٨٥ فإنها نزلت بالجحفة فى أثناء الهجرة ، وآياتها ٨٨ آية

(١)

من الآية الأولى إلى الآية السادسة

طسٓمٓ ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ، نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ، لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ -١- . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ، يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ -٢- . وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ ، وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ، وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ ، وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
طسم	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
الكتابِ المبين	القرآن الثابت أنه من عند الله ، المبين للحدود والأحكام .
نتلو عليك	نقص عليك .
من نبأ موسى وفرعون	بعض الأخبار التى تتعلق بموسى وفرعون .
لقوم يؤمنون	لقوم قدرنا لهم فى سابق علمنا أنهم يؤمنون بك يا محمد ، ويصدقونك .
علا فى الأرض	طغى وتجاوز الحد فى الظلم والتكبر والتجبر ، والقسوة واستعباد الناس ، وإذلالهم وقهرهم .
شِيعاً	فرقاً وأحزاباً ، ولكل حزب معاملة خاصة .
يستضعف طائفةً منهم	يعُدهم ضعافاً ويتحكّم فيهم ، وهم بنو إسرائيل .
ويستحيي نساءهم	ويترك نساءهم أحياء ليتولين الأعمال الدنيئة الحقيرة ، ولينقرض هذا الشعب .
إنه كان من المفسدين	إن فرعون بهذه الأعمال التى كان يعملها مع بنى إسرائيل يعد من المفسدين .
أن نمُنّ	أن نتفضل .
ونجعلهم أئمةً	ونجعلهم ملوكاً وحكاماً وقادة .
ونجعلهم الوارثين	ونجعلهم يرثون عرش فرعون وملكه .
ونمكن لهم فى الأرض	ونجعلهم يستولون على أرض مصر والشام استيلاء متمكن قادر .

الألفاظ	شرحها
منهم	من بنى إسرائيل .
ما كانوا يحذرون	ما كانوا يخافونه ويخشونه .

مجمل المعنى

١ — الأحرف الثلاثة التى بدأنا بها هذه السورة يا محمد ، قد صغنا منها ومن غيرها من الحروف الهجائية آيات القرآن الواضحة البينة المعجزة ، التى تبين لك ولقومك جميع ما تحتاجون إليه من أحكام وحدود وشرائع ، فى أسلوب رائع ، وبيان محكم ، لا يستطيع أحد من البشر مهما أوتى من الفصاحة أن يأتى بمثله ، صغناها بهذا الأسلوب الرائع المعجز ، نقص عليك به حقيقة بعض ما جرى بين فرعون وموسى ، ليكون لك ولمن آمن بك بعض التسلى والتعزي ، بما حدث لموسى وبنى إسرائيل من فرعون ، وليزداد إيمان أتباع محمد بنصر الله لهم فى النهاية ، كما نصر موسى وقومه على فرعون وملئه من الظالمين .

٢ — إن فرعون كان طاغياً متجبراً ، قاسياً على بنى إسرائيل ، وكان يفرق بين أهل مصر فى المعاملة ، فجعلهم شيعاً وأحزاباً : قرب المصريين ، واضطهد بنى إسرائيل وأذلهم ، واستضعفهم ! قيل إن فرعون رأى فى منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس ، حتى اشتملت على بيوت مصر ، فأحرقت القبط ، وتركت بنى إسرائيل ، فدعا الكهنة ، وقص عليهم رؤياه ، وسألهم تأويلها ، فقالوا له : يخرج رجل من بيت المقدس ، يكون على يده هلاك شعب مصر ، فارتاع لذلك فرعون ، وتوقع أن يكون هذا الرجل من سلالة بنى إسرائيل ،

لأنهم قادمون من بيت المقدس ، فأمر أن يذبح كل ولد ذكر يولد لأى رجل من بنى إسرائيل ، وأن تترك كل أنثى تولد ، رجاء أن ينقرض هذا الشعب ، وأمر أقباط مصر أن يحتقروا اليهود ، وأن يكلوا إليهم أقبح الصناعات ، وأحط الأعمال ، ليقوموا بها ، ففعلوا ؛ وهذه الأعمال التى عملها فرعون مع بنى إسرائيل ، ليست إلا أعمال المفسدين الضالين .

٣ — وفى الوقت الذى يعمل فيه هذا كله مع بنى إسرائيل ، يريد الله أن يتفضل عليهم ، فقد قدر لهم فى سابق علمه أنهم سيخلصون من هذا الاستعباد والاستغلال ، وأنهم يكون منهم قادة فى الناس ، وأئمة يُقتدى بهم ، وولاة يحكمون غيرهم ، ويرثون ملك فرعون ، ويستمكنون من أرض مصر التى استـُذلوا فيها ، وأرض الشام التى هاجروا إلى مصر منها ، وبذلك يرى فرعون المتألهُ ، ووزيرُه هامان الذى يعينه على كل ما يريده بهم من شر ، وأعوانـُه من الجند ، ما كانوا يخافونه ويحذرونه ، ويحتاطون منه ، وهو أن هلاكهم جميعاً سيكون على يد طفل صغير ، يولد فى بنى إسرائيل .

(٢)

من الآية ٧ إلى الآية ١٤ من سورة القصص

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى : أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ، وَلَا تَخَافِي ، وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ، وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ —١— . فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ؛ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ —٢— . وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ : قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ ، عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ —٣— . وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ، إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ، لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ —٤— . وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ : قُصِّيهِ ، فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ —٥— وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ؛ فَقَالَتْ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ، وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ؟ . فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ، وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ —٦— . وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ، آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وأوحينا إلى أم موسى	وألهمنا أم موسى .
فألقيه فى اليمّ	فألقيه فى نهر النيل .
فالتقطه آل فرعون	فأخذه ناس من أهل فرعون ، حينما رأوه فى النيل .
ليكون لهم عدوا وحزنا	ليكون عاقبة أمره فى المستقبل عدوًّا لهم فى دينهم ، وحزناً على ما يصيبهم من المكروه بسببه .
كانوا خاطئين	كانوا مخطئين ، لأنهم ربوا من سيصير عدوهم ، وهم لا يشعرون أنه سيذهب بملكهم .
قرة عين	هو مسرة عين لى ولك .
أو نتخذه ولداً	أو نتبناه ، ونجعله ولداً لنا ، إذ ليس لنا أولاد .
وهم لا يشعرون	وهم لا يدرون أنهم مخطئون فى تصرفهم ، وأن هلاكهم بسببه .
وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً	وصار قلب أم موسى لا يعقل شيئاً من شدة حزنها على ابنها ، خالياً إلا من ذكره .
إن كادت لتبدى به	إنها أوشكت أن تذيع السر ، وتقص قصة ولدها .
لولا أن ربطنا على قلبها	لولا أننا ألهمناها الصبر وقوينا قلبها ، فاحتملت وسكتت .
من المؤمنين	من المصدقين بوعد الله ، وهو رده إليها .
قصيه	تتبعيه لتعرفى مصيره .
فبصرت به عن جنب	فأبصرته من بعيد .

الألفاظ	شرحها
وهم لا يشعرون	وهم لا يحسون أن هذه التى تتتبعه هى أخته .
وحرّمنا عليه	وجعلناه يعف عن أثداء جميع المراضع اللاتى تقدمن إليه لإرضاعه ، فلم يقبل ثدى واحدة منهن .
من قبل	من قبل مجىء أمه إليه .
هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم	هل أرشدكم إلى أهل بيت يقومون بشئونه جميعها ؟ .
وهم له ناصحون	وهم مخلصون له فى النصيحة ، محبون فى معاونته .
بلغ أشدّه واستوى	كمل نمو جسمه وعقله وجميع حواسه .
آتيناه حكماً وعلماً	أنعمنا عليه بالإصابة فى القول ، ومنحناه العلم .

موسى الرضيع

١ — هاجر يعقوب — إسرائيل الله — مع أولاده إلى مصر ، والتقوا بيوسف ابنه ، واشتغلوا بالمرعى وتربية الماشية ، وزرع الأرض ، وعاش أولاده من بعده فى شبه عزلة عن المصريين ، فتناسلوا وكثروا ، وظلوا أحراراً فى ديانتهم ومعاشهم ، حتى جاء الملك رمسيس الثانى ، وعزم على الحد من تكاثر بنى إسرائيل فى مصر ، لما رأى منهم من ميل وعطف إلى الشعوب الأسيوية التى تحارب المصريين ، فبدأ يسخرهم فى أعمال العنف والقوة لكى يضعفهم ، ثم أمر بقتل كل من يولد من أبناء إسرائيل من البنين حتى لا يتكاثروا ، ويضمن بعد ذلك انقراضهم ، فكانت كل امرأة تحمل منهم تراقب حتى تلد ، فإذا ولدت ذكراً أخذ منها وذبح لساعته .

ب — خشى المصريون أن ينقرض بنو إسرائيل ، فلا يجدوا بعد ذلك من يعملون تلك الأعمال الشاقة المرهقة لبناء القصور ، وإقامة الجسور ، وشق الترع ، وقطع الأحجار ، وغير ذلك ، ففكر رمسيس وولى عهده منفتاح فى هذا الأمر ، وانتهيا إلى استبقاء بعض ذرارىّ بنى إسرائيل وغلمانهم ، بأن يقتل المواليد الذكور سنة ويتركوا سنة ، وبذلك يبقى منهم العدد الذى يكفى لتسخيرهم فى أعمال الدولة .

ج — مات رمسيس ، واستقل ابنه منفتاح بالحكم من بعده ، وظل حال بنى إسرائيل كما كان من قبل : إذلال وتسخير وتقتيل للأبناء ، واستحياء للنساء ، وزاد منفتاح بغضا لهم ، وذلك لأنه رأى فى منامه رؤيا أولها المفسرون بأنه سيأتى من بنى إسرائيل من يكون على يديه ذهاب سلطانه ، وفى ذلك الحين كان عِمران بن واهب أحد بنى إسرائيل ، أنجب بنتاً وسماها مريم ، ثم ولد له ولد سماه هرون ، وكانت ولادة هرون فى السنة التى يترك فيها الأولاد ولا يقتلون ، ثم ولد له ولد آخر فى السنة التى يقتل فيها الأبناء ، فأخفى الوالدان هذا الولد ، وسمياه موسى ، ولكن القلق ساورهما ، فجاءت الأم بصندوق ، ووضعت فيه وليدها ، وألقت به فى النهر ، ثم أمرت مريم ابنتها أن تخرج وراء هذا الصندوق ، لتعرف ما سيصير إليه .

د — سارت مريم على الشاطئ ترقب الصندوق من بعيد ، والموج يتقاذفه هنا وهناك ، من غير أن يفطن إليها أحد ، فلما وصل الصندوق إلى قصر فرعون الذى على نهر النيل ، وقع نظر بعض وصيفات القصر عليه ، فأسرعن إليه وانتشلنه ، وحملنه إلى داخل القصر ، وألقينه أمام سيدتهن ، ففتحت الصندوق ، فوجدت فيه طفلا صغيراً ، فوقع فى قلبها حبه والعطف عليه .

هـ — وأخرج الطفل من الصندوق ، وحملته آسية امرأة فرعون إلى منفتاح ، فأمر

بقتله ، فرجته أن يهبه لها ، وقالت له : هو مسرة عين لى ولك ، لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، لأننا ليس لنا أولاد ، فرق قلب فرعون لها ، وتركه لها ، وقال : قرة عين لك ، أما أنا فليس لى حاجة إليه .

و — حين سمعت أم موسى أن الصندوق أدخل إلى قصر فرعون ، طار عقلها من فرط الجزع والخوف ، وصار قلبها خالياً من كل شيء ، إلا من ذكر موسى ، وكادت تعلن أن موسى ابنها ، لولا أن قوينا قلبها بالصبر ليطمئن ، لتكون من المصدقين بوعد الله إياها ، وهو قوله : « إنا رادّوه إليك » .

ز — اجتمعت المراضع لإرضاع الطفل ، ولكن الله صرفه عن أثدائهن جميعاً ، فلم يقبل ثدى واحدة منهن ، وفى هذا الوقت كانت أخته مريم قد استطاعت أن تتسلل إلى القصر ، وتندس بين المراضع ، فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون ؟ فأُذن لها فى ذلك ، فأسرعت إلى أمها وأحضرتها ، فلما رأت وليدها ، تقدمت نحوه كأنه طفل غريب عنها ، وحملته ، وقدمت له ثديها ، فالتقمه ورضع منه حتى شبع .

ح — وبقيت الأم فى قصر فرعون بعض الوقت ، ثم انتقلت مع وليدها إلى بيتها ، بعد أن اطمأنت آسية إلى أنها ستكون حريصة على الطفل ، وأنها ستمنحه من عطفها ورعايتها ما تمنح الأم ابنها ، وهيأت لها من أسباب الرفه والنعمة ما ييسر لها أن تحسن القيام على شئون الطفل ، وكانت تذهب به بين حين وحين إلى قصر فرعون ، لتراه آسية وتطمئن عليه .

ط — جاوز موسى سن الرضاع ، وحمل إلى دار فرعون فى رعاية آسية ، وكانت أمه ومرضعته تتردد على قصر فرعون لتزور رضيعها بين حين وحين ، وتملأ عينيها من وليدها ، وتشبع عاطفة الأمومة برؤيته والاطمئنان عليه ، وندع موسى الآن شابًّا فى قصر فرعون ، ونفسر نص الآيات .

مجمل المعنى

١ — بعد أن ولد موسى على النحو الذى سبق ، ألهم الله أمه أن ترضعه ، فأرضعته وقتاً ما ، وألهمها أيضاً أنها إذا كانت تخشى عليه القتل ، أن تصنع له صندوقاً ، وتضعه فيه ، وتلقيه فى نيل مصر ، وطمأنها الله فنهاها عن الحزن والخوف على ولدها ، لأنه سيسلم من الموت غرقاً ، ومن القتل ، وألقى فى قلبها اطمئناناً إلى أن ولدها سيرد إليها ، وسيكون له شأن عظيم ، وسيكون من المرسلين الذين يرسلهم الله لهداية خلقه .

٢ — انتشل ناس من بيت فرعون الصندوق من الماء ، فنجا الطفل من الغرق ، وكانوا إذ ذاك لا يدرون ما يخبئه لهم القدر ، من أنهم انتشلوا من سيكون حين يكبَر عدوًّا لهم ولآلهتهم ، ومصدراً لقلقهم وحزنهم ، لأنه وإن كان سيدعوهم إلى ما فيه الخير لهم ، فليس معنى العداوة محققاً من جانبه ، ولكن العداوة من جانبهم هم ، فهم لن يفهموا دعوته على حقيقتها ، فيعادوه ويقاوموه ، ويحزنوا لما هم فيه ، ثم يهلكوا بعد هذا بسببه ، وهم :— فرعون ووزيره ومستشاره هامان وقومهما — كانوا مخطئين فى كل تصرفاتهم ، ومن خطئهم الذى وقع شره عليهم ، أنهم ربوا عدوهم — فيما يزعمون — فى قصرهم وبين أحضانهم .

٣ — حينما رأى فرعون موسى لم يعجبه مرآه ، وأمر بقتله كما كان يأمر بقتل غيره من بنى إسرائيل ، ولكن زوجته لاطفته ، وعرضت استبقاءه ، ليكون قرة عين لهما إذا كبِر ، ورجته ألا يقتله لعله ينفعهما ، أو يتبنيانه لما يظهر عليه من مخايل وعلامات تجعله أهلا للتبنى ، قالت هذا آسية ،

ووافقها على ذلك فرعون ومَن حوله ، وهم لا يعلمون ما يخبئ القدر له ، من أنه سيكون نبيًّا ، ولها من أنها ستؤمن به ، ولفرعون وقومه من الهلاك غرقاً .

٤ — جزعت أم موسى حين ألقته فى البحر ، وحزنت حزناً شديداً ، وكاد يطير عقلها ، وينخلع قلبها ، وهى معذورة ، فكيف نتصور أمًّا تضع ابنها حيًّا فى صندوق ، وترمى به فى الماء ؟ وكادت من فرط حزنها تعلن أن موسى ابنها ، فينكشف أمرها ، ولكن الله أنزل السكينة عليها ، وثبت قلبها ، وجعلها مؤمنة مصدقة وعده لها برده إليها .

٥ — هدأت أم موسى بعض الهدوء ، وملكت نفسها ، وقالت لابنتها مريم : اذهبى وراء الصندوق ، وارقبيه من بعد ، بحيث لا يشعر أحد أنك تقصدين ذلك ، ففعلت البنت هذا ، وظلت وراء الصندوق ترقبه من بعد ، وتتبعت الحوادث حتى كانت فى القصر مع الوصيفات وغيرهن ، تراقب ما يكون من أمر موسى .

٦ — استدعيت المراضع لإرضاع موسى ، فرفض أن يتناول أى ثدى منهن ، فتقدمت أخته ، وعرضت أن تدلهم على مرضع تكفله وتهتم بأمره ، فرفضوا ذلك منها وهم فى شبه يأس ، ولكن الفتاة أسرعت إلى أمها ، وأحضرتها إلى قصر فرعون ، فحملت الطفل ووضعته فى حجرها ، وقدمت له ثديها ، فالتقمه ، ورضع ، فاستعجب فرعون ، وأوشك أن يشك فى أمرها ، لولا أن قالت له : إنى امرأة طيبة الريح ، حلوة اللبن ، لا أوتَى بصبى إلا أقبل على ثديى ، فرضى عنها ، وذهبت به إلى بيتها ، وبذلك حقق الله لها ما ألهمها إياه من رده إليها ، فتقر عينها به ، ولا تحزن عليه ، ولا تخاف أن يصيبه مكروه ! وهكذا كان وعد الله لها حقًّا ، ولكن

أكثر الناس فى ذلك العهد لا يعلمون ، لإعراضهم عن النظر فى آيات الله .

٧ — كبر موسى وترعرع ، وبلغ من القوة غاية ما يبلغه الشباب ، واستكمل عقله ، واستحصف ، واكتملت فيه كل نواحى الحياة ، وحينئذ منحه الله إصابة فى القول ، وزوده بالعلم الذى يتميز به مَن يُؤْثرهم على سائر الناس ، كما يفعل الله مع عباده المؤمنين الصالحين .

(٣)

من الآية ١٥ إلى الآية ٢١ من سورة القصص

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ، فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ : هٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ ، وَهٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ؛ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَزَهُ مُوسَى ، فَقَضَى عَلَيْهِ ، قَالَ : هٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ -١- . قَالَ : رَبِّ ، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ؛ فَغَفَرَ لَهُ ؛ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ -٢- . قَالَ : رَبِّ ، بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ، فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ -٣- . فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ، قَالَ لَهُ مُوسَى : إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ -٤- . فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ، قَالَ : يَا مُوسَى ، أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ، إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ -٥- . وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ . وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ، قَالَ : يَا مُوسَى ، إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ، فَاخْرُجْ ، إِنِّي

لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ -٦- فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ، قَالَ : رَبِّ ، نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ -٧- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
المدينة	منف .
على حين غفلة من أهلها	فى وقت لم يره فيه أحد من أهل المدينة ، لأنهم كانوا قائلين من شدة الحر .
من شيعته	ممن يتشيع لموسى ويتبعه ، وكان إسرائيلياً .
من عدوه	من قبط مصر .
فاستغاثه	فطلب معونته و إنقاذه .
الذى من شيعته	هو الإسرائيلى .
على الذى من عدوه	على الذى هو من أهل مصر .
فوكزه موسى	فضربه موسى بجُمع كفه ضربة شديدة ، ودفعه فى صدره .
فقضى عليه	فقتله .
هذا من عمل الشيطان	هذا الضرب الذى أفضى إلى قتل الرجل ، من الأمور التى أغرى بها الشيطان .
إنه	إن الشيطان .
ظلمت نفسى	ضللت .
بما أنعمت علىّ	بسبب نعمتك علىّ من المغفرة .

الألفاظ	شرحها
فلن أكون ظهيراً للمجرمين	فلن أكون مساعداً ونصيراً للمعتدين .
يترقب	ينتظر ما يتحدث به الناس ويستمع .
استنصره بالأمس	طلب نصرته بالأمس .
يستصرخه	يستنصر به مرة أخرى .
إنك لَغوىٌّ مبين	إنك لرجل ضللت ، وتنكبت طريق الصواب ، وتسببت فى إضلال غيرك ، وقد تبين ضلالك وإضلالك بتشاجرك أمس واليوم .
أن يبطش بالذى هو عدو لهما	أن يدفع المصرى عن الإسرائيلى .
إلا أن تكون جباراً	إلا أن تكون ظالماً : تضرب وتعذب وتقتل كما تشاء ، وأن تكون متعاظماً متعالياً على الناس .
يأتمرون بك	يتشاورون فى أمرك ، ويبحثون موقفك وتصرفك .
فخرج منها خائفاً يترقب	فخرج من مدينة منف هارباً ، ينتظر أن القوم يفطنون له ويدركونه ، أولا يستطيع أن يفلت قبل أن يدركوه .
نجِّنى من القوم الظالمين	خلصنى من قوم فرعون بإفلاتى منهم ، فلا يدركونى .

قصة موسى والإسرائيلى

كان من عادة فرعون أن يستصحب موسى معه فى مواكبه ورحلاته ، وفى إحدى رحلاته تخلف موسى بعض الوقت ، ثم ركب ليلحق فرعون ، فأدركته القائلة فى الطريق ، فعرّج على مدينة منف ليقيل بها ، فرأى رجلين

يتشاجران ، ورأى أحدهما وهو من آل فرعون ، قويًّا جباراً يكاد يفترس الآخر الإسرائيلى ، فعز على موسى ذلك ، ولا سيما أن الرجل الضعيف استجار به ، وتضرع إليه أن يحميه ، فتقدم إلى المصرىّ بدافع الشفقة المحضة ، والرغبة فى الأخذ بيد الضعيف ، ودفع الفرعونى فى صدره دفعة شديدة ، وضربه بجُمع يده — وكان موسى قويًّا — فتأثر الرجل بالضربة ، فمات ؛ فلما رأى موسى أن الرجل مات ، أسف على أن فعل به هذا ، واعتبر ذلك من فعل الشيطان عدو الإنسان ، الذى لا يفتأ يُضله ويُغويه ، ويزين له الشر ، ويدفعه إلى ارتكاب المنكر ، ولذلك أحس موسى أنه ظلم نفسه بقتل هذا الرجل ، وسأل الله أن يغفر له ذنبه ، ويستر عليه ، فاستجاب الله له ، وغفر له ؛ فلما أصبح موسى ، خرج يسير فى المدينة خائفاً ، منتظراً ما عسى أن يكون من أثر لما فعله أمس ، فقد يكون الخبر قد شاع بين أهل المدينة ، فيترتب عليه أمور لا يقدرها ، ولم يكد يسير طويلا حتى رأى إسرائيلىّ الأمس نفسه يتشاجر مع فرعونى آخر ، فلما رأى موسى استغاث به كما استغاث به بالأمس ، فعز على موسى أن يخلق له ذلك الرجل مشكلة ثانية ، وغضب ، ومع ذلك فإنه مد يده ليدفع عنه الفرعونى ، فظن الإسرائيلى أنه يمد يده ليقتله ، فصاح : أتريد أن تقتلنى كما قتلت غيري بالأمس ، ثم فر الرجلان ، وسمع بعض الناس كلام الإسرائيلى ، فأشاع أن موسى هو الذى قتل قتيل الأمس ، وتحدث الناس بذلك ، وعلم أهل القتيل ، وانتهى الخبر إلى فرعون ، وتحدث معه الناس حتى أحنقوه على موسى ، فأمر بإحضاره وقتله ، وكان فى المجلس رجل يعرف موسى ويحبه ، وينتفع من علمه وحكمته ، فسعى إلى موسى ، وأخبره اجتماع الناس عند فرعون ، وتحدثهم فى أمره ، وإصدار الأمر بقتله ، ونصح هذا الرجل موسى أن يخرج من مصر فراراً بحياته ، فخرج موسى من مصر هارباً ، وطلبه الناس فلم يعثروا عليه .

مجمل المعنى

١ — ودخل موسى مدينة منف، من غير أن يعلم أحد بدخوله ، فوجد فيها رجلين يتشاجران : أحدهما فرعونى ، والآخر إسرائيلى ، فاستغاث به الإسرائيلى، فنصره على الفرعونى ، بأن ضرب الفرعونى ضربة أماتته ؛ فندم موسى على قتله رجلا ، واعتبر هذا من عمل الشيطان عدو الإنسان ، الذى يضله ويغويه .

٢ — قال موسى : يا رب ، إنى ظلمت نفسى بقتل هذا الرجل ، وطلب من الله أن يغفر له ذنبه ، فاستجاب الله له ، وغفر له ، فإن الله هو الذى يملك أن يغفر ذنوب المذنبين الذين يتوبون ، وهو الذى يرحم الناس بقبول توبة التائبين منهم .

٣ — ثم قال موسى : يارب ، قد أنعمت علىّ بقبول توبتى ، وغفران ذنبى ، ولن أساعد فى حياتى معتدياً على عدوانه ، ولا ظالماً على ظلمه .

٤ — خشى موسى عاقبة قتله الفرعونى ، وصار ينتظر ما يحدث بعد ذلك ، إذا شاع الخبر فى الناس ، ولكنه لم يلبث أن رأى الإسرائيلى الذى كان يستغيثه بالأمس ، فى شجار مع فرعونى آخر ، وأنه يستغيث به مرة أخرى ، فقال له موسى : إنك رجل ضال مضل ، لا تهتدى إلى طريق الحق ، وإن ضلالك بيّن واضح ، لأنك لم تتعظ بتشاجرك أمس، وأخذت تتشاجر اليوم أيضاً .

٥ — ومع ذلك فإن موسى أراد أن يدفع الفرعونى عن الإسرائيلى ، فظن الإسرائيلى أنه — لغضبه منه — يريد أن يبطش به ، فصاح : أتريد أن تقتلنى كما

قتلت نفساً بالأمس ؟ ! إنك لا تريد إلا أن تكون رجلا جباراً ظالماً ، تعتمد على قوتك وجاهك ، فتؤذي وتضرب وتقتل كما تسول لك نفسك ، وتتكبر على الناس وتتعاظم ، ولا تريد أن تكون رجلا مصلحاً تعامل الناس بالحسنى ، وبما فيه صلاحهم .

٦ — شاع بذلك فى المدينة خبر قتل موسى للفرعونى ، فجاءه على عجل رجل كان حاضراً مجلس فرعون ، وأخبره أن أشراف المدينة مجتمعون ، يتشاورون فى أمره ليقتلوه ، ونصحه أن يعجل بالخروج من المدينة ، فهو ناصح له ، مريد لمصلحته .

٧ — سمع موسى نصيحة هذا الرجل ، وخرج من المدينة خائفاً وجلا ، منتظراً ما يحدث : فإما أن يدركه القوم ويقبضوا عليه ، ويردوه إلى المدينة ليقتلوه ، تنفيذاً لحكم المؤتمر الذى اجتمع وقرر قتله ، ووافق على ذلك فرعون ، وإما أن ينجو بنفسه ، فلا يدركه أحد ؛ وكان يدعو الله أن ينجيه من هؤلاء الظالمين ، وقد استجاب الله دعاءه فنجا ، وخرج إلى مدين .

(٤)

من الآية ٢٢ إلى الآية ٢٨ من سورة القصص

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ، قَالَ : عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ —١— . وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ، وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ : مَا خَطْبُكُمَا ؟ قَالَتَا : لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ؛ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ —٢— . فَسَقَى لَهُمَا ، ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ، فَقَالَ : رَبِّ ، إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ —٣— . فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ، قَالَتْ : إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ؛ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ، قَالَ : لَا تَخَفْ ، نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ —٤— . قَالَتْ إِحْدَاهُمَا : يَا أَبَتِ ، اسْتَأْجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ —٥— . قَالَ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ، عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ —٦— .

قَالَ : ذٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ، أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَىَّ ؛ وَاللّٰهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولما توجه تلقاء مدين	ولما خرج متجهاً نحو بلدة مدين .
عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل	أرجو الله أن يوفقنى إلى الطريق السوىّ ، الذى أنجو به من فرعون وقومه .
ورد ماء مدين	وصل إلى الماء الذى يستقى منه أهل مدين .
أمة من الناس يسقون	جماعة من الناس يسقون إبلهم وغنمهم .
من دونهم	فى مكان قريب من مكانهم .
تذودان	تدفعان غنمهما بعيداً عن الماء، وتردّانها وتمنعانها، لعدم استطاعتهما مزاحمة الأقوياء .
ما خطبكما ؟ !	ما شأنكما ؟ ! وما أمركما ؟ !
حتى يصدر الرعاء	حتى يرجع الرعاة عن الماء بعد سقى أغنامهم وإبلهم.
وأبونا شيخ كبير	وأبونا رجل تقدمت به السن ، فلا يقدر أن يتولى ذلك بنفسه .
فسقى لهما	فتقدم بغنمهما إلى البئر ، وسقى لهما مع الناس .
ثم تولى إلى الظل	ثم أوى إلى ظل شجرة يستظل تحتها .
إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير	إنى لأى شىء قدمته إلىّ من خير قليل أو كثير محتاج .

الألفاظ	شرحها
تمشى على استحياء	تمشى مستحيية وعلى خجل .
أجر ما سقيت لنا	أجر سقيك لنا .
وقص عليه القصص	وقص عليه ما جرى له مع فرعون وقومه .
من القوم الظالمين	من فرعون وقومه .
استأجره	اتخذه أجيراً .
أن أنكحك	أن أزوجك .
على أن تأجرنى ثمانى حجج	على أن تكون أجيراً لى ثمانى سنوات .
فإن أتممت عشراً	فإن عملت عشر سنين .
فمن عندك	فإن الزيادة تفضل منك .
وما أريد أن أشق عليك	وما أريد أن أكلفك أمراً فيه مشقة عليك ، بإلزامك إتمام العشر .
ذلك بينى وبينك	ذلك الذى قلته ، اتفاق قائم بينى وبينك ، تشارطنا عليه .
أيما الأجلين قضيت	أى الأجلين : أطولهما أو أقصرهما وفّيتكه بأداء الخدمة فيه ، وما : زائدة .
فلا عدوان علىّ	فلا أعد العمل فى أتم الأجلين ، وهو العشر ، اعتداء علىّ .
وكيل	شاهد .

قصة زواج موسى

ا — خرج موسى من أرض مصر ، متجهاً إلى أرض مدين ، التى تقع شمال خليج العقبة ، بين الحجاز والشام ، وكان أهل مدين من سلالة مدين ابن إبراهيم ، وكانوا أصحاب تجارة ومال ، ولما دخل موسى هذه الأرض ، وسار يطلب ماء ليشرب ويبترد ، وجد موسى الماء ، ووجد عليه جماعة من الرعاة يسقون أغنامهم وإبلهم ، ويتبادلون الورود إلى الماء ، وكان إلى جانب الماء فتاتان تهشان غنمهما ، لئلا تقترب من الماء ، فعجب موسى من أمر هؤلاء الرجال الذين يَستبقون إلى الماء ، بينما الفتاتان تستأخران عنه ، فتقدم منهما وسألهما : ما أمركما ؟ قالتا : لا نتقدم لسقى أغنامنا ، حتى ينتهى الرجال ويعودوا ، لأننا لا نقدر أن نزاحمهم ، ولنا أب كبير السن ، لا يستطيع أن يأتى إلى البئر ، ليؤدى هذا العمل عنا ، فأدرك موسى أن هاتين الفتاتين ضعيفتان ، فتقدم بغنم الفتاتين إلى البئر ، وأزاح من طريقه الرعاة الذين خافوه ، لما رأوا عليه من مهابة وقوة ، فأخلوا له الطريق ، وسقى موسى غنم الفتاتين ، وساقها إليهما ، فشكرتاه وانصرفتا ، وعاد هو إلى شجرة قريبة ، واستظل بها .

ب — رجعت الفتاتان إلى أبيهما مبكرتين على غير عادة ، فسألهما عن السبب ، فقصتا عليه قصة الفتى موسى معهما ، فأمر الشيخ إحدى ابنتيه أن تذهب إليه وتحضره ، فعادت إليه الفتاة واستدعته لمقابلة أبيها ، فذهب معها وتبعها ، وفى أثناء سيرها عصف الهواء بثيابها ، فكشف عن ساقيها ، فكره أن يسير خلفها ، فيقع نظره على ما يظهر منها ، فطلب منها أن

يتقدمها ، وحينما يخطئ الطريق تنبهه إليها ، فأعجبت الفتاة بأدبه وعفته وكماله .

ج — وصل موسى إلى الشيخ ، وقص عليه قصته ، فقال الشيخ : لا تخف ، نجوت من القوم الظالمين ، ودعاه إلى طعام فأكل ، واقترحت إحدى الفتاتين على أبيها أن يستأجر هذا الفتى القوى الأمين العفيف ، فوافق هذا الاقتراح هوى فى نفس الشيخ ، فقال لموسى : إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتىّ هاتين ، ومهرها أن تعمل عندى فى رعى الغنم ثمانى سنين ، وإن شئت أن تجعلها عشر سنين ، فالزيادة تفضل منك وإكرام ، فقبل موسى هذا ، وتزوج إحدى الفتاتين ، وعمل للشيخ فى رعى غنمه وماشيته ، وظل هو نعم الزوج ونعم الصهر .

د — انتهت المدة ، وظل موسى مع شعيب وقتاً آخر ، ثم اشتاق إلى رؤية أهله ، فاستأذن صهره فى أن يرحل إلى مصر بزوجته وولديه اللذين أنجبهما منها ، ليرى أمه وأباه ، وأخته وأخاه ، فأذن له صهره ، وأعطاه كثيراً من نتاج غنمه .

هـ — فلما كان الشتاء ، خرج موسى بزوجته وولديه إلى مصر ، وفى غروب ليلة شديدة البرد ، ضل موسى الطريق ، فحط رحاله حتى يصبح ، وفجأة لاح لموسى من جانب الطور نار ونور ، فقال لزوجته وولديه : امكثوا إنى رأيت ناراً ، لعلى آتيكم منها بجذوة نشعل بها نارا نستدفئ بها ، أو لعلى أجد هناك من يرشدنى إلى الطريق !

و — وصل موسى إلى ما ظنه ناراً ، فوجد شجرة صغيرة ، ولم يجد عندها أحداً ، ودار بعينيه هنا وهناك ، فلم ير أحداً ، ونظر إلى ما ظنه ناراً ، فرأى الشجرة قائمة لا تحترق ، ورأى النار لا تنطفئ ؛ دنا موسى

من النار فاستأخرت عنه ، فأوجس فى نفسه خيفة ، وأراد الرجوع إلى أهله ، ولكنه سمع صوتاً يناديه : إنى أنا الله رب العالمين ، وأوحى الله إليه إذ ذاك أن يذهب إلى فرعون وقومه ينصحهم ويهديهم ، ولكنه خاف ، فأمره الله أن يلقى عصاه التى فى يده على الأرض فألقاها ، فإذا هى ثعبان كبير ، وأمره أن يدخل يده فى جيب قميصه ، فأدخلها وأخرجها ، فإذا هى بيضاء مشرقة تشع نوراً ، فطلب من الله أن يشد أزره بأخيه هرون ، فاستجاب الله له ، وأمره أن يذهب إلى مصر ، فذهب إليها .

مجمل المعنى

١ — اتجه موسى إلى مدين حين خرج من مصر ، وسأل الله أن يوفقه ويهديه إلى الطريق المستقيم ، ويجنبه الضلال .

٢ — وحينما وصل إلى مدين فى طريق شاق ، وسفر مُضن ، ليس معه طعام ولا شراب ، وجد عين ماء يستقى منها أهل مدين ، ووجد عليها جماعة من الناس يسقون إبلهم وأغنامهم ، ووجد قريباً من هؤلاء امرأتين تمنعان غنمهما أن تقترب من الماء ، فسألهما موسى عن أمرهما ، فأخبرتاه أنهما لا تسقيان إلا بعد أن ينتهى الرجال من سقى أغنامهم ومواشيهم ، وقضاء حاجاتهم ، وصدورهم عن الماء ، وأن لهما أباً شيخاً كبيراً ، لا يستطيع أن يحضر إلى الماء ، وإذا حضر لا يمكنه أن يدافع هؤلاء الرجال الأقوياء .

٣ — ساق موسى غنم الفتاتين إلى الماء ، وصد عنه غنم غيرهما ، معتمداً على قوته وشبابه ، ولما سقى لهما ، سلم إليهما غنمهما ، فشكرتاه على حسن صنيعه

معهما ، وذهب يأوى إلى ظل شجرة ، وعادت الفتاتان إلى أبيهما مبكرتين على غير عادتهما ، وسمعتا موسى فى أثناء انصرافهما يقول : رب إنى فقير إلى أى شىء قدمته إلىّ من خير ، قال ذلك وقد بلغ منه الجهد مبلغه ، وأراد به أن تسمعه الفتاتان ، لعلهما تستطيعان أن تقدما له معونة ترد عنه بعض ما أصابه من جوع شديد ، أهزله وعنّاه .

٤ — لم يمض إلا قليل حتى عادت إلى موسى إحدى الفتاتين ، وتقدمت إليه فى خجل واستحياء ، وقالت له : إن أبى يدعوك ليقدم لك جزاء على سقيك أغنامنا ، ومعاونتك إيانا ، فقبل الدعوة ، وذهب معها إلى أبيها ، فسأله عن حاله ، فقص عليه قصته مع فرعون ، فطمأنه وأمنه على نفسه ، وأعلمه أنه نجا من هؤلاء الظالمين ، فإن سلطانهم لا يمتد إلى أرض مدين ، فلن يصلوا إليه .

٥ — قالت إحدى الفتاتين لابيها : يا أبت ، اتخذ هذا الفتى أجيراً يعيننا على رعى أغنامنا ، وقضاء مصالحنا ، وإن أحسن من تستأجر ، الرجل القوى الأمين ، أما قوته فقد ظهرت حينما اندفع نحو البئر ، ونحى عنها الرجال الأقوياء ، وغلبهم عليها ، وسقى لنا ، ثم تركها لهم وعاد ، وأما أمانته فقد ظهرت حينما استدعيته للقائك ، وسرت أمامه ، فرأى من كمال العفة أن يسير أمامى ، وأن أرشده إلى الطريق إذا انحرف عنها بأى وسيلة من الوسائل ، وغرضه من ذلك ألا يقع نظره على فتاة غريبة عنه .

٦ — عرض عليه الشيخ إذ ذاك أن يزوجه إحدى ابنتيه اللتين رآهما — أيتهما يختار — وفرض مهرها أن يعمل أجيراً عنده ثمانى سنوات : يرعى غنمه وماشيته ، ويقضى له حوائجه ، وجعل له الخيار فى أن يجعل السنوات الثمانى عشراً ، وله فى ذلك محض الحرية ، حتى لا يكون فيه مشقة عليه ،

ولا يأخذه به عنت ولا إرهاق ، وقال له : ستجدنى منك بمنزلة الأب من ابنه : أحسن معاملتك ، وأجزيك بما تحسن ، معتمداً على إرادة الله ومشيئته .

٧ — قبل موسى أن يتزوج إحدى الفتاتين ، وقبل المهر الذى فرضه الشيخ عليه ، وجعل لنفسه الحرية فى اختيار أى الأجلين يشاء ، ولا يطالب بغير ما يختار فيما له الخيار فيه ، وقطع العهد على نفسه ، وجعل الله شهيداً ووكيلا على ما تعاهدا عليه وتشارطا .

(٥)

من الآية ٢٩ إلى الآية ٣٥ من سورة القصص

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ، آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ، قَالَ لِأَهْلِهِ : امْكُثُوا ، إِنِّى آنَسْتُ نَاراً ، لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ، أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ، لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ؛ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِى الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ : أَنْ يَا مُوسَى ، إِنِّى أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ –١– . وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى : أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ؛ اُسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ، فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ –٢– . قَالَ : رَبِّ ، إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً ، فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ . وَأَخِى هٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَاناً ؛ فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِى ، إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ –٣– . قَالَ : سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ، وَنَجْعَلُ

لَـكُما سُلْطَانًا ، فَلَا يَصِلُونَ إلَيْـكُمَا ، بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَـكُمَا الْغَالِبُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فلما قضى موسى الأجل	فلما أتم موسى مدة العمل ، وكان قد اختار أطول الأجلين .
وسار بأهله	وسار بزوجته عائداً إلى مصر .
آنس من جانب الطُّور ناراً	رأى ناراً من الجهة التى تلى الطور .
امكُثوا	أقيموا هنا .
لعلى آتيكم منها بخبر	رجاء أن أستوضح الطريق من أهل تلك النار .
أو جذوة	أو آتيكم بقطعة من الجمر .
لعلكم تصطلون	لعلكم تستدفئون بها من البرد .
تهتز كأنها جانٌّ	تتحرك وتضطرب كأنها حية عظيمة .
ولَّى مدبراً ولم يعقب	فر هارباً ولم يرجع .
اسلك يدك فى جيبك	أدخل يدك فى جيب قميصك .
من غير سوء	من غير أن يكون بياضها مرضاً .
واضمُم إليك جناحك	واضمم إليك يدك .
من الرهب	من الخوف .
فذانك برهانان من ربك	فالعصا واليد حجتان واضحتان من عند الله .

الألفاظ	شرحها
إلى فرعون وملئه	أرسلك الله بهما إلى فرعون وقومه .
كانوا قوماً فاسقين	كانوا قوماً كافرين .
فأرسله معىَ رِدءاً	فأرسله معى عونا لى .
سنشُد عضدك	سنقويك ونعينك .
ونجعل لكما سلطاناً	ونجعل لكما غلبة وحجة قوية .
فلا يصلون إليكما	فلا يصل إليكما فرعون وقومه بسوء .
بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون	أنت وأخوك هرون ومن يؤمن بكما غالبون لفرعون وقومه ، بحجتنا ومعجزاتنا التى نجريها على يديك .

مجمل المعنى

١ — تزوج موسى ابنة شعيب ، وقام على خدمته حتى انتهى الأجل ، وبقى بعد ذلك عنده وقتاً ما ، ثم بدا له أن يصطحب زوجته وولديه إلى مصر ، ليزور أمه وأباه ، وأخته مريم وأخاه هرون ، فأذن له الشيخ ، وقدم له أغناماً ينقلها معه إلى مصر ، وسار موسى بأهله ، وجَنّ عليه الليل فى بعض الطريق ، وأوشك أن يضل ، فحط رحاله ، ونظر فرأى ما ظنه ناراً فى جهة من جانب الطور الأيمن ، فأشار على أهله أن يبقوا فى مكانهم ، حتى يذهب إلى هذه النار ، فيأتيهم منها بجذوة يوقدون بها ناراً يصطلون بها ، ويستفهم عن الطريق من أصحاب النار ، فلما وصل إلى ما ظنه ناراً ، لم يجد ناراً ، ووجد نوراً لا يعرف له مصدراً ، وكلما حاول أن يقترب منه لا يصل إليه ، ثم سمع صوتاً يناديه من تلك الأرض الطيبة المباركة ،

كأنه ينبعث من شجرة هناك : يا موسى ، إنى أنا الله رب العالمين ؛ وهنا هدأت نفس موسى ، واطمأن قلبه ، وأحس أن نوراً إلهيًّا يغمره من كل جانب ، فأمن بعد خوف ، واستقر بعد قلق ، واهتدى بعد ضلال ، وشعر أن الدنيا ليست هى الدنيا التى يفهمها فرعون وقومه ، وإنما هى طريق إلى جنة أو نار ، وأن الله قد توّجه بشرف الرسالة ، فنظر إلى هذا التكليف نظرة الآمن الخائف ، فأمّنه الله .

٢ — أمنه الله بأن أعلمه أن فى يديه آيتين من آياته : أولاهما آية العصا ، فأمره أن يلقى عصاه على الأرض ، فألقاها ، ثم نظر إليها فرآها تهتز وتضطرب كأنها جانّ ، فخاف وارتعب ، وارتد يجرى من شدة الفزع ، فناداه ربه : يا موسى ، أقبل ، ولا تخف ، ولن ينالك مكروه من هذه الحية ؛ وثانيتهما أن الله أمره أن يضع يده فى جيب قميصه ، فوضعها ، فخرجت بيضاء ، وليس بياضها بياض مرض ، ولكنه بياض يشع نوراً ، وأمره الله كذلك أن يضع يده على صدره ليطمئن قلبه ، ويزول خوفه ، ويقوى على ضبط نفسه ؛ هاتان آيتان من عند الله : آية العصا وآية اليد ، أجراهما الله على يد موسى ، وأعلمه أنهما معجزتاه عند فرعون وقومه ، حينما يبلغهم رسالته ، لأنهم ناس كافرون .

٣ — خشى موسى أن يعود إلى مصر بعد أن فر منها هارباً ، على أثر قتله الرجل الفرعونى — وإن كان قتله من غير قصد ، وأسف على موته — فقال مُخاطباً ربه : إنى أخاف أن يقتلونى ، وطلب منه أن يضم إليه أخاه هرون ، يساعده فى أثناء الجدال والمحاجة التى ستجرى بينه وبين فرعون وقومه ، وكان هرون فصيح اللسان ، قوى البيان ، فلو أن الله ألهم هرون أن يصدق

أخاه ويؤمن به ، ويهيئه لمعاونته — لكان فى ذلك أنس له ، وذهاب لما ساوره من الخوف .

٤ — قال الله لموسى : سنقويك بأخيك هرون ، ونجعله ظهيراً لك على فرعون وملئه ، وستكون لكما الغلبة عليهم ، فلا يستطيعون أن يمدوا أيديهم إليكم بسوء ، وستكونان أنتما ومن يتبعكما غالبين قاهرين ، بما يجرى الله على يدك من المعجزات البينات .

(٦)

من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٣ من سورة القصص

فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ ، قَالُوا : مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ، وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ —١— . وَقَالَ مُوسَى : رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ ، وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ —٢— . وَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ ، مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي ، فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ، فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً ، لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى ، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ —٣— . وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ —٤— . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ، فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ —٥— . وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ —٦— . وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ —٧— . وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ، بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بيّنات	ظاهرات واضحات .
ما هذا إلا سحرٌ مُفترى	ما هذا الذى ظهر على يديك لتؤيد به رسالتك ، إلا سحر تختلقه وتنسبه إلى الله .
ربى أعلم	إلهى الذى أدعو إلى توحيده ، هو الذى يعلم .
عاقبةُ الدار	النهاية المحمودة فى الدنيا ، التى عاقبتها فى الآخرة الجنة .
إنه لا يفلح الظالمون	إنه لا ينجح الكافرون الذين لا يصدقون نبيهم .
يأيها الملأ	يأيها الأشراف والسادة .
فأوقِدْ لى يا هامان على الطين	فاصنع ياهامان اللَّبِن ، ثم أوقد له ناراً شديدة تحرقه ، وتنضجه ، ليكون آجرًّا ، وهامان : وزيره الأول .
فاجعل لى صرحاً	فابن لى قصراً عالياً .
لعلى أطلع إلى إله موسى	لعلى أصعد إلى المكان الذي يقيم فيه إله موسى .
واستكبر هو وجنوده فى الأرض	وتعاظم فرعون هو وجنوده فى أرض مصر .
بغير الحق	بالباطل الذى جرهم إلى الهلاك .
فنبذناهم فى اليم	فطرحناهم فى البحر .
أئمةً	قادة ورؤساء يأتم بهم أتباعهم .
يدعون إلى النار	لم يؤمنوا ، وفتنوا غيرهم ، ومنعوهم من الإيمان ، فبقوا على كفرهم ، فكانت جهنم جزاءهم .

الألفاظ	شرحها
لا يُنصرون	لا يؤخذ بيدهم من جهنم ، ولا يدفع عنهم عذابَ الله دافع .
وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنةً	وألزمنا فرعون وقومه فى هذه الدنيا خزياً وغضباً ، فهلكوا كافرين مطرودين من رحمة الله .
ويوم القيامة	ومتبعوهم ألزمناهم لعنة أخرى يوم القيامة ، هى لعنة الخزى والعذاب الدائم فى جهنم .
هم من المقْبوحين	هم من الذين كتب الله عليهم المقت وتشويه الخلقة ، والطرد من رحمته ، والبعد عن نعيمه .
آتينا موسى الكتاب	أنزلنا على موسى التوراة .
من بعد ما أهلكنا القرونَ الأولى	من بعد أن أبَدنا الأجيال السابقة ، كقوم نوح وهود وصالح .
بصائر للناس	نوراً للقلوب ، وهداية للنفوس .
لعلهم يتذكرون	رجاء أن يتعظوا .

قصة موسى

ذكر الله قصة موسى مع فرعون وهامان والسحرة فى أكثر من موضع من الأجزاء السابقة ، وقد ذكر ذلك هنا مجملا بعد تفصيل ما يتصل بموسى فى حياته الأولى ، وهجرته الأولى من مصر ، وزواجه من بنت شعيب ، ثم عودته إلى مصر رسولا ، ولذلك نكتفى بشرح النص فقط .

مجمل المعنى

١ — حينما عاد موسى إلى مصر ، دعا فرعون وقومه إلى التوحيد ، وأظهر معجزاته الواضحة ، التى تدل على صدقه ، وكان بينه وبين السحرة ما كان ، فقال له الذين لم يؤمنوا به : ليست هذه معجزة ، وإنما هو سحر صنعته وبرعت فيه ، وهذا الذى تدعو إليه لم نسمع به ، ولم نعرف أن آباءنا الذين سبقونا كانوا يعرفونه .

٢ — وقال لهم موسى ردًّا عليهم : إن ربى الذى أدعو إليه هو وحده الذى يعلم حالى وحالكم ، ويعرف من حمل الرسالة ، ودعا إلى الهدى ، وبشر بالجنة ، ومن سيكون له بعد ذلك النعيم المقيم ؛ والكافرون الذين يكذبون رسل الله ، ولا يؤمنون بهم — لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الآخرة .

٣ — لما ألزم موسى فرعون الحجة ، قال هذا لقومه : لا أعرف أن لكم إلهاً غيرى ، وهذا كلام العاجز الذى لم يستطع إثبات ألوهيته ؛ والدليل على شدة تخاذله وخزيه أمام موسى ، وأنه أراد أن يتخلص من حرج موقفه مع أتباعه ، أنه قال لوزيره هامان بلغة المتعجرف المتجبر : يا هامان ، ابن لى قصراً عالياً بالآجر المنضج بالنار ، وسأطلع فوق هذا القصر الضارب فى الجو إلى السماء ، لعلى أجد إله موسى ، ومع ذلك ، فإنى قبل أن يبنى القصر ، وقبل أن أصعد إلى إله موسى — أظنه كاذباً فيما يزعم .

٤ — واستكبر فرعون وجنوده ، وتجبر هو وأتباعه فى الأرض ، وظلوا على باطلهم ، واستمرءوا مرعى طغيانهم ، ظانين أنهم لن يحاسبوا على ما يفعلون ، ولن يرجعوا إلى الله يوم القيامة ليجازيهم على ما يجترحون من شر .

٥ — وكانت نتيجة استمرارهم فى غيهم ، أن الله ألقى بهم فى البحر ، فماتوا جميعاً غرقى ، ثم قال الله لنبيه محمد : انظروتأمل ، كيف كانت نهاية حياة هؤلاء الظالمين الذين كذبوا نبيهم ، ولم يطيعوه ، فإن فى ذلك عزاء لك وسلوى .

٦ — وهؤلاء القوم الزعماء ، جعل الله لهم الصدارة بين قومهم ، فكانوا قادة يُتبعون ، وأئمة يؤتم بهم ، ولكنهم قادوا قومهم إلى الكفر الذى ينتهى بهم إلى النار يوم القيامة ، فهم مخذولون ملعونون ، مطرودون من رحمة الله .

٧ — وقد لعنهم الله لعنتين : لعنة فى الدنيا بأن لازمهم الخزى ، وصحبهم العار ، وظلوا على ضلالهم وكفرهم ، حتى ماتوا مغضوباً عليهم ؛ ولعنة فى الآخرة بأن يبعثوا مطرودين من رحمة الله ، مخلدين فى جهنم .

٨ — ويؤكد الله تعالى أنه أنزل التوراة على موسى بعد أن أهلك من لم يؤمنوا برسلهم ممن سبقوه ، كقوم هود وقوم صالح وقوم لوط ، وكان يجب أن يكون للاحقين عبرة فيما جرى للسابقين ، وهذا الكتاب فيه لمن يتدبره نور للقلب ، وهداية للنفس ، وجعله الله كذلك ، رجاء أن يتعظ من يطلع عليه ، ويؤمن به ، ويعمل بما دعا إليه .

(٧)

من الآية ٤٤ إلى الآية ٥٠ من سورة القصص

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ، وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَلٰكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا ، فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَلٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ —١— . وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ، وَلٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ —٢— . وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، فَيَقُولُوا : رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ، وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ! ؛ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا ، قَالُوا : لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ! أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ، قَالُوا : سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ، وَقَالُوا : إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ —٣— . قُلْ : فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ —٤— . فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ

مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ؟ إن اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ — ٥ — .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وما كنت بجانب الطور	وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربى الذى كان عنده ميقات موسى .
قضينا إلى موسى	كلمناه ، وأوحينا إليه .
من الشاهدين	من الحاضرين لمشاهدة ما جرى لموسى ، حينما كلمه الله .
أنشأنا قروناً	خلقنا أجيالا من الناس .
فتطاول عليهم العمر	فطالت أعمارهم ، وانقطعت النبوة عنهم .
وما كنت ثاوياً فى أهل مدين	وما كنت مقيما مع قوم شعيب فى أرض مدين .
تتلو عليهم آياتنا	تقص عليهم حجتنا ، وتريهم معجزاتنا .
ولكنا كنا مرسلين	ولكنا أرسلناك إلى قوم غير هؤلاء جميعاً ، وقصصنا عليك أخبار السابقين ، ووقفناك عليها .
إذ نادينا	حين نادينا موسى وكلمناه .
ولكن رحمة من ربك	ولكن أعلمناك هذا لتتأسى بما جرى للأنبياء السابقين ، نعمة من الله لك ، ورحمة لقومك .

الألفاظ	شرحها
ما أتاهم من نذير من قبلك	ما أرسل إلى الناس رسول بينك وبين عيسى ! والناس الذين عاشوا فى هذا الزمان يسمون أهل الفترة .
ولولا أن تصيبهم مصيبة	ولولا أن تقع عليهم كارثة ، أو ينزل بهم عقاب .
بما قدمت أيديهم	بما صنعوا من الكفر والظلم ، والتجبر والعصيان .
فلما جاءهم الحق من عندنا	فلما جاء القرآنُ كفارَ مكة من عند الله على يد محمد .
لولا أوتى مثل ما أوتى موسى	هلا نزل عليه مثل الذى نزل على موسى ! وهلا جرى على يده من المعجزات مثل الذى جرى على يد موسى !
سحران تظاهرا	ذوا سحر تعاونا على تغيير الناس من دين إلى دين ، وهما محمد وموسى .
هو أهدى منهما	هو أهدى من التوراة ، وأهدى من القرآن .
فإن لم يستجيبوا لك	فإن لم يأتوا بكتاب أهدى من القرآن ومن التوراة .
يتبعون أهواءهم	يكابرون فى غير اقتناع ولا إقناع ، وإنما هو الهوى الذى غطى على قلوبهم وعقولهم .
ومن أضل ممن اتبع هواه	ولا أحد أضل من الذى يتبع هواه ، وينكر عقله وقلبه .

مجمل المعنى

١ — يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ما كنت يا محمد موجوداً عند الجبل الغربى ، الذى واعد الله عليه موسى ، حينما نزل الكتاب عليه ، وأنزل عليه ما يريد أن يبلغه إلى قومه ، ولكن خلقنا بعد موسى أجيالا كثيرة متعاقبة ، يتلو بعضها بعضاً ، فتطاول عليهم الأمد ، فغيروا الشرائع والأحكام ، فأرسلناك مجددا للدين الحق ، وداعياً الخلق إليه ، وكذلك كنت غير شاهد ما حدث بين شعيب وقومه ، تقص عليهم من آيات الله ومعجزاته ، كما كان يفعل شعيب ، ولكنا كنا مرسلين إياك فى أهل مكة ، وإلى الناس قاطبة ، وآتيناك كتاباً فيه أخبار من قبلك ، ولولا ذلك لما علمتها .

٢ — أخبر الله محمداً بأنه أعطى أمته قبل أن تسأل ، واستجاب لها قبل أن تدعو — وكان محمد نفسه لايعلم هذا ، فلم يكن بجانب الطور حين حدوثه — وقد حدث ذلك حينما نادى الله موسى بأنه سيكتب الجنة للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، ويؤمنون بآيات الله ، كلم الله موسى بهذا ، وما كان محمد حاضره ، ، وأخبره الله به ، وأرسله مبشراً ونذيراً لقوم لم يأت إليهم مبشر ولا نذير من قبله — وهم الناس الذين جاءوا فى زمن الفترة بين عيسى ومحمد — وكان ذلك رحمة من الله لقومه ، ليتذكروا خطأهم فيما هم مقيمون عليه من الشرك ، وعبادة الأوثان والأصنام .

٣ — ولو أنا عذبنا قريشاً ، وآخذناهم على ما ارتكبوا من الكفر والمعاصى قبل أن نرسلك إليهم يا محمد ، لقالوا : هلا أرسلت إلينا يا ربنا رسولا يدعونا إليك ، ويرشدنا لعبادتك ، ويرسم لنا طريق الخير والرشاد ! إذن لعدلنا

عن كفرنا ، وآمنا بربنا ، واستجبنا لداعينا ، لو أنا عذبناهم قبل مجيئك لقالوا هذا ، ولكنهم بعد أن أرسلناك إليهم لم يقلعوا عن غيهم ، ولم يثوبوا إلى رشدهم ، وطلبوا أن يجرى على يديك من المعجزات مثل ما جرى على يد موسى من المعجزات ، ومن نزول التوراة دفعة واحدة ، لا كما ينزل القرآن منجماً ، ولكنهم خسئوا وضلوا ، فقد كفروا بما أنزل على موسى نفسه ، لما ورد فى كتابه من أنك سترسل إليهم ، ثم أنكروك حينما أرسلت ، وتأولوا كتابهم ، وغيروا فيه ، وعدوك ساحراً ، وعدوه ساحراً ، واعتبروا توراته سحراً ، وقرآنك سحراً . وقد تعاون السحران والساحران ، وأعلنوا كفرهم بكل واحد من الكتابين : التوراة والقرآن .

٤ — أمر الله نبيه أن يطلب من الذين لم يؤمنوا به وبموسى ، ولم يصدقوا القرآن والتوراة ، ووصفوهما بأنهما ساحران أتيا بسحر ، أن يأتوا من عندهم بكتاب يكون أهدى إلى طريق الخير ، وأدل على سبيل الرشاد من التوراة ومن القرآن ، ومحمد نفسه مستعد لاتباع هذا الكتاب ، متى ثبت أنه أهدى من غيره ، ولو أنهم استطاعوا أن يفعلوا ذلك — على سبيل الفرض — لكانوا صادقين ولكنهم لن يفعلوا .

٥ — ثم نبه الله نبيه بعد ، ذلك ، إلى أنهم إن لم يستجيبوا له ، ولم يأتوا بهذا الكتاب ، فإنهم إنما يتبعون أهواءهم ، وليست مخالفتهم إلا لمجرد العناد والاستكبار ، من غير نظر ولا بحث ، وليس أحد أشد ضلالا عند الله من الذين يتبعون أهواءهم ، ويصفون كلام الله بما لا يجوز أن يوصف به ، وقد غلب عليهم الغى ، ولم يرض الله عنهم ، فخلى بينهم وبين شياطينهم ، والله لا يمن بنعمة التوفيق والهداية ، على الذين يظلمون أنفسهم بالإصرار على الكفر ، ويظلمون غيرهم بإضلالهم .

(٨)

من الآية ٥١ إلى الآية ٥٧ من سورة القصص

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ —١— . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا : آمَنَّا بِهِ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ —٢— . أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ —٣— . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقَالُوا : لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ —٤— . إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ —٥— . وَقَالُوا : إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ، أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولقد وصلنا لهم القول	ولقد بلغنا إليهم القرآن على التتابع ، منجّماً منوع الأغراض مختلف الأسباب .
من قبله	من قبل القرآن .
وإذا يتلى عليهم	وإذا يتلى هذا القرآن على الذين آتاهم الله التوراة من قبل .
آمنا به	صدقنا بأنه الحق من الله .
من ربنا	نزل من عند ربنا ، فهو ليس من صنعة محمد .
مسلمين	مصدقين بأنه سيبعث نبى ينزل عليه القرآن .
يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا	يؤجرون أجرين لصبرهم صبرين : أولهما الثبات على الكتاب الأول ، وثانيهما الثبات على الإيمان بمحمد .
ويدرءون بالحسنة السيئة	ويدفعون بما يفعلون من حسنات ، ما كانوا قد فعلوه من سيئات .
ومما رزقناهم ينفقون	وينفقون فى سبيل الله وفى سبيل الخير بعض أموالهم التى رزقهم الله إياها .
اللغو	القول الباطل .
أعرضوا عنه	لم يُصغوا إليه ولم يستمعوه .
سلام عليكم	أمان عليكم .
لا نبتغى الجاهلين	لا إربة لنا فى مصاحبة الجاهلين ، والاختلاط بهم .

الألفاظ	شرحها
إنك لاتهدى من أحببت	إنك لاتستطيع أن تُدخل فى الإسلام من تحبهم .
وهو أعلم بالمهتدين	والله عالم بالذين قدّر لهم الهدى فى سابق علمه فيهتدون .
نتخطف من أرضنا	يعادنا العرب جميعاً ، ويخرجونا من أرضنا .
أولم نمكن لهم حرماً آمناً	لقد وطأنا لهم الحرم ، ومكناهم فيه بحرمة البيت .
يجبى إليه ثمرات كل شىء	تجمع له الأموال ، والثمرات من كل جهة .
رزقاً من لدنا	رزقاً يُرزقونه من عندنا .

مجمل المعنى

١ — قصّ الله سبحانه وتعالى على مشركى قريش أخبار الماضين ، وسرد لهم ما كان بينهم وبين أنبيائهم ، وما جرى لهم بسبب تكذيبهم وكفرهم ، وبيّن لهم أن الله عذبهم وأهلكهم فى الدنيا بطوفان ، أو صاعقة ، أو ريح صرصر عاتية ، أو غير ذلك ! وأراد الله من ذلك أن يكون لمن يكفر بمحمد ويكذبه عبرة بهم وموعظة ، لأنهم إذا أصروا على عنادهم ، وأقاموا على كفرهم وإشراكهم ، فإن مصيرهم سيكون كمصير من سبقوهم .

٢ — الذين تلقوا التوراة والإنجيل قبل محمد ، وفهموا ما جاء بهما على حقيقته فى وصف محمد ، آمنوا به بمجرد بعثه ، لأنهم لم يجدوا فى بعثه إلا تحقيقاً لما جاء فى كتبهم ، وهؤلاء الناس حينما يسمعون القرآن يتلى عليهم ، يقولون : صدّقنا بهذا القرآن ، وبما جاء به ، فهو منزل من عند ربنا ، ويؤكدون

أنهم كانوا مسلمين قبل نزول القرآن ، لإيمانهم بما جاء فى كتبهم من نعت محمد ؛ وإيمانهم بمحمد يستلزم إيمانهم بما جاء به محمد ، وهو القرآن .

٣ — هؤلاء الناس الذين آمنوا بمحمد قبل رسالته ، وآمنوا بعد رسالته — يضاعف لهم أجرهم ، فيؤجرون أجرين ، لصبرهم صبرين : ثباتهم على ما جاء فى الكتاب الأول ، وإيمانهم به ، مخالفين بذلك كثيراً من قومهم ؛ وثباتهم على الإيمان بمحمد ، وتحملهم أذىٍ من خالفهم ، ولم يعترف برسالة محمد ولم يؤمن به ؛ وهؤلاء المؤمنون يقابلون السيئة بالحسنة ، ويدفعون الشر بالخير — وذلك من أسمى التعاليم التى يدعو إليها الإسلام — ويؤدون زكاة أموالهم فى وجهها الذى أمر الله به ، ولا يضنون بمالهم على المحتاجين .

٤ — ومن صفات هؤلاء أيضاً أنهم حينما يطرق آذانهم لغو من الكلام ، وباطل من القول ، ينصرفون عنه ، ولا يأبهون به ، ويصمون آذانهم دونه ، وإذا تكلموا طلبوا لأنفسهم السلامة والأمان من مغَبَّة النطق بالقول الفاحش ، وقالوا للناطقين بلغو القول : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ولا إربة لنا فى التحدث إلى الجاهلين أو فى جدالهم ، أو فى الاستماع إليهم ؛ ومن هذا يتبين أن هؤلاء الناس يتصفون بصفات ثلاث ، هى لو تدبرها الإنسان لعرف أنها أمهات الفضائل ، وتلك الصفات هى :

ا — دفع السيئة بالحسنة

ب — الإنفاق على المحتاج .

ج — الإعراض عن اللغو .

٥ — أبو طالب عم النبى عليه الصلاة والسلام ، وأبو على كرم الله وجهه . وكافل محمد بعد وفاة عبد المطلب ، كان له فى نفس النبى منزلة خاصة ،

آمن ابنه علىّ فى صباه فلم يردّه ولم يعترض عليه ، وحمَى محمداً وعليًّا من من أذى قريش ما استطاع أن يحميهما ، لذلك عز على النبى عليه الصلاة والسلام أن يموت أبو طالب على غير دين الإسلام ، فلما حضرت الوفاة أبا طالب ، جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له : « يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله يوم القيامة » ، وكان حاضراً أبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن أمية بن المغيرة ، فقالا : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ ! فلم يزل رسول الله يعرضها عليه ، ويعيد له المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : أنا على ملة عبد المطلب ، وأبَى أن يقول : لا إله إلا الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما والله لأستغفرن لك ، ما لم أُنه عنك » ، فأنزل الله : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ، ولو كانوا أولى قربى » ، (تراجع الصفحة ٢٥ من تفسير الجزء الحادى عشر) ، ، وأنزل : « إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء » والمعنى : أنك — يا محمد — لا تستطيع أن تهدى من أحببت هدايته ، ولو كان قريباً لك ، ولكن الله هو الذى يهدى من يريد أن يهديه من عباده ، وهو وحده الذى يعلم من سبق له فى علمه أن يهتدى ، ومن سبق له فى علمه ألا يهتدى ، والأول هو الذى يهديه الله ، ويوفقه للرشاد .

٦ — وقال كفار قريش لمحمد عليه الصلاة والسلام : إن آمنا بك ، واتبعنا ما جئتنا به من جديد ، وتبرأنا من آلهتنا ، وتنكرنا لدين آبائنا وأجدادنا ، كان ذلك سبباً فى خروج الناس جميعاً علينا ، وانفضاضهم من حولنا ، وتخطفهم إيانا من أرضنا ، لأننا سنكون على رأى غير رأيهم ، ودين غير دينهم ؛ وقد أمر الله نبيه أن يرد عليهم بذكر نعم الله الكثيرة عليهم ،

وذلك أن الله مكّن لهم ، وجعل بلدهم الذى يسكنون فيه حرماً آمناً ، لا تجوز الحرب حوله ، ولا سفك الدماء فيه ، ولا إيذاء سكانه أو حيوانه أو طيره ، فلايحل لأحد أن يغزوه ، أو يقتُل فيه ، أو يسبى منه أحداً ، وفوق ذلك فإن الناس فى المواسم يأتون إليه من البلاد القريبة والبعيدة ، ويحملون إليهم كثيراً من خيرات بلادهم ، ويقدمون الهدايا لسدنة البيت ، ويتجرون فى شىء منها ؛ وعلى كلا الحالين تجد المنفعةعامّة على أهل مكة أنفسهم ، هذا الذى فيه أهل مكة كله من عند الله ، تفضل به عليهم ؛ ولكنهم لا يعلمون ذلك ، وإن علموه لا يقرّون به .

(٩)

من الآية ٥٨ إلى الآية ٧٠ من سورة القصص .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ —١— . وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ —٢— . وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ، وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ —٣— . أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ ، كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ؟ . وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكَائِىَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟ . قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ : رَبَّنَا ، هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا ، أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ، تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ، مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ —٤— . وَقِيلَ : ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ، وَرَأَوُا الْعَذَابَ ، لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ! —٥— . وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ

فَيَقُولُ : مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ؟ ، فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ ، فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ —٦— . فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ —٧— . وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ، سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ! ، وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ، وَهُوَ اللهُ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ، وَلَهُ الْحُكْمُ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها	أهلكنا كثيراً من أهالى قرى طغت وبغت فى معيشتها .
فتلك مساكنهم	فتلك ديارهم بقيت آثاراً غير مسكونة ولا صالحة للسكنى ، فلم تبق عامرة كما كانت .
إلا قليلا	إلا القليل من المسافرين الذين يأوون إليها بعض الوقت للاستجمام .
وكنا نحن الوارثين	وكنا نحن الذين نملك التصرف فيها .
فى أمّها	فى حاضرتها وقصبتها ، التى فيها القادة والرؤساء .
يتلو عليهم آياتنا	يخبرهم أن العذاب واقع بهم إن لم يؤمنوا .
إلا وأهلها ظالمون	إلا وسكانها باغون معتدون .

الألفاظ	شرحها
وما أوتيتم من شىء	وأى شىء تعطَوْنه من نعيم الدنيا .
فمتاع الحياة الدنيا	فتمتعكم به تمتع قليل ، ينتهى بانتهاء حياتكم فى الدنيا ، إذا لم يزُل قبل موتكم .
وما عند الله خير وأبقى	وثوابكم عند الله تتمتعون به فى الآخرة متاعاً دائماً ، وهو خير من متاع الدنيا .
أفلا تعقلون	ألا تعرفون أن الباقى الدائم ، خير من الفانى الزائل ؟
وعدناه وعداً حسناً	وعدناه بدخول الجنة .
فهو لاقيه	فهو صائر إليه ومدركه .
من المحضَرين	من الذين يُحضَرون إلى جهنم .
ويوم يناديهم	ويوم ينادى الله الكفارَ نداء فيه توبيخ لهم ، واحتقار لشأنهم .
كنتم تزعمون	كنتم تزعمون أنهم شركاء لى .
حق عليهم القول	ثبت عليهم ووجب ، والقول هو : لأملأن جهنم من الجِنة والناس أجمعين .
أغويناهم كما غوَينا	أضللناهم كما ضَللنا ، فأشركوا كما أشركنا .
تبرأنا إليك	تبرأنا منهم ومن ضلالهم ، فقد كانوا مستطيعين ألا يطيعونا وأن يطيعوا رسلك ، فقد ضلوا — إذن — باختيارهم .
ما كانوا إيانا يعبدون	ما كانوا يعبدوننا .
ادعوا شركاءكم	نادوا الأصنام التى كنتم تعبدونها لتخلصكم من العذاب .
فلم يستجيبوا لهم	فلم يجيبوهم حين نادَوهم .
لو أنهم كانوا يهتدون	ودّوا لو أنهم اهتدوا .

الألفاظ	شرحها
ماذا أجبتم المرسلين	بأى شىء رددتم على الرسل الذين أرسلناهم إليكم ؟
فعميت عليهم الأنباء	فخفيت عليهم الأخبار ، فلم يتذكروا ما كانوا يقولون ، ولم يحضرهم ما يجيبون به .
لا يتساءلون	لا يسأل بعضهم بعضاً .
ما كان لهم الخِيَرَة	ليس لواحد منهم أن يختار ويطلب من الله ما لا يريده الله .
وتعالى عما يشركون	تنزه الله عن أن يكون له شريك !
ما تُكِنّ صدورهم	ما تخفى صدورهم ، وما تُضمر قلوبهم .
وما يعلنون	وما يجرى على ألسنتهم ، ويظْهرونه للناس .
فى الأولى	فى الدنيا .
وله الحكم	وله وحده القضاء بين جميع خلقه .

مجمل المعنى

١ — ولا يصح أن يُطْغى أهل مكة أنهم لم يصابوا بسوء ، ولم يعجّل لهم العذاب ، فإن كثيراً من البلاد طغى أهلها وبَغَوْا ، وجاوزوا الحد فى التصدى لأنبيائهم والنفور منهم ، وعدم الإيمان بهم ، فأهلكهم الله إهلاكاً شديداً ، وأباد كل أمة منهم بنوع خاص من العذاب ؛ وبعد أن أهلكهم بقيت آثارهم ومساكنهم من بعدهم تدلّ عليهم ، ولم يُعمَر من بعدهم ، إلا بعض قليل من تلك المساكن ، فقد عمّر بالمؤمنين منهم ، أو عمر بقوم ارتحلوا إلى تلك البلاد بعد هلاك أهلها ، وأكثرها خراب ، ومع ذلك فإن العامر

والغامر من هذه الديار مرجعه إلى الله وحده ، فهو الذى يرث الأرض ومن عليها .

٢ — وإهلاك الله للبلاد وأهلها لا يكون لمجرد العبث وإظهار السلطان ، ولكن الله سبحانه وتعالى يرسل إلى حاضرتها التى بها القادة والرؤساء، يدعو أهلها إلى التوحيد ، وينهاهم عن الشرك ، ويثبت لهم بالأدلة الواضحة أنه رسول من عند الله يجب تصديقه ، ويحاول بجميع الوسائل والأساليب الممكنة أن يهديهم ، فإن آمنوا فازوا بالنجاة فى الدنيا ، وحسن الثواب فى الآخرة ، وإن لم يستجيبوا لنبيهم ولم يؤمنوا به ، فإنهم يكونون بذلك قد ظلموا أنفسهم ، فيهلكهم الله ، ويعذبهم .

٣ — كل ما أعطيتموه من مال وأنعام وولد ، ، إنما هو من متع الحياة القصيرة الفانية ، تفرحون به ، وتستمتعون ، فيستغرق تفكيركم ومشاعركم ، فلا تنظرون إلى ما وراءه ، ولو تدبرتم قليلا لعرفتم أنه متاع موقوت ، ينتهى بانتهاء آجالكم — وقد ينتهى وأنتم أحياء فى هذه الدنيا ، فيتبدد المال ، ويموت الولد — ولعرفتم كذلك أن عند الله متاعاً خيراً من هذا المتاع ، وأن له صفة الدوام والبقاء ، أليس لكم أيها الناس عقول تفكرون بها ، وتميزون بين الخير والشر ، وبين ما فائدته موقوتة ، وما فائدته دائمة ؟ !

٤ — وإن فرقاً كبيراً بين الذين آمنوا بالله ، وعملوا على طاعته ، فوعدهم الله الجنة ، وسيلقونها يوم القيامة ، وينتهون إليها ، وبين من يمتعه الله فى الحياة الدنيا القصيرة الفانية ، ثم ينتهى به الأمر فى الآخرة إلى الحساب والعقاب ، ودخول جهنم بسبب كفرهم وإشراكهم ، وإذ ذاك يناديهم الله موبخاً إياهم على عدم إيمانهم وإشراكهم ، فيقول لهم : أين هؤلاء الذين كنتم تعبدونهم ، وتزعمون أنهم شركائى ؟ ! فيجيب الكبراء والسادة الذين كانوا يُضلون الناس ويغوونهم ، وحقت عليهم كلمة العذاب : ربنا ، هؤلاء

الناس الذين أضللناهم ، قد أضللناهم كما ضللنا ؛ ومع ذلك فإنك منحتهم عقولا ، وبينت لهم طريق الخير وطريق الشر ، فتجنبوا طريق الخير ، وساروا فى طريق الشر الذى كنا نحن فيه ، وكان عليهم ألا يطيعونا ، أما وقد أطاعونا ، فهم المسئولون عن ضلالتهم ، ونحن برآء من تبعة إشراكهم ، فهم ما أطاعونا ، ولكنهم أطاعوا أهواءهم ، فعبدوا آلهة أخرى ، وأشركوها معك .

٥ — وفى هذا اليوم : يوم القيامة ، يقول الله — سبحانه وتعالى — لهؤلاء المشركين ، تنديداً بهم ، وتوبيخاً لهم : ادعوا شركاءكم الذين كنتم تعبدونهم من دونى ، لعلهم يستطيعون أن يخلصوكم مما أنتم فيه من عذاب ، فينادون هؤلاء الشركاء من الأصنام والأوثان ، فلا يستجيبون لهم ، ولا يردون عليهم نداءهم ؛ وحين رأوا العذاب بأعينهم ، ندموا على كفرهم ، وتمنوا أن لو كانوا فى الدنيا من المؤمنين ، إذ لو كانوا مؤمنين ، لنجوا من هذا العذاب الأليم

٦ — وفى يوم القيامة أيضاً يناديهم الله ، ويسألهم : حينما أرسلت إليكم الرسل ، ودعَوْكم إلى التوحيد ، وعبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام التى تشركونها معى فى العبادة — بماذا أجبتموهم ، ورددتم عليهم ؟ فى هذا الوقت تخرَس ألسنتهم ، وتخفى عليهم أخبارهم ، ولا يستطيعون أن يقولوا شيئاً ، لأنهم إذا ذكروا عرفوا أنهم كانوا مجرمين فى حق أنفسهم ، لأن الحجة كانت قوية ضدهم ، والأدلة واضحة أمامهم ، فبأى شىء يجيبون ؟ ! إنهم لن يجيبوا ، ولن يقدروا أن يسأل بعضهم بعضاً عما كانوا يجيبون به رسلهم ، لأن أحدا منهم لا يمكنه أن يجيب غيره ، ولو أمكنه أن يجيب غيره لأجاب ، ولكنه الحق أخرسهم .

٧ — هؤلاء الذين كانوا مشركين فى الدنيا ، بعضهم أصر على كفره فهو خالد فى جهنم ، وبعضهم استجاب دعوة نبيه فتاب وآمن به ، وخرج من دين

الشرك إلى دين التوحيد ، وعمل بما أمره به الله ، فاستحق أن يكون من الفائزين المخلدين فى الجنة .

٨ — كان كفار قريش يقولون: لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! ! فنزل قوله تعالى : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ... » ، والمعنى : أن الله يخلق ما يشاء من خلقه على ما يشاء ، فهو مالك هذه الأكوان ، يخص من شاء بما شاء ، ولا يملك أحد أن يعترض عليه ، أو ينقد تصرفه ، كما يجرى بين العباد فى أفعال العباد ، فكل أمور هذه الخلائق مردها إليه : يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وهو منزه عن الشريك ، سبحانه وتعالى ! وهو يعلم ما تخفى صدور الكفار من غل وحقد وحسد ، وما يظهرونه بألسنتهم وتصرفاتهم مما يكون فيه مناهضة لك ، وتعويق لنشر دعوتك ؛ وهو الله الواحد الذى لا يستحق الحمد فى الدنيا والآخرة سواه ، وهو المتصرف فى جميع خلقه : نصراً وخذلاناً ، وهداية وإضلالا ، وإعطاء وحرماناً ، وإعزازاً وإذلالا ، وإليه المرجع فى الآخرة للثواب والعقاب .

(١٠)

من الآية ٧١ إلى الآية ٧٥ من سورة القصص

قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ؟ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ؟ قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؟ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ؟ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ —١— وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ، فَقُلْنَا : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلهِ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
سرمداً	دائماً متصلا لا ينقطع .
لتسكنوا فيه	لتهدءوا وتستقرّوا .

الألفاظ	شرحها
ونزعنا من كل أمة شهيداً	وأحضرنا من كل جماعة من الناس شهيدها الذى يشهد عليها ، وهو نبيّها الذى أرسل إليها .
هاتوا برهانكم	اذكروا حجتكم ودليلكم .
فعلموا أن الحق لله	فعلموا أن الحجة البالغة القاطعة فى جانب الله ، وأن الحق له دون غيره .
وضل عنهم ما كانوا يفترون	وغاب عنهم الذى كانوا يعبدونه من دون الله .

مجمل المعنى

١ — الليل والنهار يتعاقبان ، ويختلفان طولا وقصراً ، باختلاف فصول السنة ، وهما متساويان دائماً عند خط الاستواء ، ثم يختلفان باختلاف الفصول ، كلما بعد المكان عن خط الاستواء ، وكلما كان المكان أبعد ، كان الاختلاف أشد ؛ ففى ، مصر مثلا يطول النهار ، حتى يكون أربع عشرة ساعة ، ويقصر حتى يكون عشر ساعات ، والليل كذلك يطول ويقصر على هذا النحو ؛ وكلما انحدر الإنسان شمالا أو انحدر جنوباً وجد ذلك الاختلاف ، وهو يطول حتى يصير الليل أشهراً ، والنهار أشهراً ، وذلك عند القطبين أو بالقرب منهما ، ووضع الأرض فى وسط المجموعة الشمسية على هذا النظام ، فيه نعمة كبيرة جداًّ على الإنسان ! ولا ندرى كيف يكون حالنا لو أن الأرض كانت مثل عُطارد ، حيث يساوى ليله ٤٤ يوماً من أيام الأرض ، وكذلك نهاره ؛ ومثل الزُّهَرَة التى يساوى ليلها ١١٢ يوماً من أيام الأرض ،

وكذلك نهارها ؛ أو مثل القمر الذى يساوى ليله ١٤ يوماً من أيام الأرض ، وكذلك نهاره ، ويتبع ذلك الطول فى الليل والنهار ، أن جو الليل يكون بارداً جدًّا ، ويصل أحياناً فى بعض الكواكب إلى ٤٠٠° تحت الصفر ، وأن جو النهار يكون حارًّا جدا ، ويصل أحياناً فى بعض الكواكب إلى ٤٠٠° مئوية ؛ بهذه الموازنة القصيرة يتضح فضل الله على الإنسان ، بأنه لم يجعل الليل دائماً ، ولا النهار دائماً ، لأنه لو جعل الليل دائماً ، لما وجدنا أحداً غيره يستطيع أن يضىء لنا ، ولو جعل النهار دائماً ، لما وجدنا أحداً غيره يستطيع أن يأتى بالليل ، ولكن الله رحيم بالناس ، عالم بأحوالهم ، فخلق لهم ليلا يسكنون فيه ، ويطمئنون ويستريحون من عناء الأعمال ، وخلق لهم نهاراً يسعون فيه ، ويجلبون رزقهم ، ويسعون وراء معايشهم ؛ وإن بعض الناس فى زمننا هذا تحتم عليهم طبيعة عملهم أن يسكنوا نهاراً ، ويستيقظوا ليلا ، وهذا عمل مخالف لطبيعة الحياة ، وإنما هو اضطرار اضطُرّت إليه قلة قليلة من الناس ؛ والدليل على أن هذا ليس من طبيعة الحياة ، أنهم لا يعملون كذلك دائماً ، وإنما هى غالباً مناوبات أسبوعية أو شهرية مثلا ، يعمل ليلا فى بعض الوقت ، ثم يعمل غيره مكانه وقتاً آخر ! ولو أن العمل فى الليل متمش مع طبائع الأشياء ، لما سئم الإنسان أن يعمل فى الليل دائماً ، كما أنه لا يسأم أن يعمل فى النهار دائماً ؛ وفضل الله على الناس يستوجب أن يُشكر ، وأن ينفرد هو بالشكر ، ويُخَص بالثناء والحمد .

٢ — واذكر يا محمد يوم ينادى ربك هؤلاء الذين أشركوا به ، وأصروا على إشراكهم ، ويقول لهم : كنتم تزعمون وأنتم فى الدنيا أن لى شركاء ، فأين هؤلاء الشركاء اليوم ؟ وأحضر الله يوم القيامة لكل أمة من الأمم شاهداً

يشهد عليها ، ويذكر ما كانوا يعملون معه ، حينما كان يدعوهم إلى التوحيد فى الدنيا ، وكيف كانوا يعاندونه وينفرون منه ، ويؤذونه ويؤذون من آمن به ، ويقول الله لأمة كل نبىّ ردّوا نبيهم وكذبوه : اذكروا لنا حجتكم على تكذيبكم ، وسبب عدم طاعتكم ، وإصراركم على الإشراك بى ، ولكن المشركين فى ذلك اليوم يغيب عنهم ما كانوا يختلقونه على الله ، من أن معه آلهة تستحق العبادة .

(١١)

من الآية ٧٦ إلى الآية ٨٤ من سورة القصص

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ، فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ : لَا تَفْرَحْ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ —١— وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ —٢— قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ، أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً ، وَأَكْثَرُ جَمْعاً ؟ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ —٣— فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا : يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ! إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ، وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : وَيْلَكُمْ ! ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ —٤— فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ، فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ —٥— وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا

مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ : وَىْ ! كَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ، لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ! وَىْ ! كَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ —٦— تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ —٧— مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
كان من قوم موسى	كان من بنى إسرائيل .
فبغى عليهم	فظلمهم وتكبّر عليهم ، واستبد بهم .
لتنوء بالعصبة أولى القوة	لتُرهق الجماعة من الرجال أصحاب القوة .
قال له قومه	قال له المؤمنون من بنى إسرائيل .
لا تفرح	لا تجعل كثره مالك تُبطرك وتستخفك .
إن الله لا يحب الفرحين	إن الله لا يحب الذين تُبطرهم أموالهم .
وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة	واجعل ما أعطاك الله من مال وجاه ، وسيلة إلى الجنة فى الآخرة .
ولاتنس نصيبك من الدنيا	وتمتع بمُتع الحياة الدنيا ، فى حدود الحاجة والإباحة .

الألفاظ	شرحها
وأحسن كما أحسن الله إليك	واعمل حسنا بالشكر والتصدق وطاعة الله ، كما تفضل الله عليك بالمال والجاه .
ولا تبغ الفساد فى الأرض	ولا تعمل عمل المفسدين من ظلم وتجبّر ، واعتداء على الناس .
أوتيته على علم عندى	أعطيت المال باستحقاقى له من دون الناس .
من القرون	من الأمم والأجيال .
من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا	من هو أقوى منه ، وأكثر مالا ، وأعظم جاها . وأعز نفرا .
ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون	ليس الكفار يوم القيامة فى حاجة إلى السؤال عن ذنوبهم ، ولكنهم يسارعون إلى الاعتراف بها من تلقاء أنفسهم .
فى زينته	فى حليته وأبهى ملابسه ، وأفخم مواكبه .
إنه لذو حظ عظيم	إنه لسعيد الحظ .
الذين أوتوا العلم	الذين يميزون بين الخير والشر ، والحق والباطل .
ويلكم	هلاك لكم !
ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون	ولا يعرف ثواب الله ، والطريق إلى كسب رضاه ، إلا الذين يصبرون على مشقة الطاعة .
فخسفنا به وبداره الأرض	غارت الأرض به وبداره .
من فئة ينصرونه من دون الله	من جماعة يدفعون عنه عذاب الله .
من المنتصرين	من المنتقمين لأنفسهم من موسى .
تمنّوا مكانه بالأمس	تمنوا أن يكون لهم مثل ماله وجاهه .

الألفاظ	شرحها
وى	كلمة تعجب وتنبيه وتندم .
ويقدر	ويضيق .
منّ الله علينا	تفضل الله علينا .
لخسف بنا	لأهلكنا كما أهلك قارون .
لا يريدون علواً فى الأرض ولا فسادا	لا يحبون أن يكونوا بغاة ظالمين ، عتاة جبارين ، عصاة مفسدين .
والعاقبة للمتقين	والنهاية المحمودة للذين يتقون الله .

قارون

ا — قارون : اسم لرجل غنىّ، كثير المال ، محب لنفسه ، يكنز ماله وذهبه وجواهره ، ولا ينفق منها إلا بما يعود عليه بالنعمة والجاه ، والأبّهة وحب الظهور ، أما فيما عدا ذلك فهو شحيح بماله أن ينفق منه شيئاً على أحد ، بخيل بذهبه وجواهره من أن يصرف منه ولو نزراً يسيراً على فقراء قومه ، لذا تجمّع ماله ، وكثرت خزائنه ، وتعددت كنوزه، حتى حسب أنها لن تفنى ! وظن أن ما حباه به الله من عز وجاه لن يزول ، ولكن ما أصابه الله به فى نفسه، وفى ماله بعد ذلك، جزاء صلفه وعتوه وجبروته ، كان مضرباً للأمثال ، وعظة على مرّ الدهور !

ب — كان قارون من بنى إسرائيل ، الذين عاصروا موسى عليه السلام ، حين بعثه الله نبيًّا إلى بنى إسرائيل ، وكان أيضاً من أبناء عمومته ، إلا أنه كان على النقيض منه ، فبينما كان موسى — حتى قبل أن يبعث

رسولا — يعمل لنصرة بنى إسرائيل فى مصر ، ورفع شأنهم ، ومنع الذل والضيم عنهم ، ومحاولة الخروج بهم من عبودية فرعون مصر الذى كان يضطهدهم ، ويسخّرهم فى أعمال العنف والسخرة ، ويقتل أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، كيلا يكثر عددهم ، وتقوى شوكتهم ؛ كان قارون لا يأبه لما ينال قومه من إذلال وعنت وإرهاق ، بل كان عوناً لفرعون عليهم ، وسيفاً مصْلتاً له فوق رءوسهم : يأمرهم بأوامره ، وينهاهم بنواهيه ، فى سبيل أن ينال هو الحظوة والمال من فرعون ، وفى سبيل أن ينال العزة والجاه بين قومه ، وأن يتمتع بالرياسة فيهم .

ج — وعاد موسى إلى مصر ليعمل على نصرة بنى إسرائيل ، وليدعُوَ إلى الله فرعون ووزيره هامان ، ووجيه بنى إسرائيل إذ ذاك قارون .

د — وعرّف موسى قومه بالله الذى كادوا ينسَوْنه ، وعرّفهم أنه جاء ليخرجهم من الذل والضيم ، فانحاز له وتبعه كثير من بنى إسرائيل ، وانخذل عنه ، وتهيب من متابعته ، نفر كانوا لا يتتبعون إلا ما يأمرهم به قارون .

هـ — وحاول موسى أن يحمل رسالة ربه إلى فرعون ووزرائه وحاشيته ، ويبلغهم أمر ربه بشأن بنى إسرائيل ، فكذبوه واتهموه بالسحر والجنون ؛ أما قارون فكان من المنافقين ، يظهر له غير ما يبطن ، ويخفى عنه ما يَدُسّ له من الوقيعة والوشاية لدى بنى إسرائيل .

و — خاف قارون أن يُفلح موسى فى حث بنى إسرائيل على الخروج من مصر إلى فلسطين ، فيكون رئيسهم وقائدهم ، وبذلك تزول رياسته عليهم ، وتنتهى قيادته لهم ، فيذهب جاهه ، ويقل ماله ، لذلك آلى على نفسه أن يحارب موسى لدى فرعون ، وأن يحاربه لدى بنى إسرائيل ؛ فوجد عند فرعون نفساً تحمل الكره الشديد لموسى ، ووجد عند بنى

إسرائيل المسنين الذين خنعت نفوسهم للعبودية ، وارتضَوُا الضيم والهوان ، وألفوا معاشهم الذليل فى مصر على آخر مجهول فى فلسطين — خير مستمع لما يقول ، وأطوع مجيب لما يأمر ويريد .

ز — وعلى هذا صار موسى يجمع بنى إسرائيل ، ليبصرهم بمعاونة أخيه هارون على العمل بأوامر الله ونواهيه ، ويحثهم على الخروج من مصر إلى أرض الله الموعودة : فلسطين ، حيث يعيشون أحراراً كراماً .

ح — وصار قارون ينهاهم سرا عن اتباع موسى ، ذلك البدوىّ الجلف العيىّ البكىء لسانه ، فيخف هرون لإبطال مازعمه ، قائلا لهم : إن موسى ما يريد الجاه فيكم ، والغنى على حسابكم ، والرياسة عليكم ، وإن الذى أراد الجاه ، ونشد الغنى ، وطمع فى الرياسة ، هو قارون الذى لا يهمه من آلام قومه ، وفقرهم وحرمانهم ، وذلهم وبؤسهم أى شىء .

ط — بل هو يفخر بجاهه ، ويتيه بماله ، ويباهى بحسنه وجماله ، على ملأ من بنى إسرائيل ، ويركب عربته الفخمة ، تجرها الخيل المطهمة ، ويلبس ثيابه المزركشة ، ويتحلى بأحجار الجواهر الغالية ، ويمر على الجمع من بنى إسرائيل ، وموسى بينهم يعلِّمهم ويرشدهم ، فتتعلق عيون القوم به فى إعجاب ودهشة ، ويقول نفر ممن تستهويهم وتستميلهم مباهج الدنيا : يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون ، إنه لذو حظ عظيم ! ! ! ! فيجيبهم نفر ممن أوتوا العلم والمعرفة : ويلكم ! ! ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ، وبذلك يعود نفر إلى الاستماع إلى موسى الفقير الأسمر ، الذى يرتدى الصوف الخَشِن ، وينصرف نفر وراء قارون ، وقد أعجبهم ما هو عليه من جمال وجاه وأبهة .

ى — وقد زاد فى حقد قارون على موسى ، وغضبه عليه ، أنه يوم أن جاءه

موسى يكلفه أداء زكاة المال ، ويطلب منه أن يخرج من ماله زكاة لمساعدة بنى إسرائيل الفقراء ، والبر بهم ، فأظهر قارون لموسى استعداده لذلك ، وفرحه به ، ثم راح بعد ذلك يوسوس لأتباعه من بنى إسرائيل ، فيقول لهم : ألم أقل لكم إن موسى لا يبغى إلا الجاه والمتعة ؟ ! ها هو ذا قد جاء يكشف عن بعض نياته ، ويطالبنا بإعطائه من أموالنا ، ويطلب فرض ضريبة على مواشينا ومزارعنا .

ك — قال أتباعه : وإلى متى نظل ساكتين عليه ؟ ! يجب أن نُظهر للملأ من قومنا لؤمه ورياءه ! قال قارون : وكيف نصل إلى ما نريد ، وهو حريص ، لا يجتمع مع من اتبعه إلا ليحثهم على التقوى ، ويحدثهم عن الفضيلة ؟ قالوا : ندبر لذلك أمراً ؛ ودبر قارون وأتباعه أمراً ، ثم سار وإياهم فى موكب زاهر حافل ، إلى حيث كان موسى يجتمع بأتباعه فى الخلاء ، بعيداً عن أعين جنود فرعون ، فإذا بموسى يحدث قومه عن المحرمات ، ويعدِّدُها لهم ، ويبين لهم شناعتها ، وعقاب مرتكبيها ، فسأله قارون : يا موسى ؛ ما جزاء من اجتمع مع امرأة محرمة عليه ، وأتى أمراً منكراً ؟ ! قال موسى : جزاؤه أن يرجم بالحجارة حتى يموت ؛ قال قارون : حتى ولو كنت أنت ؟ ! قال : ولو كنت أنا ، قال قارون — وقد ظهرت على وجهه نشوة النصر والظفر — : إن القوم يرجفون بأنك قد أتيت أمراً مع امرأة يعرفونها ، فماذا تقول ؟ قال موسى : أين هى هذه المرأة ؟ ! ! فأبرز القوم امرأة من بينهم ، معروفاً عنها أنها من النسوة الساقطات ، وهم يقولون : ها هى ذى .

ل — عرف موسى أن فى الأمر تدبيراً ، واشتم رائحة المكيدة ، فرفع يديه إلى ربه الذى وعده ألا يخذله ، ليبتهل إليه ، قائلا : رب ، اهد قلب هذه المرأة إلى الإيمان ، وأنطق لسانها بالحق لى أو علىّ ، وشعرت المرأة برجفة تكتنفها من رأسها إلى قدمها ، وأحست بقلبها يتفتح للهدى ، ولسانها ينطق بالحق ، فقالت : إن موسى برىء مما نُسب إليه ، وإنه لم يأت منكراً ، وإنما الذى لقننى أن آتى إلى هنا لأفترى عليه ، هو قارون هذا وأتباعه ، وأعطونى نظير ذلك من المال والجواهر ، ما تجدونه بمنزلى ، وصفته : كذا وكذا .

م — وهكذا ظهر الحق على الملأ من بنى إسرائيل ، وهكذا سقط الباطل أمام أعينهم ، فأقبلوا على موسى يهنئونه وهم فرحون ، فى حين راحت عيونهم تشيع قارون بسخط وغضب ، وهو ينصرف مع أتباعه ، وهم يودون لو تنشق الأرض فتبتلعهم ، لفرط خجلهم وقهرهم .

ن — ودعا موسى ربه قائلا : رب اخسف الأرض بهم وبأموالهم ؛ وأصبح القوم ، فإذا بدار قارون قد خسفت بها الأرض بما فيها من ناس ومتاع وأموال ، وأصبح الذين تمنوا مكان قارون بالأمس يقولون : وى ! كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ، وى ! كأنه لا يفلح الكافرون .

مجمل المعنى

١ — يؤكد الله أن قارون من بنى إسرائيل ، وأنه طغى وبغى ، وتكبر وتجبر ، واستبد وظلم ، وقد وسّع الله عليه فى رزقه ، ومنحه مالا كثيراً ! ولو أردت أن تتصور مقدار هذا المال ، لكفاك أن تعرف أنه أودع هذا المال فى خزائن ، وأن لهذه الخزائن مفاتيح ، وأن هذه المفاتيح لو جُـمعت وأريد حملها ، لعجز جماعة من الرجال الأقوياء الأشداء عن حملها ، وكان مال قارون يطغيه ويبطره ، فنصحه جماعة من عقلاء قومه ، ونهوه عما هو فيه من غرور وبطر ، وأكدوا له أن الله لا يحب هذا النوع من الناس ، والبطر صفة يبغضها الله .

٢ — وطلبوا إليه كذلك أن يعرف فضل الله عليه ويذكره ، وأن يعمل الخير الذى ينفعه فى الآخرة ، وأنه إذا أراد أن يتمتع بالحياة الدنيا ، فليس حراماً عليه أن يتمتع فى الحدود المباحة لمثله ، إذ ليس معنى التمتع الطغيان ، وظلم الناس ، والتكبر عليهم ، والبطش بهم ، وإنما يكون بأن يلبس المباح ، ويأكل الحلال ؛ وإن من متع الدنيا أن يرى الإنسان من حوله فى سعة وخير ، وأن يمد يده للضعيف والمحتاج ، وأن يعدل بين من ولاه الله عليهم ، وأن يفعل غير ذلك من أعمال الخير ، فإن العاقل يجد فى ذلك راحة لنفسه ، واطمئناناً لقلبه ، واعترافاً بفضل الله عليه ، ومقابلة لإحسان الله إليه بإحسان مثله ؛ وإن فى ذلك أيضاً بعداً عن الشر ، ونفوراً منه ، وأكد الله أنه لا يحب الشر ، ولا يحب الشرّيرين ، وأكد كذلك أنه يكره الفساد والمفسدين .

٣ — نصح عقلاء بنى إسرائيل قارون بهذا ، فلم يعجبه أنهم نصحوه ، ولم

يعجبه أن يستمع لهم ، ويستجيب لإرشادهم ، وقال لهم : إن هذا المال الذى أعطيته إنما أعطيته بعلمى وجهدى وتدبيرى ، فكأنه يريد أن يقول : ليس لأحد فضل علىّ فى الحصول على هذا المال — وإنه فى هذا القول لمخطئ وضالّ ، لأنه لو فكر قليلا ، لعلم أنه قد سبقه ناس كثيرون كانوا أكثر منه مالاً ، وأعظم جاهاً ، وأقوى قوة ؛ ولما لم يعترفوا بفضل الله عليهم ، وحادوا عن طريق الخير ، أهلكهم الله فأبادهم ، فلم يعجزوه شيئاً — فأين قارون من هؤلاء ؟ ! والمجرمون أمثال قارون ومن سبقه ممن أهلكهم الله بذنوبهم ، يجيئون يوم القيامة ، ويحشرون فى جهنم ، من غير أن يسألوا عن شىء مما فعلوه سؤال من يجوز له أن يعترف ، ويجوز له أن ينكر ، ثم يترتب الحكم عليه نتيجة لاعترافه أو إنكاره ، وإنما يسأل هؤلاء المجرمون مبالغة فى توبيخهم وتقريعهم ، لأن الله ليس فى حاجة إلى سؤالهم ، وهم لا يجرءون على الإنكار فى موقف الحساب ، وهم معروفون بسيماهم ، وليس الله فى حاجة إلى سؤالهم وإلى إجاباتهم ، وإنما ذلك تصوير ، يفهم منه الإنسان منتهى العدل فى المحاكمة والمؤاخذة .

٤ — رد قارون على ناصحيه بعد الرد الكلامى السابق ردا عمليًّا ، مبالغة فى إنكاره عليهم ، وزرايته بهم ، فأعد لنفسه موكباً فخماً : خيول فارهة ، وجياد مطهمة ، وثياب مزركشة ، وخدم وحشم يحفون به ، وطبل ومزمار ، ورقص ولعب ، وغير ذلك من مظاهر الأبهة والعظمة التى يتأثر بها السذج من الناس ؛ وخرج فى ذلك الموكب الفخم ، ورآه الناس فكانوا فريقين : فريقاً يحب الحياة الدنيا وزينتها ، ويحب أن ينعم فيها بجميع ألوان النعيم ، فتمنى أن يكون له من المال والجاه والسلطان مثل هذا الذى لقارون ، وأعجبه ما عليه قارون من الحظ العظيم ، والمظهر الفخم ،

وفريقاً آخر من العقلاء ، يعرفون حقيقة هذه الحياة الدنيا ، ويعرفون أنها دار فناء ، وأنها طريق إلى الآخرة ، ولذلك استعجبوا من إخوانهم الذين غاية همهم ، ومنتهى أملهم ، أن يكون لهم مثل ما لقارون من عز ومال ، وجاه وسلطان ، وقالوا لهم : ثواب الله وجزاؤه أفضل من هذا الذي تتمنون مثله ، وثواب الله لا يكون إلا للمؤمنين الذين يعملون عملا صالحاً ، ولا يصل إليه إلا الذين يصبرون على مشقة الطاعة ، ويجاهدون أنفسهم ، ويحملونها على الخير .

٥ — أصر قارون على مخالفة موسى ، وتدبير المكايد له ، والاستمرار فى ظلمه لبنى إسرائيل ، فعجل الله بإهلاكه ، وإبادة ماله ، وإتلافه ، وهدم داره وتخريبها ، فلم يستطع أحد أن يدفع عنه ، أو يمنعه من عذاب الله ، ولم يقدر هو أن ينتصر لنفسه من موسى الذي دعا عليه ، فاستجاب الله له وأهلكه .

٦ — أما الذين تمنوا من قبل أن يكون لهم مثل الذى لقارون من مال وعز وجاه وسلطان ، فإنهم لما رأوا ما جرى عليه ، من تعذيب وتخريب وإهلاك ، استعجبوا ودهشوا لما رأوا ، ثم لم يلبثوا أن زال عنهم عجبهم ، وتبددت دهشتهم ، واعترفوا أن الرزق كله فى يد الله وحده ، فهو الذي يوسّع على إنسان ، ويضيق على غيره ، واعترفوا بأن فضل الله عليهم كان عظيماً ، إذ نجاهم مما وقع فيه قارون ، لأنه كان من الجائز أن يجرى عليهم ما جرى عليه ، فاعتبروا نجاتهم من لطف الله بهم ، وتأكدوا بعد ذلك أن الكافر لا يفلح ولا يفلت من عذاب الله فى الدنيا والآخرة .

٧ — وبعد أن قصّ الله على نبيه محمد قصة قارون ، ووقفه على ما جرى لأخيه موسى معه ، وما كان من صبر موسى عليه ، ثم ما صار إليه

قارون من الهلاك والتعذيب ، بيّن له أن الجنة فى الآخرة جعلها للناس المتواضعين ، الذين لا يتكبرون ولا يتجبرون ، ولا يعتدون ولا يظلمون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ؛ وكل من يتقى الله بقلبه ولسانه ، فى عمله وفى صلته بالناس ، له العاقبة الطيبة التى تؤدى به إلى الجنة .

٨ — يقرر الله — سبحانه وتعالى — أن كل من يعمل خيراً يثيبه عليه خيراً منه ، وقد يصل الثواب على الحسنة إلى أكثر من مائة مثل ، والحسنات تأكل السيئات ، وتجلب الخيرات ، وتدخل الجنة ، ويقرر الله كذلك أن كل من يعمل سيئة فعقابه يساوى السيئة التى ارتكبها ، وهذا فضل من الله عظيم .

(١٢)

من الآية ٨٥ سورة القصص إلى آخر السورة

إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ، قُلْ : رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى ، وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ —١— . وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ، وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ —٢— . وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فرض عليك القرآن	أوجب عليك قراءة القرآن والعمل به ، وتبليغه إلى الناس .
لرادك إلى معاد	لراجعك إلى مكة التى خرجت منها مهاجراً .
من جاء بالهدى	من جاء بما فيه هداية الناس ، والمراد : محمد .
فى ضلال مبين	فى ضلال بيّن ، بإقامته على الشرك ، وعدم الطاعة .

الألفاظ	شرحها
أن يلقى إليك الكتاب	أن ينزل عليك القرآن .
ظهيراً	مساعداً ومعينا .
ولا يصدُّنك	ولا يمنعنك الكفار عن العمل بما جاء فى القرآن .
بعد إذ أنزلت إليك	بعد أن أنزلها الله عليك ، وعرفك أحكامها .
وادع إلى ربك	وادع الناس إلى توحيد الله وعبادته .
له الحكم	هو المختص بالقضاء فى أمور خلقه ، على الوجه الذي يريد .
وإليه ترجعون	وإليه وحده المصير فى الآخرة .

مجمل المعنى

١ — يؤكد الله — سبحانه وتعالى — لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أنه كما أنزل عليه القرآن ، وأوجب عليه قراءته ، وفهم أحكامه ، والعمل بكل ما جاء به من الأوامر والنواهى — فهو كذلك سيرده إلى مكة مسقط رأسه ، وموطنه وموطن آبائه وأجداده ، ويعود إليها بعد أن يقهر الكافرين من قريش ، وينتصر عليهم ؛ وهذا إخبار بما سيكون ، وهو نوع من الإعجاز ، وقد تحقق ، ففتح محمد مكة ، ودانت له قريش ، وآمن به من كان لا يزال على الكفر ؛ وأمر الله نبيه أن يقول لهم : ربى أعلم بأنى على هدى ، وأنى لم أبلغكم غير الحق ، وأنكم مقيمون على ضلال بيّن واضح .

٢ — ويقول الله لنبيه أيضاً : أنزل عليك ربك الكتاب رحمة بك ، ورضا

عنك ، فباعد بينك وبين المشركين المصرين على كفرهم ، بعد أن تدعوهم إلى الإسلام ؛ وسر فى طريقك ، وامض لأمرك وشأنك ، ولا تعاونهم فى أى ناحية من نواحى حياتهم ، ولا تكن معهم فى مساعدتهم فى أى أمر ، فكأنه تعالى يأمره بمقاطعتهم ، حتى يتهيأ له النصر عليهم .

٣ — ولن يمكنهم الله من صدك عن العمل بما جاء به القرآن، ومنعك من أداء واجبات الدعوة والرسالة ، فاستمر فى دعوتك ، ولا تبال إعراضهم عنك ، أو إيذاءهم لك ، ولا يَفُتَّ شىء من ذلك فى عضدك ، واحم أصحابك منهم ، وادعهم إلى التذرع بالصبر على المكاره ، واحتمال الأذى ، حتى لا يعودوا إلى إشراكهم ، وعبادة إله آخر مع الله الواحد الذى لا إله غيره ، فهو الإله الباقى الأبدى ، الذى يهلك كل شىء ويفنى ، ويبقى هو ، لا يجوز عليه تغيّر ، ولا تحوّل ولا فناء — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً — فهو وحده المختص بالقضاء فى كل ما يجرى فى هذا الكون، وفى غيره من الأكوان ، والمصير إليه يوم القيامة ، يحاسب كل إنسان على ما عمل ، ولا يفوز برضاه وجنته إلا المؤمنون .

سورة العنكبوت

نزلت بمكة ، ما عدا الآيات التى من ١ — ١١ فإنها نزلت بالمدينة ، وآياتها ٦٩ آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية ١٣

الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا : آمَنَّا ، وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ؟ —١— . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ —٢— . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ! —٣— . مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ —٤— . وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ —٥— . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ —٦— . وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ، وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ، فَأُنَبِّئُكُمْ

بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ —٧— . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ —٨— . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِاللهِ ، فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ ، وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ : إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، أَوَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ؟ . وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ —٩— . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ، وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ، وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ، وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ —١٠— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أحسب الناس ؟ !	أظن الناس ؟ !
لا يفتنون	لا يمتحنون ولا يختبرون .
يعملون السيئات	يكفرون بالله ويشركون به .
أن يسبقونا	أن يفلتوا من عذابنا .
ساء ما يحكمون	بئس حكم الكافريرين بأنهم مفلتون من العذاب .
يرجو لقاء الله	يتمنى ثواب الله ويخاف عذابه .

الألفاظ	شرحها
فإن أجل الله لآت	فإن الموعد الذى حدده الله للحساب لا بد أن يأتى .
ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه	ومن حمل نفسه على الصبر على المشقات ، فإن منفعة ذلك عائدة عليه .
إن الله لغنى عن العالمين	إن الله ليس فى حاجة إلى عبادة العابد ، ولا جهاد المجاهد ، ولا إلى شىء من خلقه .
لنكفرن عنهم سيئاتهم	لنغفرن لهم ذنوبهم ، ولنتجاوزن لهم عما ارتكبوه فى كفرهم قبل إيمانهم .
أحسن الذى كانوا يعملون	أحسن جزاء على خير ما عملوه .
ووصينا الإنسان بوالديه حسنا	وأمرنا الإنسان أن يعمل لوالديه كل شىء ذى حُسن .
وإن جاهداك	وإن حاولا جاهدين أن يحملاك .
ما ليس لك به علم	ما لا تعرف شيئاً عن استحقاقه للألوهية .
إلىّ مرجعكم	مصيركم جميعاً إلىّ .
لندخلنهم فى الصالحين	لندخلنهم الجنة مع الصالحين .
أوذى فى الله	أصيب بأذى من الكفار بسبب إيمانه .
جعل فتنة الناس كعذاب الله	لحقه من الهم والجزع من إيذاء الكفار له ، مثل ما يلحقه من عذاب الله إذا عذب .
إنا كنا معكم	إنا كنا على دينكم ، فأشركونا فى الغنيمة معكم .
أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين	المؤكد أن الله يعلم ما فى صدور الناس أكثر من أصحابها .
اتبعوا سبيلنا	ادخلوا فى ديننا ، واعملوا مثلنا .

الألفاظ	شرحها
ولنحمل خطاياكم	ولنتحمل ذنوبكم وآثامكم .
وليحملن أثقالهم	وليحملن ذنوبهم وآثامهم ، وليحاسبن عليها .

مجمل المعنى

١ — هذا القرآن المعجز، المكون من هذه الأحرف ونظائرها ، قد بيّنا فيه أن جزاء كل إنسان على قدر عمله ؛ والإيمان الذى لا يقترن بالعمل الصالح لا يكون إيماناً كاملا ، فهل ظن الناس أن مجرد إعلانهم أنهم مؤمنون، يكون وسيلة لاعتبارهم مؤمنين إيماناً صحيحاً كاملاً ؛ الحق أن صاحب الإيمان الكامل، هو الشخص الراسخ العقيدة، الذى لا تزلزله فتنة مهما عظمت ، ويكون مثل عمار بن ياسر ، وقد حاولوا أن يفتنوه عن دينه ، وعذبوه ، فلم يزده تعذيبهم إياه إلا استمساكاً به ؛ ويكون مثل القوم الذين آمنوا بمكة ، ورغب إليهم أصحاب النبى فى المدينة أن يهاجروا إليهم فهاجروا، فتبعهم المشركون فردوهم ، فخرجوا ثانية ، فتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قُتل ومنهم من نجا ، فالمقتول والناجى فى الجنة ، لأن كلاً منهما فتِن فى دينه فلم يُفتن ؛ وإن من الفتنة ما يلقاه الإنسان من المحن المختلفة ، كأن يصاب فى ماله أو بدنه أو ولده ، فإن المؤمن إيماناً صحيحاً ، هو الذى يتوكل على الله ، ولا يضيق به صدره بما نزل به من مصائب ، فيجعل الله له بعد كل عسر يسراً ، وبعد كل شدة رخاء ، وبعد كل كربة فرجاً .

٢ — هؤلاء الذين يمتحنون بالابتلاء ليسوا بدعاً فى ذلك ، فإن الله قد ابتلى المؤمنين الذين من قبلهم ، فلم تلن قناتهم ، ومنهم من اصطفيناهم للرسالة ، فإبراهيم أُلْقِيَ فى النار ، ويونس التقمه الحوت ، وأيوب ابتلى بمرضه ، وفقد أمواله وأولاده ، والله يعلم الثابتين على الإيمان ، الصابرين على الابتلاء ؛ ويعلم الكاذبين الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والذين إن أصابهم خير فرحوا به ، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على أعقابهم ، وارتدوا خاسرين .

٣ — ولْيعلم هؤلاء الذين أشركوا بربهم ، وعبدوا من دونه آلهة أخرى ، وآذوا المؤمنين المخلصين — أنهم لن يُعجزوا الله ، وأنهم لن يُفلتوا من عذاب الله ، ولئن ظنوا ذلك لبئس ما ظنوا ، وسيعود شره عليهم يوم الحساب .

٤ — وليعلم كذلك الذين يتمنون لقاء الله فى يوم القيامة ، أن هذا اليوم آت لا لاريب فيه ، وليطمئنوا إلى أن وعد الله حق ، فثوابهم عند الله عظيم ، فإنهم ما تمنوا هذا التمنى إلا لأنهم مؤمنون إيماناً صحيحاً ، لا تشوبه شائبة من شبهة ؛ والله يسمع كل ما يقولون سرا أو جهراً ، ويعلم كل ما يفعلون.

٥ — والذى يجاهد عدوه من المشركين الذين يصدّون عن سبيل الله ، ويقف فى وجههم ، ويصبر على قتالهم ، ويحمى عقيدته وعقيدة المؤمنين معه من شرهم — فإن ثواب كل ذلك له ، وعمله هذا جهاد فى سبيل الله ، وأجر المجاهد عندالله عظيم ، والله ليس فى حاجة إلى الجهاد عن دينه ، فإنه غنى عن الخلق جميعاً ، وإنما أمروا به ، ليبذلوا جهدهم فى طاعته ، ليستحقوا ثوابه .

٦ — والذين حسن إيمانهم ، وصلح عملهم ، ولم تتزلزل عقيدتهم بما يصيبهم من ابتلاء ومحن — هؤلاء يغفر الله ذنوبهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم التى

ارتكبوها وهم على ملة الكفر قبل أن يؤمنوا، ويثيبهم الله أطيب الثواب وأجزله على ما عملوا بعد إيمانهم من خير .

٧ — هاجر سعد بن أبى وقّاص إلى المدينة مع من آمن بمحمد ، فغضبت أمه ، وحزنت حزناً شديداً — وكانت على الكفر — وقالت : والله لا يُظلنى بيت حتى يرجع ، فأنزل الله : « ووصينا الإنسان بوالديه . . . » ، والمعنى : أن الله تعالى يأمر الإنسان أن يحسن إلى والديه، وأن يبَرّهما، وأن يطيعهما فى كل ما يأمران به، إلا أن يأمراه بالشرك بالله، فله إذ ذاك أن يخالفهما مخالفة صريحة ، وألا يطيعهما ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ولا تمنعه مخالفتهما فى هذا أن يستمر فى برهما ؛ ومرجع الآباء والأبناء إلى الله يوم القيامة ، فيخبر كلاّ بعمله الذى عمله فى الدنيا ، حسناً كان أو قبيحاً ، ويجازيه عليه ثواباً أو عقاباً .

٨ — والذين آمنوا بالله ، وأخلصوا له الدين — يؤكد الله أنه سيحشرهم يوم القيامة مع الصالحين من عباده فى الجنة .

٩ — بعض الناس يعلن بلسانه أنه آمن بالله وحده ، فإذا ابتلى بإيذاء المشركين له ليردوه عن دينه، لم يتحمل هذا الإيذاء ، ولم تعصمه عقيدته ، بل هانت عليه، ولم يبال أن يرتدّ عنها، وجزعوا من عذاب الناس، كجزعهم من عذاب الله ، فترددوا فى أمرهم ، وقالوا : إن آمنا تعرضنا لعذاب الناس، وإن تركنا الإيمان تعرضنا لما يتوعدنا به محمد من عذاب الله ؛ أما إذا نصر الله المؤمنين على الكافرين، فإنه يسرع إلى المؤمنين، ويعلن أنه معهم ، وغاب عن هؤلاء أن الله يعلم ما تخفى صدور هؤلاء المنافقين الذين إذا جاز لهم أن يخدعوا الناس ، فإنه لا يمكن أن يخدعوا الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويميز المنافقين فيعاقبهم ،

ويعرف المؤمنين فيثيبهم ؛ حدث — كما فى بعض الروايات — أن جماعة من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستَخْفون بإسلامهم، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا ، فاستغفروا لهم ، فنزل قوله تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم . . . » . إلى آخر الآية، فكُتب إلى من بقى بمكة من المسلمين بهذه الآية ، فعرفوا أن لا عذر لهم فى عدم خروجهم من مكة، وهجرتهم إلى المدينة، فخرجوا مهاجرين ، فلحقهم المشركون، فآذوهم وأعادوهم إلى مكة، فنزل فيهم: « ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله .. » إلى آخر الآية ، فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا مهاجرين ، وقد يئسوا من مغفرة الله لهم ، فنزل قوله تعالى : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ، ثم جاهدوا وصبروا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم » ، فكتب المسلمون إليهم بذلك أيضاً ، وقالوا لهم : إن الله قد جعل لكم مخرجاً، فخرجوا، فخرج وراءهم المشركون فقاتلوهم، حتى نجا من نجا، وقُتل من قتل؛ والله وحده هو الذى يعلم أصحاب الإيمان الحقيقى الصحيح ، الذى يجعل أهله يسارعون إلى الهجرة فراراً بعقيدتهم ، ومؤازرة لنبيهم ، ويعلم الذين يؤمنون بألسنتهم ، ويؤثرون أموالهم وأهلهم فى مكة على أن يهاجروا ، فإذا فُتنوا ارتدوا عن دينهم ، وآثروا العافية والسلامة فى الدنيا ، على أن ينالهم فيها الأذى الذى يوصلهم إلى نعيم الآخرة .

١٠ — الكافرون من قريش يقولون للمؤمنين منهم : اتبعوا طريقنا فى البقاء على ديننا ، دين آبائنا وأجدادنا ، وكذبوا محمداً ، ولا تؤمنوا بالبعث والحساب

والثواب والعقاب ؛ وإذا فرض أنه سيكون بعث ، وسيكون حساب بعده عقاب ، فإنا مستعدون لأن نتحمل عنكم ما سيصيبكم من عقاب ، والواقع أنهم كاذبون فى هذا ، لأنهم لن يحملوا خطاياهم ، ولن يتلقرا العذاب عنهم ، وهم فى ذلك كاذبون ، لأنهم سيكونون مشغولين بأنفسهم عن غيرهم ، ومع ذلك فإنهم سيحملون أوزارهم وذنوبهم ، وسيحملون كذلك ذنوب من أضلوهم وأغروهم ، وهذا لا يعفى من أضلوهم من المؤاخذة بكفرهم ؛ فمن سَنّ سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عَمل بها إلى يوم القيامة ؛ وليسألن هؤلاء الكفار يوم القيامة عما كانوا يختلقونه فى الدنيا من الأكاذيب والأباطيل .

(٢)

من الآية ١٤ إلى الآية ١٥ من سورة العنكبوت

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ، فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً ، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ، وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فلبث فيهم	فأقام حيًّا بين قومه يدعوهم .
فأخذهم الطوفان	فأهلكهم الماء الكثير الذى أغرقهم .
وأصحاب السفينة	ومن حملهم معه فى سفينته .

مجمل المعنى

مشركو قريش كفروا بمحمد ، وأخذوا يحرّضون الناس على عدم الإيمان به ، وينفرونهم منه ومن دعوته ، ويغرونهم بأنه لو صح أن هناك بعثاً وحساباً ، وثواباً وعقاباً ، لحملوا عنهم نصيبهم من العقاب ! ليعلم مشركو قريش هؤلاء أن الله أرسل نوحاً إلى قومه ، وأن نوحاً ظل يدعو قومه إلى التوحيد بالله تسعمائة وخمسين سنة ، ومع ذلك كفر به كثير

منهم ، وظلوا على شركهم ، فأغرقهم الله بالطوفان انتقاماً منهم ، وتعذيباً لهم ، ونجا نوح ومن آمن به فى السفينة التى صنعها بأمر الله ، ثم جاء الطوفان فنجت السفينة ، وكان فيها نوح وقومه الذين آمنوا به ، وما حمل من صنوف الحيوان والنبات : « من كل زوجين اثنين » ! وأما الذين لم يؤمنوا به ، فقد أغرقهم الله جميعاً بالطوفان ، ولم ينج منهم أحد ، حتى ابن نوح نفسه لأنه لم يؤمن به ، وزوجته لخيانتها ، وجعل الله ذلك عبرة وموعظة لمن يأتى بعد نوح من الناس ، وهذا أمرك يا محمد مع قريش : تدعوهم إلى الإيمان ، وتقيم لهم الحجج ، فيصدق من يصدق فينجيه الله ، ويكذب من قريش مَن يكذب ، وسيعذبهم الله إن عاجلاً وإن آجلاً .

(٣)

من الآية ١٦ إلى الآية ٢٧ من سورة العنكبوت

وَإِبْرَاهِيمَ ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ –١– . إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا ، وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ، إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ، فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ، وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ –٢– . وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ –٣– . أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ –٤– . قُلْ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ –٥– . يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ –٦– . وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ –٧– . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ، أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ، وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ –٨– . فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ

قَالُوا : اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ، فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ —٩— . وَقَالَ : إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ —١٠— . فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ، وَقَالَ : إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ —١١— . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ ، وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ —١٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وإبراهيم	واذكر إبراهيم .
واتقوه	وخافوا غضبه إذا عبدتم غيره .
ذلكم خير لكم	عبادته وحده خير لكم من عبادة غيره .
إن كنتم تعلمون	إن كنتم تميزون بين ما هو خير لكم ، وما هو شر عليكم .
أوثاناً	أصناماً .

الألفاظ	شرحها
وتخلقون إفكاً	وتصنعون أصناماً ، وتفترون كذباً وباطلا .
لا يملكون لكم رزقاً	الأصنام التى تعبدونها لا تقدر أن ترزقكم .
فابتغوا عند الله الرزق	فالتمسوا رزقكم عند الله ، لا عند الأوثان .
إليه ترجعون	مرجعكم إلى الله بعد الموت ، فيحاسبكم على أعمالكم .
كذب أمم من قبلكم	كذبت جماعات قبلكم رسلهم الذين أرسلناهم إليهم .
وما على الرسول إلا البلاغ المبين	ليس على محمد إلا أن يبلغكم ما أوحى إليه على وجه صحيح واضح مفهوم مقنع ، لا سبيل بعده إلى الشك .
إن ذلك على الله يسير	إن إعادة الخلق بالبعث يوم القيامة ، يسير على الله يسر إنشائه ابتداء ، ولم يكن شيئاً مذكوراً .
بدأ الخلق	خلق الخلق ابتداء من السموات والأرض ، والإنس والجن والملائكة ، وأنواع الحيوان ، وصنوف النبات ، على أطوار مختلفة .
يُنشىء النشأة الآخرة	يبعث بعد الموت .
إن الله على كل شىء قدير	إن الله قادر على الإنشاء ابتداء ، وقادر على الإعادة بعد الفناء ، وقادر على كل شىء أراده .
وإليه تُقلَبون	وإليه مرجعكم يوم القيامة .
وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء	لا شىء يعجز الله فى أرض ولا فى سماء ، فأنتم لا تعجزونه ولا تفوتونه .
وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير	ليس لكم أحد غير الله يتولى أموركم أو ينصركم ، ويدفع عنكم عذابه ، إذا كان مقدراً عليكم أنكم تعذبون .

الألفاظ	شرحها
كفروا بآيات الله ولقائه	أنكروا حجج الله ومعجزاته ، ولم يؤمنوا بالبعث والحساب ، والثواب والعقاب .
أولئك يئسوا من رحمتى	هؤلاء الكفار يئسوا من دخول الجنة .
عذاب أليم	عذاب مؤلم .
إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون	إن فيما كان بين إبراهيم وقومه ، وفى نجاته من النار ، لأدلة للذين يصدقون
اتخذتم من دون الله أوثاناً	عبدتم الأصنام ، وفضلتم عبادتها على عبادة الله .
مودة بينكم	جعلتم عبادة الأصنام سبباً فى التواد القائم بينكم فى الحياة الدنيا .
يكفر بعضكم ببعض	يجحد بعضكم بعضاً ، وتتنافرون وتتناكرون .
ومأواكم النار	ومصيركم أنتم وأصنامكم إلى النار .
فآمن له لوط	فصدقه لوط وآمن به .
إلى ربى	إلى حيث أمرنى ربى .
إنه هو العزيز الحكيم	إنه هو القوى الذى يمنعنى من أعدائى ، الحكيم الذى لا يأمرنى إلا بما فيه خير لى ولرسالتى .
وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب	وجعلنا الأنبياء الذى جاءوا بعد إبراهيم منحصرين فى ذريته ، ونزلت الكتب المقدسة عليهم .
وآتيناه أجره فى الدنيا	وجازيناه على تحمله أعباء الرسالة فى الدنيا بحسن الذكر ودوامه ، وانحصار إرث النبوة فى ولده .
وإنه فى الآخرة لمن الصالحين	وإن له فى الآخرة جزاء الصالحين .

قصة إبراهيم

سبق أن تحدثنا عن قصة إبراهيم فى غير موضع من الأجزاء السابقة ، ونكتفى هنا بشرح النص القرآنى الكريم :

مجمل المعنى

١ — يذكّر الله — سبحانه وتعالى — نبيه محمداً — صلى الله عليه وسلم — برسوله إبراهيم ، وبما حدث بينه وبين قومه ؛ فإنه أرسله إليهم ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، وطلب إليهم أن يتركوا عبادة الأوثان ، وأن يخافوا الله الواحد الذى لا شريك له فى ملكه ، ونبههم إلى أن دين التوحيد الذى يدعوهم إليه ، خير لهم فى الدنيا والآخرة ، من دين الشرك وعبادة الأصنام ، وأن الفرق بين هذا وذاك ، إنما يدركه كل من له عقل يستطيع أن يميز به بين الخير والشر .

٢ — وأكد إبراهيم لقومه أنهم إنما يعبدون الأصنام التى يصنعونها من خشب منجور ، أو حجر منحوت ، أو غير ذلك ، وأنهم بعبادتها إنما يخلقون كذباً ، ويفترون إثماً يعود وباله عليهم ؛ وأكد لهم كذلك أن هذه الأوثان التى يعبدونها عاجزة غير قادرة ، فهى لا تستطيع أن تجلب لهم نفعاً ، ولا أن تدفع عنهم ضرًّا ! بل هى لا تستطيع أن تجلب لنفسها خيراً ، ولا أن تدفع عن نفسها شرا ، فكيف تستطيع ذلك لغيرها ؟ ! ! وإنما الذى يملك أن ينفع ويضر ، وأن يعطى ويمنع ، وأن يعاقب ويُثيب — إنما هو الله الذى يدعوهم إبراهيم إلى عبادته وحده ، ويدعوهم إلى شكره على

ما أولاهم من نعم جزيلة ؛ فمرجع الجميع إليه يوم القيامة ، يرجع إليه البرّ والفاجر ، والمؤمن والكافر ؛ لكل إنسان جزاؤه على ما قدمت يداه .

٣ — وأخبر إبراهيم قومه حينما تمادوا فى تكذيبه ، أن تكذيبهم إياه ليس بدعاً منهم ، ولا من أمثالهم ممن سبقوهم ، وهم قوم شيث وإدريس ونوح ، فإنهم كذبوا فلم يُفلتوا من عذاب الله فى الدنيا ، ولن يفلتوا من تعذيبهم فى جهنم ، وتخليدهم فيها فى الآخرة ، وأعلمهم حقيقة عمله حين حمل الرسالة ، فإنه لا يعدو أن يكون رسولا ، يبلغهم ما أمره الله أن يبلغهم إياه ، على وجه واضح صحيح مفهوم مقنع ، إذا سمعه أى إنسان عنده مُسكة من عقل ، سارع إلى تصديقه ، والإيمان به .

٤ — وقد علم هؤلاء المكذبون كيف بدأ الله الخلق وأنشأه ، بعد أن كان غير موجود ، وهم على قياسهم العقلى يعلمون أن الذى بدأ هذا الخلق وأنشأه من العدم ، يستطيع أن يعيده بعد الموت والفناء ، ولا سيما أن الإعادة أيسر من الإنشاء ، والله ليس عليه عسير ، وإنما هو إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون .

٥ — وأمر الله إبراهيم أن يأمر قومه أن يسيروا فى الأرض ، وأن يتأملوا ما فيها من مخلوقات مختلفة الأشكال والألوان والأجناس والهيآت ، فيقفوا على ما فى خلقها من عجائب وغرائب ولطائف ، لا يقدر على إيجادها إلا الله الواحد ؛ والله الذى قدر على هذا الإيجاد ، هو نفسه — سبحانه — الذى يقدر على الإعادة والبعث ، والإنشاء الثانى يوم القيامة ؛ فهو قادر على كل شىء ، لا يعجزه شىء .

٦ — والله هو الذى يعذب من يشاء من عباده ، بأن يصرفه عن الإيمان ، فيظل على كفره حتى يموت ، فيدخل النار يوم القيامة ، وهو الذى

يرحم من يشاء من عباده ، بأن يفتح قلبه للدعوة ، فيؤمن ، ويموت على الإيمان ، فيدخل الجنة يوم القيامة ، والمرجع كله إليه .

٧ — وهؤلاء الناس لايفلتون من عذاب الله وإن حاولوا ذلك ، ولا يفوتونه مهما حاولوا أن يختفوا فى ظاهر الأرض أو فى باطنها ، أو فى أى زاوية من زوايا السماء الواسعة الفسيحة ، فهم جميعاً لا فى الأرَضين يهرُبون ، ولا فى السموات يستخفون ، ولا يلى أمورهم ، ولا يتولى نصرهم أحد إلا الله ؛ أما الآلهة التى يعبدونها من دونه ، فإنها لا تملك لهم ضرا ولانفعاً ، ولا تملك موتاً ولا حياة ولا بعثاً .

٨ — والذين لا يؤمنون بما يقدم لهم من أدلة صادقة واضحة على صدق ما يجىء به الرسل ، وينكرون كتب الله ، ولا يوحدونه — هؤلاء عند البعث ، ورؤيتهم جهنم فى استقبالهم ، تفتح لهم نارُها أفواَهها ، ييئسون من رحمة الله ، ويفقدون الأمل فى الخروج من النار ؛ وإن لهم عذاباً أليماً موجعاً دائماً .

٩ — سمع قوم إبراهيم منه هذا الكلام الذى فيه نصح وإرشاد لهم ، وزجر وتوبيخ وتهديد للمعاندين منهم ، فلم يسع المكذبين إلا أن يأمروا بقتله أو إحراقه بالنار ، وجمعوا له الحطب ، وأعدوا محرقة عظيمة ، ألقوه فيها ، ولكن الله جعلها برداً وسلاماً عليه ، وخلصه منها على نحو ما ورد تفصيله فى الفقرة السابعة من الصفحة ٣٢ من تفسير الجزء السابع عشر ، وفى إنجاء الله إبراهيم من النار على الصورة التى نجاه بها ، دلائل قوية على قدرة الله ، يتعظ بها المؤمنون الذين يصدقون ولا يكابرون .

١٠ — وقال إبراهيم لقومه وهو فى صدد إسداء النصح لهم : إنكم إنما تعبدون آلهة أصناماً تصنعونها بأيديكم ، تتآلف قلوبكم على عبادتها ، وتتعاون على خدمتها ، وتتواصلون فى ظلها ، وتتعارفون من أجلها ؛ فإذا انتهت

الآجال ، وخرجتم من الدنيا على هذا الضلال ، ثم بعثكم الله يوم القيامة ، ورأيتم بأعينكم ما أعد الله لكم من عذاب شديد مقيم — إذ ذاك ينكر بعضكم بعضاً ، ويتبرأ بعضكم من بعض ، وتتناكرون ، وتتنافرون ؛ فلا مودة ولا إلف ولا تواد ، وإنما هو التلاعن والتقاطع والتدابر ، وإلقاء كل واحد تبعة كفره وضلاله على غيره ، وهم جميعاً : العابد والمعبود — يصيرون إلى جهنم يلقون فيها ، وهى أسوأ مصير يصير إليه الكافر ، ولا يمكن أن ينصره أحد أيا كان ، أو يعمل على إخراجه أو التخفيف عنه .

١١ — استمر إبراهيم على دعوة قومه ، فآمن به لوط ، وهو ابن أخى إبراهيم ، كان حاضراً حادثة إحراقه ، رأى أن النار لم تحرقه ، وأنها لم تأكل منه إلا قيوده ، فآمن به ، وأخلص له ، ولما يئس إبراهيم من قومه ، خرج مهاجراً إلى حرّان — فى الشمال الشرقى من حلب ، على طريق الموصل والشام — حيث أمره الله بالهجرة إليها ، وكان معه زوجته سارة ، وابن أخيه لوط ، وأقام بها ما شاء الله أن يقيم ، داعياً إلى ربه القوى الذى حفظه من أعدائه ، الحكيم الذى لم يأمره إلا بالخير والسلام .

١٢ — أنعم الله على إبراهيم ، وخصه بأن يكون الأنبياء الذين جاءوا بعده جميعاً من نسله ؛ فوهب له إسحق ، ووهب لإسحق يعقوب ؛ وانحصرت النبوة والكتب السماوية المنزلة كلها فى أولاده ، ومنحه الله فى الحياة الدنيا ما يستحق من أجر على ما جاهد فى سبيل نشر الدعوة : فحسن ذكره ، وطابت سيرته ، ودام ذلك إلى اليوم ، وسيظل له الذكر الطيب قائماً إلى يوم القيامة ؛ وإن من حسن الأجر وجميل الجزاء ، أن تكون النبوة فى أبنائه إلى خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم ، أما فى الآخرة فإن له جزاء الصالحين الطيبين المجاهدين .

(٤)

من الآية ٢٨ إلى الآية ٣٥ من سورة العنكبوت

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ، مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ، وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ؟ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا : ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ -١- . قَالَ : رَبِّ ، انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ -٢- . وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ، قَالُوا : إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ ، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ -٣- . قَالَ : إِنَّ فِيهَا لُوطًا ، قَالُوا : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ ، إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ -٤- . وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ، وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ، وَقَالُوا : لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ، إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ، إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ -٥- . إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ، وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ -٦- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولوطاً	واذكر لوطاً .
إنكم لتأتون الفاحشة	إنكم لتفعلون أفحش منكر وأقبحه ، وهو اللواط .
وتقطعون السبيل	تسطون على المسافرين ، وتسلبونهم أموالهم وتجارتهم ، وتأتون الفاحشة بهم .
وتأتون فى ناديكم المنكر	وفى مجالسكم التى تجلسونها فى ناديكم ، تسخرون ممن يمر بكم ، وتسيئون إليهم ، وتحصبونهم ، وتفتنُّون فى إيذائهم ، كما أنكم لاتتورعون عن ارتكاب الفاحشة علناً فى الأندية .
انصرنى على القوم المفسدين	استجب دعائى ، وأنزل عذابك على هؤلاء الناس الضالين .
رسلنا	ملائكتنا .
بالبشرى	مبشرة بإسحاق ، ومن وراء إسحق يعقوب .
هذه القرية	هى قرية سدوم التى كان يقيم فيها لوط وقومه .
كانوا ظالمين	كانوا مستمرين على ظلمهم ، مصرين على عنادهم وكفرهم وآثامهم .
من الغابرين	من الباقين المستحقين للعذاب .
سىء بهم	ساءه مجيئهم إليه .
وضاق بهم ذرعاً	وضاقت قدرته بتدبير أمرهم ، والعمل على تخليصهم من أذى قومه .
رجزاً من السماء	عذاباً من السماء .

الألفاظ	شرحها
بما كانوا يفسقون	بسبب ما كانوا يفعلون من المعاصى والمخازى .
ولقد تركنا منها .	ولقد أبقينا من القرية .
آية بينة	آثاراً واضحة تدل عليهم ، ليتعظ بهم غيرهم .
لقوم يعقلون	لناس يفكرون فيتعظون .

قصة لوط

سبق أن تحدثنا عن قصة لوط فى بعض الأجزاء السابقة بما يغنينا عن إعادتها . ونكتفى هنا بشرح النص القرآنى :

مجمل المعنى

١ — يأمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يذكر لوطاً عليه السلام ، حين أنكر على قومه أشد الإنكار أنهم يرتكبون أبشع أنواع الفاحشة ، وهو اللِّواط ؛ فكان الرجال منهم يأتون الرجال ، ولم يحدث أن أتى رجل رجلاً قبل قوم لوط ؛ ونعى عليهم أنهم يأتون القبائح فى أنديتهم ، فيقطعون الطرق على المسافرين ، ويستحوذون عليهم ، ويرتكبون الفاحشة معهم ، ويسلبونهم أموالهم وتجاراتهم ؛ وكانوا يتخذون الأندية أمكنة يتجمعون فيها ، ويتناولون الناس بالسب والشتم واللعن ، ويحذفون المارين بالحجارة ، ويقذفونهم بالحصى ، ويأتون فيها اللواط ؛ عدّد لوط لقومه شر ما كانوا يفعلون ، ونعاه عليهم ، فلم يزدهم ذلك إلا تمرداً واستكباراً ،

ولم يبالوا تهديده إياهم بعذاب الله يقع عليهم ، وقالوا له : إن كنت صادقاً فيما تهددنا به من العذاب ، فعجل وأتنا به ، إن كنت صادقاً فيما تقول .

٢ — لما رأى لوط منهم ذلك العناد والتمرد ، والتمادي فيما يفعلون من الفاحشة — سأل الله أن ينصره على هؤلاء القوم المفسدين للناس ولأنفسهم .

٣ — أرسل الله ملائكته إلى إبراهيم ، وبشروه أن الله سيهب له غلاماً ذكراً اسمه إسحق ، وسيكون من سلالة إسحاق يعقوب ؛ وأخبروه أنهم سيهلكون قرية سَدوم ، وسيعذبون أهلها ، وهم قوم لوط الذين أصروا على تكذيبه ، واستمرءوا مرعى ظلمهم للناس ، بارتكاب أشنع فاحشة وأبشعها معهم .

٤ — انزعج إبراهيم حين عَرَف من الملائكة أنهم سيهلكون أهل قرية سَدوم ، لأن فيها ابن أخيه لوطاً ، وقال للملائكة : إن فيها لوطاً ، فكيف تهلكون أهل القرية وهو بينهم ؟ أجاب الملائكة إبراهيم : نحن نعلم أن فيها لوطاً ، وإن هلاكنا لا يقع إلا على الكافرين الذين لم يؤمنوا بلوط ؛ أما لوط وأهله والذين آمنوا معه ، فإنهم ناجون جميعاً ، ماعدا امرأته فإنها سيصيبها ما سيصيب الكافرين من الإهلاك ، ولا ينجيها أنها امرأة لوط ، لأنها امرأة طال عمرها ، وساء عملها ، وخانت زوجها ، وأصرت على العناد والكفر .

٥ — ذهب الملائكة إلى لوط ، ونزلوا ضيوفاً عليه ، فساءه مجيئهم إليه ، لأنه خشى ألا يستطيع حمايتهم من قومه ، وتوقع أن يعتدوا عليهم ، كما اعتادوا أن يعتدوا على السابلة والمسافرين والضيفان ؛ وأصابه من ذلك حَرَج شديد ، فلما رأى الملائكة ما أصابه من الضيق والحرج ، صارحوه بحقيقتهم ، وأطلعوه على ما جاءوا من أجله ، وأمنوه ، وخففوا من همه ،

وأخبروه أنه سينجو هو وأهله ، ما عدا امرأته الفاجرة الكافرة ، التى أصيبت بطول العمر ، وسوء العمل ، والإقامة على الكفر .

٦ — وأخبروه كذلك أنهم مُنزلون على أهل قرية سَدوم عذاباً شديداً ، يسلطه الله عليهم ليبيدهم ، جزاء لهم على ماعاندوا وطغَوا و بغَوا وَفسقوا ؛ وقد نزل العذاب على القرية فأتى عليها ، وأبادها ، ولم يبق منها إلا أطلال بالية ، لتكون عبرة وموعظة للأجيال التى تأتى بعدهم ، ينتفع بالنظر إليهم عقلاؤهم ، الذين يرون فيتأملون فيتعظون .

(٥)

من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٠ من سورة العنكبوت

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً، فَقَالَ: يَا قَوْمِ، اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. فَكَذَّبُوهُ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ، فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ —١—. وَعَاداً وَثَمُودَ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ، وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ —٢—. وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ، فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ، وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ —٣—. فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ: فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا، وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ —٤—.

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
وأرسلنا إلى مدين .	وإلى مدين
وخافوا الله ، وافعلوا ما ترجون به ثوابه فى الآخرة .	وارجوا اليوم الآخر
ولا تكثروا من الإفساد فى الأرض ، ولا تصروا على ارتكاب المعاصى .	ولا تعثوا فى الأرض مفسدين
فأصابتهم زلزلة شديدة ليلا ، كانت سبباً فى هلاكهم .	فأخذتهم الرجفة
فأصبحوا وقد ماتوا وهم باركون على ركبهم .	فأصبحوا فى دارهم جاثمين
وقد ثبت لكم بما رأيتموه من الآثار فى بلادهم ، وما أصابهم من العذاب بسبب كفرهم .	وقد تبين لكم من مساكنهم
وحسَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملونه من المعاصى وارتكاب الآثام ، والإصرار على الكفر .	وزين لهم الشيطان أعمالهم
فردهم عن الدين القويم ، وأعمى عنه قلوبهم .	فصدهم عن السبيل
وكانوا بحالة تمكنهم من التفهم والتبصر ، ولكنهم لم يتفهموا ولم يتبصروا .	وكانوا مستبصرين
واذكر يا محمد قارون وفرعون وهامان ، وما كان منهم ، وما جرى لهم .	وقارون وفرعون وهامان
ولقد أتى موسى هؤلاء الثلاثة بالحجج الدالة على صدقه فيما يدعو إليه ، من التوحيد وعبادة الله .	ولقد جاءهم موسى بالبيّنات
فأصروا على كفرهم عناداً واستكباراً .	فاستكبروا فى الأرض
وما كانوا مُفلتين من عذاب الله .	وما كانوا سابقين

شرحها	الألفاظ
فأخذنا جميع هذه الأمم بالعذاب ، بسبب ما ارتكبوا من ذنوب .	فكلاًّ أخذنا بذنبه
فمنهم من عذبناه بريح صرصر عاتية ، حملت إليهم حصباء خربت ديارهم وأهلكتهم ، وهم قوم لوط .	فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً
ومنهم من أهلك بالصاعقة ، وبالزلزال الشديد الذى هدم الدور والقصور ، وهم قوم صالح وقوم شعيب .	ومنهم من أخذته الصيحة
ومنهم من أهلك بالخسف ، وهو قارون .	ومنهم من خسفنا به الأرض
ومنهم من أهلك بالغرق ، وهم قوم نوح ، وفرعون وقومه .	ومنهم من أغرقنا
وما كان الله ليعذب أحداً من هؤلاء من غير ذنب ارتكبه .	وما كان الله ليظلمهم
ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بإصرارهم على الكفر ، وعدم إيمانهم بأنبيائهم .	ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

مجمل المعنى

١ — يذكّر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بما حدث لشعيب عليه السلام ، وقد أرسله إلى أهل مَدْين ، يدعوهم إلى الإيمان بالله ، وتوحيده ، ويحذرهم الآخرة ، وما عسى أن يكون فيها من أهوال عظام ، وعذاب دائم ، ويأمرهم أن يفعلوا ما يرضى الله عنهم ، وينيلهم ثوابه ، وينهاهم عن

الإفساد فى الأرض ، والإصرار على ذلك الإفساد ، والإقامة عليه ، ولكنهم لم يستمعوا له ، وكذّبوه ، ولم يؤمنوا به ، وبعد أن طاولهم شعيب ما طاولهم ، وصابرهم ما صابرهم ، وتأكد أنهم ان يؤمنوا به ، ولن يستجيبوا له ، أصابهم زلزال شديد ، اهتزت له الأرض اهتزازاً عنيفاً ، فهدم القصور ، وخرب الدور ، وأمات المكذبين المعاندين ؛ فلما أصبحوا كانوا على حالة تبعث على الاعتبار والاتعاظ ، كانوا ميتين ، وأجسادهم على حالة تدل على ذلتهم حين فأجاهم العذاب ، فهم باركون على رُكبهم ، كأنما كانوا فى حالة تضرع وتوبة واستغفار ، ولكن كان أوان ذلك قد فات ، ولم يبق إلا العذاب والإهلاك .

٢ — ويذكّر الله نبيه محمداً أنه أهلك قبيلة عاد ، وهم قوم هود عليه السلام ، وأنه أهلك قبيلة ثمود ، وهم قوم صالح عليه السلام ، وكان إهلاكهم بعد أن بلغ كلّ قبيلة نبيُّهم ما أرسله الله به من دعوة إلى التوحيد ، وإيمان بالله واليوم الآخر ، وبالبعث والحساب ، والثواب والعقاب ، والجنة والنار ؛ والدليل على إهلاكهم الآثار التى بقيت بعدهم فى ديارهم ، يراها المسافرون للتجارة حين يمرون بها ؛ وهؤلاء الناس حسّن لهم الشيطان طريق الكفر والعناد والاستكبار ، فحادوا عن الحق ، وغرقوا فى متاهات الضلال ، مع أن الله منحهم عقولا يستطيعون أن يفكروا بها ، ليعرفوا أن أنبياءهم على حق فيما يدعونهم إليه ، وأنهم لا يريدون لهم إلا الخير ؛ ولكنهم لم يفكروا ، ولم يتعظوا ، فلم يؤمنوا .

٣ — ويخبر الله كذلك نبيه محمداً أنه أهلك قارون ، وكان من قوم موسى فبغى عليهم ، وأعطاه الله ثروة طائلة ، فطغى وبغى — وكانت نهايته أن الله خسف به وبداره الأرض ، كما تقدم فى سورة القصص ؛ وأهلك الله

كذلك فرعون الذى أرسل إليه موسى فكذّب به ، وناهض دعوته ، وعذّب بنى إسرائيل ، فمات هو وأتباعه غرقاً فى البحر ، وأهلك الله أيضاً هامان وزير فرعون ، الذى كان يساعده ضد موسى ، فبنى له قصراً شامخاً عالياً ليصعد فيه إلى السماء ، ليرى إله موسى ، فغرق كما غرق فرعون ، وهؤلاء الثلاثة جاءهم موسى بالحجج القوية ، الدالة على صدق رسالته على النحو الذى فُصل فى سور سابقة ، ولكنهم استكبروا فى الأرض ، وظنوا أنه من المهانة والإذلال أن يؤمنوا بموسى ، ويعترفوا بإلهه ، أو يتركوا مالهم من هَيْلٍ وهَيْلَمان ، ومن جاه وسلطان ، إلى الإيمان بما جاء به رجل من عُرض الناس مثل موسى ، ومثل هؤلاء لم يفلتوا من عذاب الله فى الدنيا ، ولن يفلتوا فى الآخرة .

٤ — وقد أخذ الله كل واحد منهم بذنبه ، وعذبه بطريقة خاصة به ، فقوم لوط مثلا أهلكهم الله بالريح العاصف ، وبما حملت الريح من حصى وحصباء ، وقوم صالح وشعيب أرسل الله عليهم الرجفة فأهلكتهم ، وقارون خسف الله به وبداره الأرض ، وقوم نوح وفرعون أغرقهم الله ، هؤلاء فى البحر وأولئك بالطوفان ، وهؤلاء الناس جميعاً هم الذين ظلموا أنفسهم بإصرارهم على كفرهم ، والله حين أهلكهم كان إهلاكه لهم على تكذيبهم رسله ، لأن الله جل جلاله لا يظلم أحداً ، ولكن عدله يقتضى أن يأخذ كُلاً بذنبه ، فأخذهم بالعذاب لكفرهم ومعاصيهم .

(٦)

من الآية ٤١ إلى الآية ٤٥ من سورة العنكبوت

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ ، كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ –١– . إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ –٢– . وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ –٣– . خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ –٤– اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ –٥– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أولياء	آلهة يعبدونها ، ويعتمدون عليها فى نصرتهم .
أوهن البيوت	أضعفها وأحقرها ، وأقلها فائدة لصاحبها .

الألفاظ	شرحها
وهو العزيز الحكيم	وهو القادر على الانتقام من المشركين به ، الحكيم في تدبيره .
نضربها للناس	نسوقها للناس لنوضح لهم ، ونكشف ما غمض عليهم ، ونقنعهم بها .
وما يعقلها إلا العالمون	وما يقدر فائدتها وحقيقتها إلا الذين يفهمون من أهل العلم ، وذوو الفهم الصحيح .
بالحق	لحكمة اقتضتها إرادته .
إن فى ذلك لآية للمؤمنين	إن فى خلق السموات والأرض بالحق ، لعبرة وموعظة للمؤمنين .
اتل ما أوحى إليك من الكتاب	اقرأ ما أنزل الله عليك من القرآن قراءة تفهم وتدبر .
وأقم الصلاة	وأدّ الصلاة فى أوقاتها ، مع المداومة عليها .
عن الفحشاء	الفعلة القبيحة المنكرة ، أو هى الزنا .
والمنكر	وأنواع المعاصى ، فكل معصية منكر .
ولذكر الله أكبر	ولذكر الله أكبر طاعة من أى نوع من أنواع الطاعات .
ما تصنعون	ما تعملون .

مجمل المعنى

١ — بيّن الله فيما سبق من الآيات أنه يهلك المشركين به فى الدنيا ، ويعذبهم فى الآخرة ، ثم ذكر بعد ذلك أن اتخاذ المشركين أصنامهم آلهة يعبدونها من دون الله ، كاتخاذ العنكبوت بيتاً لها ؛ فبيت العنكبوت

ضعيف واه ، لا يدفع حرًّا ولا برداً ، ولا يدفع باغياً ولا معتدياً ، وإنما هو بيت مهلهل ، تلعب به الريح ، فتفرقه شذر مذر ، وكذلك هذه الأصنام لا تجلب خيراً ، ولا تدفع شرًّا ، ولا تقدر على منح ولا منع ، فهى عدم ، وعابد العدم أحمق ، يضرّ نفسه فى الدنيا والآخرة ومن له أقل درجة من درجات التفكير ، يدرك أنه لا يجوز له أن يعبد صنما ، أو أن يتخذ لنفسه إلها يركع له ويسجد ، ويتذلل ويتضرع ، وهو من صنع يده ، والمعقول أن الإنسان يركع ويسجد لمن هو أعظم منه ، ومن كل مخلوق تقع عليه عينه ، ولا يمكن أن يصنع الإنسان بيده شيئاً ارفع منه مقاما ، لأنه لو أمكنه ذلك لكان هو به أولى ، ولأضاف الرفعة إلى نفسه ، بدل أن يضيفها إلى غيره .

٢ — والله يعلم قدر ما تشركون به من أصنام ، وهو وحده القاهر فوق عباده ، القادر على الانتقام من هؤلاء الذين يعبدونها ، الحكيم فى كل ما دبره وقدّره .

٣ — وهذه الأمثال يسوقها الله فى القرآن للناس ، لتوضح لهم ما انبهم عليهم ، وتكشف الغامض أمامهم ، وتقنعهم بما يساق لهم فيها من الدليل الواضح ، والبرهان الصحيح ، الناتج عن الموازنة الحسية ، أو المعنوية الدقيقة ، التى لا تدع مجالا للشك ، وتلك الأمثال إنما تساق لعقلاء الناس لينتفعوا بها ، ويستفيدوا منها .

٤ — والمطلوب من العباد أن يوحدوا الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما على أدق نظام ، وأحكم وضع ، ولم يخلقهما عبثا لغير غرض ولا غاية ، وإنما هى حكمة اقتضتها إرادته ، يعتبر بها ويتعظ عقلاء الناس ، الذين إذا فكروا فيها آمنوا به .

٥ — أمر الله بعد ذلك نبيه محمداً — والأمر له أمر لأمته معه — أن يقرأ القرآن الذى ينزل عليه قراءة تهجد وتعبد ، واعتبار واتعاظ ، لا قراءة ترديد للألفاظ ، بتحريك اللسان والشفاه من غير تعقل ، وأمره كذلك أن يؤدى الصلاة بحدودها المعروفة ، أداء لايكون مجرد ركوع ولاسجود ، وقيام وقعود ، ومجرد حركات شكلية محضة ، فيها رياء ونفاق ، وإنما تكون صلاة فيها خضوع وخشوع ، تسمو فيها الروحانية الصحيحة ، ويتجرد صاحبها من المادية التى غرق الناس فيها اليوم ، ويتمثل المصلى وهو يصلى جلال الله وهيبته ، وعظمته وقدسيته ، ولطفه وجبروته ، ورحمته وعظمته ، فينساب فى بحر النورانية الإلهية ، يتطهر فيه قلبه من أرجاس الدنيا ، ويتخلص وجدانه من شائبات الزخارف الزائفة ؛ فإذا انفتل من صلاته بعد أن أداها على الوجه الصحيح ، صغرت فى عينه الدنيا وما فيها ، ولم تخدعه زينتها ، وانصرف عن جميع الشرور والآثام كبرت أو صغرت ؛ ولعل من حكمة الله تعالى أن جعلنا نصلى فى اليوم خمس صلوات ، وهو — سبحانه — إذ شرعها ، فإنما أراد الصلاة الصحيحة المؤداة على حقيقتها ، وفى حدودها ، وإن تكرارها يجعل الإنسان فى عصمة من هواه ، وفى حصن من غواية الشيطان ، لأنه إذا بدأت نفسه تضعف أو تلين ، أدركه وقت الصلاة ، فإذا أداها قويت نفسه ، وعاد إليها إشراقها ونورانيتها ، فاستأنفت نشاطها الروحانى ، وكلما جاء وقت صلاة تجدد لها ذلك ؛ فعاش صاحبها حياته فى حصن من الطاعة ، وفى كنف الله ؛ وذكركم الله فى صلاتكم ، وفى قراءة القرآن ، أكبر طاعة ، فإن من داوم على ذكر الله لا يخالفه ولا يعصيه ، ويراقبه فى جميع تصرفاته ؛ والله يعلم ماتصنعون من ذكر الله ومن سائر الطاعات ، فيجازيكم عليها أحسن المجازاة .

فهرس الجزء العشرون من تفسير القرآن الكريم